الجيوش الإسلامية وحركة التغيير
في دولتي المرابطين والموحدين
(المغرب والأندلس)

د. فتحي زغروط
من التراث الأندلسي
الجيوش الإسلامية وحركة التغيير
في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)
تأليف
دكتور قتلي زغروت
المقدمة

1- أهمية الموضوع ودواعي اختياره.
2- منهج البحث.
3- دراسة المصادر والمراجع.
أولاً: أهمية الموضوع ودواعي اختياره

هذا الكتاب كان رسالة علمية تقدم بها كاتب هذه السطور ليلتح درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من قسم التاريخ الإسلامي في كلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان (الجيش في عهدي المرابطين والموحدين). وقد أجازتها اللجنة المستحقة للطالب عام 1982م بتقدير «ممتاز» فلله الحمد والمنة على هذا الفضل العظيم.

تأملت حال أمتنا العربية وماهي عليه اليوم، وما يعترضها من مظاهر الضعف والفرقة والتمركز والانحلال السياسي، وتحكم الدول الكبرى في مناقرات أمورها ومجريات حياتها، وقد هنالك هذا الوضع المشين وأحزمة حزنا شديداً فيت أفكر في أمر تلك الأمة التي شرفها الله على الأمم ولسانه حاليا يقول: أليس لهذا العبث من نهاية؟ تزيل عنها تلك الغمامة، فوالى من سيظل الوطن العربي مهد الحضارات ومهد الدينات تحب به أبابد الحقد والكراهية من يد إلى يد، ومن سوء إلى أسوأ؟

لقد جلت بخاطري وبان أقلب صفحات التاريخ باحثاً عن حقبة تاريخية لعلها تضيء طريقنا وتضع أقدينا على الدواء العكاس الذي نعمله، وتكون بلسمًا شافيًا لعلاج كل مشاكلنا. فقد توجد تلك الحقبة المضيئة وهي حقبة زمنية امتدت لما يزيد عن القرنين في المغرب والأندلس مهد دولتين «المرابطين والموحدين»، Kunstي بهأتين الدولتين تعيشان عهد الخلفاء الراشدين، إذ تميزت كل منهما بطابعها الإسلامي وجيوشها المسلمة الفعالة.

ماذا اتخذ البحث من دراسة جيوش المرابطين والموحدين هدفًا على وجه الخصوص؟

لأنها جيوش جيدة بالتأمل والدراسة فقد وجدت في الحقيقة التي عاشتها تلك الجيوش ضالاتنا التي بحث عنها، والمشل التاريخي الذي ينبغي أن يحتذى به، فإن جيوش هاتين الدولتين كانت الدعامة الأساسية والركيزة الكبرى التي حققت لمسلمي المغرب والأندلس حياة العزة والكرامة وأحرزت سلسلة من الانتصارات
الكولبي عجزت أعظم الدول عن تحقيقها على الرغم من قصر حياة دولة المرابطين، إذ لم تعمر إلا ما يقارب الثمانين عامًا. ومع ذلك فقد حققت نصر الزلاقة الكبير عام 479هـ ثم تلتها انتصارات مرتبطة أخرى مثل انتصار إفراغة وأفليش، ثم تلا ذلك انتصارات دولة الموحدين وخصوصاً نصر الأرك الذي هز أرجاء أوروبا، وكانت بلا شك تلك الانتصارات لحماية الكبرى التي أيقف زحف «الفونسو الثالث لاسترداد بلاد الأندلس»، وبدلاً من ذلك حافظت على رقعة بلاد الأندلس الإسلامية وحفظتها من التردي والضياع ما يجاوز قرون من الزمان.

وكان من أهداف البحث أيضًا الوقوف على طبيعة ونوعية تلك الدولة وجنونها وقوادها وأمرائها الذين اعتبروا دعوة الفقهاء وأحتجوا على الفكر الإسلامي في غفلتهم وأرواحهم، عاشوا بها وعاشوا لها ولا غرو في ذلك فهم أنباء الرباط المجاهدون في سبيل الله فقد انطلقوا من الرابطة بقيادة أميرهم وهم فقهاء نحو الصحراء الكبرى وبلاد السودان لنشر الإسلام الصحيح، ثم انطلقوا من مرحلة التنظيم والتكوين إلى مرحلة التمكين والسيطرة فاشتراكا حلقًا إسلاميًا قويًا أفضى في النهاية إلى مرحلة الدولة العظمى التي ضمت المغرب والأندلس.

إذن نحن أمام حركة عسكرية عقيدة جهاد في سبيل الله التي رفع شعارها المرابطون والموحدين فأكدت عليه في عيون الأمم وأثبتت حلل العزة والكرامة، فهي حركة عسكرية دعوية إصلاحية حملها كل رجالات الدولة، وعمل على تجديدها الرعيل الأول من حكام هائتين الدولتين.

وقد يقول قائل: ما جدوى الحديث عن جيوش وأنظمة عسكرية عفا عليها الزمان؟ وما جدوى السيف والرمح في مواجهة العسكرية الحاضرة المتميزة بأسلوبها العلمي والتكتنولوجى من طائرات وغواصات وصواريخ بعيدة المدى وقنابل ذرية وهيدروجينية وعنقودية وأسلحة دمار شامل إلى غير ذلك؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تذكرنا بما قاله بعض البحوث أن نهضة اليابان الحديثة إذ تسامل الكثيرون منهم عن أسباب تلك النهضة فكان أفضل تعليل لما وصلوا إليه هو أن سبب نهضة اليابان هو أن اليابانيين جمعوا في نهضتهم بين الماضى والحاضر، وبين الأصالة والتجديد، واكبر دليل على ذلك أنك إذا زرت مصرًا من مصائر المالية في اليابان وجدت التعامل فيه بالتكنولوجيا الحديثة ولا
مجال للتعامل اليدوي متعلقًا، فالرائد للك المصارف يقضي مطلبه بسهولة وبسرعة فائقة ولكن الأدهش من ذلك أن موظف البنك حينما ترجع إليه لاستبدال عملة أو مراجعة حسابات فإنه يهرب إلى عداد خشبي قديم يسمى "السوريان" ليجري عليه الحساب الخاطئ، وهذا العداد عبارة عن قطع خشبية كان يستخدمها التلاميذ فيما مضى ليتدربوا على العمليات الحسابية ولكن ما هدف ذلك الموظف من أن يجري الحساب الخاطئ على السوريان على حين أنه لديه الآلات الحاسبة الجديدة؟

إنه بلا شك ذلك التراث العزيز عليه، فهو يريد أن يشير إلى أنه يتق في تراشته كما يتق في حاضره، وأنه لولا ماضيه ما كان حاضره، لذا تراهم يغفلون دائمًا قطعة من الآلات الجديدة ويجابهها قطعة أخرى من القديمة ويجمعونها جنبًا إلى جنب في معارضتهم لليهود الزائرون، فلا جديد إلا بالماضي ولا نهضة إلا بجمع الاثنين معاً.

وهكذا عسكريتنا وتراثنا العسكري وسيوفنا ورامعنا، فلا بد أن نثق فيها كفتنا بالطائرة والصاروخ والدبابة، فالإنسان العربي هو الإنسان العربي، الذي استخدم السيف واستخدم الطائرة والฤดودة هي العقيدة، بينما الذي اختلف هي أدوات الحرب ووسائطها.

لذا كان من الأهداف القصوى للبحث بث الثقة بتراثنا العسكري عند الشباب المسلم فإن ثقة الآباء في ثور الآباء وفي بطولاتهم الرائعة وفيما أحزرهم من انتصارات إنها هو الزاد القوي الذي يلاقوهم أملًا في الحاضر وطموحًا في المستقبل.

ولقد أدرك المستعمرون وبعض أذنابهم من المستشرقين أهمية ذلك الأمر وخطرته، فحاولوا تطهير تراثنا العسكري أو تشويهه لتغييب القوة والمثل الأعلى، ولإحداث هوة عميقة بين جيل الآباء وجيل الآباء فتضعف اليد التي تحمل السلاح ولا تقوى على الوقوف ومجاهدة العدو وتتفق تمامًا مدلول الرمي الذي فسره الرسول ﷺ حينما تلا قوله تعالى: "أؤدوا أثرهم ما استعملهم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم" (الأنفال: 10) فعقاب ﷺ قال تعالى: "ألا إن القوة الرومي، ألا إن القوة الرومي، ألا إن القوة الرومي، قالها ثلاثاً، وما العسكري الحديثة إلا رمي كلامي قديمًا مع
اختلاف الوسائل، فالرقم قديمًا كان بالسهام والنبال والرماح، أما اليوم فإن الرمية أصبح بالقنابل والصواريخ والمدفعية، إذن الرمي هو الرمي لكن العبرة بالبيان القوية التي تزم وتفن تسد تلك البد قوتها إلا من وصل الماضي بالحاضر ولا سبيل لآية نهضة بدون ذلك.

وما هو جدير بالذكر أن نشير إلى الدراسات التي سبقت هذه الدراسة، فمن الواضح أنه لم يتعرض أحد من الباحثين في بحث مستقل عن النواحي الحربية في إحدى هاتين الدولتين أو كلاهما معًا أو يجمع شتات الموضوع في مؤلف واحد يتناول بالدراسة والبحث تلك الجيوش من كافة نواحيها، فأغلب الكتبات التي جاءت كانت مجملة لا تعتني بوضع وريقات تعتبر تتمة للتحديث عن النظام العام للدياتين الدولتين، وإن كانت هناك بعض المحاولات الجادة في الدراسات العسكرية حديثًا فقد كانت مقصورة غالبًا على التاريخ العسكري للشرق الإسلامي.

أما التاريخ العسكري للمغرب الإسلامي فقلما تعرض له أحد من الباحثين سوى مؤلف واحد هو اللواء جمال الدين محفوظ في كتابه "قادة الفتح العربي" وهو الكتاب مكون من جزءين تحدث في الجزء الأول عن قادة الفتح في الغرب الإسلامي وتناول في الجزء الثاني الحديث عن قادة الفتح في المغرب الإسلامي.

وقد جاء هذا الكتاب سردًا تاريخيًا لبلاد المغرب منذ الفتح العربي الإسلامي متعرضًا فيه لترجمة وافية لسير الأبطال والمقدور مثال موسى بن نصير وعقبة بن نافع وغيرهما، وقد غفل المؤلف أيّة دراسة فنية لنظام الجيوش المغربية كما لم يتعرض للنواحي الاستراتيجية أو التكتيكية لمعارك المغرب الإسلامي، ولم يشر من قريب أو من بعيد لأيّ ناحية من النواحي العسكرية لدولتي المرابطين والموحدين، من هنا جاء بحثنا هذا متداركًا لسد هذا النقص، وأدعو الله أن يقبول منا وأن يعين الباحثين في الانتفاع به في مجالات التاريخ الإسلامي العسكري.

(1) مثل كتابة شكري أبوذلال في كتابه "تاريخ غزوات العرب"، وإحسان هندي في كتابه "الحياة العسكرية عند العرب"، والأساتذة أحمد شوقي الضابط في كتابه "فن القيادة"، والأساتذة جمال الدين عبيد الضابط في كتابه "نظم الحرب في الإسلام"، والاستاذ عبد الرؤوف عون في كتابه "الفن الحربي في مدرسة الإسلام"، والاستاذ نعيم ثابت في كتابه "الغزوة في الدولة العباسية".
ثانيًا: منهج البحث

وقد خطا البحث نحو تحقيق هذه الأهداف خطوات واسعة ظهرت من خلالها النتائج منتشة في ثناياه مدعمة بالأدلة والبراهين. ومن تمام الحديث عن منهج البحث أود أن أبدي عدة ملاحظات كان لها تأثير كبير في تشكيل منهج البحث:

1 - ركز البحث على دراسة حركية متناسية لأوضاع الجيوش في دولتي المرابطين والموحدين وما يستلزمها من دراسة شاملة للأوضاع العسكرية والنظريات الحربية، وكذلك العقيدات العسكرية التي أشردت مجالات تلك الجيوش وأذكت حماستهم للدفاع عن القضية الإسلامية والتعامل مع الشعوب غير المسلمة المغلوبة باقامة الرفق والتسامح وقد فاقت في عدلها وسموها الإنسان ما ندعو إليه الأمم المتحدة اليوم وما تشذبه بعض الدول في مجال القانون الدولي وقضايا الحرب.

2 - أما عن الفترة الزمنية التي تستغرقها دراسة موضوع هذا البحث فإنها تستغرق من الوقت والزمن قراءة ماتيتين وأربعة عشر عامًا تبدأ من عام (542 هـ ) وهو عام تأسيس مدينة مراكش وإعلان قيام دولة المرابطين حتى عام (1261 م) وهو عام سقوط دولة الموحدين التي أعقبت دولة المرابطين في الحكم، هذا وإن كانت هذه الحقبة قد استغرقت أحداث دولتين هما «المرابطين والموحدين» فإن الرقعة الجغرافية للبحث قد اتسعت فشملت بلاد المغرب: تونس والجزائر والمغرب الأقصى والصحراء الكبرى وبيلاد السودان حتى حوض السينغال، كما امتدت تلك الرقعة شمالاً إلى بلاد الأندلس الإسلامية فهي لا شك رقعة فسيحة ممتدة الأطراف متباينة الأماكن والبقاع. وإذا كانت تلك الحقبة التاريخية التي أشرنا إليها سابقاً وشملت الدولتين معاً والتي جاورت القرنين «الخمسين والسادس الهجري» العاشر والحادي عشر «الميلاديين» فإن الباحث يعتبر تلك الحقبة فترة زمنية واحدة شملت الدولتين معاً مخالفة بذلك عادة المؤرخين الذين دأبوا على أن يؤخروا لكل دولة على حدة.
وأما يؤيد رأي الباحث فيما ذهب إليه:

أ - إن المغرب والأندلس شهدتا وحدة سياسية لأول مرة في عهد هاتين الدولتين حيث استطاعت دولة المرابطين أن تضم كلاً من المغرب والأندلس في دولة واحدة لأول مرة في التاريخ وتجلى من "مراكون" في "المغرب" قاعدة الملك بينما كانت الأندلس ولاية تابعة لآخر المرابطين ومثل ذلك حينما جاءت دولة الموحدين وسيطرت على المغرب وقضت على دولة المرابطين ضمتها إليها الأندلس واستولت على مالك تلك الدولة الذهية وبقيت الوحدة قائمة بين المغرب والأندلس في عهد الموحدين أيضاً.

إذن هذه الظاهرة السياسية وهي التي شهدتها بلاد المغرب والأندلس قد حققت ما يسمى بوحدة التاريخ أو الاستمرار والتسلسل فيه لأنه يصعب على الباحث تقسيم التاريخ إلى فترات تبدأ وتنتهي في سنين معينة، فمثلاً مدينة وانهاء دولة كدولة المرابطين وتأججها دولة الموحدين مثلاً قد يسبب تغيير حكومة أو تعدل نظام من أنظمة الحكم ولكن تبقى الظواهر الكبرى الفنية والمؤثرات العميقة سارية بين شعبي المغرب والأندلس.

والمتأمل لكثير من آلات الحرب والعمارة الحربية من تحصينات يجدها ذات نمط واحد كالأسوار والأبواب ذات المرفق الواحد والمرافق المتعددة والقلاع والحصون و أغلب العمارة الحربية أو عمارة التحصينات.

ب - كما أن هناك ظاهرة أخرى ساندة في تاريخ هاتين الدولتين هي أن ذلك التاريخ يعتبر تطويراً في المقام الأول لتاريخ المغرب الكبير بمساحاته الشاسعة كما قلنا سابقًا ولا يقل أهمية تاريخ الأندلس سوى حيزة وإن كان غير سبيط بمعيار مسرح المعارك العسكرية حيث كانت الأندلس في تلك الوقت ولاية مغربية داخل الدولة الإسلامية الكبرى المرابطية الموحدية، وقد خرجت جيول هاتين الدولتين إلى ذلك المسار لصد حملات الصليبيين التي توافدت على الأندلس من معظم أرجاء أوروبا، وقد انصبهرت زهرة شباب هاتين الدولتين في الدفاع عن تلك الأرض وقد أضطرت نفوسهم بفكرة الجهاد في سبيل الله فهم رجال محاربون ومجاهدون في سبيل الله فلا غرابة أن يكون الجهاد هو أسمى أمانيهم.
وتوفر الفرض الذي فرضناه سابقاً وهو جعل عصر المرابطين والموحدين عصرًا واحدًا هو ذلك التشابه الدقيق بين الدولتين فهما: حركتا إصلاحييتان مغربية اعتمدت كل الاعتماد على التحالف القبلي المغربي، كما أن الدعوتين قام بكل منهما في قوة وداعية مغربية، كما أن لكل من الدعوتين مهجة إصلاحية وحركة تغير أدت في النهاية إلى قيام دولتين الأولى دولة المرابطين والحركة الثانية أدت إلى قيام دولة الموحدين، كما أن كلاً من الدولتين قد اعتمدت فكرة الجهاد في سبيل الله التي قلناها سابقاً ورحب في جيوشها لنصرة مسلمي الأندلس، فكلا البلدين واجه الحملات الصليبية في الأندلس، ففعل هذا التشابه الكثير في أوضاع الدولتين يقوى هذا الفرض الذي فرضناه سابقاً وإن كان ثمة اختلاف بين الدولتين فكان اختلافًا غير مؤثر بدرجة كبرى.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومدخل تاريخي وعند أبواب وخلاصة على النحو التالي:

المدخل التاريخي

يحدث هذا المدخل عن خلفية تاريخية توضح قيام كل من دولة المرابطين والموحدين، وحقيقة مهتهم الإصلاحية ومصادره وسماته وكذلك حركة التغيير عند المرابطين والموحدين ثم أوجه الاختلافات والموجبات بين الدعوتين: المرابطية والموحدية إذ انعكس طبيعة كل دعوة ومنهجها على رجالها وقادتها وجندها ووصفته الطبيعة العسكرية بصيغتها.

الباب الأول: "نشأة الجيوش في دولتي المرابطين والموحدين"

يتحدد هذا الباب إلى ثلاثة فصول تتحدث عن نشأة الجيوش المرابطية والموحدية كالآتي:

الفصل الأول: يتحدث عن نشأة جيوب المرابطين وتطورها في ثلاث مراحل هي مرحلة التنظيم والتمكين والدولة العظمى.

الفصل الثاني: يتحدث عن نشأة جيوش الموحدين وتطورها في مراحلها الثلاث كما ذكروا عند المرابطين.

الفصل الثالث: يتحدث عن شروط التجنيد في الدولتين.
الباب الثاني: "تشكيلات الجيوش وتنظيماتها وشؤونها الإدارية"

وينقسم هذا الباب إلى أربعة فصول تتحدث عن صنوف الجيش وعناصره البشرية ونظمه كالتالي:

الفصل الأول: صنوف الجيش وتشكيلاته من حيث العناصر البشرية ودورها في حياتي السلام والحرب.

الفصل الثاني: يتحدث عن النظام الدائم لكتاب الجيش وتشكيلاته في جيوش المرابطين والموحدين.

الفصل الثالث: يتناول فيه الباحث الحديث عن الألمسة والألوية والرابيات ومظاهر جند وصحتهم وشوارعهم والموسيقى واستعراض الجند وحرب الخص.

الفصل الرابع: وقد خصصه الباحث لدراسة الشؤون الإدارية في الجيوش، ويتناول قضياء الأغليات والإطعام والإسكان ودور الأضلاع المشرفة على هذه الأمور وغيرها.

الباب الثالث: "أسلحة القتال في الجيشين"

تعرضنا في هذا الباب لدراسة أسلحة القتال المستعملة في الجيوش المرابطة والموحدة، وقد قسمنا هذا الباب إلى فصول كبرى هما:

الفصل الأول: يتحدث عن أسلحة القتال الهجومية سواء الخفيفة ومنها أو الثقيلة.

الفصل الثاني: يتحدث عن أسلحة القتال الدفاعية التي تنقسم إلى وسائل دفاع خفيفة مثل الدرع والجيش والمغفر والمطر والترس إلى آخرها، ووسائل دفاع ثابتة وهي التي توقعها فيها المرابطون والموحدون مثل إقامة الحصون والقلع والأسوار والأبواب ذات المرافق المعقدة، وقد تركز الحديث حول رباط "ابن ياسين" محضن دعاة المرابطين، وحصن يشتم "محصن دعوة الموحدين".

الباب الرابع: "نظم التعبئة في جيوش الدولتين"

وقد أفردنا في هذا الباب لدراسة نظم التعبئة وتنظيم القوات، وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: يتحدث عن التدابير التحضيرية لقتال الهجومي وهو مرحلة ما قبل المعركة، وتناول حشد القوى والمسير إلى القتال وحفظ الأسرار في العمليات العسكرية، وثبت العيون والجراسات وغير ذلك.
الفصل الثاني: ويتناول مرحلة إدارة المعركة وتوجيه القوات أثناء سير القتال ويطلق عليها المرحلة التكتيكية، وتتناول مجلس الحرب دور الطائرات في المعركة - اختيار موقع المعركة - أنظمة التعبئة، وقد أثبت البحث تعبئة جديدة لعبد المؤمن بن على الموحدى يطلق عليها مربع عبد المؤمن.
الفصل الثالث: ويتناول مرحلة ما بعد المعركة والمشكلات الناجمة عنها مثل مشكلة الأسرى وفرض الجزية وتوزيع الغنائم والعلاقات السلمية السياسية الناجمة عن الحرب مع المرابطين والموحدين من جهة وبين أعدائهم النصارى من جهة أخرى.

الباب الخامس: «الأساسائل البحرية لدولتي المرابطين والموحدين»

ولم يغفل البحث أهمية الأساسائل البحرية باعتبار أنها القوة المساندة للجيوش في حصارها للساحر البحرية، فهي ليست من صميم البحث ولا هدفًا أساسًا فيه، لذا تحدثنا عنه بصورة مختصرة في ثلاثة فصول هي:
الفصل الأول: نشأة البحرية في دولة المرابطين.
الفصل الثاني: نشأة البحرية في دولة الموحدين.
الفصل الثالث: المعركة البحرية وإدارتها وأسلحتها.

الباب السادس: «دراسة مقارنة لبعض المعارك»

وقد أفردنا هذا الباب لإجراء دراسة مقارنة للجيشين المرابطي والموحدى عن طريق دراسة معركة هامة لكل منهما، الأولى معركة الزلاقة المرابطية والأخرى معركة الأرك الموحدة، وقد كشف البحث عن أوجه تشابه وتبان بين الجيشين في كثير من النواحي وقد تناول هذا الباب النقاط التالية:

أولاً: من معارك المرابطين: معركة الزلاقة.

ثانياً: من معارك الموحدين: معركة الأرك.

ثالثاً: المقارنة بين المرابطين.

رابعاً: مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين.

خامساً: خصائص الحياة العسكرية لدولتي المرابطين والموحدين.
ثالثًا: دراسة المصادر والمراجع

إن المصادر والمراجع التي خدمت هذا البحث كثيرة ومتنوعة، بعضها أسهم بمداده في تأليفها، وبعضها أفذادها إفادات متنوعة من قريب أو بعيد دون أن يكون مصدرًا أساسيًا لها. وقد تتنوع هذه المصادر ما بين مخطوطات ومصادر عربية قديمة ومتارجح حديثة وكتب معرية وأجنبية.

ويمكن لنا تقسيم هذه المصادر إلى:

أ- مصادر عسكرية:

ومنها مخطوطات خدمت البحث من الناحية الحربية الفنية وبالرغم من أن هذه المخطوطات قد أصدتنا معلومات قليلة إلا أنها كانت ذات قيمة علمية كبيرة من حيث استعمال الأسلحة وتوزيع النخبة المختلفة والتدابير التحضيرية للقتال الهجومي وغير ذلك، ومن هذه المخطوطات:

1- «خطة المجاهدين في العمل بالمياذين» تأليف لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي (738هـ - 1337م) وهو مصور بالجامعة العربية (902).

ويتحدث عن ركوب الخيل، والمحاكم الحربية وإدارة الحروب وعلم القتال.

2- «الفتحة و التصصيرة لكل رم مبتدئ أو ماهر. تخريج بأعمالهم الطويل أو القصير» تأليف/ عبد الله بن ميمون بن عبد الله، من رجال القرن السابع أو الثامن الهجري. مصور بمجهود إحياء المخطوطات بالجامعة العربية (1213).

3- «مختصر في سياسة الحروب» وهو من الكتب الحربية في الدولة العباسية تأليف/ الهرمي، من رجال الحرب في عصر المأمون وهو مصور بالجامعة العربية (844).

وقد جمع في هذا الكتاب نبذة مفيدة في الشروط الحربية من الناحية التكتيكية والاستعداد للمعركة، والعمل عند قيام الأعداء وأورد كثيرًا من النصائح التي تهم القواد والجنود، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب في بعض نواحي البحث.

4- «آثار الأول في تدبير الدول» للحسن بن عبد الله بن محمد العباسي، وقد ألف هذا الكتاب سنة 383 هـ، وهو مخطوط بالمنشأ الحربي بالقلعة (ب رقم 1305 م).

ومنشور على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة مصر.

14
وبالرغم من أن هذا الكتاب مشرقي إلا أنه أفادنا كثيرًا في الحديث عن أسلحة القتال وخاصة أسلحة الخصاح وكيفية أقضام الخص، واستغفنا منه أيضًا في الحديث عن المعارك البحرية والأساطيل.

ومما يجدر الإشارة إليه أنه للندرة المصادر المغربية في الناحية العسكرية فقد اعتمدنا على هذه المصادر وخاصة المتأخرة منها وإن كانت مشرقة الأصل فهي قريبة من عصر المرابطين والموحدين، وقد رأينا أنه لا يوجد فرق كبير بين هذه النظم والنظم الشرقية مدعمين رأينا هذا مما ورد من نبذ وحقائق حربية متفرقة في ثنايا كتب التاريخ الخاصة بصغرى المرابطين والموحدين. ومن المصادر العربية القديمة التي أفادت البحث من النواحي العسكرية أيضًا:

- "الغابة من رفع الراية" لأبي عبد الله بن عباس المرجاري، الطبعة الأولى (1372 هـ - 1953 م) وقد أفاد البحث في استعمال الألواح والرايات في جيوش المرابطين واستعمال مشارات الملك الخاصة بالسلطان واستعمال الطبول وغير ذلك.

- "حليمة الفرسان وشعام الشجعان" تأليف/ "علي عبد الرحمن بن هزيل الأندلسي" تحقيق/ "محمد عبد الغني حسن" الكتب السادس من ذخائر العرب طبعة دار المعارف، وقد أفاد البحث في الحديث عن فرق الفرسان وتشيكلاتها المختلفة.

ب- مراجع عامة أفادت البحث في نواحي مختلفة منها:

1- مراجع تاريخية وضعت في تاريخ المرابطين والموحدين من قبل المغاربة والأندلسيين ومن أهمها:

- كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري المراكشي (القسم الثالث) (المتوفي في القرن السابع الهجري) ويمكن اعتبار هذا الكتاب من أعظم الكتب التي تناولت أخبار الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب اعتمادًا كبيرًا في الحديث عن أخبار دولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، وصور لنا تلك الفترة الانتقالية خير تصوير لأحداثها المتشابكة ثم اتفقنا به في الحديث عن معركة الأرك الموحدية وبعض المعارك الأخرى. ويتلاذب مؤلف هذا الكتاب بالحيدة الناطمة في إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص.
- "سرائع الملوك» لأبي بكر الطليسي ت سنة 62 هـ وهو مؤلف أندلسي معاصر لقادوم المرابطين إلى شبه الجزيرة الأندلسية وقد اتفقنا بهذا الكتاب في الحديث عن أنظمة التعبيع المختلفة لجيوش المرابطين واستخدام نظام الزحف وأعمال المرابطين القتالية وأسلوبهم المختلفة.
- "المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب» لأبي عبيد البكري (748 هـ - 979 م) وقد استفاد البحث بهذا الكتاب في الحديث عن رباط "عبد الله بن ياسين" وأسلوب معيشة أهل الرى وطرائقهم الأولى في القتال.
- "فتح الطيب من غصن الأندلس السريع وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" للمقري النمساني ت (1441 هـ - 1371 م) وقد استفاد هذا الكتاب بإيراد معلومات مهمة عن تاريخ الأندلس، وقد أفضت الحديث عن معمرة الزلاقة واستقدمت منه في ذلك المجال.
- "البر والدين منبدأ و الخبر» الجزء السادس، ومقدمته التاريخية المعروفة لأبي خلدون ت سنة (808 هـ - 1405 م) فقد استفاد منها البحث استفادة عظيمة في دراسة العناصر البشرية لدولتي المرابطين والموحدين، وكذلك في الحديث عن النظام العسكري الشائع في المغرب وعن بعض المعارك المختلفة لهاته الدولتين.
- "الحمل المشوق في ذكر الأخبار المراقبة» مؤلف مجهول وقد استفاد هذا الكتاب بإيراد بعض الحقائق الحربية منبثة خلال فصول الكتاب، وقد استفاد بها البحث أكبر استفادة ومكن أن يلاحظ القاري ذلك من خلال هواش البحث.
- "المجهول في تلخيص أخبار المغرب» "العبد الواحد المراقب» ت سنة (1447 هـ - 1249 م) وهو يعد شاهد عيان للأحداث التي جرت في عصر الموحدين ومن المقربين للمبلاط الموحد، وقد كثر الاستشهاد من هذا الكتاب في سائر البحث لما يتميز به من الصدق والإنصاف في معظم رواياته.
- "نظم الجماه لترجم ما سلم من أخبار الزمان» "ابن القطن" وهو "علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى" ت سنة (118 هـ - 13 م) وقد استفادنا بالجزء الذي أشترى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد من أرملة المستشرق الفرنسي "ليفي بروفينسال" وحققه الدكتور "عمرو علي مكي" سنة 1972 م، وهذا الجزء يحمل أحداثًا هامة.
 وخاصة الفترة التي ظهر فيها "المهدى بن تومرت" و"عبد المؤمن بن علي" وتحدث عن المعارك التي دارت بين المرابطين والموحدين في مراحل نهاية الدولة المرابطية.

- "الأنيس الطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" للإمام ابن عبد الله بن أبي زرع الفاسي ت (الثاني) 1326هـ - 1426م.
- ويسير المؤلف على طريق سير الأحداث دون تقييد بالحدود في بعض الأحيان، وفي بعض الحالات يلتزم بها كما جاء في حديثه عن تاريخ المرابطين والموحدين.

ويبدأ الكتاب من سنة 162 هـ بذكر الدولة الإدريسية وينتهي عند أحداث سنة 726 هـ.

وقد استندنا من هذا الكتاب استفادة كبيرة في حديثه عن نشأة الدولة المرابطية في عهد "يوسف بن تاشفين" ومرافع تأسيس جهينة وجوازه إلى الأندلس وهزيمته للنصاري في معركة الزلاقة، وانفعنا به أيضًا في الحديث عن غزوات "المهدى بن تومرت" و"عبد المؤمن بن علي" وتأسسه للأسطول الموحد.

وكذلك أفادنا هذا الكتاب في دراسة معركة "شترين" التي استشهد فيها "يوسف بن عبد المؤمن" الخليفة الموحد.

2- كتب التاريخ العام التي انتفع منها البحث وهي كتب مشرقية ومنها:

- "الكامل في التاريخ" (الثاني) (130 هـ - 1323 م) وهو كتاب مغربي اهتم بتاريخ المغرب، ويعد من أحسن المؤلفات التي ظهرت في الشرق وإن كان بصورة مختصرة.

- "صح الأعشى" (القفشند) ت (821 هـ) وقد استندنا من هذا الكتاب في الحديث عن موضوع لباس الجنود وزيتهم الحربي والرابيات والألية والموسيقى والاستعراضات والتدريبات الحربية للجيوش، وكذلك في التعرض للدراوس المختلفة المشرفة على الجيوش من الناحية الإدارية. واعتمد عليه البحث أيضًا في دراسة تشكيلات جند الموحدين وطريقة مسير السلطان بجنبه إلى الحرب.

3- كتب السنة المختلفة ومنها استفاد البحث في النواحي الفقهية والشرعية:

- كتاب "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضه رسوم الدولة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات الشرعية لأمهات مسائلها المشكلات" المعروف "بمقدمات ابن رشد".
وكتاب "بداية المجتهد ونهاية المتصد" والكتابان لابن رشد آبي الوليد محمد أحمد الفقيه الإمام سنة 520 قاضي جماعة قرطبة وكان معاصراً للمرابطين.
- "فتح البارى بشرح البخارى" لابن حجر العسقلاني ت (520 هـ - 1421 م).
- "رياض النفوذ" لابن بكر عبد الله المالكي ت (453 هـ - 1061 م).
- "الخراج" لابن يوسف ت 182 هـ.
- "أعز ما يطلب" "موطأ الإمام المهدى" للمهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدين (524 هـ - 1121 م). وقد استندنا من هذا الكتاب في بيان توزيع العنانين بين الجند والدولة ومعاملة الأسرى، وكذلك في مسألة التسجد وشروط الإناجاح بالجيوش.

ج- مراجع عربية حديثة استفاد منها البحث من الناحية العسكرية أهمها:
"القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط" للدكتور "إبراهيم العدوو".
"الفن العربي في صدر الإسلام" للعبد الرؤف عون.
"السلاح في الإسلام، والألوية وشات الملك" لعبد الرحمن زكي.
"الدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية" لجمال الدين محفوظ.
"الواء جمال الدين محفوظ"، المدرسة العسكرية الإسلامية "للعقيد/ محمد فرج". هذه الكتب استندنا بها من الناحية العسكرية فقط.
أما باقي المراجع الثانوية العربية والمغربية والاجنبية والمجلات والأبحاث فيمكن الإطلاع عليها من نصت المصادر والمراجع. ومن خلال هؤلاء البحث فقد يضيق المقام عن ذكرها في هذا الموضوع.

أما بعد، فلعلنا في هذه العجالة يكون قد اتضح لنا أهمية هذا الموضوع في مجال التاريخ العسكري الإسلامي، وإنها لدعوة لأجيالنا من الباحثين كي يتقوا عن المزيد من البحث والدراسة لتنبرز للعالم طيبة عقيدتنا العسكرية وأثرها في بناء الرجال والأوطان، والحمد لله على ذلك. إنه نعم المولى ونعم النصير.

دكتور فتحي زضروت
كاتب وباحث إسلامي
الشرقية في 5 /1/2005م
مدخل تاريخي

من هم المرابطون والموحدون؟

إن أمتنا العربية بجناحيها الشرقي والغربي قد واجهت قوى الصليبيين في مصر والشام من جهة وفي المغرب والأندلس من جهة أخرى، وقد قيض الله للمسلمين من يجمع صفوفهم ويوحد كيانهم وينقود المسلمين من نصر إلى نصر، فكان البطل المجاهد "صلاح الدين الأيوبي" يتصدى لتلك الحملات في الشرق الإسلامي، والذي حقق انتصاره الرائع في معركة حطين، بينما قاد المسلمين في المغرب والأندلس البطل "يوسف بن تاشفين" زعيم دولة المرابطين ومن بعده البطل "عبد المؤمن بن علي" و"أبو يعقوب المنصور" من خلفاء دولة الموحدين.

إذا كان لنا أن نأخذ العظمة من التاريخ لنضف به حاضرنا ونتحدد به أبعاد مستقبلنا فلتقف وقفة تأمل وتدبر للفكرة الجهاد التي قامت عليها هماد الدولة حيث تمكن جيوش المرابطين والموحدين من إنقاذ مسلمي الأندلس في فترة حزمة تعرضت فيها دولة الإسلام للإبادة والموت المحقق.

فقد كان حال الأندلس الإسلامية بعد سقوط الخلافة الأموية في تمزق وتفسخ وانحلالية سياسي حيث توزعت البلاد إلى دولات يحكم كل واحدة منها ملك استبد بنفسه في الحكم وهو ما يعرف بعصر الطوائف، وله هذا الوضع يشایه أوضاع أنظمتنا العربية اليوم حيث استبد كل حاكم برأته وأصبحت الأنظمة العربية كالأIVING ANظمة شمولية مستبدة متنافرة فيما بينها، والعجب أن هذا التشابه الدقيق بين حال الأندلس وحال مسلمي الأندلس آنذاك قد وصل إلى ظاهرة سبأ في تاريخ أمتنا وهي الاستعانة بالاجنبي، ومحاولة إرضائه وكسب وده، فقد كان أمراء الطوائف بالأندلس يستعينون بالفونسو السادس عدوهم مما جعله يستخف بهم ويلبأ أحدهم على الآخر ويرهقهم بالضجائر البائدة ويخاصر المدن ويشغلهما في حروب مستمرة، فأخذت مدن الأندلس تتساقط في يديه تباعًا باذلا كل جهده لا استرداد أرض الأندلس كلها من أيدى المسلمين، ولا يغيب عن
بالنها ما نراه اليوم من استعانة حكام العرب بأمريكا وبعض دول الغرب مما كان سببًا في فرض الهيمنة الأمريكية والأجنبية على العالم العربي حكماً وشعوباً بإرهاب السلاح واحتلال الشعوب تارة والغزو الفكرى وبرامج الإصلاح المزعمه تارة أخرى، ونسا في مجال الإفاضة في هذا الحديث لكن ينبغي أن نعلم كيف كان العلاج وكيف خطا التاريخ خطواته وانشال أمة الأندلس إلى حين على أيدي المرابطين والموحدين قبل أن تغرق وتضيع إلى الأبد.

لقد قضى الله لسلمى الأندلس آنذاك دولة فتية هي دولة المرابطين والتي نشأت على فكرة الجهاد في سبيل الله، ولا عجب أن تكون تلك الفكرة هي عماد دولة المرابطين وقوامها الرئيسي. فقد نشأت تلك الدولة في رباط يسمى رباط "ابن ياسين"، فكان أقامه الداعية والفقه المكي الملك "عبد الله بن ياسين" في حوض نهر السنغال في جنوب الصحراء المغربية بعدما قام عليه المسلمون وطردوه من بلادهم وقد بدأ ذلك الرباط بساعة أفراد أخلصوا الطاعة لذلك الفقيه ثم بدأت تتوافد عليهم الجماعات تلو الجماعات من المغرب ومن السودان وغيرهم، وقوم "ابن ياسين" بتشييعه نشأة خاصة داخل ذلك الرباط إذ يحفظ القرآن ويعلمهم الفقه الملكي والسيرة النبوية وصلون الفروض جماعة ويدرهم تدريباً عسكرياً ويعيشون عيشة مستقلة داخل الرباط، إذا ما وصل عددهم ألفاً خرج بهم إلى القبائل يدعوهم إلى الدخول في تلك الدعوة ويبين لهم ضرر البذع التي كان يعيش فيها المجاعة آنذاك إذ كان يغص المغرب بكثير من النحل والملل التي هربت من المشرق وجاءت لثبت سمومها في تلك البيئة الطيبة.

وبعد عدة غزوات تمكن المرابطون من بسط نفوذهم على المغرب كله وتأسيس عاصمتهم "مراكش" عام 54 هـ (1262 م).

وقد سمع أمراء الأندلس بتلك الدولة المجاهدة الفتية فماذاك يفعلون وقد ضاقت ذرعاً وساءت أحوال بلادهم بسبب عدوان ألبونة وعزمهم على استرداد بلاد الأندلس وخاصة بعد سقوط طليطلة واحتراقه لأراضي أشبيلية وطليوس وإرهاهم بالأموال المطلوبة.

20
وقد كانت فكرة استنكار مسلمي الأندلس بالمرابين في المغرب أملًا يداعبهم إلا أنها وجدت معارضة، فقد كان ثمة ملوك من الطوائف يخشى عواقبها ويحذر ابن عباس ملك "أشبيلة" صاحب فكرة الاستنكار من عواقبها ولكنه أصر على الاستعانة بالمرابين ورد عليهم بكلماته المثورة (راعي الجماعة خير من راعي المخازن) يقصد بذلك أن الأفضل له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جمالهم من أن يغدو أسيراً ملك قشتالة النصارى.

ويبدو من كلام ابن عباس اقتناعه بأهمية الاستناد للفرس والمرابين وأنه رأى أن شبح السقوط واقع لا محالة، وإذا كان الأمر كذلك فإن يقع في أيدي المرابين أفضل من أن يقع في أيدي النصارى عملاً يقول "على بن أبي طالب" (إذا كنت مأكولاً فكن أنت أكلامي).

وسرعان ما خف المسلمون المغبر من المرابين لنجدة إخوانهم المسلمين في الأندلس وحققوا نصرًا رائعًا في معركة الزلاقة عام 1479 هـ - 878 م، وهي معركة مشتركة ضد الصليبيين الذين توافدوا من أراخون وسكونية وحشد كبير من فرسان فرنسا وإيطاليا وغرب أوروبا جاءوا جميعًا بمجاهيلهم لهزيمة المسلمين، ثم توالى انتصاراتهم في معركتي أقليش 105 هـ وتوقيع إفراغة 106 هـ ثم أعقبتهم جيوش دولة الموحدين التي حرفت نصرها الرائع في موقعة الأرك عام 191 هـ.

وبذلك الجهاد العسكري لأمة المسلمين في المغرب والأندلس استطاعت جيوشهم من المرابين والموحدين أن يحققوا دماء المسلمين وأن يؤخروا سقوط الأندلس في أيدي الإسبان إلى حين.
الرابطون والموحدون وحركة التغيير

إن دولتي المرابطون والموحدون تعدادان حركتين لتجديد قوى الإسلام في المغرب العربي إذ انطلقت كل منهما من دعوة تبتها فقهيها ثم عاش لها بفكرها ومشاعرها ثم نضجت وكبرت إلى أن صارت ذا قوة فعالة فأسست جماعة مسلمة ثم مجتمعا مسلما ثم دولة لكل منهما ترفع عليها الواجهة الإسلامية.

لذا يرى الباحث من المفيد أن نقف على أسرار تلك الحركتين والأسباب المحركة لهما متاملين حركة التاريخ لتأخذ منها العظمة والخبرة ونصحبه بها مسار حركاتها الإصلاحية اليوم إذ تطلب الأمر وستتحدث عن كل حركة على حدة.

أولا: المرابطون ومنهجهم الإصلاحي وحركة التغيير

"رابط ابن ياسين محضن الدعوة"

يعتبر ذلك الرابط هو الجهاز الديني السياسي الأول الذي جمع عددًا من الشيوخ والفقهاء وعلى رأسهم "يحيى بن إبراهيم الجدالي" زعيم قبيلة "جدالة" (1)، و"عبد الله بن ياسين" فقيه المثني، والذي كان القوة الدافعة لحركة المرابطون في الناحية الدينية، وقد تأثر الأمير السياسي مع الداعية الدينى في وضع الخطط الدينية لتسير حياة الرابط.

- إدارة الرابط:

تنحصر إدارة الرابط من الناحية العملية في هدى القَيِّم "عبد الله بن ياسين" وفي يد الأمير "يحيى بن إبراهيم الجدالي" (2) ثم خليفه الأمير "يحيى بن عمر اللطوني" في رئاسة المرابطين بعد موتهم، وعن طريق سلطة القَيِّم والأمير ومجلس الشورى كان يعتمد ويتم تصريف شؤون الرابط وذلك طبقًا لأحكام المذهب المالكي.

---

(1) ابن أبي زرع الفاسى - الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص (79)، المغرب في ذكرى بلاد أفريقيا والمغرب لأبي عبد البكر، ص (122) وما بعدها.

(2) المصدر السابق ونفس الصفحات.
عبد الله بن ياسين داعية المرابطين:
هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير، وهو من صحراة الجنوب وقد درس على يد "وجاج بن زللو" قميص السوس، ومؤسس رباط "نبيس" (1) وقد شهدت هذه المنطقة التي نشأ فيها ذلك الفقيه منذ الفتاح الإسلامي بعض التطورات الفكرية والسياسية والدينية، وقد انعكس على شخصيته فتأثر بها ثم تعرف على أغلب المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي ظهرت بالمغرب في وقته وبذلك جمع شئ المؤثرات القديمة والمحدثة.

كما أنه تضيق بتعاليم المذهب المالكي (2) الذي كان يدين به أيوب بن عبد الرحمن الفاسي أستاذ "وجاج بن زللو" والذي نهل منه "ابن ياسين"، وقد كتب لهذا المذهب السياسة على باقي المذاهب الفكرية الأخرى المتشرة في المغرب في ذلك الوقت، ومن هنا نينى "ابن ياسين" نشر هذا المذهب حتى قامت دولته والذي يعتبر سيادة هذا المذهب من أعمى شعور تلك الدولة وتئنها محكونًا بذلك آمال وطموح أستاذ "وجاج بن زللو" في إعداد جمعية تقوم بنصرة هذا المذهب فشاءت إرادة الله أن تتحقق الأمال على يد تلميذه "ابن ياسين" الذي كان سفيره ومبوعده إلى بلاد صنهاجة.

من هنا يتضح أن شخصية "عبد الله بن ياسين" قد توفر لها من المؤثرات الفكرية والسياسية ما جعل من "ابن ياسين" مصلحًا وداعيًا إسلاميًا مرموقًا.
وقد تبحر في دراسة الحديث (3)، وكان مشهورًا بالحفظ والذكاء وال almco وحسن التدبير والقدرة الشديدة على الحركة والبناء وتأثيره الشديد في أتباعه (4).

(1) انظر ياسين وبداية حركته في المغرب لـ "عبد البكر" ص (17) وما بعدها، وروض القرطاس مرجع مسابق، ص (77)، الخليل الموسى في ذكر الأخبار المراكنشية، نشر علوش سنة 1936 م، وطبعة تونس 1933 م. مؤلف مجهول، ص (9).
(2) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى لـ "العباس" ص (99 - 100) - انظر بين خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة دار الكتب المصرية، 1931 م وبوواق (1864 م، ج (6) ص (192).
(3) (4) المراجع السابقة ونفس الصفحات.

22
وقد تميزت أخلاقه بالأخلاق الإسلامية الرفيع، وكانت تحظى في جملة الدعاء المسلم، التي ذكرها القرآن، وأتاحت إليها سنة الرسول، ولعلها كانت السبب في نجاحه، ونجحت دعوته بين المراطين إذ تميز: بالصدق، الصبر، الرحمة، التواضع، والقدرة على مخاطبة الناس وعزمتهم، كما كان له هذا الفقيه قدرة فائقة على الاستيعاب الجيد لدعوته الإسلامية وكان ذلك واضحًا في مفهومه لحركة التغيير، كما تميز أتباعه من الدعاء بهذا الاستياع بدليل نجاحهم في نشر الدعوة وثبيتها في قلوب المغاربة.

طريقة القبول بالرباط:

كان القبول في الرباط وفق التعليمات التي أقرتها إدارة الرباط، وبهذا من داعيهم "ابن ياسين". فكان القبول ملخصًا على احتمال وفرة مراقبة للتأكد من استعداد الراغب في الرباط لقبول نظامه، وإذا توفر له الاستعداد في نظر إدارة الرباط، قبل وأسلام إسلامًا جديدًا، غالبًا من البذع ويطلب منه أن يتهم وأن يحسب على ما اقتربت بدأ من إتم في حياته السابقة (1)، وذلك تكون قد انطلقت على المريش الشروط التي يراها "ابن ياسين" والكفاءة بتبريه الأفراد وصناعته الرجال ولا غرو، في ذلك، إن الشريعة الإسلامية اليوم تجري عند القبول، الكثير من الاختبارات العسكرية والبدنية النفسية الشاقة عند قبول طلابها.

وقد كان لهذه الشروط صادرا عند قبائل الملحدين على الرغم من قسوتها حيث وجدوا فيها الطريقة الجادة لتجننهم وفهمهم الديني الصحيح، فأسرع العديد من أبنائها للانضمام إلى الرباط بعدما أصبح هدف الرباط واضحًا، وهو خلق قوة مماثلة على أساس من الإيمان المثير، والإسلام الصحيح قادرًا على فرض الإصلاح وإعادة التغيير. فقد كان "ابن ياسين" يأمر بجهاد من خالف دعوته وصد عنها من قبائل صناعة على أن يبيحوا الأذان والإذان على مدى سبعة أيام (2)، ثم بعد ذلك يكون للسيف كلمته.  

(1) المراجع السابقة - وانظر "الرتبطون وتاريخهم السياسي" لمحمد عبد الهادي شمسية ص (29 - 41).

(2) روض الفرات مرجع سابق، ص (75).
أصول دعوة المرابطين:

لقد كانت مصادر الدعوة التي استقى منها "ابن ياسين" فكرته الدعوية هي:

أ- القرآن الكريم: لقد كان "ابن ياسين" داعية مشتركة بالاستيعاب الجيد والفهم

المركز للقرآن الكريم حيث أمر أتباعه بقراءة القرآن الكريم وحفظ معانيه، وكان

كثيراً ما يجمعهم في الرباط ويقص عليهم أخبار الرسل والأنيبياء الكرام وما جرى

لهما من عنت شديد في دعوتهما لأقوامهم حيث لزموا الآذى في سبيل الدعوة

وصبراً حتى كتب الله النصر لأتباعه. وبذلك ثبت "ابن ياسين" قلوب أتباعه على

دعوة الإسلام ووعدهم بإقامة دولة الإسلام التي تهم إلاها قلوبهم.

ب- السنة النبوية: وهي المصدر الثاني الذي حرص عليه دعوية المرابطين. وقد

عرف "ابن ياسين" بحفظه لل كثير من أحاديث الرسول ﷺ وبخاصة في مجال

الدعوة، فقد اقتدي به في منهج الدعوى وكذلك في وسائل دعوته، ولا شك في

ذلك فإن مجاهر في توحيد قيائل اللام وإقامة دولة جمعت المغرب والأندلس لأكبر

دليل على نجاح ذلك الدعوية وتوفيقه في وسائله ومنهجه.

ج- سيرة السلف الصالح: فقد وجد دعوية الرباط في سيرة سلتنا الصالح من

الصحاباء والتابعين أمرًا مهمة استناداً منها بلا شك في دعوته.

د- استنباطات الفقهاء وبخاصة الفقه المالكي: أخذ "ابن ياسين" في أمور دعوته

في الأغلب الأعم بأحكام المذهب المالكي السائد في المغرب آنذاك، وقد عمل بها

في كثير من القضايا المتعلقة بأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في

 سبيل الله. وقد أفرد لهذه المسائل فقهاء المالكية في المغرب أحكامًا خاصة في

كتبهم، هذا بالإضافة إلى استنباطات "ابن ياسين" نفسه واجتهاداته في بعض

المسائل والتجارب وحثها مع مريديه داخل الرباط أو التعامل الخارجي حين نشر

الدعوة بين قبائل المغرب خارج الرباط، وقد حرص "ابن ياسين" في ذلك على

التطبيع بالمنهج الصحيح في الوسائل والأساليب التي اتبعها في نشر دعوته فقد

كان ضرورًا مع مريديه كما سنعرف بعد.

حقيقة دعوة المرابطين:

أ- تمكين منهج الله في الأرض وإقامة موعذج إسلامي أتمنى يشمل حياة الناس

الدنيوية والأخروية.

25
ب- القيامة بواجب الدعوة لدرء العذاب عن الناس وهذا ما لسناه في أمير جدالة "بنى يحيى بن إبراهيم الجذلي" (1) الذي حرص على هداية قومه، فبعد أداء فريضة الحج عرج في عودته على أكثر من فقه، حتى ظهر أخيراً "بعيد الله بن ياسين".

ج- اتخاذ الجهاد وسيلة ماضية لتحرير القبائل من نفوذ الطغاة ومن البدع والإلحاح وارتباط الدعوة بالجهاد المستمر الذي يحقق الأهداف السامية لدعاية المرابطين عملاً يقول عنه تعالى: «وجاهدوا في الله حق جهاده» [الحج: 78].

د- تربية الرجل المسلم وإعداده لقوم عليه بناء الأسرة المسلمة ثم الشعب المسلم والحكومة المسلمة، ثم إقامة الدولة الإسلامية الكبرى «وهذا هو الهدف الأسمى» الذي سيؤدي إلى الدولة الإسلامية التي تسود العالم بقيمها المثلى، وقد ظهر ذلك واضحًا جليًا في حرص المرابطين على ذلك الهدف، فوجدوا قبائل المسلمين في الصحراء ثم سيطروا على المغرب وأقاموا الحكومة المسلمة ثم عبروا المضيق إلى الأندلس واجهوا التصاريح هناك ثم ضموا الأندلس إلى المغرب في دولة إسلامية واحدة يرتفع عليها لواء الأمان والطمأنينة في ظل السيادة الإسلامية، ثم خضعوا للخلافة العباسية حتى لا تمرق وحدة المسلمين.

- أسلوب حياة الرابط:

جربت العادة أن يكون لكل رباط نظامه الخاص المتعارف بين أهل الرباط وكان هذا النظام تقليديًا متوارثًا ترعيه الأفراد من جيل إلى جيل، ومن هذه الأنظمة التقليدية أن بني الرباط على التجريد من طلب المنافع الدنيوية ابتغاء وجه الله، وعلى التكشف القائم على الخشونة، وعلى الطاعة المناسبة للجهاد، وعلى طلب العلم، وعلى إخلاص العبادة لله. وقد قامت الحياة في هذا الرباط على الاكتفاء الذاتي، وتعاون أفراد الرباط في تحقيق هذا الاكتفاء حلق حياة مثالية تتشابه مع تقاليد الإسلام وسوف نحاول أن نعطي بعض الصور التي تمثل حياتهم اليومية:

(1) المغرب في ذكر المباني والغريب، ص (112)، ونظم قيم دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود ص (136).
أ- نظام العبادة والتقرب إلى الله:
إن العبادة هدف رئيسي من أهداف الرباط وقد كانت تقوم على أساس تلاوة
القرآن الكريم وإقامة الصلاة في أوقاتها جماعة، وعلى صلوات الفضاء الإجبارية،
وقد وضعت عقوبات صارمة لكل من يتخلف عن الصلاة أو يتماخر عن وقت
الجماعة فمن فاته ركعت الربابة خمسة أسابيع ومن تخلف عن صلاة فرض ضرب
عشرة، ويدعو أن مبدأ العقوبات كان ينفذ بكل دقة لأن العموات منهم كانوا يفزعون
إلى الصلاة بدون وضوء خوفاً من الضرب، وقد كانوا يحرصون على الصمت
والمخشور في المسجد حتى ردوا حفف الصوت في المسجد مخوفاً تستحق العقاب
كما كانوا يكلمون من صوم النفل، وقيام الليل وقراءة الأوراد وفق النظام الدينى
للرباط.

ب - نظام التعليم في الرباط:
إن التعليم هو الهدف الثاني من أهداف الرباط، وهذا دور الفقيه «عبد الله بن
ياسين» الأساسي، فقد كان يحفظهم القرآن ويسيره لهم وكذلك يفقههم في تعاليم
السنة النبوية أخذًا في الاعتبار كل تعاليم المذهب المالكي الذي طبع الدولة المرابطة
فما بعد بطيء ديني خاص، ويمثل في سياق هذا المذهب وسطورة نفوذ الفقهاء
في تلك الدولة، وقد وصل الاهتمام «ابن ياسين» بالعلماء، أنه رفع مكانهم فجعل
هم الخمس في العناصر، وجعل لهم حقاً في أموال الزكاة والعشور، كما أحسن
إعداد وتعليم الدعاة الذين اتبوا في الصحراء وبلاد المغرب يدعون الناس للدخول
في دورة المرابطين.

ج - نظام العمل في الرباط:
من المحتمل أن تصل إلى نظام العمل في رباط «ابن بقاسين» من خلال وصف
الأمير «جحي بن إبراهيم الجذالي» للجزيرة التي أشار بها إلى «ابن ياسين»، لكي
يتخذ عليها رابطه حيث قال: «فيها الخلاص المحض من شجر البرية وصيد البر
والبحر، فتدخل فيها وتبنيت من خلالها، ونعبد الله تعالى حتى نموت» من هذا
يتضح أنهم كانوا يعيشون حياة جماعية بسودها التعاون للنهوض بأعباء الحياة من
صيد البر والبحر وفلاحة الأرض وزرعها، وبناء الربط وصنع الشيب والأسلحة إلى غير ذلك، وقد عرف عنهم بعد عن زخرف الحياة وزيتها إذ يفضلون خشونة العيش عن تعودته ولنا أن نتصور طعام أميرهم "يوسف بن تاسفين" وهو في عز ملكه فقد كان لا يأكل سوى خيبر الشعر وحم الإبل ولا يشرب سوى لبنها.

د- التدريب على أعمال الفروسية والتقات:
من المعروف أن هذا الربط قد بنى للمرابطة حيث ينوى غرضًا مهمًا وهو الجهاد في سبيل الله، وكان يشكون بالمقاتلة والفرسان ليرابطوا ويتخذوا الأهلية للدفاع، كما أن من المعروف أن الفروسية شرط في حياة الربط وشرط في تربته الإسلامية ما دام الربط قائمًا على الخدود لذا كان أهل الربط يمارسون الرياضة والتدريب على الخيل وعلى استخدام السلاح وألعاب الفروسية المختلفة، وقد دأب المراقبون على ممارسة هذه الألعاب وكان يحضرها السلطان بنفسه.

تأملات في تعاليم "ابن ياسين":
لا شك أن "ابن ياسين" قد فهم طبيعة المثمنين وما جبلوا عليه من الخشونة واستطاع هذا الرجل أن يسوس هذا الشعب وأن يقوم بهديته وتطوعه للفكر الإسلامية ولحياة الربط، فهل كان "ابن ياسين" محققًا في إجتهاداته تلك؟ نعم كان "ابن ياسين" محققًا في تلك الأجهادات وإن كان معتبما فيها على إجتهاداته الخاصة فإن حقه وهو الأمير التعزير لكل من يخالف تعاليم الربط ومن هذا المنطلق نقول:

أ- اعتبار "ابن ياسين" تعاليمه إسلامًا جديدا بعيدًا عن التدف والانحراف التي كان يغض بها الشعب المغربي، إذا نراه يلزم من يريد الانضمام إلى رابطته أن ينكر ما كان عليه وذلك لعدم الباطل ثم يدخل الإسلام من جديد، حسب صحيح.

ب- أما فكرة صلاة القضاء التي طولب بها المزيد عما يكون قد قطع من تقصير في أدائها قبل الانضمام إلى الربط فإن "ابن ياسين" يريد بذلك أن يظهر نفسه وأن يحررها من فكرة التقصير في جانب الله.

ج- وفكرة التطهير من الذنب بإقامة الحدود وذلك بضرب من يريد الدخول في الإسلام حديثًا معينة وذلك ليخلص المزيد من فكرة الندم وانكسار النفس.
د- أما رفع منزلة العلماء ومساواتهم بأهل البيت حيث جعل لهم الخمس في الغنائم وحقًا في أموال الزكاة والعشور فكان يفاد من ورائها رفع منزلة العلماء والربط بين الفقهاء والأمراء حتى لا يفرق بين أمور الدين والدنيا، فلا عجب أن نرى من أمراء المرابطين ملوكًا أشبه بالطائفة ولا أدل على ذلك من مكانة يوسف بن تاشفين، وإبنه "علي" فكانا ملوكًا وعلماء متوفين في الدين بفضل تلك التعليمات التي خلفها "ابن ياسين"، وهذا ما نفتقد اليوم بسبب فساد حياتنا فعليا ندرك أن يدرك المسؤولون أن اتخاذ الفقهاء مع رجال الحكم من شأنه أن يحمل الناس على تجادة الدين وعدم الفصل بين أمور الدين والدنيا كما يفعل العلمانيون ودعاة المجتمع المدني.

- أسباب التغيير عند المرابطين:

لقد كان التغيير عند إدارة الزعيم مطلباً ضرورياً وملحياً لأنه لا سبيل إلى إصلاح الفساد الذي والعقدي الاجتماعي والاقتصادي الذي انتشر في بلد المغرب إلا بإجراء حركة التغيير، وقبل أن نتكلم عن سمك تلك الحركة لابد أن نبرز شيئًا من مظاهر الفساد التي انتشرت في تلك البلاد قبل ظهور المرابطين وقد أشار إليها المؤرخون منها:

أ- ظهر إدعاء النبوة كما حدث في قبائل غمارة الضرارية في جبال الريف والقاطنة في بني وطنجة وفياس حيث ادعى أحدهم النبوة وتلقى بالمقتدى وقد ادعى بنزول القرآن عليه وسن له شريعة آله بث بها الغزارة وقد قصر الصلاة على الصحيح وغيره، وآخر النهار وأحل لهم أكل آشى الحزن وأسقط الحج والظهر والوضوء، كما ظهر أيضًا "صالح بن طريف" في قبائل بركة حيث ادعى النبوة وشرع لاتبعه صوم رجب والأكل في رمضان وغير من طريقه الوضوء وضاعف الصلاوا إلى عشرة فروض.

(1) المرابطون وتاريخهم السياسي، مرجع سابق بنفس الصفحات، وقيام دولة الإسلام في الأندلس، عنان ص (2003، 2003).
ب- ظهرت بعض العادات الاجتماعية السيئة حيث انتشرت فكرة الزواج من النساء فوق الأربعين وشيوع نوم النساء في بعض القبائل مع غير أزواجهن، كما أبح للفتاة التي بلغت سن الأربعين أن تعاصر من ترضيه من الرجال.

ج- كما ظهرت بعض البدع من رواسب التشريع الذي عم المغرب وقد قام المرابطون الخارسون للسنة بالقضاء على تلك الرواسب مثل فكرة عبادة الأولياء والنسامش بهم والاعتقاد بحلول الله في بعض الأشخاص.

د- كما ظهر بالمغرب ظلم اجتماعي من سيطرة بعض القبائل التي لها الرئاسة والهيمنة على مصادر الدخل واحتكار التجارة وتسخير الناس لمصالحهم، وهذا ما ظهر في قبائل زنانة ومكاسنا ونائين وغيرها الذين قاموا الدعوة وصدروا عنها حفظاً على مكانتهم ومكاناتهم.

من هذا كله يتضح ضرورة القيام بحركة تغيير شاملة تظهر عقلية هؤلاء المتحرين من قبائل المنشدين والمغاربة ثم تحولهم إلى الطريق الصحيح واعتناق الإسلام على أصوله ومبادئه الصحيحة(1). فما هي سمات حركة ذلك التغيير؟

- سمات حركة التغيير عند المرابطين:

أ- إنه تغيير شامل وليس تغييراً محدوداً في جهة خاصة وإنما جاء هذا التغيير شاملاً في جميع مجالات نشاط الإنسان في المجتمع المسلم، تلك المجالات التي تقوم على التنوع فشملت تغييرات عقيدة لتغيير العقيدة في عقول المريد من المرابطين، كما شملت تغيير المعاملات حيث أمر أنها يتبعوا التشريع الإسلامي وما سنه لهم الفقه الملكي في هذا المجال من بيع وشراء وإجارة، كما اتسمت الأحوال الشخصية أيضًا بالشريعة الإسلامية من زواج وطلاق، كما خلط السياسيون لقيام دولتهم تخطيطًا سياسيًا وفق التصور الإسلامي، كما تميزت العسكرية الإسلامية بأداب الحرب التي سنتها الشريعة الإسلامية في معاملة العدو والأسرى والمرضى والقتلى وغير ذلك، كما وثقعت غنائم الحرب توزيعًا إسلاميًا أيضًا كما عرفنا سابقاً، وخلاصة القول أن التغيير جاء شاملًا يناسب مع شمولية منهج الإسلام للحياة.

(1) المغرب في ذكر بلال أفريقية والمغرب، ص (134 – 141).

30
ب- تغيير مستقر دائم وليس تغييرًا قصيًا إذ عمل قيادة الرباط مع فقهاءه "ابن ياسين" على ترسخ فكرة المرابطين الإسلامية والقائمة على أصول إسلامية كما قلنا في قلوب الأئمة والمرابطين بحداً جليًا بعد جيل حيث ما فتئ الدعوة ينتشر في القبائل ينتشرن هدى الفقهاء ويعملون على قيام النموذج الإسلامي الأمثل، وقد حافظ على تثبيت هذا النظام نظام الحسبة الذي يرأسه المحاسب الداعي إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما عمل الفقهاء والعلماء والفقهاء بهدى فقهاء الرباط، لذا ثبتت الفكرة في العقول واستمرت قائمة ثابتة على الرغم من موت صاحبها مؤسسها، فالأول الناجحة هي التي تقوم على الأفكار لا تقوم على الأشخاص فالفكرة باقية بينما الرجال فانون.

ج- تغيير متدرج وليس فوريًا أي مر بمراحل متتابعة وفقًا لما تقضي عليه الطبيعة البشري من مظاهر التغيير حيث درجت النفوس على التغيير المتدرج الهادئ. ولذا في التشريع الإسلامي خبر أسوة إذ أخذ الكثير من التشريعات بالتدريج مثل تحرير الخمر وموقف الإسلام من الرق... إلخ، ومن هنا نجد التغيير الذي قام به المرابطون والذي مر براحله الثلاث: مرحلة الرباط التي كان هدفها التأسيس والتنظيم، ثم مرحلة التمكين وهذه خطوة أكبر احتجاجاً إلى تكوين الجيوش فكان المرابطون الذين روا في الرباط هم دعائم تلك الجيوش، ثم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الدولة الإسلامية العظمى والتي ضمت بلاد المغرب والأندلس في وحدة سياسية إسلامية.

د- تغيير جذري: أي أنه تغيير يعتمد على تغيير الشعوب والأفراد أولاً قبل تغيير الحكم والقدوة، بالحجاجة والإقناع الذي بدأ من قاع الهرم قبل قمةه وهذا ما لاحظاه في حركة التغيير التي قامت أولاً في الرباط حيث استهدفت شعوب المغرب والذين جاءوا للانضمام لرابطة "ابن ياسين" عن إقناع واقتناع ولذا تكون أغلب القبائل قد سرت فيها مبادئ الدعوة وفاح فيها عطرها، وإذا لم يكن كذلك فما استطاع "ابن ياسين" والأمير "يحيى بن عمر" أن يكونوا الجيوش التي جهوزها لمحاربة القبائل المعادية والصادرة عن الدعوة إذ تميزت تلك الحشود بجوهرها الضخمة.

ه- كما تميز التغيير أيضًا بأنه تغيير فوري إذ تم عن طريقصلاحات التي استخدمها جيش المرابطين حيث اصطدم بقبائل ز恩اته التي رفضت الاتصحال للدعوة
وبعدها صدت ورفضت كان لابد من التغيير بالقوة فدارت الحروب وقضى على
زعامات القبائل الراقية ودخل أتباعها في الدعوة الجديدة، وبذلك تكون دولة
المرابطين قد جمعت أهم نوعين من أنواع التغيير وهما التغيير الطفوي والجذري،
وقد شمل رؤساء القبائل وأتباعهم في وقت واحد.

- وسائل حركة التغيير:

لا شك أنها أمام حركة تغيير كبيرة قامت بها دولة المرابطين واستطاعت أن
تعدل من سلوكي أتباعها وأن تبني العقول وتكون المفاهيم اللازمة لقيام جماعة
مسلمة في وقت قصير وتدرجت معهم الدعوة من جنبها الدعوى بأطوارها
الثلاثة: التنظيم، التمكن، السيطرة، الدولة، فما إذ الوسائل التي اتبعها
المرابطين في التغيير؟

- الدعوة بالحسني وإقامة الحجة والدليل:

لقد تعليم "أبنا ياسين" من سيرة الآنياء والرسولين آن وسيلة الماضية إلى يوم
القيام والتي أمر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المشروعة أن تكون الدعوة قائمة
على الإقناع والحجة والموهبة النبوة حيث لا إكراه في الدين ونلمس ذلك واضحًا
في قول "أبنا ياسين" حينما جمع دعاته وأرسلهم إلى قبائل المثمين بدعونهم
للدخول في دعوته بعد ما يس منهم فقال لاباعيه: "قد أصلحكم الله تعالى
وهداكم إلى ضررنا المستقيم فوجب عليكم أن تفكروا تعصه عليكم وتأمروا
بالمعروف وتنحوا عن المنكر وتجادوا في سبيل الله حق جهاده".

وكان لهذا المسلك الطيب أثره في نفوس القبائل إذ تسببت للانضمام إلى تلك
الرابطة من كل حدب وصوب فتوثقت الصلة بين الرباط والبيئة المجاورة، ففرض
"أبنا ياسين" الزكاة والعشر على تلك القبائل إلى دخلت في زمرتهم وأجروها في
مصانفها الشرعية.

وقد كان لوجود الرباط أثره العظيم في إشاعة الأمن والطمأنينة في تلك المنطقة
فساس السللم وأطمانت قوافل التجارة التي تم براضيهم مما جحب الناس في الإسلام
ودعمه في قلوبهم.
ب- التربية وتكوين الإنسان المسلم:
لا شك أن منهج الرباط في تربية المرابطين كان منهجًا تربويًا سلبيًا حيث كانت التربية دعائمها القرآن والسنة والقدوة الصالحة والمثال الأعلى الذي كان أمامهم في دعائهم "ابن ياسين" ودعائهم النشطاء.

ولقد تعددت وسائل تلك التربية فكانت تارة بالقول ثم العمل وأحيانًا بالشدة كما رأينا في أساليب الرباط، وما لا شك فيه أن تربية الفرد المرابط تربية إسلامية قد انعكست على أمرته في بناء بيت مسلم بعيدًا عن الخرافات والبدع التي كان سببًا لهم المطركون من مدعى النيابة، ثم نهض المجتمع المسلم بنهضة الأسرة فكان مجتمعًا قويًا متماسكًا.

ج- الجهاد في سبيل الله:
لقد كان الجهاد هدفًا أساسيًا للرباط لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتكوين الاعوجاج والتمردين على وسائل الدعوة، فإذا ما فشلت الدعوة بالحسنى ولم يفلح الوعظ والتجديد كان لإحداث القوة لهدم الباطل وإقامة الحق فإن الدعوة لا تكفي إلا بالجهاد، فلا غرو إن كان الجهاد سبيل المرابطين لتحقيق أهدافهم العليا.

وخلاصة القول أن دولة المرابطين قد استوعبت الفكر الإسلامية استيعابًا جيدًا ثم انطلقت حركة نشطة توجه وتهدى وعلى رأسها قيادة قوية حازمة، وقد شملت تلك الحركة جميع المستويات في دولة المرابطين حكومة ودعاة وقادة وعمال، وقد كانت تلك القيادة بصيرة بأهدافها واعية لما تترمي إليه، لذا نحث حركة التغيير وكفلت لاصحابها قيام دولة إسلامية عظمى.

ثانيًا: الموحدون ومنهجهم الإصلاحي وحركة التغيير

1- من هم الموحدون؟
الموحدون هم جمعية دينية إصلاحية تأسسها الفقيه محمد بن تومرت المعروف باللهي في الأول القرن السادس الهجري تقريبًا، وقد بدأها بالمغرب فكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر حتى زاد عدد أتباعه، وأظهر دعوته إلى القائل: تانضم.
إليها منها الكثير، حتى صاروا قوة يأخذ بناوئ المرابطين ويصفدم معهم في معارك مواصلة حتى قضى عليهم، وأقام دولة الموحدين على أنقاض دولتهم، وينحدر هذا الفقه من أسرة بربري وهي قبيلة هرجة أحد بطون قبيلة مصمودة الكبرى التي تعتبر أكثر القبائل البربرية عداً وأشدها بشأًا وأعرقها نفوذاً

2- نسب ابن تومرت:

ينسب ابن تومرت إلى أسرة عريقة ذات دين وحسب ونسب، وقد يُحتذى نسبه فيصل إلى النير عن طريق الحسن بن الحسن بن علي وهذا النسب يقره أتباعه ويؤمنون به لأنه شرط لهدوته، وقد كان هذا النسب موضوع خلاف بين المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء (1)، فالذين يرفضونه يميلون إلى تجريد ابن تومرت من نسبته النبوية لأنه اضطر إلى ذلك بسبب ادعاءاته بأنه الإمام المهدى، وبرون أنه شتان ما بين النسب العريض والنسب البربري، بينما يرى من المؤرخين المحدثين "عبد الحميد العبادي" أن ابن تومرت صادق في نسبته إلى الرسول ﷺ وهو من أحفاد العلويين الآدائية الذين اندمجوا في البربر وتخلقوا بأحلامهم وتطبعوا بطبعهم فهم عريض PROT 2.4 (2).

3- التكوين العقدي والفكري لابن تومرت:

وقد تعلم ابن تومرت علوم عصره ودرس على أديب نخبة من العلماء الأجلاء في المغرب والشام، ودرس بالمغرب علوم القرآن الحديث والفقه والأصول وعلوم اللسان والأدب وهي العلوم التي كانت سائدة آنذاك.

ثم خرج ابن تومرت من المغرب واتجه إلى قرطبة ثم تركها واتجه نحو المشرق وقد طال بهمداً طلبًا للعلم فبدأ بالإسكندرية ثم إلى دمشق ثم استقر به المقام فترة بمدينة بغداد مركز العلوم الإسلامية والثقافية واللغوية والفلسفية وعلم الكلام ثم اتجه إلى القاهرة فدرس بالجامع الآزهر وأخبرًا درس على يد الإمام الطرطوسى

(1) الكامل لابن الأثير، ج (10) ص (50)، وفيات الأعيان لابن خلكان، ج (4)، ص (138).

(2) نظر الدولة الموحدة بالمغرب في عهد عبيد المؤمن بن علي، دكتر عبد الله بن علي علام، ص (444)، ص (45).

(3) ألمجل في تاريخ الأندلس، مطبعة السعادة بمصر، 1958، ص (182).

44
بالإسكندرية وإجمالاً فقد ظل بالمشرق ما يقرب من عشر سنوات متنقلًا بين عواصمه في سبيل طلب العلم، وقد استفاد من العلوم الدينية والعقلية الكثيرة وخاصة تلك العلوم التي كانت محظورة مثل علوم الكلام التي حظرها المرابطون.

اذن كأنما يعتقدون أن علوم الكلام تودى إلى الإخاد والكفر.

فنحن أمام فقيه ضملي في العلم ذي عقلية منظمة قادر على الاستيعاب الجيد حيث أقبل على علوم الكلام وتشيع بها مستغلاً الفكر المستقل والفكر الشيء ومذاهبهم، وبذلك حصل أفكارًا جديدة في السياسة إذ طاف وتنقل بأرض الخلافة الفاطمية التي كان يبزتها آنذاك الخلاف بين أهل السنة والشيعه، ثم لمس وهو في بغداد ضعف الخلافة العباسيّة والتي قتل نعوش وتزرت من نهايتها وأدرك ما عليه العالم الإسلامي من ضعف وفقرة وتزمر وضياع، وتطلع كما يطلع المسلمون آنذاك إلى الخلاف.

٤- صفات المهدي بن تمورت:

ومن ثم كان للمرجل نظرته البعيدة في تكوين جماعة مسلمة تقوم بحركة تغيير وتفرض منهجًا إصلاحيًا يلدين به أهل المغرب وبخاصة أن دولة المرابطين بدأ يتفشى فيها شرب الخمر والرقص وتحكم النساء في الملكل وبدأ يسيطر عليها الجند وتسوء أحوالها، وكان المهدي جدًّا بل تلك الحركة الإسلامية فكان غزير العلم كثير الدهاء شديدة التأثير في النفس، كما كان الرجل يتمتع بموقع قوى ومحابة قاطعة مؤثرة في خصومة ومحاجبه، كما كان خطيّاً مفروناً فصيحًا في العربية والبربرية معًا له قدرة على استمالّة الجموع برائع بيانه وعظيم وعظمه، كما كان متمكنًا في علوم القرآن والسنة وأصول الفقه وأصول الدين، كما عرف بزهد في الدنيا وتقشفه وورعه فكان لا يلبس سوى ثياب الصوف، وكان يرتدي ثيابًا مرقة ولا يقبل على شيء من متع الدنيا بل كان يكفيه أن يقتات برغيف و بكليل من السمك أو الزيت(١).

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج (٢) ص (٥٢٥).
وقد تأثر ابن تومرت أثناء دراسته بالشرق بالنظريات المشرقية في علوم الكلام والسنة والفلسفة. ويرى ابن خلدون(1) أنه تأثر بعلوم الأشعرية وأخذ منهم وخاصة في تأويل التشبيه في القرآن والحديث، وحما أن ابن تومرت دراسته بالشرق عاد إلى المغرب - كما يقول ابن خلدون - بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من الدين، ثم نزل بالمهدية وتسامع به الناس وأقبل الطلاب يقرأون عليه وكان إذا شاهد منكرات مثل آلات الملاهي أو حاتم الخمر بادر إلى إزالتها وقد ناله بسبب ذلك الآذى الكبير، ثم هاجر إلى بجاية وأخذ يدعو فيها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم غادرها بعدما خشى العقاب على نفسه إلى فاس ثم مكاسبة وأخيراً إلى مراكش(2) سنة 519 هـ.

والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اتخذها ابن تومرت شعاره هي فكرة إسلامية وأصل من أصول الإسلام أمر بها القرآن في قوله: (وَلَكَ مَنْ كَفَّارٌ مَّنْ كَفَّارُ الْخَيْرِ وَالْبَشْرِ) [آل عمران 4]. وقول الرسول ﷺ: "من رآى منكم منكرًا فلا يغيره، بيد إلهي إن استطاع، فإن لم يستطع فليس عبودًا، فإن لم يستطع فقلبه، وذلك أضعف الإيمان."(3)

وقد كانت مراكش آنذاك حين دخلها ابن تومرت شأنها شأن المدن المغربية قد انتشر فيها الاستهتار والفساد، وتباع الخمر علناً في الأسواق، وكانت الخنازير تحرك في أجنحتها، هذا بالإضافة إلى ما كان يسود الإدارة المرتبطة من ضعف وانحلال واغتصاب لأموال الينابيع وغير ذلك من ضروب الفساد(4).

ويروى أن ابن تومرت رأى أخت الأمير علي بن يوسف قد خرج في موكيها في وسط جواريها الخسان وهم جميعًا ساحرين على عادة المرابطين من سفور النساء واتخاذ الرجال اللثام، فعندما رأى الرجل هذا الموكب أتّكر على النساء...

---

(1) العزيز ج(6) ص (22).
(2) الخليل الموشحية، ص (77, 78).
(3) الحديث رواه مسلم - رياض الصالحين طبعة دار الأمام للمجلات، ص (100, 111).
(4) المعلج في تلخيص آخبار المغرب لعبد الواحد المرشدي، ص (99).
سفورهن وأمرهن بستر وجوههن، وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت الأميرة عن دابتها ووقع الاضطراب والهجر، وقد وصل ذلك إلى مسامع أمير المؤمنين وقد تزايد علماء مراكن في وصف ابن تومرت للسلطان وتحملوا عليه وعلى دعوته، ثم جئ به ولما سئل من قبل أمير المؤمنين إن كان له حاجة ينظر في قضائها فكان جوابه أنه لا حاجة له إلا تغيير المنكر(1).

وقد أمر على بن يوسف بأن ينظر علماء المراقبين ذلك الرجل وكانت بلا شك تجريب قاسية خرج منها ابن تومرت منتصراً وذلك لإجادته علم الكلام وفنون المنا أناة والمجادلة، وقد أثار ذلك مالك بن وهب رئيس المناظرين من المراقبين على ابن تومرت وأخذ يححرض السلطان على قتله أو سجنه إلى الأبد إلا أن على بن يوسف لم يأخذ بشورتهم، وفر ابن تومرت وبعض صاحبته من وجه مالك بن وهب إلى حيث أواه قومه بالسوس وأعزو ونثر ونضل بموضع منها يعرف بتبنيم. ومن هذا الموضع قامت دعوته واستوى عودها واشتد خطرها.

رابطة تبنيم «محضن دعوة المحدثين»

1- موقع الرابطة:

تقع هذه الرابطة بمدينة تبنيم أو في أحوازها من بلاد السوس ويقال إنه ذهب إلى قرية إبليز أو جبل إبليز من بلاد إزيلج ودوره بلده ووضع قومه، وقد اختار هذا الموضوع لأنه مكان متبوع لا يصل إليه أحد من طريق لا سلكها إلا الراكب بعد الراكب، ويمكن أن تدفع عنها أقل عصبة من الناس (2)، ومن هذا الموضوع قامت دعوته كما قلنا إذ اجتمع إليه وجوهه المصادفة وأخذ يدرسهم العلم والدعاء إلى الخبر أي «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(3). وكان يعني بالأخص بأن يشرح لأنصاره نظرية المهدي المتظر والإمام المعصوم.

---

(1) روض القرطاس، ص (114).
(2) انظر وصف مديمة تبنيم وحصنها المعبر في نظم الحاجة، ص (95)، والمفصل الموسيقي، ص (83)، والإدريسي في زهوة المشتاق، ص (64).
(3) عنوان دولة الإسلام في الأندلس عصر المراقبين وبداية الدولة الموحودية، ج (4) مكتبة الأسرة، ص (119)، وإنصاف المعجب، ص (119).
وبعد استقراره أنشأ رابطة للعبادة لكي تكون مقرًا للدرس ومراكزًا لتدبير أمور الدعوة وليحقق هدفه المنتشر في تعليم مربيته ص cigية التوحيد الكلامي على مذهبه، وقد ألف عقيدته تلك بابسان البربر لكي لا يعتبر فهمها على قومه البربر ثم أمر تلاميذه الذين اخترهم لنشر الدعوة واستمالة القبائل بأن يعودوا عن أساليب العنف وأن يعتمدوا على أساليب اللين في استمالة القبائل، وهذه الدعوة بلا شك مشابهة لمغناطيسة ما حزب عنه من التشدد في الأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، كيف يأمر تلاميذه بإصنع اللين في نشر الدعوة وقد حارب عنها القسوة والعنف في تصرفاته (1). إنها بلا شك العقلية السياسية المنفتحة فارجل يتعمل تلك الحاسة بجانب تعميقه بالتأمل في الدين فهو ينشر دعوة يغلقها اللين لا استمالة الأنصار وتكييف الأتباع وهم الذين سيكونون قوته وعدته بلا شك وسوف يؤلف منهم جيشه لمقارعة المرابطين وأعداء دعوته.

3- فكرة الإمام المدعوم والمهدى المختار:

وأما مثلاً الفوفود وانهالت عليه القبائل ووثوق من أتباعه أدعى أنه الإمام المدعوم والذي ينسب إلى آهل البيت واستخدم في ذلك حتى انتقلت على عقول المغاربة البسطاء وثبت في عقولهم أنه الإمام المختار الذي لا ترد له كلمة، فاعتنى حتى طاعة الله وعصبيته بشوراً ثم أخذ يسوقهم إلى المهدى المختار ويشربه ويجمع الأحاديث النبوية التي قيلت في تلك النظرية (2)، وما كان اسمه محمد بن عبد الله وينسب إلى النبي ﷺ، وكان اسمه طالبًا لاسم المهدى المختار بابعه على أنه هو المهدى المختار.

وينقل إلينا ابن القطان خطيته التي اعتقد أن نعلم فيها إمامته في اليوم الخامس عشر من رمضان سنة 515 هـ، وهبها يقول المهدى: (الحمد لله الفضل ما يريد،)

(1) كان ابن تومرت عنيفة في الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وقد لوحت ذلك في نصيه لركن السفينة التي نقلته من الإسكندرية حيث هاجمهم شعبهم خمرًا فألقتهم في البحر وتخقصوا منه. كما ورد في بعض الروايات، لوحت ذلك أيضاً حينما اصطدمت مع أهل بنجابة والمهدية وفرت بعدها إلى مراكش، انظر الدولة المحدثة بالأدب، ص (54) وما بعدها.

(2) المعجب، ص (181 ، 182).
القاضي بما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى على سيدنا محمد رسول الله الموصل بالإمام المهدي الذي يقال الأرض كهفًا وعدلاً كما مثبتت جوهرًا وظفًا، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيز العدل بالجور. مكانه الغرب الأقصى متبناه وزمانه آخر الزمان واسمه اسم النبي ﷺ، ونسب النبي صلى الله تعالى وسلام إليه الكرام المقربون عليه وسلم، وقد ظهر جوهر الأمور وامتلاط الأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان، والاسم الأسم، والنسب النسب، والفعل الفعل(1).

4- المبايعة وتكون الحكومة الموحدة:

 وعلى أثر ذلك هرع إلى المهدي عشرة من أصحابه وبايعوه على أن المهدي المنتظر الإمام المعصوم، وهم العشرة الأولياء من أصحاب المهدي الذين كانوا من أمونا به وساهمهم بالهجرة الأولياء وبجماعة أيضًا وهم الطبقة الأولى، ثم بايعه من بعدههم خمسون رجلًا فسماوا أهل خمسين وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدي، ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسماوا أهل سبعين وهم الطبقة الثالثة، وكانت هذه الطبقة الثلاث تضم أخلص طبقات المهدي، ثم بعد ذلك قسمت الطبقات إلى طبقات أخرى كما وضحنا في البحث(2).

 إنذ بعث المهدي ابن تمرت بالمهديوية، ثم شرع يؤلف حكومة مظلمة وبدا الرجل في ذلك الوقت أنه رجل سياسة ودين في أن واحد وأطلق عليه الإمام المعصوم المهدي المنتظر المرسل من قبل الله ليقضى على الفساد ويعيد الدين إلى ثقافاته وصفته كما لقب أنصاره بالموحدين، ثم دعا قومه إلى شق عصا الطاعة على المرابطين ووجب محاربتيهم.

---

(1) فكرة المهدي المنتظر فكرة قديمة في التاريخ الإسلامي استخدمها كثير من الدعاة ليقيموا من خلاله جماعات أو دولًا، وهي تظهر أكثر ما تظهر في وقت الحنجرة المحتل بالشام، إلى تطلع إلى خلاصة فسائط تلك الفكرة في وقتها المناسب ويجب صداؤها في عقول الناس إذ يأملون أن يأتي المهدي ليخلص الأراض من الظلم والجور ويشتهر فيها العدل، وقد استغلها الشيطان احتلال في إقامة دولتهم القاطعية في تونس ثم مصر، وبدو أن المهدي قد تأثر بتلك الفكرة أما ما ورد فيها من أحاديث فتحتاج إلى دارس ينتفعها في بعضها في كتب الصحاح وأغلبها ضعيف لذا فهي في حاجة إلى إعادة القول فيها.

(2) نظم الجماعان النظير رواية روض القططاس، ص(113)، ابن خلدون في العبء، ج(6)، ص(228)، والخليل الورش مص(78)، والدولة الموحدة بالغرب عبد الله عمام، ص(66).
سمات منهج دعوة الموحدين

ولا شك أننا أمام دعوة أقرها المهدي وأودعها كتابه وصغ عليهما فكرهما جعلها دعوة خاصة للموحدين وإن كانت في طبيعتها وشكلها دعوة إسلامية، وهذان الكتابان هما:

- كتاب أعز ما بطل: يضم مبادئه ونظرياته وأرائه في الأصول وفي الإمامة وفي التوحيد والعلم.

- الموطأ: وهو ما يعرف بموطأ الإمام المهدي وقد وضعه المهدي في العبادات والمعاملات والحدود وهو يشبه موطأ الإمام مالك حيث يتناول علم الفروع.

ومن خلال الكتابين السابقين لابن تومرت يمكننا أن نستخلص مظاهر عقيدة المهدي بن تومرت التي أوجها على أصحابه ومريديه، فما مرجعية تلك الدعوة؟

المرجعية والقياس:

اعتمد منهج ابن تومرت الإصلاحي على مرجعية وضعها بنفسه، حيث صاغ لاتباعه أفكاره ومبادئ من حيث العقيدة والشريعة والعبادات في كتابين، وقد تأثرت تلك المبادئ بنظريه المهدي والإمام المعصوم ومن ثم جاءت محل خلاف بين الموحدين أنفسهم وبين الموحدين وغيرهم بينما المسلم به في أي مشروع للنهضة الإسلامية أن تكون المرجعية فيها للإسلام فقط: كتاب الله وسنة رسوله. لذا نلاحظ عدة ملاحظات على منهج الموحدين وهي:

1- أنه وضع علم التوحيد باللغة البحرية في كتاب سماه المرشدة يحتوي على العلم بمعرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويتضمن أيضًا الأعشار والانزلاق والسهر وال نقلاً لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بموحد وإنما هو كافر لا تجزؤ إمامه، ولا تؤكل ذبحته، فصار هذا التوحيد عند قبائل المصادمة كالقرآن العزيز فقد كانوا أقوامًا جهيلة لا يعرفون شيئاً من الدنيا.

(1) الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي - عبد الله علام، ص(19)، عنان دولة الإسلام في الأندلس، ج(4)، ص(216، 217)، روض الفرج يطس، ج(2)، ص(115) وما بعدها.
2 - وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وأداء الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة إذ كانت تؤخذ من أغانيهم وتوزع على فقراءهم وياهم بقراءة القرآن وحفظه ثم قراءة الأحزاب التي وضعها لهم بعد صلاة الصبح وبعد المغرب، ثم أمر المؤذنين أن ينادوا بعد طلوع الفجر (أصبح والله الحمد) وذلك إشعارًا بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ثم فرض عقوبة على المخالفين لذلك.

3 - كان ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات صارم النفس شديد التعصب ذا جرأة على سفك الدماء في سبيل هدفه ومقصده لا تأخذه شفقة ولا رحمة، وكان يضفي على هذه الصفات من السفك صفة شرعية بما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة، أو لمبدأ التوحيد الذي اتخذه شعاعًا.

4 - كما تميز ابن تومرت بالقدرة الفائقة على الخداع والكيد والمكر (1) حيث استطاع بهذه الصفات أن يشتهى الجمهور ويستغل جهله حتى ذاعت دعوته وقويت شوكته، ثم بعد ذلك استحل فيهم القتل جملة كما ظهر عند التمييز حيث كان يقتل الآلاف من المناوين لدعوته، وذلك لتؤكد مهديته، وينفي الشك عن عصابته من ناحية أخرى.

مصادر دعوة الموحدين

يمكن أن نستنفها من الكتبين السالف ذكرهما وهما كتابان من تأليف المهدي ابن تومرت أوردوهما الكثير من المبادئ التي تعد أصولًا في دعوته ومن هذه الأصول:

أ- أصول الشريعة:

1 - يرى أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان والتجوز مهما شك والشك ضد اليقين ومحال أخذ الشيء من ضده. ومنها أن الله سبحانه وتعالى سالمًا الأشياء يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء فليس للمعقل تحكم ولا مدخل فيما يحكم به الله.

(1) انظر فتاوى ابن تيمية المجلد الحادي عشر، ص (476، 477).
2- وأصول الشريعة تنحصر في عشرة هي أمر الله ونهيه - وخبره بمعنى الأمر - وخبره بمعنى النهى - وامر الرسول ونهيه - وخبره بمعنى الأمر - وخبره بمعنى النهى - وفعله وإقراره.
3- الفروع وتنحصر في خمسة وهي: الواجب والمندوب والمحظور والمحظور والمباح ونراه لا يخص الإجماع والقياس بالذكر إذ يعتبرهما من أصول الشريعة وهو ينظر إلى قياس الوجود إما هو قياس المجمعة وهم المراقبون في نظره ويعتبره من ضروب القياس الفاسد.
4- أما عن الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة فإن ابن تومرت يحمل عليه ويشير إلى إثبات النفي على أنه قلب الحقائق وقلب الحقائق محال، ومعنى هذا أن ابن تومرت كان يأخذ في تفسير الشريعة بالذهب الظاهرى، فيما يقول به من وجه الاعتماد في استثناء الأحكام على الكتاب والسنة دون غيرهما، وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصادر من مصادر الشريعة ومعارضته لجهود المجتهدين في تجديد الشريعة والاستباط في مجال الاجتهاد من الأمور المنطقية الخاصة به هو، لأن ابن تومرت يدعى أنه الإمام المعصوم الذي لا تبحث آراؤه ولا ترد أحكامه، وبذلك يفرض على أتباعه وجه الاعتماد في الإمام المعصوم، وعلي ابن تومرت بموقفه هذا من الاجتهاد يفرض الولاء على جميع أتباعه الذين لا يقرون على مخالفته آرائه أو حتى مجرد التفكير في المخالفة.

--- أصول العقيدة:

هناك تحدث عن التوحيد وعن دلائل وجود الله سبحانه وتعالى وتعزية ويعتبر أساس الدين الذي بني عليه، ويتحدث عن شروطه وفضله وأن التوحيد يهدي ما قبله من أفكار مترفعة وأوزار وأثام، وهو يرى أن الحكم بالتحويد واجب ومقدم على الiciente وأن التوحيد دين الأولين والآخرين من النبيين والرسل، وأن دين الإثبات واحد، وبرى ضرورة معرفة طرق إثبات العلم في التوحيد إلى غير ذلك من مسائل وردت في كتاب آخ ذكر ما يطلب ابن تومرت.

وإذا كان التوحيد في الاصلى يعد ركناً من أركان الإسلام الأساسية فإنه يعتبر عند ابن تومرت أساساً لذهب «الدنيوي والسياسي» إذ يتحول على يد المهدي من صفاته الدينية إلى فكرة سياسية هي التي أضحكت أساس الدولة الوحدوية وداعمة
سلطاتها إذ لم تبق فكرة التوحيد في حدود الاعتراف بوحدانية الله ولكن غداً معناها الخضوع لحكومة الموحدين، ومن داخل ذلك أن ابن همشك الزعيم الأندلسي عندما خضع لحكومة الموحدين وصفوا ذلك الخضوع في قولهم "توحيد ابن همشك"، وبذلك عد كل من دخل في زمرتهم موحدًا أي مسلمًا راغبًا في الدخول في طاعة هؤلاء القوم.(1)

وقد اتخاذ هذا اللقب "التوحيد" لانتهاه نكاءة في أعدائه المراقبين الذين كانوا يأخذون بظاهر الآيات فلا يؤولون صفات الله مما يؤدي إلى التجسم والكفر، فهم ملكية سلفيون لا يجدون عن مذهب مالك وكان ذلك الإمام عدوًا للتأويل، حيث يقول فيه "الشهريستاني": أما السلف الذين لم يتعرضوا للتواصل ولم يهددوا للتشبيه فمنهم مالك بن أنس رضي الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى" [طه: 5] الاستواء معلوم والكيفية مجهولة، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه.(2)

لذا فإن تومرت بهجاء المراقبين وتبعتهم بالكفرة المجسمين، وقد نال مذهب مالك وعلمائه من الموحدين الشيء الكثير، ومع ذلك فقد بقي كما هو منشآت دولة الموحدين، وزالت، وظل مذهب قويًا شامخًا حتى يومنا هذا.

وبدأ أن ابن تومرت قد استعمر عباءة التوحيد تلك من المعتزلة فهم الذين يعثون اسم التوحيد في تعريفهم لفكرة الله، يقول "الشهريستاني" عن المعتزلة: "وانتقاها على نفي رؤية الله تعالى بالآباص في دار القرار، ونفي التشبيه عنه من كل وجه، جهة ومكانًا وصوره، وحسنًا وخيرًا وانتقلا وزوالًا وتغيرًا وتأثيرًا، وانجروا تأويل الآيات المشابهة فيها، وسموا هذا النمط 'توحيد'".(3)

لذا ترى ابن تومرت كان يرى أعداء المراقبين مشهولين عن فكرة التجسم والتشبيه التي انتشرت بين الغاربة ومن هنا استحققا القتال بسبب نشر ذلك الإخاد الذي يخالف التوحيد كما يرى فهم أهل شرك يوجب أن يشهر عليهم الجهاد في سبيل الله.

(1) عنوان دولة الإسلام في الأندلس، ج(4)، ص(205).
(2) الليل والنحل للشهريستاني، ج(1)، ص(118)، وما بعدها.
(3) الشهريستاني في كتابه الليل والنحل نقل عن عنوان دولة الإسلام في الأندلس، ج(4)، ص(213).
قضية الإمام المعصوم والمهدى المنتظر:

وعلل هذه المسألة تعود لذات رهبادة بن تومرت ولعب دعوته السياسية فإن الإمام الدينية هي الشعور السياسي الذي رفعه وأذاعه بين القبائل ثم جاءت نظرية المهدى المتارض لتشمل عليها روحًا وقديسًا، وقد حدث بن تومرت عن الإمام وأوجب الاعتقاد بها على الكافر وجعلها إمامًا مطلقة واجبة الطاعة فقوله في كتابه: (هذا باب في العلم وهو واجب اعتقاد الإمام على الكافر وهي ركن من أركان الدين وعمدة من عهد الشرعية، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمام في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة).

وبهذه الإمامة أضحى بن تومرت على نفسه صفة من صفات البشري حيث وصف نفسه بالمعصوم الذي لا يخطر لان العصمة من صفات الأنباء، وبتلك النظرية يكون بن تومرت قد أدرك زعامة هذه الدينية والسياسية التي انضوت تحتها القبائل وكان لها تأثيرًا على قلوب الناس وخاصة هؤلاء الذين يسودهم الجهل وتسيطر عليهم الخرافات فكانت تعاليمه تلك أشبه بالقرآن الكريم فيقول: (لا يكذب بهذا إلا كافر أو جاحد أو منافق أو واثق أو مبتدع أو مارد أو فاجر أو فاسق أو رذل أو نذل، لا يؤمن بالله واليوم الآخر).

وقد أقنع رجال الغرب بأنهم المهدي الذي تستحيل على يده شروان العالم من الفساد الشامل والظلم المطبق إلى الصلاح والعدل، ويأمر أتباعه بوجوب طاعة المهدي أيضاً والإيام برسالتهم والإذاعة فيشهدون والإسلام لحكمه، ويرى أن طاعته هي طاعة الله ورسوله ذاتها، والانقياد له هو انقياد إلى الله ورسوله، فهو أعلمهم بالله وأقربهم إلى الله.

وكان بن تومرت كثيرًا ما يلقى في روع أتباعه أنه قادر على أن يكشف مسائل المستقبل، فكان يقول لهم: لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة فزادت فتنة.

---

(1) كتاب محمد بن تومرت (أعز ما يطلب)، ص (455، 245)، نفلا عن عتان دولة الإسلام في الأندلس.
(2) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات.
(3) المصدر السابق، ص (9)، 207.
ابتعاده وأظهروا له شدة الطاعة فيقول ابن أبي زرع: (فقد استاء الناس إليه من كل جهة ومكان يابعونه ويتبركون بريته فيأخذ عليهم البيعة ويعملهم أنه المهدى المنتظر حتى علا أمره وقوى سلطانه، وسمى كل من دخل في طاعته وابتعه عليه طريقته بالموحدود، وعلمهم التوحيد باللسان البربري ووضع لهم فيه الأعشار والاحزاب والسور وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن وإنما هو كافر لا يجوز إمامته ولا تؤكل ذبحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز).

واستطاع بذلك ابن تومرت أن يستمتع القبائل إليه وأن يعله من شأن أتباعه حتى يتم الولاء لنظرته، يقول المراكشي: إن ابن تومرت كان يسمى أتباعه المؤمنين ويقول له: (ما على وجه الأرض من يؤمن إياهكم وأنت العصابة الذين يقولون أنى تأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال، وصوب الأمير الذي يصل بهم سوءا ابن مريم ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة).

ثم توعد كل من تسول لهم أنفسهم بمختلفة المهدي ومعارضته أو مجرد الشك في أمره بالويل الشديد وبأشد النكال، وليس له طريق إلى النجاة، يقول ابن تومرت في كتابه: (أمر المهدي حتم، ومن خالفه يقتل، لا دفع له في هذا الدافع ولا حيلة له لزلف).

د- العبادات والمعاملات والحدود:

ينتناول ابن تومرت طائفة من المسائل الدينية في باب العبادات وقد جاءت في كتابه المسمى "موطأ الإمام المهدي" حيث جاءت فيه تلك المسائل على نسق موطأ الإمام مالك، وعلى ما يبدو أن ابن تومرت قد قدم لنا تلك النواحي كما أفاد بها مالك رحمه الله جارية على مذهبه، ويتكون موطأ المهدي من كتابين هما:

الكتاب الأول: يتكلم عن الطهارة، والصلاة، والجنازة، والصيام، والاعتكاف، الزكاة، والحج، والجهاد، والإيمان، والنذور.

(1) روض الفرات، ج (2)، ص (110) وما بعده.
(2) المجلد في تلخيص أشعار الغرب، ص (188).
(3) كتاب محمد بن تومرت نقله عن عثمان، ص (209).
الكتاب الثاني: يتكلم عن الضحايا، وعن العقيدة، والذبائح، والصيد والآشرية، والحدود، والنكاح، والطلاق، والرضاع، والبهبوع، والشفعة، والرهن، والإيجار، والمساقة، والفرائض، والعنق، والمكاتب، والتدبير، والعقول، والقياس، والتدعي، والغضب، والقضيئية، والجماع.

هـ - تكفير ابن تيمورت للمرابطين ومعاداته لهم:
كان ابن تيمورت بارعًا في دعائيه ضد المرابطين إذ استغل بعض مسائل العقيدة والدين، وسخرها في هذا الجانب لأوّي عن الحقية، ومن المواطنين التي هاجم فيها المرابطين وانطلت على أتباعه فآمنوا بها:

1 - مسألة اللحم: إذ كان من عادة المرابطين أن يلتهم رجالهم بنقاب بغض النظر وجهه على حين تسوّر نماذجهم من وجههم، وقد استغل ابن تيمورت هذا ضدهم، فقال عنهم: (وكذلك المجمعون الكفار الذين يتشهبون بالنساء في تغطية الوجه باللباس والتنقب على حين تشبيههم بالرجال في الكشف عن الوجه بلأطم ولي تنقب، فهذا التشبه بهم حرام، ثم أنّي بحاجة على ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "العن رسول الله ﷺ المشهدات من النساء بالرجال والمشهدين من الرجال بالنساء" فقد شملتهم اللعينة جميعًا(1)، ومن كثر سواد قومه فهو منهم وذلك كله حرام، وقال الله تعالى: "ولأترك الزعماء الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثالثون" [هود: 11]. فلعل تلك تمسّك المبالغة والتعتيم في تفسير ابن تيمورت للحديث النبوي الشريف إذ فسره بعيدًا عن حقيقته، ففالمعنة المرحلة في الحديث هي منصبة على الرجال المشهدين بالنساء في التفخيخ واللبس، وهو أمر تسبب انكسار الرجولة، وهذا بل كله يعوق الرجل عن القيام بواجباته التي أوجدها الشعور كالجهاد في سبيل الله ولهما ينتقذ مع العرف السائد والعادات الإسلامية، وعلى حياة الجندية المتميزة بالخصونة والبطش، ولقد كان المرابطون بلا شك متميّزين بالخصونة والبطش ومقدّرهم على السفرية والقتال في سبيل الله، فلا ننسى أن دولتهم قد قامت على فكرة الجهاد، وكم حققوا بخشونهم تلك انتصارات عظيمة منها نصر الزلاقة

(1) كتاب محمد بن تيمورت - عنان، ص (112) مصدر سابق.
المؤرر، ويقول الدكتور عبد الله علام: كان منظور الجندى المراقب الملمش يثير الرعب والفزاعة وتنخلع له قلوب الأعداء، ما يودعد المهدي بن تومرت، لقد عرفنا سابقاً مما استخدم المراقبون اللثام فهو استخدم قديم توارثه الحلف عن السلف وذلك ليقيهم من لفج العواصف والرمال والحبر والبرد.

2- حملة ابن تومرت على المراقبين بسبب ما حدثوا من المناكير والمعارم:
وقد أشارنا إلى ذلك سابقاً حيث ظهر القسام وذاع شرب الدم وأكل أموال النساء والأشباح وسيطرة المرأة واستبدادهن بالأمور وانتشار قطاع الدار الذين يقوهم النساء، فقد كان ابن تومرت على حق في ثورة ذلك، وكما حدث في أخريات دولة المراقبين حدث أيضًا في أخريات دولة الموحدين، فبعد ذهاب المهدي، ثم تولى عبد المؤمن الخلافة ظهر في أواخره من حين إلى حين، وكان يشرب الدم وخاصة ابنه الأكبر والذي حرم منه وللأيام بعد إيمانه لها، وقد ظهرت تلك المناكير في أواخر دولة الموحدين حينما أتتابعا ضعف والتفتك وهذا أمر شائع عندما تتسع القلوب بحب الدنيا.

3- دعوة ابن تومرت إلى شق عصا الطاعة على المراقبين:
يرى ابن تومرت أن المراقبين ليس لهم حق في ولايتهم على المسلمين حيث لا يتعلق عليهم قول الله تعالى: "أطعموا الله وأطعموا الرسول وأولي الأمر منكم" [النساء: 69]، وعلى هذا دعا أتباعه إلى الخروج عليهم ووجهاتهم، لأنهم الكفرة المجسمون والمتكرون الحق، ثم يستناد إلى قوله تعالى: "يا أعدهم الذين أمموا قاتلو الذين يقولون من الكفار وليجدوا فيكم غلظة" [النور: 123]، فهو يعتبر المراقبين كفارة فلا تبع من محاربهم بالسيف.

ثم يلجأ ابن تومرت إلى التأسيس بصنع أبي بكر رضي الله عنه في محاربة مانعي الزكاة من المسلمين فكيف لا يُتجرع بن من من الزكاة وهو لا يحارب الذين أشاروا باللّه؟ فامتنعون عرضاً فرضية الزكاة بينما المراقبون في نظره قد أشاروا باللّه وإن الشرك لظلم عظيم، وهم مانعون الإيمان والدين والسنة.

(1) الدولة الموحية بالمغرب، ص(72).
(2) المصدر السابق نفسه، ص(77).
ولعلنا نلمس التسعي في ذلك القياس الذي جاً إليه ابن تومرت فلا يصح
للمسلم أن يكفر مسلماً آخر نطق الشهادتين، وقد قام علماء المرابطين وعلى رأسهم
مالك بن وهب عدداً من تومرت بالرد على هذه التهم التي ألقها المرابطين فقال
عن ابن تومرت: إنه رجل يكفر الناس ويمنع من الصلاة على أهل "القبيلة" أي يمنع
الصلاة على قلّة المرابطين وأنه يبرد المطلقة ثالثاً إلى زوجها، ويطرح مذاهب
العلماء وكتبهم، ولم يأخذ بمذهب السلف وخرج من الإجماع، واستحل دماء
المسلمين وأمواتهم، كما استحل حريهم، وجعل أموال المسلمين غنيمة. (1) تخمس
كما تخمس أموال الناسري، إلى غير ذلك من ردود مفيدة.

رأى الإمام ابن تيمية في منهج الوهدين

وقد سأله شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عن المرشدة وصاحبتها وهل يجوز
قراءتها فأشار إلى أن ابن تومرت كان مناظراً كاذباً في دعوتهم يحاول أن يثبت لنفسه
المعجزات وأنواعاً من المخابر ليؤمنوا بهدويته، حيث اعتقد البربر أن الموتى
يكملونه ويشهدون له بذلك فتعظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره، فصار يجعل إلى
المبابير يذعن بها أقواماً أحياء ويرأونهم على أن يكملونه إذا ذاعوا ويشهدوا له بما
طلبهم منهم، فشهدوا له بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ وأنه الذي يملأ
الأرض قسطاً وعدلماً كما مثبت جوراً وظلماً، ثم يهدم عليهم النصراً ليموتوا ولا
يظهروا أمره. (2)

ثم أردف ابن تيمية حكاية أخرى تروى عن ابن تومرت وذلك أنه طرأ رجلاً
على إظهار الجنون وكان ذلك الرجل عالماً يحفظ القرآن والحديث والفقه فظهر
بهورة الجنون، والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً، ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ
القرآن والحديث والفقه، وزعم أنه علم ذلك في النام، وعوفي ما كان فيه،
فسموا يحرون ذلك شخصًا، فلما كان يوم الفرقان "التمييز" الذي يميز
في المهدي بين أولائه، فيجعلهم من أهل الجنة ويعتصمون من الفيل، وبين أهل
الناصر الذين يشكون في أمرهم وولائهم فيسكون الفيل، وبناء ذلك قد استحل دماء

(1) الدولة الموحدية بالمغرب، ص٧٧٧.
(2) مجموع كتاب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار التقوى للنشر والتوزيع المجدد الحادي عشر، ص٤٧٧.
الهدف مؤلفة من أهل المغارة المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على
ذهاب مالك وأهل المدينة، يقولون القرآن والحديث كالصحيحين والموطأ وغير
ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة. فزعم أنهم مشيئة مجسمة ولم يكونوا من
أهل المقالة ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيهه
والتجسيم. (1)

ثم ينتقد الإمام ابن تيمية المرشدة التي ألفها ابن تورتمته بأنه لم يذكر فيها شئًا
من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة ولاذكر فيها الإمام برسالة
النبي ﷺ ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث
والحساب وفنون النقي والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر، فهذة أصول
كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة، بينما صاحب المرشدة يتناولها باختصار
شديد واقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجودًا مطلقًا، وهو قول
المتفق على الجمهور والشيعة، وأتواهم ذلك قد أتفق أهل السنة والجماعة، وأهل
المذاهب الأربعة على إبطالها وتضليلها.

ثم يحاول شيخ الإسلام أن ينقض فكرة التوحيد التي ينادي بها ابن تورتمت
فيه مخالفته لعناها الشرعي كما جاء في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله ﷺ قوله
تعلى: {قل هو الله أحد (1) الله الصمد (2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا
أحد} [الخلاص: 1- 41]، وقوله تعالى: {فأعلم أنه لا إله إلا الله و_AST_ID_468
والموثوقين والمؤمنات} [محمد: 19].

ففتاة الجهمية من المنعزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيدًا، فمن قال إن
القرآن كلام الله وليس بخليق أو قال إن الله يرى في الآخرة أو قال: أستخبرك
بعلمه لم يكن موحدًا عندهم بل يسمونه مشهية مجسمًا، وصاحب المرشدة لقب
 أصحاب موحدين اتباعًا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيدًا ما أنزل الله به من سلطان
والخواض في التوحيد الذي أنزل الله في القرآن. (2)

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية، المجلد (11)، ص (478).
(2) المصدار السابق، ص (488).
الموحدون يطلقون المذهبية ويبلغون عصمة الإمام ابن تورمت

الحقيقة أنه لا يصح إلا الصحيح، فكم من دعوات بقيت واستمرت مع الزمن لاستقامة فكرتها وصحة مبادئها، وكم من دعوة ذهبت ولم تعمم طيلة أول فنود فكرتها وسوء نتائجها، وهذا ما حدث مع دعوة الموحدين، فنظرًا لملك الدعوة التي يشتملك الكثير من الأفكار المنحرفة والبعيدة عن الإسلام بما فيها من إلحاح وشرك

بكلما فإن العاملين بها سرعان ما سموا منها وملوها، فهذا الخليفة المنصور الموحد

أعظم خلقاء الدولة الموحدية، وقد أسعدت الرواية الإسلامية بخلاله وصفاته

وامتدح تصرفاته وسياسته وتفسيره في الدوام عن قضية الإسلام، نرى ذلك الخليفة قد هاله الاختلافات في الرأى التي نشبت بين الموحدين في المغرب والأندلس وكثير الفروع التي خاطط لها ابن تورمت في موطنه في مسائل العبادات والمعاملات وغيرها والتأويلات في الرأى من حيث صفات الله وذاته وعمرها من مسائل التأويل التي انحرفت بالموحدين عن جادة الطريق، لذا نرى ذلك الخليفة يطارد علم الفروع

وتلك التفاصيل في العبادات والمعاملات ويربط في أراة المهدى بن تورمت.

وتروى الرواية العربية أن المنصور كان من أشد دعاة المذهب الظاهرى والمناضج

لعقيدة التوحيد، وهو المذهب الذي أظهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي في

أوائل القرن الخامس الهجري، وخلاصة هذا المذهب أنه يجب أن تصاب أحكام

الشريعة من ظاهر القرآن فظاهر السنة فقط، وألا يعتقد في ذلك بالرأى أو الفياس.

وأن يبقى الإجماع محصورًا في إجماع صحبة رسول الله، ويرى من المنصور أنه

عمل الناس على اعتناق ذلك المذهب الظاهرى والنزام الآخر بالظاهر من القرآن

والحديث، وكان ذلك الخليفة يشكو من عدد الآراء والأحكام المذهبية في المسألة

الواحة، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهرى يحمى كثيرًا من الخلافات، وكان

المنصور يجعل ابن حزم ويقدر ويرى أن كل العلماء إذا هم عيان على ابن حزم (1)

كما أن المنصور في أواخر أيامه عن قضية من الشاقية وبذلك أخذ ينوع بين

الانتماءات والمذاهب المختلفة وأن يختلف بذلك آراء ابن تورمت وعقيدة

(1) الفری، نبع العلم من غصن الأندلس الرطيب طبعة القاهرة 1320هـ، وطبعة صادر 1968، ج

(2) ص(162).
وعلى ما يبدو أن أغلب خلفاء الموحدين كانوا يجاهبون إلى المذهب الظاهر
سراً وإن لم يفصحوا عن ذلك، حيث كانت الدولة الموحدية لا تزال في بدايتها
وهي لا تزال في بدايتها، وكانت عقيدته التوحيد تعلم على كل ما عداه، وكان من أثر ذلك أن أزهير علم
المحدث في عهد المنصور وحظى طلبه بالتشجيع والرعاية الفائقة.1)

وإذا كان المنصور غير متحمس لإمامة المهدي ولم يكن كذلك من المؤمنين
بعضهم، فإنه لم يظن أن يعلن ذلك أو يتخذ خطوة عملية ضد تلك النظرية وإنما
الذي اتخذها وأقدم عليها بكل ثقة وجرأة هو الخليفة الأموي الموحد، حيث أصدر
رسامه إلى سائر البلاد لإزالة اسم المهدي من الخطة ومن السكة وموه اسمه من
المخاطب، وقطع النداء عند الصلاة بالسلاسلات البربرية مثل: (ناصليت الإسلام
وسوءيد، وتاردي، وأصبح الله الحمد)، وغير ذلك مما كان العمل جاريا عليه.

ولهذا يجب أن يأتي خليفة موحد قيصر الفكر الخاطئة ثمة يحوزه ليريح
الناس من جراء العنت الذي لا يقبله من التطبيق العملي للفكر المخلوق، فينذع المأمون
في كتابه الرسمي الذي أنشأه بنفسه أن وصف ابن تومرت بالتهديد وبالمهام
العصراء، وهو نفس وأمر باطل، وإن يجب نبذه والقضاء عليه.

وقد أورد لنا صاحب البيان الغرب نص هذا الكتاب الذي يعد حديثا خطيرا في
تاريخ العقيدة الموحدية نقل منه بعض الفقرات المهمة: (ولتعلم أئذى بن نذي الباطل
وأظهرنا الحق، وأن لا مهدى إلا عيسى ابن مريم، وما سيهي مميتا إلا لأنه تكلم
في المهدي، وذلك بدعية قد أزمنها، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد
أزمنها فلم تكن المصممة عنصرا لا تثبت له عصمة، فلذكرا، إلا أزمنه على نفسه... وقد
كان سيدنا المنصور رضي الله عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا وأن يرفع للامة
الخفق الذي رفعنا فلم يسبب ذلك أملنا، ولا أمل إلى إلهنا)2) ويقول: (إذا
كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن أن لم يقدر بأي يأخذ
كتابه، أف لهم قد ضلوا وأضلوا؟)

1) المراكشي، المجمع في تلخيص آثار المغرب، ص158 (157).
2) ابن عذاري القاسم الثالث، ص268 (267).
3) المصدر السابق ونفس الصفحة.
��أخص على منهج ابن تومرت الإصلاحي وحركة التغيير

ولا شك أن عمل المامون كما عرفنا سابقًا وهو إلغاء المهدوية وإمامها المعصوم

بعد أعظم تصحيح لدعاة قامت لأنه تصحيح في أصول العقيدة الموحدية التي

تغافل الفكر الإسلامية وعقيدتها الغرام حيث عاش الكثير من المغارة ردًا من

الزمن لا يعرفون إلا عقيدة التوحيد التي آكرها ابن تومرت في «مرشدته» والتي

صارت كالقرآن الكريم في قدميها، بل نرى المغارة البسطاء يتركون القرآن والسنة

وينقلون على تلك العقيدة المهذوبة المنحرفة، ومن المآخذ التي أخذت على تلك

العقيدة:

1 - إن فكرة الإمام المعصوم والمهدي المتطرفة هي أسطورة خرافية فلا معصوم إلا

الأنبياء رضوان الله عليهم، واتصاف ابن تومرت بالإمام جعل له الحق في نظر

أتباعه أن يشرع ما يشاء ويسن لهم سنته التي يريدها متنبئاً بالأنبياء، وهذا

انحراف ما بعده انحراف، وقد شاهدنا ذلك في محاولة الموحدين تشبُّه ابن

تومرت بالنبي حينا جرح في معاركه ومحاولة حمله والذود عنه، ولعل

فكرة الإمام هذه والتي أخذها ابن تومرت عن الشيعة الفاطميين جعلته يستأثر بها

ويلبج عليها في دراسته لأتباعه لأن الإمام هو ظل الله في أرضه كما يرى الشيعة

وهو مصدر السلطات وهو مخزن العلم، وهو مصدر الفنوى، فلا اجتهاد ولا

قياس لأن العلم كله عند الإمام وبذلك يكون ابن تومرت انحرافًا بالغًا

وأهداف جماعة الإسلام في المغرب إحساسها الدافع والأصيل بحب الله ورسوله إذ

شاغل هو تلك المكانة في قلوب أتباعه.

فنعم ما قام به المامون من القضاء على تلك الإمامة وعلى المهدى المتطرفة فهي

أسطورة يستغلها الدعوة ليضللوا بها العباد، كما أصلها من فكرة وما أتعسها من

أسطورة.

2 - كما يؤخذ على ابن تومرت إغرائه في التأويل وآيات الصفات فهو بذلك

يكون قد خرج عن روح الجماعة التي تؤمن بصفات الله، كما جاءت من غير

تأويل ولا تعطيل، «ليس كمثل شئ وهو السمع البصير» [الشورى: 11] وبذلك

52
جر إلى المنطقة خلافات المعتزلة والأشاعرة والجمهورية من ينفون الصفات، والذين
تأثر بهم في المشرق إبان دراسته، وهم بالتالي بعيدون عن روح الإسلام وعما آمن
به أهل السلف.

3- وقع ابن تيمية في محظورات التكفير حينما كفر المراقبين وتعتيم
بالمجسمين الكفار، وهم على فطرة الإسلام وعلى عقيدة التوحيد، ولم يقرروا
بكلمات الكفر، ولم ينكروا معلوماً من الدين بالضرورة، ولم ينكروا شيئاً من
أحكام القرآن وأقوال الرسول ﷺ، كما أنه منع الصلاة على أمواتهم، واستحل
دماء المسلمين وأموالهم من المراقبين.

4- كما يؤخذ على ابن تيمية تلك البدع والخروج والكراكات التي حاول أن
يثبت بها إماميته حيث استعان بالمفسرين الذين توأموا معه داخل القبائ أحياء،
كما فلنا سابقاً، ثم نداءهم وتحدث معهم أمام أتباعه فيشدون له بالإمامية
والمهودية، وهذه الحيل بلا شك تفقد الرجل مصدقته وعدله وتثبت انحراف
دعاوته عن أهم مبادئ الإسلام وهو توحيد الله.

5- وقد أكثر الرجل من البدع التي لا أصل لها وكل بدعه ضلالاً تجب
محاربتها والقضاء عليها، فمن البدع التي استحدثها إدعاؤه علم الغيب والإخبار
عن نتيجة المعركة قبل خوضها، كما سن لهم بعض التسبيح والعبارات والزمامهم
بها صياحًا ومساء، فاتقن كاهل الناس بهذه التسبيحات وغيرها من المراسم.

6- كما نرى أنه أهل الاجتهاد والقياس وبذلك عاش المسلمون معيشة مغلفة
لا يستطيعون التأقلم بين معطيات الحياة الجديدة وبين تصور العقيدة المهودية
الجديدة، مما ضج أغلب الناس وعلى رأسهم الخلفاء الوهودون أنفسهم والتي
أسفرت في النهاية عن إلغاء مراسم المهدي وإبطال إمامته الزائفة.

هذا هو منهج الموحدين الإصلاحى وحركتهم في التغيير إذا ما قورن بمنهج
المراقبين سالف الذكر لوقتنا على كثير من التأملات التي لا بد لنا من أن نقف عليها،
فإن الإسلام ذو معنى فقيح اتبع لأحداث الماضي ويتبع لأحداث الحاضر وسوف
يستوعب أحداث المستقبل بمشيئة الله تعالى، ولقد شاهد جماعات كبيرة وطوائف
متباينة واختلافات في الرؤى بعضها أصاب وبعضها أخطأ وهكذا تدور عجلة الحياة.
ولابد أن نقف على أخطاء الماضي لنصب خطوات المستقبل ونسير بخطى ثابتة.
وبالمقارنة بين منهجي الدعوتين لوجدنا هناك نقاط التقاء وتشابه، ثم نقاط اختلاف وتباين كان لها أثرها الكبير على سكان المنطقة.
فمن نقاط التشابه أن كلتا الدعوتين قامت على يد فقيه مغربي ضيق في العلم متضñe في الدين وعلوم الشرع، وأن كلا منهما دعوة مغربية صرفة قامت على تخفيف الفياليل البربرية ومساندة العشيرة لفقيهاها، وأن كلا من الدعوتين وجدت أنصاراً وزادت أفراحاً، وكنت جيوشًا قوية استطاعت بها أن تقيم دولة مغربية كبيرة، ثم تمت لتلبس سلطاتها على بلاد الأندلس وتحقيق الوحدة السياسية لشعوب تلك المنطقة لأول مرة في التاريخ.
أما الفروع والتبان بين الدعوتين فهي واضحة، فدعوة المرابطين دعوة مرجعيتها الإسلامية في أنقى مبادئها وأجلها متصلة في كتاب الله وسنة رسوله وسيرة التابعين، وما أفضيت به عقول الأمة المسلمة من اجتهادات وإجماع.
ومن هنا فإن الفكرة الإسلامية التي بلورتها دعوة المرابطين لا خلاف حولها، عاشت في عقول الناس وفي صدورهم وعاشت رمزًا للدولة إلى حين، مكونة أهدافها وضابطة سلوكهم، ومجالات انشطتهم المختلفة، وانعكس ذلك على الفرد والانتماء والمجتمع، ثم انعكس أخرى على الدولة الإسلامية الكبرى.
أما مرجعية الدعوة عند الموحدين فهي قائمة على تشريع بشرى مصبوغ بالروح الإسلامية، وإن كان فيها بعض المبادئ والتشريعات والعبادات من تعاليم الإسلام، ووضعها داعية الموحدين فهي أيضًا تهدف إلى مساندة فكرة الإمام المعصوم والمهدي المنتظر، واستغلالهما في تكوين جماعة قوية، يوجد بها بقائل مصمودة ويصنع منها حلقًا قويًا ينذل به برنامجه.
وهنا قد يظهر تساؤل: هل كان لحركة التغيير عند دولتي المرابطين والموحدين أثرها الفعال في إطالة عمر الدولة، والسجال بعيد آخربً؟ هل استطاع كل من الدولتين أن تتحضر الفكرة الإسلامية وتعمل لها طوال عصور حكمهما؟
من المعروف تاريخيًا أن دولة المرابطين لم تتعمر طويلاً فقد هزمت وانتهت وهي لم تجاوز السبعين عامًا وعلل السبب في سرعة زوال تلك الدولة يرجع إلى أن دولة المرابطين لم تحتضن "الفكرة الإسلامية" طوال عصور حكمها إلا إبان حكم الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، والامير يوسف بن تاشفين، فقد بدلاً الجهد لتبقي الفكرة الإسلامية قائمة في عقول الناس وفي أرواحهم، وجمعت يوسف بن تاشفين أهمل أبناؤه الأمراء شأن الدعوة ولم يعملوا على تحقيقها بالاجتهاد حتى تلائم حياتهم مع المنهج الإسلامي الصحيح، ففاغبت الفكرة وانحرفقت الحياة وساءت أحوال البلاد، ثم جاء الموحدون فاجهروا على الدولة وقضوا عليها قضاء ميرماً بدلًا من أن يسبوا النصح للحكام ويتضامنوا معهم في الحكم فشقو عسا الطاعة وخرجوا عن الجماعة.

أما دولة الموحدين فقد طال أمدها شبيئًا ما عن دولة المرابطين ولكن تعد هي الأخرى من الدول التي زالت بسرعة أيضًا لأنها لم تقم على مرجعية إسلامية صحيحة إذ قامت على فكرة الإمام المعصوم والمنهج المتطرف الذي استبد فيه الإمام بكل شيء، ولم كانت هذه الأفكار منحرفية ملهمة الناس وسخرها منها، وقتل بسبيها الآلاف من أبناء القبائل بل أبديت قبائل بأكملها، جعل الناس يضرون لهذه الدولة الشر، ويجارون الموحدين في الظاهر، وقد شعر حكام الموحدين بذلك فعملوا على تصحيح تلك العقيدة التي وضعها لهم الإمام المهدى ثم ثبت لهم أخيرًا فشل تلك العقيدة في أن تبنى رجاءً وإن أوجدت دولة، فسارع الموحدون أنفسهم إلى إلغاء ممارسات المهمودية وإبطال عصمة الإمام ابن تومرت، ورجع المغارة إلى التبع الصافي ومعين الإسلام الذي لا ينضب، ففيه الغناء عن أمثال تلك الدعوات المشبوهة والمتحركة.
الباب الأول
نشأة الجيوش في دولتي المرابطين والموحدين
الفصل الأول: نشأة جيوش المرابطين وتطورها
الفصل الثاني: نشأة جيوش الموحدين وتطورها
الفصل الثالث: شروط التجنيد وتنظيمه في الدولتين
الفصل الأول

نشأة الجيوش المرابطية وتطورها

مر الجيش المرابطي في تطوره بعده مراحل متميزة تبعًا لطبيعة دولة المرابطين ومرحلة قيامها، ووفقًا للهدف الدعوي والاستراتيجي لكل مرحلة، فجاء ذلك الجيش مثيرًا بمؤثرات متعددة منها المؤثرات الدينية والسودانية والمغربية ثم الأندلسية، وقد لعبت العصبية القبلية فيه دورًا بارزًا. تكاد تكون ملموسة آثارها في قيام هذا الجيش، ولكنها عصبية مهذبة تعلَّم الإسلام، وردًا على فقه المرابطين "عبد الله بن ياسين" إذ اسست معها حدود الفقهية وخصوصيتها إلى أفق إنساني أرحب وأوسع تألفت فيه قلوب رجال تلك القبائل وتناسوا ما كان بينهم من اختلافات وخصومات حيث جمعهم جميعًا هدف واحد هو الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية بمنهج جديد يحرر المغاربة من الشعوذة الدينية والإغراق في البدع والتشيع المفرط وسموم الفرق الإتحادية الأخرى.

ويمكننا أن نتبع مراحل تطور الجيش المرابطي على النحو التالي:

المرحلة الأولى: التأسيس والتكوين

بدأت النواة الأولى من جيش المرابطين في رباط "عبد الله بن ياسين" فقيه المرابطين وداعيهم الروحي، والذي أعد فيه مريدية إعدادًا تربويًا دينيًا عمليًا ونهج بهم مهجًاً سلوكياً قائمًا على العلم والعمل والجهاد في سبيل الله، وقد بدأ ذلك الجيش بسرعة نشر من قبيلة "جذالا" ونشر وفود من "اللمتونة" وهو "بحي بن عمر اللمنتوني" في صحبة فقيهم "ابن ياسين" ومتصرف الوقت انضم إلى هؤلاء التفرقة كثيرًا من الرجال بلغوا الألف رجل قد أخلصوا الطاعة لهذا الأمير (1)، فبارك طاعتهم وسماعهم "المرابطين" نسبة لمرابطتهم في تلك الرابطة التي تلقوا فيها تكوينهم الروحي والعربي (2)

(1) ابن أبي زرع، روض الفرقاط، ص (79).
(2) انظر طرق التربية الدينية والروحية والعسكرية في رابطة ابن ياسين في المدخل التاريخي.

59
وقد أحسن ابن ياسين تربية وتكوين هذه الطائفة وتحويلها إلى جماعة حربية تحمل السلاح لتحقيق أول هدف من أهداف الرباط وهو دعوة قبائل المسمى للدخول في الإسلام وانضمامهم لدعوته، وكان منهجه في تربية وتكوين هذه الجماعة وتحويلها إلى جماعة مسلحة كان يقوم على الآتي:
أ- كان يدق الاختبار والاصطفاء لكل من يريد الانضمام لجماعةه، فكان يجري له اختباراً بدنياً ونفسياً شاقاً، إذا اجتازه عد جنبياً في هذا الرباط وكان يفرض عليه أن يطهر نفسه من الدنس وأن يقام عليه الحدود التي شرعها الإسلام.
ولقد كان "ابن ياسين" محققًا في اجتهاده هذا فهو من باب التسعير والرأي فيه للإمام فهو يريد أن يحقق من ثبات إيمان رجالة وولائهم للدعوة الجديدة ومقدرتهم على تحمل مشاق الجهاد وتعبه، وليس هذا يغرب فإن هذا الاختبار شبيه بالاختبارات التي تجريها الكليات العسكرية في عصرنا الحاضر حيث تقيم لطلابها اختبارات بدنية ونفسية شاقة لتنتقي منهم الصفوة القادرة على تحمل مشاق الحياة العسكرية وأعباتها.
ب- وإذا كانت الطاعة من ضروريات الحياة العسكرية فقد حرص "ابن ياسين" على غرسها في نفوس أتباعه لتحقيق الانضباط التنظيمي وقد ساعدت على ذلك مدى ما يتمتع به من حب هؤلاء الناس له، ومدى ما يتصفون به من بساطة وسطحية، وقد ظهرت آثار ذلك واضحة جلية عندما قالوا له: "ألب الشيخ المبارك منا مما شئت تجدنا سامعين طائعين، ولو أمرنا بقتل أبائنا لفعلنا".
ج- وكان هدف "ابن ياسين" من هذه القوة تكوين هيكل عسكري ثوري يتميز بالبساطة يساند الدعوة إذا احتاج إليها فتكون قوة رشيدة منضبطة بمقاييس الدعوة وغاياتها، ثم قسم هذه القوة إلى عشات أو خمسات، وعين على كل عشرة منها عريفاً أو نقيباً يكون أميراً لها ومسئولاً عنها سواء في حياة الرباط أو في تبليغ الدعوة إلى الأهل والعشائر، وقد اختار لهذه المجاميع قائدًا عسكريًا سياسيًا هو يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم جدالة (2) كقائد عسكري ثم من بعده يحيى ابن عمر اللتموني ثم أبو بكر بن عمر اللتموني من بعده، وهؤلاء القواد كانت مهمتهم
قيادة هذه الجماعات في الحروب بينما تفرغ "ابن ياسين" للتوجه الدينى ونشر الدعوة بنفسه.

- وفر "ابن ياسين" احتياجات الجيش من المال للإفتقاق على الجند، وشراء السلاح فجميع الزكاة والعشور واشترى منها السلاح والخيل، ودرب الجند على الحرب وأسلاب القتال (1).

ومن البدهى أن تزايد أعداد الجيش المرابط الذي خرج من الرباط على النحو الذي أعد "ابن ياسين" داعية المرابطين فانضمت إليه أعداد غفيرة من البلاد التي دخلت في دعوة المرابطين وأخلصت لدعوتهم من بلاد السودان وبعض حشود من قبيلة جدالة ومنثونة ومسوقة وملطة.

وقد لعب "ابن ياسين" دورًا بارزاً في تأليف قلوب هذه القبائل التي تنتمى إلى عصبية واحدة هي "عصبة صناعة الجنوب" حاملة السلام وقد استجابوا له أبا استجابة إذا رأوا أن الأمر قد تجاوز حدود الشخصية القبلية وأصبح دعوة دينية تناصر الحق وتدعو إلى إقامة النموذج الإسلامي الأمثل، وقد من الناس إحساس جديد يعبر عن تأثير قوى لدعوة الإسلام الصحيح في ظل تلك العصبة الجديدة المؤمنة.

ويدخل قبيلة مثنوئ وسعتها من القبائل في دعوة المرابطين يكون ابن ياسين قد حقق هدفه الأول الذي خطط له وهو توحيد قبائل المثلثم أو صناعة الجنوب الضارية في الصحراء، وأصبح لهذه المرحلة جيش يناسبها يتألف من مزيج قبلي برئاسة أمير لمنى هو "يحيى بن عمر الفرنسي" الذي وكل إليه قيادة هذه الجيوش.

وبذلك يكون قد انتهى الدور الأول من أدوار الجيش المرابط الذي يسمى بالصفات الآتية:

- كان هذا الجيش بسيطًا في نظمه وتكوينه بلائم طبيعة الصحراة التي عاش فيها المثومون، وتمثل تلك البساطة في نظام إمته الذي كانت مهنته مساندة الدعوة في مراحلها الأولى وتأمين حرية نشرها واستخدام القوة كما يريد داعيهم فهي قوة رشيدة تساند الدعوة وتؤازرها سياسياً ودعاويًا، وعسكرياً إن للزم الأمر.

(1) روض الفرات، ص(80)، ابن خلدون، ج(1)، انظر ص (183).
كما تمثلت البساطة في طريقة قتاله وسهولة الإشراف عليه إذ كانت الروح المعنوية والموالاة للدعوة والالتزام الخلقى والأديبي قد أعطتهم عن الكثير من الأنظمة.

ب- تزايد أعداد جيش المواطنين تباعًا بدخول القبائل في الدعوة الإصلاحية وحركة التغيير التي يقودها "ابن ياسين" بدليل أنهم عندما توجهوا لمكافحة "جدالة" قد استعد لها المواطنين بثلاثين ألف مقاتل (1).

ج- قد غلب الطابع الصحراوي على تسليح هذا الجيش فقد كانت أسلحة بحرية بسيطة تتالف من درق اللمط والقناطر الطوال (2) والمزاريق المسنونة (3)، فقد يحمل الرجل منهم عدة مزاريق في أك واحده (4)، كما كانوا يعتمدون في قتالهم على الأبل ولا يكترون من الحيل ويفضلون القتال مترجلين.

د- أما نظام إمارة الجيش في هذا الدرس فقد تولى قيادة الجيش ثلاثة من الأمراء هم "ياحى بن إبراهيم الجذالي"، ثم "يحيى بن إبراهيم بن عمر المعمول" ثم أخوه أبو بكر بن عمر المعمول، والملاحظ من خلال هذه الأسماء أن ابن ياسين قد نقل قيادة الجيش من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمنوة، وقد كان بلا شك - صائبًا في رأيه إذا أنه بهذا التصرف يكون قد ضمن تأيد أكبر قبيلة من حامية اللام وقبلة لمنوة التي كانت تحت يدهم وحيب الناس لها.

ه- أما طرق القتال فقد كان قتالهم يقوم على نظام الصف- كما سنعرف بعد- إذ يصفون الرجال صفوفًا متراصة ويقدمون أمامهم رجل بذلة رايًا يتأثرون بأمروا ويقفون ما وقفت منصته، وإن السلاح تلك الراية جلسًا جميعًا فكانوا أثبت من الهضاب (5)، وكانون لقتالهم شدة وآس ويثرون أمام العدو ولا يفر من الموت.

المرحلة الثانية: التمكين لقيام دولة المواطنين

هي تلك المرحلة التي أعد فيها الجيش المواطنين إعدادًا حسناً تناساب مع أهمية الدور الذي سيلعب في هذه المرحلة وهو الوحدة بين قبائل "صقليه"، بعد توحيد

(1) البكري، المغرب انظر، ص (167).
(2) الخليل الموشية انظر، ص (111).
(3) الصدر المنشاوي، سراج الملك المغربي، ص (176).
(4) البكري، المغرب انظر، ص (167).
(5) المصدر السابق نفس الصفحات، الخليل الموشية انظر، ص (101).
صناعة الجنوب تطلعت القيادة المراقبة نحو المغرب لتوحيد "صناعة الشمال" وضمها إلى "صناعة الجنوب" وقد قدر المسؤولون خطورة هذا الاتجاه وصعوبته إذ سيواجهون خصوصًا عنيدًا طالما نازعهم العداء من قبل، ذلك الخصم هو "أهل زانتا" بحشودها الجهلاء الذين وقفوا يتبرعون بتلك الدعوة الناشئة وقوتها الخفية التي قامت في الصحراوين يوذرو الإجهاز عليها وإطفاء نورها الذي يهدد ديارهم ومملقهم ومصالحهم الخاصة، وقد عملت قيادة الرابط على دعم جيوشها وتجهيزها تجهيزًا قويًّا لمواجهة تلك المرحلة الشاقة وتحقق الهدف الاستراتيجي الثاني الذي تطعت إليه تلك القيادة وهو توحيد قبائل "صناعة الشمال" و"صناعة الجنوب" كما فإننا رأين من وراء ذلك ربط إقليم الصحراوين الجنوبي بشمال المغرب والسيطرة على خطوط القوافل المارة في الصحراء من "أوغمشة" جنوبًا إلى "سجماستة" شمالًا، وفي اعتقادنا أن هذه المرحلة هي مرحلة مصير لتلك الدعوة الناشئة المتصلة للتوحيد وقيام الدولة فإنا أن كتب لها البقاء والظهور إما الإخفاق والفناء، ولكن نقف على طبيعة ذلك الجيش ينغي أن تدرسه من خلال جانبين:

أولاً: من حيث الأوضاع السياسية والدعوة:

لقد تيّزت تلك المرحلة بالتوافق التام بين القائمين على الدعوة والآمراء السياسيين آنذاك توافقاً تامًا كان من شأنه تحقيق حركة التغيير وإقامة مشروع النهضة الإصلاحية حيث اجتمع الفقيه "ابن ياسين" داعية المرابطين مع الأمير "أبو بكر ابن عمر المطموح" القائد السياسي إبان تلك المرحلة واجتمعت كلمتهما على تغيير الانحراف العقدي والضلال والمنكرات الشائعة في بلاد "المغرب والصحراء" فقد أرسل فقيه الدعوة "ابن ياسين" دعاته وتلاميذه إلى قبائلهم وأهلهم يدعونهم إلى الإسلام الصحيح وترك المكرات والانضمام إلى حركة المرابطين الإسلامية التي تدعو إلى الله على بصيرة، وقد لاقت هذه الدعوة صدىً كبيرًا من أغلب رؤساء القبائل حيث وجدوا فيها قضاء على مصالحهم الخاصة وثرائهم القائم على الاحتكار والاستغلال وتسخير الأفراد. بينما وجدت صداها في قلوب المواطنين على المستوى الشعبي ولكنهم لا يملكون الجرأة في الإقدام والانتماء إلى الدعوة خوفًا من أسبادهم.
وقد أراد "ابن باسين" أن يتدرج ويصعد بدعوته مرحلة أعلى من مرحلة التنظيم والتكوين ولا وهي الدعوة إلى إقامة مجتمع مسلم له مقوماته وتصوراته الإسلامية ليظهر بمجمع أو دولة موحدة تضم طرفين "صحابة" في الجنوب والشمال مكونة دولة المرابطين وهو الهدف الأسمى في تلك المرحلة.

وقد رأت إدارة المرابطين إجراء حركة تغيير وإصلاح لذلك المجتمع لتنويث الشمار المرجوة التي يهدفون إليها، وكانت حركة التغيير تلك التي اتبعتها إدارة المرابطين حركة انطلاقت من تعاليم القرآن والسنة وليس لها مرجعية أخرى سوى التشريع الإسلامي وبخاصة الفقه المالكي.

كما تميزت حركة التغيير عند المرابطين بأنها حركة قام بها المرابطون أنفسهم ومنبثقة من إرادة هؤلاء الملثمين حيث جاءت تعبر عن احتياجاتهم الخاصة والعامة.

كما كانت تلك الحركة تتميز بتغيير مستمر وليس وقتية ولم تنته تلك التغييرات مشيا بموت داعية أو أمير ولكن ظلت مؤثرة في نفوس المرابطين إلى مايقارب من خمسة سنة، وعليه من أسباب نجاح ذلك التغيير أنه كان متدرجًا إذ مارحل ساهمت في ترسخ مفاهيم الحركة الإسلامية في نفوس سكان المنطقة فقد بدأت الدعوة مرحلة الرباط، ثم تدرجت إلى قبول أفراد جدد ثم تضافعت حتى وصلت لآلاف مرابطين، ثم انتقلت من مرحلة التنظيم تلك في الرباط إلى المرحلة التالية لها لذا كان تدرجها وفقًا للسن الكونية المتبعة.

أما دور الجيش فكان يساند منهج التغيير عند الجماعة وقد ظهرت تلك المساندة في نموذجين من نماذج التغيير هما:

- التغيير الجذري: وذلك عن طريق العمل الشعبي الذي يستهدف تغيير صفات سكان المنطقة وتغيير أفكارهم ومعتقداتهم، وقد تم ذلك عن طريق إرسال الرسل والدعوة إلى القبائل ليقنعونهم بفكرة التغيير، ففي عام 447 هـ - 1055 م نرى أن أهل سلجماسة ودورة قد اجتمعت كلمتهم على مسجد "ابن باسين" برغبونه في أن تصل إليهم الدعوة ليخلقهم من ظلم "مسعود بن واندين الزناتي" وقومه من المغراويين. فتشاور "ابن باسين" مع إدارة الرباط فقرر إرسال جيش من المرابطين إلى بلاد "درعة" واشتكى معاهم "ابن واندين" وانتهت المعركة بهزيمته ومصرعه ودخلت "سلجماسة" في دعوة المرابطين.
- التغيير الفوقى: وهو ذلك التغيير الذي تم بقوة الجيش وذلك بإرغام رؤساء القبائل على الدخول في الدعوة أو محاربتهم وهذا تغيير يتم من أعلى إلى أسفل أي من قمة الهرم إلى أسفله الذي ساهم فيه كل من الأميرين: الأول "أبو بكر بن عمر اللثمونى" في الصحراء حيث سانده الجيش في تأمين الدعوة الإسلامية ونشرها في بقاع كثيرة في أرض الصحراء، والأمير الثاني هو "يوسف بن تاشفين" الذي قاد نصف الجيش الآخر وسعى إلى تكوين وتشييد دعائم المجتمع المسلم في المغرب الأقصى حيث استطاع توحيد قبائلها على النحو الآتى:

أ- في سنة 448 هـ أتى جيش المرابطين بقيادة "يوسف بن تاشفين" لغزو بلاد السوس وتمكن من احتلال "أردوانت" وظهر تلك المدينة من الروافض الخارجين عن الإسلام وأعاد الناس إلى الإسلام الصحيح.

ب- في سنة 449 هـ - 1057 م افتتح "يوسف بن تاشفين" مدينة "أغمات" وهرم وإلبها "الفتوح بن يوسف بن على المغراوي"، ثم اخضعاً من أعماق قاعدة عسكرية جيوشهم.

ج- ثم سار المرابطون لقتال "برغواطة" وهي قبيلة مملحة والتي تدين بنى لهم ادعي النبوة وهو صالح بن طريف الذي استقبل تعاليمه من تعاليم اليهودية وقد تمكن من هزيمة تلك القبيلة وتمزيقها وإعادة الخارجين فيها إلى الإسلام.

د- ثم تمكن بعد ذلك "يوسف بن تاشفين" من فتح بلاد "المغرب الأقصى" سنة 454 هـ في مدة تقارب الثلاثين عاماً استولى فيها على أغلب البلدان التي بأيدي الزناتين، واستولى على "فاس" ثم على جميع بلاد الريف حتى مدينة "طنجة" عام 450 هـ، ثم مدينة "فاس" عام 462 هـ ثم جبل "غيانة" ومعظم أحوار "تازة". كما سبر "يوسف بن تاشفين" جيشاً عام 470 هـ وانتصر به على "الحاجب بن سكوت" وتم افتتاح "طنجة" باكملها ثم أتى "يوسف بن تاشفين" بجيوبه إلى "تلمسان" لمطاردة الزناتين وقد استطاع هزيمة "معمل بن يعلى المغراوي" ثم اتى "يوسف" بعد ذلك نحو "هران وتنس وجبال وان شريش" حتى وصل إلى مدينة الجزائر بالقرب من دولة بنى حماد وتوقف عندها.
ثم عاد إلى "مراكش" عام 475 هـ بعد جهد طويل تمكن به من توحيد المغرب والسيطرة عليه(1).

وهذا ما تعنيه مرحلة السيطرة والتمكين والتي ضمت قبائل المثمين جميعها في دولة واحدة على رأسها أمير سياسي وقائد عسكري محترم وقبل ذلك رجل مسلمًا نشأ في رابية "أبو ياسين"، فلا غرابة إذ أن تكون السياسية والدين صنوان لا يتنافزان في تكوين النموذج لدولة إسلامية كبرى، ولا غرابة أيضًا أن يكون القائد العسكري المسلم فقيهاً وعالماً وأديباً وسياسيًا بارعاً إذ كان قدوة لرجاله من ناحية ونموذجًا إسلاميًا رفيعًا أمام عيون البلاد المفتوحة.

ثانيًا: من حيث الأوضاع العسكرية:

1. لقد كان التجنيد في المرحلة السابقة للجيش وهي مرحلة الرباط إلزاماً أديباً، فكل من انضم إلى الرباط يعد جندياً به وهذا التزام خلقى وديني يلزم به المرابط بدأ في تعامل الدين وحذى الفقه للطهر بالشهادة وتبع شروط الله، أما نظام التجنيد في هذه المرحلة الثانية فقد أدخل "يوسف بن تاشفين" عليها تطويراً حيث أدخل التجنيد الشامل لكافة طبقات المجتمع وأصبح التجنيد يشمل نظامين هما التجنيد الإلزامي والتجنيد التطوعي، حيث كانت أعداد غفيرة من المطوعة يتذوقون للانخراط في سلك المجاهدين طمعاً في ثواب الله بجانب التجنيد النظامي.

2. ومن الطبيعي أن تزداد أعداد جيوش المرابطين في هذه المرحلة نظرًا لدخول رجال قبائل الخلف الأول من صنهاجة الجنوب في زمرة المرابطين، فعندما غزا المثمين درعا وسجسامسة وهذه أول غزوة لهم في بلاد المغرب، كان عددهم ثلاثين ألف مقاتل(2).

وبعد استيلائهم على هذا الإقليم انضم إلى جيشهم أعداد كبيرة من الجنود مما جعلهم يضطرون إلى بناء قاعدة قريبة من سجسامسة تعرف باسم تبليل تستقبل الصنهاجيين الجدد من أبناء عمومتهم.

(1) انظر الأحداث التاريخية فيما مبنى في روض الفردوس، ص(89)، وابن خلدون، ج(1)، ص(185).
(2) وما بعدها، المغرب، ص(119) وما بعدها، والحليل الموشي، ص(136)، وما بعدها.
(3) البكري، المغرب، ص(167).
وفي سنة 453 هـ حديث زيادة جيش المرابطين وقد أشارت المراجع إلى تقسيم جيش المرابطين إلى قسمين أحدهما يقوده يوسف بن تاشفين والآخر يقوده أبو بكر بن عمر اللمتوني في الصحراة(1)، وقد ميز يوسف بن تاشفين جيشه فوجه أربعين ألفاً وبذلك تكون قوة جيش المرابطين في ذلك الوقت مابين ألفين ألف مقاتل، وقد جاءت هذه الأعداد من رحالات القبائل التي خسمت لهم مثل درعة وسجلماسة وجمبوزية وإغمات وبولق المصادمة بجبال درن، وكانت هذه زيادة زيدة هائلة بدليل أن أهل أعمان عاصمة المرابطين الأولى قد بادروا بالشكوى للأمير أبو بكر بن عمر من عبث الجنود وضيق المدينة بهم مما جعله يصدر لتخطيط مدينة مراكش لنزول جيشه وتسهيل هذه الأعداد الغفيرة من الجنود.

وتضعينا المراجع تقديرًا آخر لزيادة حشود الجيشهات المرابطية، فقد تفتح يوسف بن تاشفين لمدينة فاس وهي من العواقل الحصينة والتي أعد لها يوسف أعدادًا غفيرة من الصنهاجيين، كان عدد جيشه يزيد عن مائة ألف مقاتل(2)، وتقسم إلى خمسة جيشه إذا دفعت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو في أكمل نظام(3).

3- لقد عرفنا سابقاً أن قيادة الجيش في مرحلة الرياط قد أُسندت إلى ثلاثة من القواد كان آخرهم الأمير "أبو بكر بن عمر اللمتوني" الذي تجمعت حوله قلوب المرابطين فهو ابن لموته أقوى قبائل المرابطين، والذي عمل جاهداً على تحقيق أهداف "ابن ياسين" الذي سُلّم له زمام الأمر بعد موته، فقد جيشه إلى النصر في أكثر معاركه التي قادها في بلاد المغرب، وفي سنة 453 هـ تذكر المراجع أنه رحل إلى الصحراوة بصف جيشه لفض النزاع الذي نشب بين قبائل المرابطين هناك، ومنذ هذا التاريخ انقطعت أخباره في أغلب المراجع، ولكن الكثاب تاريخياً أن دعوة المرابطين لم تقطع في الصحراوة بل ازداد عدد الداخليين فيها حتى شملت أغلب بلدان السودان الأفريقي مثل السودان وموريتانيا وغانا والصومال والسنغال ومالي،

(1) ابن خلدون، ج(6)، ص(377).
(2) ابن أبي زرعة، روض الفاطميين، ص(89).
(3) المصدر السابق نفس الصفحات، آشباح، تاريخ الأندلس، ج(1)، انظر، ص(71).

67
وتمتد لتشمل أقطارًا عديدة في أواسط أفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، ومن الثابت أيضًا أنه حدثت قسمة جيوش المرابطين نصفها قاده أبو بكر بن عمر اللطموئي وذهب به إلى بلاد السودان كما قلت سابقًا وذلك لنشر دعوة الإسلام هناك وتحقيق مقاصدها، وعلى ما يبدو أنه كان متفانيًا في هذا الاتجاه بإذى قصاصي جهده مجازًا في سبيل الله من أجل إعلان كلمة الإسلام وإرسال دعوة المرابطين في تلك المناطق، والنصف الآخر قد قاده الأمير "يوسف بن تاشفين" الذي أقره على تلك الإمارة وهو أبو بكر بن عمر نفسه حينما أدرك حسن قيادته للجيوش وتفانيه في خدمة الإسلام ومحاولة القضاء على البندع وتوحيد شريعة صناعة، فلا غرو أن يعجب بابن تاشفين وأن يؤمره على نصف الجيش لكي يلتقي معه في توحيد صناعة الكبرى: صناعة الجنوب وصنعاء الشمال، وبظهور "يوسف بن تاشفين" خلقت جيوش المرابطين خطوات سريعة نحو التطور والتقدم.

وقد ظهر على بيد "يوسف بن تاشفين" عدة قوات أسسها للمرابطين خدمات جليلة وساعدوا في إقامة صرح تلك الدولة، ومن أشهر هؤلاء القواد: "سهر بن أبي بكر اللطموئي، محمد بن أمير الجدالي، عمر بن سليمان السوفي، ومدرك الثكاني، محمد بن الحاج، وداود بن عائشة... وغيرهم".

وقد ولهم "يوسف بن تاشفين" قيادة الفرق المختلفة بينما احتفظ هو بالقيادة العليا للجيش، وقد أثبتت حروب المغرب مدى ما يتمتع به هؤلاء القواد من كفاءة عالية في قتالهم ومدى التزامهم بالخطط الحربية التي تضعها القيادة العليا للجيش، فقد كان هؤلاء القواد بصرفهم يقاتلون جميعًا في بلاد المغرب في جهات متعددة في أن واحد ومن ذلك فقد كان بينها من التناسق والتعاون وخفة الحركة ما جعلها تحقق أهدافها.

4- ومن مميزات هذا الجيش اكتمال أسلحته وتطور أساليبه في القتال بصورة ثلاثية طبيعية المرحلة المغربية وهي مرحلة التمكن وموجاة القبائل المعايدة كنقبيلة "زنانة المعروفة بالروسية وشدة البأس، فأضافوا إلى الأسلحة البدوية التي كانوا يقاتلون بها في الصحراوات مثل ركوب الخيل والتسلح بدرق اللوم والفنا الطوال
والمزايا المسنونة، أضافوا إليها السلاح الشنقي واستعانوا بفرق من الرماة بالسهام والنشاب، وأصبح الجيش المغربي تمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة في عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية، هذا بالإضافة إلى تكوين فرق من الفرسان المردبة على ألوان القتال والتي أصبحت عبادة قوة الجهوج المرتبطة لتحل محل الفرق الإبلية حتى تسير جيوشهم جيوش بلاد المغرب.(1)

بالإضافة إلى ذلك استعمل المرابطون الطبول(2) في حروبهم ومعاركهم، فعند بدء المعركة كانت تدق هذه الطبول فينخلع لها قلوب الأعداء بدوبيها المرتفع.

ومن أبرز معالم تلك المرحلة لهذا الجيش هو إقامة مراكز التجمع للجيوش المرتبطة ونقاط الحراسة، فقد حرص المرابطون على إقامة هذه القواعد عقب كل فتح يظهرون به لتكون مراكز تجمع لجنودهم تنطلق منها إلى الحرب والقتال في المبايض القريبة منها، وتكون أيضًا بمثابة نقاط حراسة ومراقبة للقبائل التي خضعت لهم، والتي كانت غالبًا ما تقوم بشوارع متعددة وحركات ارتداد ضدهم مما اضطر المرابطين إلى حشد هذه المراكز بأعداد من الجند تقيم بها لتردع حركاتهم وتحيط مؤامراتهم.

ومن هذه المراكز الحربية قاعدة "تلبيل" لرلاقية سكان منطقة "السوس"، وقاعدة " أغمات(3) التي اتخذوا منها عاصمة وقاعدة لتجمع جيوشهم، وقاعدة " تاكرت(4) بالقرب من "تلماسان" وحصن "أمرجو" ببلدية "تاودا"(5) في الطريق المستقل إلى "جبل غمارة" ليراقبو منها سكان هذه المنطقة، وقد أكثر المرابطون من بناء هذه السلسلة من القواعد لتحف بمصراب قبائل "مسمودة" بالجنوب وقبائل "غمارة" في الشمال و"زاتنة" في المغرب الأوسط، ولم يكن إقامة مدينة "مراكش" في قلب البلاد "المصممة" إلا من أجل هذا الهدف. ومن الملاحظ أيضًا أن هذه

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الرقم الثالث، العد، ص(132).
(2) روض الفرج، ص(89).
(3) المرجع السابق، ص(186).
(4) ابن خليفة، ج(6)، ص(186).
(5) الاستدلال في عجائب الأمصار انظر، ص(190).
المراکز الحربية فُقد ارتبطت بسلسلة من الطرق البرية ربطتها فيما بينها وسهلت انتقال الجند من مركز إلى آخر كما أن هذه المراكز صارت فيما بعد مراكز حربية حضارية لعبت دورًا كبيرًا في حياة بلاد «السودان» والمغرب» اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا.

- تشير المراجع الإسلامية إلى أن جيوش «يوسف» قد تمدِنت كما قلنا سابقًا، وأخذت إطارًا حضارى مغري منذ أن اتخذ من مراكش عاصمة لدولته سنة 454 هـ فجنده الأجانب، واستكر من القواد، وأتخذ الطبل والبنود، وكون في جيشه فرقًا من الرماة وأتخذ حرسًا خاصًا لحراسة من عبيد «السودان» فكان عدهما ما يقرب من ألفي عبد فغُلظ حجابه وعظم ملكه(1).

المرحلة الثالثة: دولة المرابطين الكبرى في المغرب والأندلس

هو جيش الدولة الإسلامية الكبرى التي كان يهدف إليها قادة الرباط من وراء دعوته في كثير منها وراء ذات شكلة ترابية لقبات المغرب قبضهم رئاسة مسلمة تسعى إلى تحقق النموذج الإسلامي للأمْثَل، وقد بدأ أحداث مراحل هذا الجيش بولاية يوُسَف بن تاشفين قيادة تلك الجيوش، ولعل في وصية الأمير «أبُو بكر بن عمر المغتوني» ليوُسَف بن تاشفين» عندما تنازل له عن حكم «بلاد المغرب» يدل على مثالية دعوة المرابطين ونقاط هدفها إذا أوصاء قائلًا: «ياموسَف، إنني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه، فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمر زعيمك شيئا، فإنيك مستولي عنهم، والله تعالى يصلحلك يومئذ ويوفرك للعمل السالح والمعدل في زعيمك، وهو خليفة على عهدهم(2).

وقد قام هذا الجيش بفتح «المغرب الأقصى» وقاد المرابطين من نصر إلى نصر حيث توحد «المغرب الأقصى» خليفة جهاد استمر ثلاثين عامًا، تمكن المرابطون من قيام دولتهم، ثم اتخذت «يوُسَف بن تاشفين» لقب الإمارة ورسالة الخليفة العباسي الذي أقره على دولته وأصبح رجلاً من رجال تلك الخلافة لابد أن يُثق عليها مؤسِّلًا وحيدة المسلمين الكبرى، وقد شهدت تلك الفترة ضم بلاد الأندلس والمغرب «تونس والجزائر والمغرب» بالإضافة إلى بلاد «السودان الأفرقي» سالفة (1)

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ت، العبادي، أنظر، ص(225)، الخليل المونشة، أنظر، ص(143).
(2) روض الفرات، ص(86).
الذكر، وهذه بلا شك رقة جغرافية فنية ممتعة مختلفة البقاع والاجناس ودروب
النشاط المتعددة.

وقد تطلبت هذه المرحلة "الدولة الإسلامية الكبرى" جيوشًا قوية جراحة لتحافظ
على أمن البلاد التي تحت سيطرة المراقبين في "المغرب والسودان الأفريقي
والصحراء الكبرى" - كما قلنا سابقاً - هذا من ناحية، كما تطلبت تلك الدولة
الإسلامية العظمى جيوشًا تتجاهد في سبيل الله لبقاء الدعوة الإسلامية ونشرها في
أماكن لم تصلها الدعوة، كما تطلبت جيوشًا أخرى لتحاصر البحر إلى بر عدwa
"الأندلس" لتسارع المسلمين هناك في قتاليهم ضد النصارى الإسبان، وبه بسط
"يوسف بن تآشين" نفوذه على شبه جزيرة الأندلس وخلع ملوك الطوائف ووحد
بين بر العدوتين "المغربية والأندلسية" في وحدة كبيرة حافظت على رقعة بلاد
المسلمين بالأندلس دون أن تتردد في أيدي الإسبان إلى حين.

وقد أعد هذا الجيش إعدادًا حسبًا يتناسب مع طبيعة الدور الذي سيلعبه في هذه
المرحلة على أرض الأندلس فكان عليه أن يتصدى للممالك النصرانية الثلاثة:
"الشتاء وأراجون وقططونية" ويفقد في وجه اطماع "الفونسو السادس" عميد هذه
الممالك والذي تعز حركة الاستطاد لطرد العرب من شبه الجزيرة الأندلسية، لذا
كان لزاماً على هذا الجيش أن يخوض عرفة حروب مستمرة دائمة الأوار في
الأندلس.

وقد أحترز المراقبون خلال هذه المرحلة ضد النصارى عدة من الانتصارات
الباهية كان أولها انتصار الزلاقة عام 479 هـ، ثم انتصار أفيش عام
501 هـ - 1081 م، وآخرها موقعة إفراغة عام 528 هـ - 1134 م.

واستطاع الجيش المراقب على وجه العموم حتى أواخر عهد بالأندلس الذي
استطاع بها أكثر من خمسين عامًا أن يحافظ على بلاد الأندلس، ولم يصدق من
كثافة سوى قيام الثورة عليه عند ظهور الموحدين وسقوط مدينة سرقسطة في أيدي
النصارى الإسبان.

وخلال هذه المدة مرت جيش المراقبين بالأندلس بمرحا مختلفة وأثرت فيه عوامل
كثيرة أسسها من القوة إلى الضعف كالآتي:

71
1- كان الجيش المرابطي بالأندلس وطوال عصر يوسف بن تآشين قويًا منظمًا يقوده قيادة بصرية، مستيزًا بكثرة حشوده ومكامل أسلحته وبراعة طراذته في القتال وقوة مثبت ذلك: 

2- أرسل يوسف أربعة جيوش إلى شبه جزيرة الأندلس خلق مملوك الطوائف، وكانت هذه الجيوش تحارب في أكثر من جبهة في آن واحد، وقد اتفقت جميعها صوب أهدافها محققة الخطة العسكرية التي رسماها لهم قادتهم الأعلى "يوسف بن تآشين".

3- نظر المرابطون إلى الأندلس على أنها معسكر ضخم دائم الإقامة لذا حضرها فيه جيشًا جراة وأنشأوا به مراكز تموزين مشحونة بالاغلال والسلال والخيل وتمتجم فيه الجند مثل: "السلا" والجزيرة الخضراء بعدها الأندلس و"السبتة" بعدوا المغرب، وبهذا تكون القيادة المرابطية قد وفرت خطوط التموين على مسافات طويلة من المغرب والأندلس، وأقاموا في معظم ولايات الأندلس معسكرات تقيم فيه الجنود، فقد روى صاحب الحلل الموشية أن "يوسف" أوصى ابنه عليًا بأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم من المرابطين قوامه سبعة عشر ألفًا من الفرسان موزعين في هذه المعسكرات كالآتي: سبعة آلاف فارس في أشبيلية وأربعة آلاف في سرقسطة وثلاثة آلاف في غرناطة وألف فارس في قرطبة والخلافي وقدره ألفان يحتلون القلاع والحصون.

(1) أشباح، تاريخ الأندلس، ج (2)، ص (84).
(2) انظر التكتيك الحربي للمرابطين في معركة الزلاقة في الباب الخامس.
(3) الحلل الموشية، ص (57)، أشباح، تاريخ الأندلس، ج (1)، ص (119).
ب - وفي سنة 500 هـ - 1007 م توفي يوسف بن تاشفين ورموته فقدت الجيوش المرابطين أعظم قائد لها حيث فقدت اليد القوية والعقلية المرشد والمرؤوسة لها، ومع ذلك ظل جيش المرابطين قويًا شامخًا في السنين الأولى لحكم ابنه "علي ابن يوسف" ثم بدأت تعرية عامل الضفة والهول في أخريات حياته إلى أن أصبح أشبه متناثرة في عهد ابنه تاشفين حتى قضي عليه قضاء مبتسمًا على أيدي المرضن، ويكمنا إعطاء صورة توضح حالة دولة المرابطين أبان تلك الفترة الحرجة التي بلغت العشرين عامًا في أخريات حياة تلك الدولة إذ تعرض فيها المرابطون لعدة أزمات عارية لا تحملها إلا الجبال.

ولقد بدأت طوال هذه الأزمات منذ عام 508 هـ حيث احتفظ من ميدان الجيش جلة من القواد الأكفاء الذين قام على سوواهم كيان تلك الدولة الفتية أمثال محمد بن الحاج، "أواد واد بن عائشة"، "محمد بن مزدلي"، و"سرس بن أبي بكر المتنوئ" ثم ظهر جيل جديد من القواد والذي بدأت معه طوال الشدة حيث كان يقضى الخيرة والقيادة العسكرية الكاملة.

ومع الغرامات التي منها بها هذا الجيل من القواد والتي تعد بعد حاكم نقطة سوداء في جبينهم هو أمر سقوط سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى حيث أعقاب ذلك تصدع كبير في نظام الجبهة الدفاعية في شمال شرقي الأندلس ووضع معها الكثير من هيبة المرابطين العسكرية في شبه الجزيرة الأندلسية، ثم توالت بعد سقوط سرقسطة عدة هزائم أخرى في الأندلس منها هزيمتها في معركة كتيبة عام 514 هـ عندما أرادوا استرداد قلعة أبواب واستشهد في هذه الموقعة عدد كبير من الجنود والعلماء تقدره الرواية العربية بنحو عشرين ألفًا (1)، ثم أعقب هذه الهزيمة هزيمة أخرى في موقعة القلعة عام 523 هـ فيها أعداد غير ضرورية من جنود المرابطين واحتوى العدو على سائر أسلافهم وبلغت خسارتهم نحو اثني عشر ألفًا قبل وآسر (2).

وقد أظهرت تلك الهزائم بلا شك خللًا في النظم الدفاعية في الأندلس كما أظهرت مدى ضعف الخطط العسكرية الكافية لرد عدوان النصارى بالأندلس.

---

(1) ابن الأثير، الكامل ج 130، ص 408، المقرن الطيب ج 20، ص 68.
(2) ابن الفضلان، نظم الجماع، م.ة، مكبي، ص 89.
وليس أدل على ذلك من أن ملك أرغونة قد قام بشاتية عام 519 هـ من الشغر الأعلى حتى شاطئ البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة إسلامية مرتبطة أن تقف في سبيله(1).

وإذا كان هذا هو حال جند المرابطين بالأندلس فإن الوضع في المغرب قد ازداد خطورة حيث ظهرت فيه الأزمة الطاحنة والتي عجز المرابطون عن حلها وهي أزمة ظهور المهدي «ابن تومرت» داعية الوحدين سنة 551 هـ، والذي أعلن الحرب والجهاد ضدهم في سلسلة معارك أنهكت قوى المرابطين واستنفدت كل مصاردهم.

وقد استعان المهدي في الكيد لتلك الدولة بكل ما يمتلك من وسائل الدعاية الرخيمة حيث كان يستعملهم بالصفات الدامية ويدعي أنهم الكلفة المجسمون واستند في ذلك إلى أنه الإمام المعصوم الذي يجب أنه يرده أمر أو يخرج الناس على طاعةه حيث أقنع هؤلاء الأتباع بأن جهاد المرابطين فرض عليهم كما فرض على الصحابة من قبل جهاد الكلفة، وبذلك كانت الحملة قوية على المرابطين ففهبت معنوياتهم وتوالت عليهم الهزائم على يد الوحدين، كما نرى الكثير من قواد المرابطين قد خشوا سوء العاقبة فغادروا جيوش المرابطين وانضموا إلى الوحدين الذين عملوا على استمالتهم بكل طريقة ومن جراء ذلك فقد ساءت الاحوال الاقتصادية وعزت الأقوات وارتفعت كلفة الجيش مما جعل جنود المرابطين يرتكبون ضد أبناء الشعب الأثري في الأندلس ضروباً مثيراً من السعدي والذي، وقد سجّل ذلك وزير أندلسى خدم في بلاط «على بن يوسف» في رسالته التي وضعها في القضاء والحبسه حيث يقول: «بجد الله لا يلبم إلا صتهاجى أو لمونى أو لمطى فإن الحمم والعبيد ومن لبحم أن يلبم بلียม على الناس ويجهبونهم ويتلون أواباً من الفجور كثيرة بسبب اللحم»(2) وبذلك ازدادت أحوال الجيوش المرابطية سوء؛ ودب فيها الوهن إلى أن مزقت بفتتاح الوحدين مدينة مراكش آخر مملكتهم التي انقرضت.

___________________________
(1) الحلل المهذبية، انظر - ص 262 - 263، الإحاطة - القاهرة 1956م - ج(1)، ص(111-112).
(2) ابن عدون - في رسالته عن القضاء والحبسه، نشر ليفي بروفسال، انظر، ص(28).
وقد يتساءل المرء عن سر شباخة تلك الدولة الناشئة بتلك السرعة وضعف جيوشها وترديها إلى هذه الدرجة بعد رحل مؤسس الدولة والقائد المحترف يوسف بن ناشف، فمن الملاحظ أن المرابطين كانوا أصحاب دعوة منظمة ومدعومة بالقرآن والسنة وقد حرصوا على نشرها ثم استطاعوا أن يتمكنوا من إقامة المجتمع المسلم ثم إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي ظلت مايقرب من الخمسين عامًا ثم هدوء تلك الدولة سريعا ولعل السبب في ذلك يعود إلى:

1- ترك الدور الدعوي الذي حرص عليه الداعية الدينى لتلك الدولة ابن ياسين كما حرص عليه أيضًا الأمراء العسكريون من بعد، حيث نرى أن الدولة من بعد يوسف بن ناشف فقد أهملت أمر الدعوة فركن الناس إلى الدنيا وابتدأوا عن تعميل الإسلام الحنيف وعن النموذج الإسلامي الأمثل الذي رسمه دعاة هذه الدولة.

2- نظام تراث الملك الذي أخذته به تلك الدولة حيث أثبت فشله لأن الدعوة لا تزعم، فليها رجلان في كل زمان ومكان فقد عجزت تلك الدولة على أن تثور أفكارها ومتاهجها وعقيدتها للأجيال المعاقبة، ولا شك أن هذا فيه إهمال شديد وتقصير في شأن تلك الدعوة التي ينبغي أن يكون لها دعاتها المجدودن لها على مر السنين.

3- كما كان للمؤتمرين ودعايتهم أثر بعيد المدى في سقوط تلك الدولة التي اشتملت بالرد عليه والوقوف في وجه هماعته، فأنهك قواعم الاقتصادية مما أدى في النهاية إلى تخاذل جيش المرابطين وضعفه ثم انقراض دعوتهم التي كان ينبغي أن يغضوا عليها بالتوافق، لأنها كانت سبب عزتهم وتمكنهم، وكان ينبغي أن تعشى الفكرة الإسلامية معشية في العقول والأرواح وانتقروا بهالرجال والشخصيات، ففقد موت الرجال وتبقي الفكرة حية قوية في نفس الناس إذا وجدت الدعوة من يجددونها على الدور.

70
شكل رقم (1)
الدولة المرابطية الكبرى عقب وفاة يوسف بن تاسفان سنة 500 هـ
الفصل الثاني
نشأة جيوش الموحدين وتطورها

المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس والتكوين:

لقد كانت رابطة "تينمل" هي المدرسة العسكرية التي تخرج فيها جيش الموحدين في أطواره الأولي، وفي هذه الرابطة التي ابتهاها المهدي "ابن تومرت" داعية الموحدين وزعمهم الروحي كانت التربية الروحية والعسكرية والعقيدة التي خطط لها ذلك الداعية.

وقد أحسن "ابن تومرت" اختيار موقع رابطته، فقد اختارها في مدينة "تينمل" بين أهله وعشيرته الذين آروه ونصروه، ثم التفوا حوله يحمونه من أن تمتد إليه يد السلطة الحاكمة بناءً على، مما مكن لدعوته أن تنمو ويشتد ساعدها حيث اجتمع إليه وجهاء المصامدة الذين كون منهم عصبيته وجماعتها، فقد انتهت عليه حشودهم فأخذهم العلم ووعي低调ود كما براها ودعوا كلمهم إلى الأمر بالعرف والنهى عن المكر ويجعل في قلوبهم البغض للمرابطين الذين سماهم بالمسيحيين والخارجيين عن أصول الدين الخنف كما عرفنا سابقاً.

ويبدو أن المهدي وأتباعه قد اختلفوا قوة لها بأسها في فترة قصيرة من الزمن فقد استطاعوا أن يغدوا بقبيلة "هزميرة" عندما كشف المهدي عن حالهم وخوفهم من تقلبهم، واستطاع المهدي وأتباعه أن يتلقوا منها ما يبلغ خمسة عشر ألف(1).

وقد كان لهذه الواقعة أثرها في نفوس أتباعه ومرمديها عن قبائل مصمودة فثبتوا جميعًا على عقيدة المهدي ابن تومرت، وأبدوا الوفاء والولاء لدعوته.

وعندما تمس "ابن تومرت" في رجاله قوة يخشى بأسها، وقد تميزت بأعدادها الهائلة وثبات عقيدتها، أعلن عليهم مهديته، وبابته هذه الحشود وقلب المهدي، وصارت تعاليمه قدستها في نفوس تابعه فحفظوها عن ظهر قلب وأصبحت نبراسًا لهم يستنررون به في حياتهم، لايقوى أحد على تركها أو خلع عنها، وبذلك أخذ

(1) المراكيش - المجب، ص (186، 187).
(2) نظم الجماني، ص (49)، ابن الأثير - ج (9)، ص (296).
مكانة قوية في نفوس المغاربة خوفاً ورهبة كما لا يجرؤ أحد على عصيانه أو الشك في أمره، وكان يأخذ بالقتل وسفك الدماء كل من شريك في ولائه في أثناء عملية التمديد، وفي كل وقت، فلا يتوفر أن يقتل الآلاف من القبائل.

ومن مظاهر أباَسَهُ بريطشه أنه سمى أتباعه بالموحدين، نكاية في المراقبين الذين سماهم بالمجمعين أو الكفرة، وأوجب على الموحدين قتالهم كما أوجب الرسول عليه سماهم بالصحابية. فكان الكفرة من قريش، وكان لابد لهذه الحشود من تنظيم يشملها ويعدهن جميعًا في إطار واحد تحت بد حاكمة توجهها نحو تحقيق أهداف هذه الجماعة. فشرع المهدي ابن تومرت يألف حكومة منظمة اعترفت بالصيغة العسكرية على غرار الحكومات العسكرية المعاصرة التي تألف وقت الحرب إذا ما استمرت بين دولتين.

ومن الملاحظ أن حكومة المهدي هذه بكُل طبقاتها كما ستعرف بعد، كانت أعضاء عاملين في الجيش، سواء كانوا قادة أو جنودًا محشوين في الجيش الموحد، لا يختلف منهم أحد عن معركة الجهاد، مهما كانت مكانته في هذه الحكومة. بل كان كبار الشيوخ الذين تتكون منهم أعلاه طبق في حكومة المهدي، وهم مسماة بأهل الجماعة في مقدمة الجيوش، فموقعة البحيرة التي استمر لهبها بينهم وبين المراقبين استشهد نصف أهل الجماعة وسلم النصف الآخر.

وإذا استعرضنا تنظيم المهدي لحكومته لأدركتنا مدى حشود جيشه في ذلك الوقت، والتي شملها أول تنظيم سياسي ورحلي، وإليك أول نظام لحكومة الموحدين كما وضعه المهدي ابن تومرت، الطبقة الأولى: (أهل العشرة) وهم أولاً من آمنوا بالمهدى وقدم أسندت إليهم قيادة الجيوش الموحدة وكانوا يسمون بالشيخ الكبار.

الطبقة الثانية: (أهل الخمسين).

ثم الطبقة الثالثة: (أهل السبعين). ثم قسم المهدي بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره إلى طبقات تلى هذه الطبقة منها: طلبة العلم، الحفاظ، صغار الطلبة،...

---

(1) نظام المجن، ص (118).
(2) الفلاشند - صبح الأعشى - ج (1)، ص (19)، (2).
أهل الدار "أقارب المهدي"، أهل هرغة، أهل تينمل، أهل جدميوه، أهل جفنيسة، أهل هنانة، ثم طبيعة الجند والغزاة والرماة وأخیرًا طبيعة الفرسات وهم الأحداث الصغار الآمرون، ثم وضع المهدي فيما بعد نظامًا حاصلًا لمهام هذه الطبقات ورتبها، وجعل لكل منها مهمة خاصة ورتبة لا تتعداها سواء في السفر أو الحضرة.

من هذا الوعي لحكومة المهدي تتبين أنه أفرد طبقة للجند والغزاة والرماة، وهذا أول تنظيم للجيوش الموحدة وتلمح من هذا التفسير أيضًا أن طبقة الجند المشار إليها سابقا قد تضمنت أعدادها وأصبحت قوة جديرة ببلاء جموع المرابطين في صراع مسلح. فلما «ابن تومرت» إلى تنظيم هذه الأعداد إلى عشرات وجعل على كل عشرة منها نقيباً تختار لقيادة هذه الفرق قادراً أكثر من أهل الجماعة العشرة ثم خرجت هذه الجيوش للصدام المسلح مع المرابطين وفق منهج جديد في أنظمتها، وخطط منتشرة في حروبها، وعلى ما يبدو أن هذه التنظيمات جاءت متآثرًا بالتنظيمات الشعبية أو الفرق الصوفية ولا أدل على ذلك من اختيار المهدي لقب الإمام المعصوم فهو أهم ألقاب التشبه.

وقد كانت عدة جيش الموحدين عند أول لقاء له مع المرابطين أكثر من ثلاثين ألف رجل تقريبا، زادت تباعًا بانضمام القبائل للدعوة الموحدة وقد أضنت هذه القوة بعبء القتال لمدة ثلاث سنوات، خاضت خلالها تسع غزوات متوالية كانت أغلبها ضد المرابطين واستطاعوا خلالها أن يبيسروا سلطانهم على منطقة السوس كلها.

ويبدو أن جيش الموحدين قد تزايد أعداده بصورة ملحوظة واضحة، وتسير ذلك يرجع إلى دخول القبائل في طاعة الموحدين وإمدادات بزارة شبابها لتنظيم في تلك الجيوش، لما رأوا تلك الجماعة الجديدة تحقق أصوات بارزة على جيوش المنشئين إلى ساءت أحوالها المالية والمعنوية كما أشار سابقاً.

ومما يقوله رأينا في تزايد أعداد جيش الموحدين، أن المهدي ابن تومرت أخذ يتأهب لمرحلة ثالية وحاسمة في صراعه مع المرابطين، فقد وضع في مخططه القيام بهجوم واسع لغزو لمثله في عقر ديارها واختيار وجهة هجومه هذه المرة "مراكش" عاصمة المحتلتين.

(1) الخليل المشيشة، ص (79)، روض الفرطاس، ص (113).
(2) ابن خلدون، ج (2)، ص (228)، روض الفرطاس، ص (155).
من الواضح أنه لم يقم بهذه الخطوة الناجحة على حاضرة اليمينيين إلا إذا كان واحدًا من مقدرات رجاء الهائلة في تحمل عبء هذه الخطوة التي تحتاج إلى قواد وجند أكفان وحسن قيادة ومقدرة فائقة على التخطيط.

وقبل الشروع في هذه الخطوة رأى المهدي أن يستوقد من أتباعه ودرجة ورائهم له وأن يستبعد من جيوشه العناصر المتقلبة والتي أطلق عليها المحدودون (أهل التحليط).

ولم لا يفعل ذلك؟ وقد حشدت في جيوشه جموع غفيرة منها من أنضم إليهم عن اقتنا، ومنها من أنضم إليهم عن خوف ورهبة ينتظر فرصة مواتية، وسرعان ما يقلب لهم وجه المجن. لذا صدر أمر المهدي بإجراء التمييز فأمر أن ينادي في الجبل بدعوة الناس جميعًا ثم ندب "أبا محمد البشير" لليمين الناس ويتصل العناصر غير الموثقة لهم، ويحضون بالباقي معركة المصير، وقد قيل أنه أعدم في هذا التمييز نحو سبعين وعشرين ألفًا من أعز رجال القبائل الملونة(1).

وهذا العدد وإن كان مبالغًا فيه إلا أنه يدل على مدى الحشد الهائل الذي كان يتمتع به جيش المحدودين، فقد بلغت قوة جيوشهم قبل معركة البحيرة نحو أربعين ألف مقاتل، منهم أربعمائة فارس فقط، والباقي من الرجالات المشاة، لأنهم كانوا يعتمدون على عنصر المشاة في أغلب فنون قتالهم بخلاف المرابطين الذين كانوا يعتمدون على قوة الفرسان، وقد استطاعوا هذة القوة أن تشكب مع المرابطين قبل معركة البحيرة في أربعين معركة دارت أغلبها مع المرابطين خارج مراكش (2).

ويمكن لنا أن نستشف قوة جيش المحدودين الذي أعد معركة البحيرة التي دارت بين المحدودين والمرابطين ومنى فيها المحدودون بهزيمة ساحقة - بما يتأثر الستين ألف

(1) ابن خلدون، ج(1)، ص(248)، نلاحظ الامتداد الكبير والبديع عن الخط الأخلاقية في عملية التمييز تلك، فتروى الروايات أنه في عام 619 من الهـ، أمر الإنفصاليين بأن يذبح أسماء من يشتهيه في مهدئته، كما أنه زود القبائل بأسماء الشاميين ثم أمر المهدي بعد صلاة الفجر بالتمييز وهو التمييز سالف الذكر. فأخرج أتباعه إلى جهينة الذين يخطبهم يضعهم في جيئة يساره وينقله: هؤلاء هم أهل النار ثم أمر القبائل أن تنقض على هؤلاء النفر فقتل منهم عددًا كبيرًا يقدر بها ابن خلدون بسبعين ألفًا - ويفتات الأعيان.

(2) ابن القرجع، ج(1)، ص(35)، وعلى ما يبدو أن هذه الريقة سالكة بالرواية الأولى هي أقرب إلى الواقع، والمقصود من هذا التمييز هو التخلص من العناصر التي تتكفل في مهديتهم فكان يتخلص منهم بهذه الطريقة الشعة، وذلك بجر الباقين على أن ينتموا ويحلوا له ويطيعونه حتى ولو قتل أبناءهم.
مقاتل أو يزيد على ذلك، فقد قدر "ابن القطان" عدد من قتلىها في هذه المعركة بأربعين ألفا، وسقط في الميدان نصف أهل الجماعة وسلم نصفها الآخر(1).
وعلى أثر هذه الهزيمة الساحقة للجيش الموحدين توفي المهدى سنة 564 هـ تاركًا جيشًا هزيلًا تكتنفه عوامل القتال، فأثارت القتال الموحدة ساحقة من جراء عملية التمييز الجائرًا والتي فتنت فيها قتائليس بأسرها.
وبهؤمة الموحدين في معركة البحيرة ومورت "المهدى ابن تومرت" يكون قد انتهى الدور الأول من أدوار تأسيس جيش الموحدين.

المرحلة الثانية: التمكين لدولة الموحدين

هو ذلك الجيش الذي قاده الأمير "عبد المؤمن بن علي" خليفة المهدى ابن تومرت بعد موت المهدى وتولاء برعايته واهتمامه وثب فيه الحياة من جديد بعد ما كان عقب معركة البحيرة شبحًا هزيلًا. وقد تمثل هذا الجيش في المرير بين المرابطين والموحدين في سلسلة حروب مستمرة أشبه بحرب العصابات، حتى تمكّن أكبرًا من الانقراض على مراكش والاستيلاء عليها وإعلان قيام دولة الموحدين بالمغرب.

وبعدها ببيع "عبد المؤمن" بالخلافة شرع في تأسيس جيش موحد قوي مؤلف من شتى قبائل الموحدين كانت عدها تناهض الثلاثين ألفًا. ثم بدأ هذا العدد يزداد بدخول كثير من القبائل في دعوة الموحدين وضبط سياسة عبد المؤمن في تأليف شتى القبائل وتقييهم إليها.

ثم بدأ بناء المرابطين في منطقة السوس في وسط المغرب ثم في شمالها نحو الشمال الشرقي، ثم استولى على تلمسان ووهران، ثم أجزاء كبيرة من الجزائر، ثم فتح فاس ومكناسة وسلا وآخرين اعتقل مراكش آخر معاقل المرابطين وسيطر على كل أرجاء المغرب.

ومن الملاحظ في هذه المعركة التي تمثل الصراع بين المرابطين والموحدين أن جيش الموحدين لم يكن يتمتع بحشد كبير ككانت يتمتع بها جيش المرابطين في...

(1) نسخ المؤلف والمصدر السابق ونفس الصفحة.
المراحل الأولى من الصراع، وذلك بسبب إجراء عمليات التمييز المتكررة والتي تسببت في إنفاذ عدد جيوش الموحدين من جهة والثاني تسببت في فرار البعض من جهة أخرى. لذا نرى حراس عبد المؤمن على عدم التفاهم معهم في معركة فاصلة واكتفيا في هذه المرحلة بسياسة النفس الطويل عاملاً في تدوين الجيوش المرابطين في سلسلة غزوات استمرت سبع سنوات منذ أن خرج من تينبل سنة 542 هـ، والتي انتهت باستيلائه على مراكز سنة 541 هـ.

وكان هدف عبد المؤمن من هذه السياسة هو حشد أكبر عدد ممكن من القبائل التي دخلت في دعوته، وتحقيق الروح المعنوية لجيوش المرابطين التي هرع معظمها للانضمام في الجيوش المرابطين.

ولقد جنى عبد المؤمن ثمار سياسته هذه فقد دخلت أعداد غفيرة من القبائل والبطرون الشمالية في طاعته، بدلاً من أن ينفق من مدينة تاجراً ثلاث حملات موحدة: الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زوجو وقد سارت في الشمال الشرقي وهاجمت ثغر وهران واقتحمته واستولت على غنائمها، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم وقد سارت إلى أرض بن ووانون وامستاقت غنائمها، وخرجت الثالثة بقيادة يوسف بن والدود وسارت إلى جبل مديونة من أحوال تلمسان.

ثم خرج عبد المؤمن في نفس الوقت بحملة رابعة من تاجراً إلى بلاد تيمورميت من أرض مديونة وخرجت قوة أخرى بقيادة الشيخ أبي حفص عمر اتبعت ويضلاً إلى العيون من أراضي قبيلة صاع غرب وسط.

ففنحن أمام خمس حملات موجهة ضد المرابطين في أن واحد وذلك وفقاً لسياسة النفس الطويل أو ما يطلق عليه القلماء سياسة الت państى، وهو أن يوجه جيوشه إلى أكثر من مكان ليهره القبائل ويدخو الجيوش النظامية للمرابطين، وفي نفس الوقت يعرض على القبائل الصلح والدخول في طاعته، وقد أتت هذه السياسة بكلها فقد كانت قبائل بعدها تدخل في زمرة الموحدين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أنضم كثير من قواد المرابطين إلى جيش عبد المؤمن وأفرد لهم عبد
المؤمن مناصب حساسة في جيوشهما فقد جيش المرابطين منعتها وهبها، ومن هؤلاء المتمكنين للموحدين وأعلنوا توحيدهم، الكاتب الكبير "أبو جعفر أحمد بن محمد بن عطية الفضاعي" الذي كان كاتبًا لتأشيف بن على ثم خدم أبا إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف، وقد قلله عبد المؤمن خطة الكتابة وأرسد إليه وزارته، وفوض إليه النظر في أمرها(1).

ثم انضم من زعامة مسورة إلى الملوحدين: يحيى بن تاكفت، وبراز بن محمد، ويحيى بن إسحاق المعروف بأفجع هاكم تلمسان. ثم اشتق على تاشفين بن علي ابن ومانوا من بطون زناتة.

ثم انضم إلى جيوش الملوحدين: بنو بلومي، وبنو عبد الواد، وبنو ورشقين، وبنو توجين، وكانوا جميعًا من أنصار المرابطين، وقد أكرم عبد المؤمن زعامةهم وضمهم إلى قواته (2).

وفي سنة 540 هـ وقد على عبد المؤمن "على بن عيسى بن ميمون" قائد الاستولى المرابط، وقدم له طاعة ثم عاد إلى الأندلس وأقام الخطبة للملوحدين بجامع قادس الذي كان مركز قيادة الاستول (3).

فلا عجب أن نرى جيش الملوحدين يتفاهم أعدادها بانضمام هؤلاء القادة إليها، وقد كانت تهرب الجنود في ركاب قادتهم تاركة جيش المرابطين لصبرها المحتوم، ومن أجل ذلك نرى أن المرابطين قد جاووا إلى الاعتماد في صراعهم مع الملوحدين على فرقة "الروم" إذ نرى "الريبيري" قائدًا يقول هذه الفرقة ويضلع بمعظم حروبهم ضد الملوحدين، مما جعل غالبًا وأبناءه من بعده يغادرون عليه ويرجبونه إليههم. وقد كان النصارى في ظل هذه الرعاية يتعالون على المسلمين ويشاورون بمعظم العطايا حتى أدى إلى إهمال شأن الكثيرين من القواد ففقد معظم الولاء للمرابطين.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ت عنان، ج1 ص207
(2) الطبري، ابن خلدون، ج2 ص231
(3) المرجع السابق، ج6 ص232

83
ولكن لم تظل هؤلاء المرابطين بظهيرهم "الربرتي" وبغرقه من النصارى، إذ لقي مصرعه في معركة كان يقودها ضد الموحدين وأفني معظم جيشه(1)، وعندما رأى بقية الجنرال النصارى مصرع زعيمهم وأحسوا بتداعي أركان دولة المرابطين التي يعملون خبايبها تفرقوا ثم غادروا بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس، ملتقجعين إلى ملك طلبلاطة يعملون في رعايته(2).

ومن هنا كانت الهزائم تتواصل على جيش المرابطين الذي أصبح شبهًا هزيلًا كل يوم يزداد سوءًا وضعيفًا. بينما كانت الجيوش الموحدة تزداد عدًا وتضاعف من هجماتها ومن وثباتها لتجهز على ذلك الجيش المنهار. ويبدو أن جيش الموحدين قد صار في أجمل هيئة له مكنه من تصيب الضربة القاصمة والأخيرة لجيش تلك الدولة المترنحة، وكانت هذه الضربة موجهة إلى آخر حصن من حضور المرابطين وهو مدينة مراكش التي ضربوا عليها حصارًا استمر تسعة أشهر، ولكن ما عسّ

أن تفعله جنود قد أعيهم الجهاد وأنهكهم الجوع إزاء جحافل الموحدين؟ لقد اقتحم الموحدون هذه المدينة وفتحوا أبوابها أمامهم واستولوا عليها عبد المؤمن وأرسل السحار على دولة المرابطين، وفتح مراكش تنتهي المرحلة الثانية من مراحل تأسيس جيش الموحدين.

المرحلة الثالثة: دولة الموحدين الكبرى (المغرب والأندلس)

هو ذلك الجيش الذي استقر تحت إمرة عبد المؤمن بعد فتح مدينة "مراكش" واستيلائه على ملك التمطبيين في المغرب الأوسط والأدنى، وجنوب الصحراء ثم بسط تسلط الموحدين على شبه جزيرة الأندلس التي راسل قوادها الموحدين في رغبهم للانضمام إلى جيش الموحدين ومن ثم جاؤوا لبسط نفوذهم على الأندلس قبل سقوط مدينة مراكش ليستأسن حركة الجهاد ضد النصارى، في سلسلة من المعارك الصليبية التي استنملت نيرانها في أرض الأندلس آنذاك.

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج(6)، ص(231).
(2) المصدر السابق، ج(5)، ص(248).
وأما لاشك فيه أن "عبد المؤمن بن علی" يعتبر هو المؤسس الحقيقي لجيش الموحدین كنظیره "يوسف بن تاشقین" عاهل المرابطین الذي يعد بحق مؤسس جيش المرابطین، فقد اعتنى عبد المؤمن بجیشه اعتناء عظیمًا، فاتسع نطاق الجیوش الموحدیة وزادت حشدها زیادة هائلة، وذلك بعد أن دانت له سائر قبائل المغرب بالطاعة واخذت تساهم بحشدها، فی الجیوش الموحدیة، وباردیم من أن الحشد كان يجري تنظیمها على أسس قبیلی محض، فقد استطاع عبد المؤمن بسیاسته تأییف القبائل المختلفة، وأن يجعل منها وحدة عظیمة متناسقة كانت هي عمد الجیش الموحدی.

فقد استطاع عبد المؤمن أن يجعل لفتح المهدية سنة ۵۴۰ هـ جیشًا جزیرًا تقدره الرواية العربية بناءً على ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من البتائة والسوقة(١)، وفي رواية صاحب الخلل أنه كان يضم خمسة وسبعین ألف فارس وخمسمئة ألف راجل، وكان يضم عدًا طوئیف الموحدین ومختلف القبائل من زنانة والأغزاء والرماة وغيرهم جموعًا من قبائل العرب، وكان ينقسم إلى أربعة جیوش لكل عسكر يوم يختص به مسیره في كل مرحلة من السحر إلى وقت الغد وتنزل الجیوش مربحة إلى يوم آخر(٢).

وسوف نقدم صورة أخرى تدل على اكتمال جیوش عبد المؤمن والتي بلغت تنظیماتها العسكرية من حيث الضخامة مبلغًا لم تعرفه أي دولة أخرى في المغرب الإسلامي، وسوف يتضح ذلك من خلال استعداداته لقتال في الأندلس حيث أرسل كتبه إلى سائر الجهات والقبائل لاستثمار الناس وتحثهم على الجهاد في سبيل الله. فهُزمت إليه حشد عظیمة انظمت في جیوشه، وأمر بإنشاء الأساطیل فاتشئ منها ماتنا قطعة وقيل أربعمائة، أعد منها في مرسى المعمورة على شاطئ وادي سیرو شمالي ساحل سیول وعشرون قطعة، وأعد الباقي في مختلف تغيرات العدودات المغربي والأندلسیة، ثم أمر بإعداد الوفر من العبادة والمؤن والاعلان، وكان قد أعد منها خلال سنة ۵۵۰ هـ، أكاداس هائلة في وادي سیرو في حمی.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج (١)، ص (١٩).
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة، الخلل الموشیة، ص (١١٥، ١١٧).
الجبال المشرفة عليه، وجلبت الخيل من سائر أنحاء أفريقيا والمغرب، وجلبت كذلك أعداد وفيرة من النسائم والرماح الطوال والدروع والبيضات والثروتين والبنود والكساء، وزوع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب المواليين لهم (1).

وفي سنة 558 هـ خرج عبد المؤمن بجيوشه من مراكش، وسار إلى رباط الفتح وتقدر الرواية العربية قوة جيوشه بما تزيد عن ثلاثمائة ألف فارس من الموحدين والمرتزة والعرب والبربر، ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل (2)، وقد ضاقت بهم البقاع المجاورة من سلا والمبورة.

وقد قسمت هذه الجيوش الضخمة إلى أربعة جيوش لتتوزع في أرض الأندلس ضد النصارى وفي وقت واحد، وقد سير أولها إلى البرتغال لمقاتلة "ابن الرين" صاحب قلمرية "الفنوسو هنريكيز" والجيش الثاني سبيره إلى مملكة ليون وملكها يومنى "فراندنو الثاني" ولد القيصر "الفنوسو ريمونديس" والثالث سبيره إلى مملكة قشتالة وملكها يومنى "الفنوسو الثامن" والرابع سبيره اتجاه مملكة أراغون وبرشلونة وملكها يومنى "الفنوسو الثاني".

ولكن مرض الخليفة عبد المؤمن ووفاته ثم انشغال الموحدين بأمر الخلافة من بعده لا إنه أي يعقوب يوسف في جمادي سنة 558 هـ شغل الموحدين عن متابعة الرحب لهذه الجيوش فصدرت الأوامر لها بالانصراف إلى بلادها (3).

وأما فين نطاق الهزوات الموحدين في المغرب والأندلس، ولم تعود القبائل البربرية تكفي وحدها لإمداد الجيوش بما تحتاج إليه من الحشود الضخمة لجات الخلافة الموحدين إلى استمالة طوائف العرب من بني هلال وسليم وزغبة ورياح وغيرهم إلى الانضمام بجيوشهم، وبدأت هذه المحاولة من جانب عبد المؤمن ثم نجح ابنه "أبو يعقوب يوسف" في استمالة هذه العناصر وغيرها بإعاناته وصلاته. ومن ذلك الحين أصبحت طوائف العرب تكون فوقًا في جيش الموحدين. وما

(1) المرازيحي، المجلة، ص (131).
(2) الاستفاسة، ج (1)، ص (158).
(3) عمان، عصر المرازيحي، ج (1)، ص (395); فلا عن ابن صاحب الصلاة.
لاشك فيه أنه منذ عهد عبد المؤمن أصبح للموحدين جيش دائم مدعو أسماه رجاله في ديوان الجنرال وتصرف له الأغذيات والرواتب الشهرية، وكانت هذه الجيوش الدائمة موزعة على أقاليم المغرب وفي التغمر المرتاحة بها وذلك للمحافظة عليها سواء في المغرب أو الأندلس إذ اعتاد الموحدون ومن قبلهم المرابطون على أن يقيموا في البلاد المفتوحة مراكز ثابتة في النخوم المهمة التي يجب حمايتها.

فمن المراكز الحربية التي اتخذها الموحدون قاعدة تنطلق جيوشهم منها في أول أمرهم قاعدة تبنيل وقد كانت مقر القيادة الموحدة في ذلك الوقت. ثم ابنى عبد المؤمن رباط «تارة» وأقام فيه يحارب تاغفين بن على من سنة 530هـ (1)، ثم اتخذ الموحدون من مدينة أذرو التي تقع في قلب فازار عند منبع نهر وادي أبي رقراق الذي يصب في المحيط الأطلسي عند مدينة سلا محكمًا. لهم فكان عبد المؤمن يرسل منها سرايا إلى الجهات المجاورة (2).

ثم بعد استيلائهم على مدينة مراكش اتخذوا منها حاضرة لهم وكانت ترابط فيها أغلب الجيوش الموحدين حيث كانت مركز القيادة العامة وبها وحدات الجيش تخرج منها وتعود إليها، كما كانت تصدر منها أوامر الخليفة وكتب إلى سائر قواده بالمغرب والأندلس.

وكتبت مدينة سلا ورباط الفتح من أهم مراكز التجمع لجيوش الموحدين سواء الذهاب منها إلى أفريقية أو تلك التي تقصده العبور إلى الأندلس، كما كانت المنطقة الواقعة شمالاً فيما بين سلا وسبيبة تحتوي على مراكز كبيرة متتالية لتخزين المؤن والأقوات اللازمة لإمداد الجيوش الذهابية والعائدة (3).

من هذا يضح أن جيش الموحدين في هذه المرحلة أي في عهد «دولة الموحدين الكبرى» قد بلغ شأوًا كبيرًا في حجمه ودقة تنظيمه وبراعة قيادته، فقد كانت تقوده عقبلية بارزة أثبتت مهاراتها في فن القتال، فنسب المؤرخون إلى عبد المؤمن بن

---
(1) ابن أبي دوع، روض القرطاس، ج(2)، ص(134).
(2) عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص(120).
(3) عوان، عصر المرابطين الموحدين، ج(2)، ص(133).
الدولة الموحدية الكبرى عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن بن عثمان سنة 558 هـ.
علي ابتكار خطة المربع التي اتخذت في ذلك الوقت أساساً خطط الدفاع للجيوش الموحدة(1) كما سنذكر بعد في أنظمة التعبئة.

وبعد هذا الجهد العظيم والملك الزاخر واستنذاب أمور الدولة لقي العباد المنمن من بعدم حمله قوياً جارياً بلغت عدته في بعض الأحيان نصف مليون جندي. فهل استطاع خلفاء عبد المنمن أن يحتفظوا بهذه الجيوش في حالتها القوية كما كانت عليها في عصره؟

إلا أن المصطاف لتاريخ دولة الموحدين وما أحرزته من انتصارات وما حل بها من حزائم يستطيع أن يستناد حالة جيوش تلك الدولة في ظل خلافة الموحدين من بعد عبد المنمن، إذ استطاع الخلفاء الأقوياء منذ الخلية الأول "عبد المنمن" حتى نهاية الخليفة المصير أن يحتفظوا بهضج جيشهما وتميز بالضةخامة والقوة وتكوين السلاح وكثرة أنظمتها العسكرية، وعلى الرغم من ذلك فقد شامل نظرية "فضوضي القيادة" حيث لم تكن تلك الجيوش بعد رحيل قادتها الأول قيادة حازمة بصيارة بعوائق الأمور، بل ظهر استنثار الخليفة بالقيادة وعدم استجابة لمشورة الخبراء والمجرين من قادته، وقد أدى ذلك ببطيئة الحلال إلى الفشل أو الهزيمة الساحقة كما حدث مع الخليفة "أبي يعقوب يوسف" ابن عبد المنمن الذي فشل في اقتراح مدينة صغيرة محصنة وهي مدينة "يزيد" رغم حشوده الهائلة، فقد كانت تلك المدينة تحملها حامية محلية صغيرة من القشتاليين، فما أسباب هذا الفشل وذلك الفشل الذريع؟

يفصل عن صاحب المصلاه لنا الخليفة أبي يعقوب وهو قائد عام المملكة آنذاك وصفي غريباً، فقد استعجار المعركة فقد كان ذلك الخليفة يعيش في حيتمه مع طلبة الموحدين ينصحه في بعض المسائل الفقهية غير واع واضطرم في المعركة، فقد استطاعت له أبو العلاء بن عزون أن يهدد بعدة فلم يطعم لأستغلاله(2)، كما كان يسود الجيوش الموحدة من التمكين والتناسق بين مختلف عنصراً الجيش مايشير إلى تلك الفوضى أيضًا. وقد روت بعض الهرايع مايشير إلى أن العرب الذين رافقوا تلك الجيش كان عليهم أكثر قدر من تلك التدعة، فقد كانوا يضرون بتعانين ويحملون عن القتال في الساعات الخريجة كما كشفت بعض الحملات عن أسباب أخرى للفشل.

(1) الخليل الموتية، ص(98)، أناشيد، تاريخ الأندلس، ص(448، 489).
(2) المصادر السابق ونفس الجزء، ص(77).
منها خلل نظام تموين الجيوش وما تربت على ذلك من ندرة الأقوات والموارد وما كان يصيب الجنود من جراء ذلك من ضيق وحرمان وانهيار لقوامهم المعنية.

من هذا تضحّح حالة جيوش الموحدين بعد رحيل عبد المؤمن بن علي، فعلى الرغم من كثرةها وضخامة أسلحتها وما تمتع بها من أنظمة إلا أنها لم تحرز تفوقًا في أغلب حملاتها ضد النصارى اللهم إلا في معركة "الأرك" التي أحرز فيها أبو بكر النصر العظيم ولم يلبث أن سمحت آثاره موقعة "العقبات" التي أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على جيوش الموحدين بقيادة الخليفة مأمون الناصر سنة 141 هـ.

وفي الحقيقة أن هذه المعركة كانت بداية لاضطرابات جيوش الموحدين إذ ثبت من خلالها اختلال النظام الاقتصادي وتهدوها حيث حسبت أعطيات الجند وتأثرت من موعدها فخرجوا للغزو وهم كارهون كما يقول المراكشي بل استались لأول حملة إفريجية عليهم قاصدين لذلك.

وقد كانت هذه الهزيمة ضربة قاضية لقوى الموحدين في المغرب والأندلس، ولم يمض سوى أعوام قليلة حتى بدأ سلطان الموحدين ينهار في الأندلس وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تساقطًا تباعًا في أيدي النصارى وذلك في غمرة انشغال أهلها في حروبهم الأهلية كما كانت عليه إبان عصر الطوفان. ولم يكن المغرب بأساعد حظًا من الأندلس فقد هلكت حشود القبائل المغربية وفقدت زهرة شبابها من جراء حروب الموحدين المتصلة ولم يعد في مقدور هذه القبائل أن تقدم الجنود.

(1) أبي زرع، روض القرطاس، ص (129).
(2) الجليل المنشية، ص (122).
(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، ص (183).
اللازم للغزو وليس أدل على ذلك من قبول صاحب الخلافة الموحدة السابق ووصفه
لتلك الوقعة "بالجزيرة العظمى".

وإن كان مورد حشد الجنود قد جف ونصب فإن موارد تموين الجيوش هي
الآخرين قد نصبت ما ترتيب عليه أثره السبي في كافة الجيوش الموحدة ومقدرتها،
إذ كانت خطوط التموين تقتضي من أعماق المغرب عبر البحر إلى الأندلس مسافات
 طويلة وكان هذا هو أهم أسباب الانتزاح على الرغم من إقامة قواعد التموين
الحائلة كما قالنا سابقا بين سلا وسبتة، فقد كانت جيوش الموحدين تعبر إلى شبه
الجزيرة ويشغولا في أراضي العدو وسرعان ما تشعر بنقص في تومنهما وكان هذا
النقص يؤدي في بعض الأحيان إلى اختلال نظام الجيش كله وإنشغال معظم
الجيش بالبحث عن القوت (1).

كما أن من مظاهر الضعف ما حدث للجيوش الموحدة في أواخر عهدها إذ
استعانت بالمرتزقة النصارى حيث جاء الخليفة الموحدة الأمون إلى ملك قشتالة
فرانسادور الثالث ليحشد بفرقة من الفرسان النصارى لاستعين بها على مقاتلة خصمه
"الحدي المنتصر" وانتزاع الملك منه، وقد كانت هذه الفرقة سببا في ذيوع الشائعات
والغزاة والاضطرابات، وقد ساءت حالة الجيوش إذ تمزقت مع تمزق كيان دولة
الموحدين إذ انقسمت إلى دولات متنازعة فيما بينها، وانشقت الكثيرون عن تلك
الدولة مثل بنى غانية الذين غزوا تغيروا Africly وقواعدها الغنية واستمرت الحروب
بينهم وبين بقايا الموحدين ثلاثين عاما أنهكتم فيها البقية الباقية من جيوشهم ثم
انهارت منعا الدولة فانسلخ عنها إقليم Africly وقامت فيه الدولة الخفيفة سنة
1277 ثم تبعتها تلمسان التي استولى عليها "يغمار بن زياد" وقومه من بنى عود
وأقاموا بها إمارة مستقلة، ثم كانت الضرورة القاضية التي كتبت أنفس تلك الدولة
وذلك باستيلاء بنى مرين على مراكش سنة 1296 م من بعد آخر سلاطين الموحدين
أبي العلا إدريس "الملقب بأبي دوس"، وبذلك يكون قد انقرض ملك الموحدين.

وقد يتساءل الإنسان عن أسباب انهيار تلك الدولة إذ لم يطل عمرها بالإطالة
التي كانت متوقعة لها، فما أسباب ذلك؟

(1) عمان، عصر الموحدين، ج(2)، ص (139).
1- إرهاب ابن تومرت المغربية بمهديته المزعومة:

الهالة الكبرى التي أخاط بها محمد بن تومرت نفسه كزعيم روحي لدولة الموحدين إذ لم يكتف بأن يجعل من نفسه فقيهاً أو داعياً وإنما جعل من نفسه الإمام المعصوم والمهدى المعلم، وادعى نسبة الم ofType عن النبي ﷺ وأوجب على أنباه الإمام والاعتقاد بذلك اعتقاداً جامعاً وجعلها ركنًا من أركان تلك العقيدة التي شرعها لهم كما جاء في كتابه "أعز ما يطلب" حيث تحدث عن المهدي وعلاماته وعن قيام الطائفة التي تقيام آخر الزمان لقتال في سبيل الحق وأوجب على الناس طاعته، ومن يعصيه فيكون قد كفر وخرج عن الملة، وهذه الجملة قد وجدت صداها إلى عقول الكثير من المغرباء البسطاء فسرعان ما أمنوا بها وخشوا على أنفسهم عواقب العصيان، ومن هنا كان الجند يدافعون عنها بقوة متفعدين بأسباب الخوف وكان بين الحسن والحق يجري تمزيقاً بين أنباه يقلل فيه كل من لمس فيه خيانة أو من ارتاب في أمر دعوته، لذا نرى الجميع قد أنساقوا وراءه كما يسوق الراعي قطيعًا من الأيل يملكهم الخوف والحنق الشديد لابن تومرت ودولته يتمون الانسلاخ عنه ولكن أن لهم ذلك؟

2- ملل المغربية وخللهم من تعاليم "ابن تومرت":

وقد وجد من اعتبر على هذا النظام من أئمة العالم الإسلامي مثل الإمام ابن تيمية وغيره حيث كان "ابن تومرت" مخالفًا بذلك لتعاليم الدين، فليس هو المهدى المتوقع كما أنه ليس بالإمام المعصوم، وإنما كانت هذه الفكرة بعيدة عن الدين تكشف للناس اختلاؤها وسرعان ما بدأوا يشكون في أمر تلك الدعوة حتى وجدنا أحد خلفاء الموحدين أنفسهم وهو المأمون بعد أن دخل مراكش وتباعه الموحدين صعد إلى النهر بجامعة المصور وخطب الناس وقبح المهدي وقال: "أيها الناس لاتدعو بالمعصوم وادعوه بالغوى المذموم، أن لم تهدى إلا عيسى" ثم أصدر مرسومه إلى سائر البلاد بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ومحو اسمه من المخطات، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية وغير ذلك مما كان العمل جاريًا عليه منذ بداية الدولة الموحدة. ثم قال في وصف ابن تومرت- بالمهدي، والإمام المعصوم- إنه هو نفاق وبدعة وباطل وأنه يجب نبذه والقضاء عليه(1).

(1) انظر مجموع فتاوي ابن تيمية، ج (11)، ص (476) وما بعدها، البيان المغربي، ص (271)، ووض الفطر الص (168).
وذلك يكون المأمون قد قضى على الأسطورة التي عشت في عقول المغارة مايقرب من مائتي واثنتي عشر عامًا منذ أن أعلن "ابن تومرت" مهدوته. وله دافع الأمون إلى إلغاء مهدية "ابن تومرت" ما لاحظه من فتور الناس وسأسمهم لمبادئ "ابن تومرت" حيث صارت تلك العقيدة لاتجد صداها في نفس الناس، وهذا التصرف جعل كثيرًا من الناس يدركون طبيعة تلك الدولة في فساد عقيدتها مما أضعف ولاء الكثيرين لها.

3- ضياع فكرة الدعوة والنموذج الأمثل:

لم تتحقق في دعوة "ابن تومرت" الفكرة الإسلامية الصحيحة كما تحققت في دعوة المرابطين سالفة الذكر حيث باشر الناس بفكر ملتوى قد أخذ أغلبه عن المشرفة والاشعة وسمى أتباعهم بالموحدين ليميزهم عن المرابطين الذين يأخذون بالظاهرة من الأحكام بينما الموحدون كانوا يؤولون الصفات والذات الإلهية وبعض آيات القرآن الكريم مما جعلهم ينحرفون عن الجادة، ثم جاء "عبد المؤمن" ونقل تلك الدعوة على الرغم من التواء منهجه إلى نظام دولة ثم ورثها إلى أبنائه فلم يتحقق النموذج الأمثل للدولة كما ينبغي أن يكون، وبذلك لم تكن دولة الموحدين دولة فكرية أو مبادية، وقد أطاح بتلك المبادئ إن وجدت عند بعض المغارة فكرة التمييز الذي يشبه قتل الآلاف من الأتباع وانزول الكثيرين من المؤيدين للدولة.

4- صراع الدولة مع الخارجين عليها:

لقد أدى النزاع السياسي الذي استحكمت حلقاته بين أبناء "عبد المؤمن" من جهة وأشباخ الموحدين من جهة أخرى -وهم الذين يمثلون أهل العقد والحل- حول توارث الخلافة ما أدى إلى النزاع المستمر بين هاتين الطائفتين "الخليفة وأشباخ الموحدين" وتربط على ذلك ضعف الإدارة وفوضويتها وعدم دقتها في كثير من المواقف وخاصة مع الجيش كما احتذاء في خلل تمون الجيش وتعثير خطوط الإمدادات لطول المسافة بين المغرب والأندلس، كما أن قيام الدولة بردع النواور المهاجرين أمثال ابن غانية والخصيين وكذلك ثورات الأندلس وثورات بن مرين في المغرب وبنى عبد الواد في تلمسان، كل هذا أرهق دولة الموحدين وأرهق أيضًا جيشها الذي ما فتئ يخرج من معركة حتى يدخل أخرى إلى أن ساءت حالاتهم المعنوية والمادية.
الفصل الثالث
شروط التجنيد وتنظيمه في الدولتين

أولاً: شروط التجنيد:

عرفنا أن الدور الأول لجيش المرابطين نشأ في تلك الرابطة التي أقامها "عبد الله ابن بانيس" وكانت شروط التجنيد في هذا الطرف بسيطة تتلاءم مع طبيعة تلك المرحلة. فقد كان غاية "ابن بانيس" هو تجميع عصبية أهل اللام تحت لوائه وحشد أكبر عدد ممكن من رجال تلك القبائل وقد اتبع معهم أساليب الترغيب والترهيب.

فكان لايشترط في مزيدية سوى اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة وإيمان سليم ومعرفة تامة بأوامر الدين ونواهيه، وكان حريصًا على أن ينتهي من هؤلاء المرابدين من هم أصغى دينًا وانتهى سيره وآشده ثباتًا على مبادئه، فإذا ما تم له ذلك انطلق بهذه الصفوف المختارة إلى أتون المعارك بدافع من إيمانهم القويم: شبابهم وشيوخهم.

وكان جيش الرابط لايلزمن بعد معين من الأفراد في باديء الأمر، فكل من دخل في الرابط أصبح بدخوله جنديًا يقع عليه عبء الجهاد في سبيل الله دون أن يلزمه أحد بذلك، فقد سرت فكرة الجهاد في نفوسهم مسرى الدماء في العروق، فكان من العار أن يتعاقب المرابط عن الجهاد وإخوته في الإسلام يقاتلون ويستقهدون، وكيف يتأлибо عن الجهاد وهو المرابط الذي أعد لذلك، لذا كان التجنيد في عهد الرابط إلزامًا أديبًا يدفع المرابط للانظام في الجيش بدافع من دينه وخلقه وبوحى من هدى فقههم ومعملهم لايشترط في ذلك سن معينة للتجنيد أو عددًا محدودًا من الجنود وإنما كان كل شيء يتم بسلاسة تامة فلم يكن قد استعملوا الدواوين بعد ولم يكن لهذا الجيش ظاهرة مميزة له.

وبعدما تولى "يوسف بن تاشفين" قيادة الجيوش واتسع ملكه في المغرب والأندلس وأقبلت عليه حشود القبائل التي خضعت له، نظم أوضاع جيشه،
وضوح الدب≈ وسجلت فيه أسماء الجندة، فمن المحتمل أن يكون قد أخذ بشروط القبول في الجندة التي حدثتها الشريعة الإسلامية وتحدث عنها الفقه المالكي، وقد حدد لنا ابن رشد أحد فقهاء الأندلس شروط التجنيد في مست شروط فقال:

الوجوب القتال ست شروط لا يجب إلا بها، حتى أخرج منها أحد، سقط وجوهه.

وهي:

1 - الإسلام.
2 - البلوغ.
3 - العقل.
4 - الخيرة.
5 - الذكورة.
6 - الاستطاعة بصحة البدن وما يحتاج إليه من المال\(^1\).

أما شرط الإسلام فهو ضروري لأن العقيدة من أهم أسباب النصر، فالقاتل بدون عقيدة لايكن أن يقاتل قتالا مستقرا، ولا يمكن أن يصمد صموداً عندياً فلا إحد أن يعي القاتل تعاليم إسلامه وغيب كاملاً، حتى تكون لديه عقيدة يستميت من أجلها.

وترشط البلوغ من أهم شروط التجنيد أيضًا، لأن سن البلوغ معناه اكتمال الفترة.

والتي لا تتحقق إلا في سن الشباب.

وإن كانت المراجع التاريخية لم تكن بشيء عن السن المحددة في القبول بالجندة في عهدي المرابطين والموحدين إلا أننا نستطيع أن نستثني تلك السن من تصفحنا للتواريخ العسكرية المعمول بها في الأمم المعاصرة لهم، مع وضعنا في الاعتبار أن سن التجنيد مسألة عرفية تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد على مدى العصور، فمشاءً في وقتنا العاصر يجد الشباب المصري في السادسة والعشرين أو العشرين تقريباً، قد تتقرب قليلاً أو تزيد بحسب ظروف المجند وظروف التجنيد، بينما يجد الشباب التركي في سن السادسة عشرة، وكذلك الحال قديماً فإن سن التجنيد كانت نسبة تختلف من دولة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر\(^2\).

ولكن من الناحية، أن مرحلة البلوغ هي مرحلة الشباب التي تتحمل فيها المقاتل مقاساة الحروب وأهميتها، وفي هذه المرحلة ميل الشباب لإظهار بطولاتهم في المعارك ويتلاحرون بها.

---

\(^1\) مقدمات ابن رشد، ص (72).
\(^2\) عبد الرؤوف عون، الفن الحربي، ص (88).
لذا حرصت كلاً من الدولتين المرباطية والموافقة على تجنيد الشباب الذي يتميز بالطاقة الدينية والمقدرة على القتال، ويتضح ذلك في أحراسهم الخاصة من العبيد السود ومن بعض الصقليين الذين كانوا يتميزون بالقوة والخشونة، وقد دربوا أعظم درب، وزودوا بأجود الأسلحة حتى غدوا قوة ضارية لها خطرها(1) وكانت هذه القوة أشبه بالقوات الفدائية، تدخل المعركة في وقت حرج تفتقر من مصيرها لما تثيره من فزع ورعى في قلوب الأعداء، وقد كان هذا الخرس قسماً من أقسام الجيش فلابد أن تكون نفس المواصفات التي اختير بها هذا الخرس منظمة على باقي أقسام الجيش، ونأمل أن يختار لها صفوة الفرسان المدرية على فنون القتال.

وإن لم يكن الفارس شاباً قويًا متميزًا باللياقة البدنية الكاملة، فما يصلح أن يكن فارسًا وقد كان جيش المرباطين ومن بعضهم الموحدين فرق مدرية من الفرسان الشباب لهم القول الفصل في أغلب المعارك، وقد عرفت فرسان زنتاه بشهرتها الواسعة في فنون القتال.

ولم يَغفل الخليفة «عبد المؤمن» الموحدى، مكانة الشباب في جيشه، فلابد من اهتمام بالغاً، فقد جمع منهم نحو ثلاثة آلاف شاب في قصره ليعدهم إعدادًا جيدًا، فذربهم على ركوب الخيل والرماة والسباحة في بحيرة صنعها لهم خارج بستانه، مع تدريبات أخرى(2) ليكون منهم قوادًا وجندًا متورمين على فنون الحرب وذلك لإياده بجدوى الشباب وحيويتهم، فهم أقدر الطلاف المختلفة على فهم الأساليب الحديثة التي كان معمولاً بها ويل إليها.

أما الشرط الخاص بالحرية، فقد اختلف فيه الفقهاء فهناك تجنيد العبد المملوك التابع لسيده أم لا؟ بعض الأئمة يرونون شرطاً ضروريًا، وبعضهم يستقطه كالشفاعي وأبي حنيفة ليس شرطاً متفقًا عليه.

أما بخصوص شرط الذكورة فقد عمل به منذ منجي العباسيين الذين أطلقوا اشتراك النساء في الحروب كما كان متبعة في العصور السابقة(3)، فحرموا الجيش من عنصر إجهاض يزيد في عده ومعنوياته، وهذا منهم انحراف لا يقهر الإجماع.

(1) الخليل الموشية، ص (134).
(2) المرجع السابق، ص (114).
(3) الرسول القاديد، محمود شيت خطاب، ص (56).
فقد استدلال ابن رشد في وجوه الذكرى، هو انشغال المرأة بحق زوجها وما أمرت به من الست والقرار، فقال الله عز وجل: «يا أيها النبي قل لأرواحك ونالك وناس المؤمنين يدينون على نفسي جلبي» [الائتمان 69] وقال عز وجل: «وقرن في بوبكن ولا ترجن تبرج الجاهلية الأولى» [الائتمان 33].

فأين رشد يرى الجهاد فرض كفاية، ولا يجب على أصحاب الأذان، ولا يجب على المرأة لأنها مشغولة بحق زوجها، وحق العبد مقدم على حق الله، كما أنها مامورة بأن تستمر جسمها وتقر في بيتها.

وإن كان القتال فرض كفاية يحق للمرأة أن تخرج للقتال بعد إذن زوجها، أو يأخذها معه إلى الجهاد ولا يكون عليها ولا عليها من بأس في ذلك، وإذا كانت المرأة يغري زوج تشتغل بحقه، فهي والرجل سواء في وجوه الجهاد. هذا كله إذا لم يهجم العدو هجومًا شاملاً، وتمكن للقادرين على حمل السلاح ردًا، فإذا كان النفير العام وجب على جميع الناس أن يخرجوا للدفاع عن الحوزة.

ويبعد أن دولتي المرابطين والموحدين قد عملتا بتعاليم المذهب المالكي الذي يمثله ابن رشد، فلم نر في المراجع شيئًا يثبت اشتراك نسائهم في القتال إلا في حالات قليلة وتعت حالات فردية نادرة.

ومن أمثلة ذلك ما روى عن الفتاة المرابطة "فانو بنت عمر بن يحيى" وهي فتاة بارعة الحسن والجمال وافرة الجرأة والشجاعة كانت تقاتل الموحدين أمام قصر القصبة في ثياب فارس أثناء حصار الموحدين لراكش، وكان الموحدون نما يقول البندق يتعجبون من قتالها، ومن شدة ما أعطاه الله من الشجاعة ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة في ثياب رجل.

وفي أخريات دولة الموحدين سمعنا عن اشتراك النساء في معركة دارت بين بنى مرين وبنى عبد الواد سنة 166 هـ في صراعهم حول اقتسام بلاد المغرب واقتطاعها.
من أيدي سلطان الموحدين (أبي دوس) التي أطلق دولة الموحدين على يديه، وقد نشبت المعارك بين الفريقين عنيفة طاحنة وقد محتل النساء في الهواض و والاسترخاء، و سافرات بين الفريقين يضرب بين الرجال على القتال وقد انتهى المعركة بانتصار بني مرين وهزيمة بني عبد الواد.

ومن هذا الاستعراض لشروط التجنيد الإسلامية نرى أنه كان معصولًا بها في دولتي المرابطين والمغربيين شأنيهم في ذلك شأن الدول الإسلامية. ومن نظام القبول في الجنودية عند المسلمين أنه من أراد الانتقام في الجنودية يقدم طلبًا إلى صاحب ديوان الجنرال فهو ينظر في أهلته للتجنيد ولا يكون أهلاً لذلك إلا إذا كان حرًا بالفعل، سليمًا، مقدماً، وإذا استوفى هذه الشروط قبل دون اسمه في دفتر الجيش مع سنة وطوله ولونه وملاحمه وسائر ما يتميز به من غيره حتى لا يحصل لبس في الأسماء عند استدعائها للمعارك.

ووماهو جدير بالذكر أن نشير إلى أنه يوجد تشابه كبير في نظم التجنيد بين دولتي المرابطين والمغربيين ويمكن معرفة ذلك على النحو التالي:

1- جيش المرابطين في مرحلة الرباط كان لا يشتهر في الانضمام إليه سوى اعتناق الإسلام عن عقيدة ثابتة وإيمان سليم ولا يلزم أنه قد يكون من أفراد، فكل من دخل الرباط أصبح بدعوته جندياً من جنود المرابطين، وكذلك كان جيش المغربيين في مرحلة الرباط حيث كان اسمه في رابطة ابن توميرت المعروفة به أن يكون من المتقدمين الذين يريدون الانضمام إلى رابطةه الإسلامية مع إيمان سليم بتعاليم الدين مع تشتهر كامل بدعوته ابن توميرت الذي يوجه على أتباعه الإمام بتوافر الشجاعة والإقدام واللياقة البدنية بغض النظر عن السن أو شروط أخرى لأنه كان في حاجة إلى تزايده عدد أتباعه.

وقد ركز ابن توميرت على عقيدة التوحيد كشرط أساسي لمن ينضم إليه وقد وضع لهم كتابًا يشتمل على كل تعاليمهم وطالبهم بحفظ صيغة ذلك التوحيد إذ

(1) ابن خلدون، ج (7) ص (180).
(2) تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي ريدان، ج (1) ص (144).
يقول: "إن لم يحفظ هذا التوحيد فليس بهما هو كافر لاتجوز إمامته ولا يؤذل ذيفانه" فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن الكريم، وهذا يكون قد أطاعه المصامدة وبلغ من نفسه مبلغًا عظيمًا إلى درجة أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أحده لقام بتنفيذ ذلك.

وإن كان ابن ياسين بدأ متشدداً في اختيار مريرته بما كان يجريه عليهم من الحدود وتتهيأ النفس كشرط لدخولهم الرباط، فإن ابن تومرت قد غمر من هذه السياسة حيث جا إلى ساسة اللين لاجتذاب أنصاره من المرابطين وغيرهم، فلم يبسط تطهير المريد لإقامة الحدود عليه بل أمر أتباعه بأن يمتدوا في نشر الدعوة بجامعة اللين والحسن، ومن هنا أنهالت عليه حشود المصامدة لتنظم في رابطه، ولكنه بعد ذلك جا إلى سياسة العنف بعدما تفاوتت لديه الخطى إذ لم يقصر بأفرادها تلقائياً وانحرافاً فأمر بإجراء التمييز كما فعل قبل معركة البحيرة وأعدهم منهم آثاراً مادياً "أهل التخليص" كما عرفنا سابقاً.

فمن الملاحظ هنا أن ابن ياسين داعية المرابطين قد استخدم شدته في بادئ الأمر حتى يستر ووضعه ويضمه ولاء أنصاره له وتمسكم بدعوته، ولاشك أنه كان تصرفًا حديداً إذ أنه ضمن ولاءهم له ولدعوته أبداً طولاً حتى نهاية دولته، أما ابن تومرت فقد استخدم الشددة بعد مرور المراحل الأولى من قيام دعوته فشعر الموحدون بتغير حاد في طبيعة داعيتهم فعتقدوا عليه وعلى دعوته وضمنوا له الكره الشديد بدليل هزيمتهم الساحقة في معركة البحيرة ولم تكن هذه الهزيمة إلا من جراء حركة التمييز الدموية التي سبق الحديث عنها.

2- بعد موت الداعتين ابن ياسين، والمهدي ابن تومرت تحقت الدعوة إلى ملك دنئري على يد كل من يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وعبد المؤمن ابن على مؤسس دولة الموحدين، واتخذ كل منهما الدواوين المشتركة على الجيوش والمنظمة لأحوالها المختلفة وأخذت الدولتان بشروط القبول في الجندية كما أوضحنا سابقاً.

(1) المراذشي، المعبطب، ص (123).
ثانياً: نظام التجنيد الجبري والتطوعي:

كان التجنيد في العهد الأول لقيام دولتي المرابطين والموحدين إلزاماً دليلاً كما قلنا سابقًا فكان كل من دخل في رابطتي الدعاعتين عدا جنديًا ومن ثم يتجه إلى الجهاد يدافع عن نفسه ليل إحدى الخمسين، فقد كان لتوجه الدعاعتين أثر عميق في الدفاع المريدين نحو الجهاد، ويكفينا في هذا المقام قول ابن تومرت عن إثارة مريدية للقتل: "ما على الأرض من يؤمن إيمانكما وانتعم الصياحة المميتة بقوله عليه الصلاة والسلام: لنزل طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضروهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم وينقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم ولايزال فيكم الأمر إلى قيام الساعة" (1).

لا يتكرر مثل هذا القول في إنهاء حماس مريدية واندفاعهم جميعاً للقتال خشية أن يقع أحدهم في معرة التخلف و دائرة النفق؟ لذا لا نتعجب إذا بدأت جيشه المرابطين والموحدين بمجموعة قليلة من الأبطال الذين آمنوا بالدعوة ثم ارتفع عددهم حتى وصل إلى عدة آلاف، وكانوا جميعاً جنوداً محشودة للقتال وقد دفعهم جميعاً حبيهم وإجلائهم لداعيهم والرغبة الصادقة في نيل ثواب الله، وما كان هذا إلزاماً عليههم بقدر ما كان دفعًا عقديًا يجعل الرجل منهم يحمل روحه على كنه في سبيل الذود عن عقيدته.

وبعد اتّهام ملك هاتين الدولتين في المغرب والأندلس تطلب الأمر تنظيم تلك الجيوش وتجهيزها بصورة جيشه دائمة مستعدة لتوجهها للقتال في أي جهة يطلبها الأمر، فكان من الضروري أن توفر لديهم جند نظامية تتمنح مهمة الجندية وتفوقهم رواتب شهرية من الديون، ومن هنا ظهر نظام الحشد الجبري أو التعين إلى جانب النظام التطوعي، وليس هذا نظاماً جديداً من ابتكارات المرابطين والموحدين بل كان نظاماً مشتقاً لدى دول الإسلام سواء في الشرق أو المغرب من قبل، ولكنه ندرك هذين النظامين مستحدث عن كل منهما بصورة مختصرة.

أ- نظام الحشد الجبري: والمعنيون بهذا النظام هم الجنين النظاميون والمسجلة أسماؤهم في ديوان الجند ويصرف لهم عطاؤهم ورواتبهم من بيت المال فوق ما

(1) للراوي، الماجي، ص (188).
يصرف لهم من أسلهم الدعائم، وهؤلاء الجند بطبيعة الحال موقوفون لأعمال الجندية وحمر عليهم الاستغلال بغيرها.

وهو ما جدير بالذكر أن دولة المراقبين والتي قامت على فكرة الجهاد قد سخرت كل مواردها وجندها كل طوائفها لمعركة الجهاد وهو ما يطلق عليه الحشد الجبري إذ حشد المراقبين أعدادًا كبيرة من أهل المغرب غير بناء على الزناتيين والمصادمة ليقفوا بجانبهم في معارك الجهاد بالأندلس وليخلص لهم المغرب من تقلب وتمديد هذه القبائل عليهم. ولهما فتحت الأندلس رابط فيها جيش مرابطي قيم قوامه سبعة عشر ألف فارس حسن الأجر يتطوعون في المدن بدون مقابل على نفقة بيت المال.

وإيجاب الجند النظامي الذي يتضمن رواتبه من بيت المال كان يوجد نظام الإقطاع في دولتي المراقبين والموجودين فكان أفراد الإقطاع يقطعون أقليهم السلطة وأراضيها للإشراف عليها والإفادة بدخلها وإعداد الجند منهم وكان من مهماتهم تجهيز عدد معين من الجند بحسب قيمة إقطاعاتهم للاستفادة في الحروب دفاعًا عن السلطان وعن دولته، وإذا ما هذا الأمير أو عزول كان السلطان وحده هو صاحب الحق في تعيين بدلته.

وأما يؤكد هذا القول أنه في سنة 520 هـ عندما علم على بن يوسف بخروج ابن رذميرة لغزو بلاد المسلمين قسط على الوعية مجمعة من السودان يعزون مع العساكر المرابطية وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم وسلاحهم ونفاقهم يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا.

وكانت هذه الضياع والقرى التي يقطونها هي بمثابة الأعطيات الجارية والرواتب على كبار القواد من المراقبين والأشياك الكبار من كبار الموحدين وقد بصر على ذلك "الفقشند" حيث قال: "إن للفتiyor الكبار الإقطاعيات الجارية عليهم، لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف من مثقال من الذهب يأخذهن من قبائل.....

(1) الخلل الوشية، ص(79)، وشياخ، تاريخ الأندلس، ج(1) ص(119).
(2) حسن البشاير، الفنون الإسلامية، ج(1) ص(138-174).
(3) نظام الجماعة، لابن القطن، ص(9).
وقري وضياع وقلع ويتخصص لهم من القمح والشعير من تلك البلاد نحو عشرين ألف وستة
وبنا على ذلك مسّح «عبد المؤمن بن علي» أراضي ملكته ثم فرض الحشد الجبري على كل قبيلة عليها أن تقدم ما تعود به من رجال أو بحارة أو خيل، فألزم أهل الشعور أن تقدم البحارة والسفن والمناطق الصحراوية الغنية بالخيل أن تقدم الخيل والفرسان، ثم فرض على الولايات الأخرى أن تقدم الجنود المشاة كل بعدد محدد وحسب إمكاناتهم.

وقد حرص المرابطون على رعاية أمر شهدائهم ورعاية أهل المحارب في غيبيتهم والإنذار عليهم من بيت المال، وقد ورد ذلك على لسان علی بن يوسف في رسالته التي قرع فيها قادته وجند عقب هزيمتهم في أراضي بلنسية (أن من أصيب منكم في حرب أو أبلى بطبع أو ضرب خلفنا في الأهل والولود وعناوين الأثر والكرامة يداً بيد فاختروا لأنفسكم وأعقابكم).

ب – نظام التطور: المتطوعون هم الذين يلحقون بالجيوش من أهل الأندلس والغرب عند الجهاد ثم يسرون وقت السلام، وحظهم من الجهاد هي أسرهم فقط، ولهم أن يعملوا بالمهم الأخرى وقد كان يلحق بالجيوش المرابطية والموحدية أعداد هائلة من هؤلاء المتطوعين تعدد بالآلاف، تبرع للقتال والانضمام للجيوش وبعدد سماعهم لبناء الجهاد وموررتنا من طاعة أمر المسلمين وناصر الدين، على جهات سمعت منادي، وتبعث هادينا واتقالت وراءنا أعداد وأمداد، برعوا من كمون)4) وقد كان للقوات المطوّعة قائد يقودهم في المعركة وكان موضعًا غالبًا في مقدمة الجيوش بينما كان أغلب القوات النظامية من المرابطين أو الموحدين يشكلون باقي أجنحة الجيش.

---

(1) صبيح الاغشة، ج (5) ص (420).
(2) روض الفرافرات، ص (124)، أشباح، تاريخ المرابطين، ج (2) ص 247.
(3) مقتولة عن عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (546).
(4) رسالة الأمير تيميم في فتح ألبان إلى الأمير علي بن يوسف نظلا عن عنان، عصر المرابطين ج (1) ص (533).
ثالثًا: نظام تسريح الجنـد:

من المعروف في العرف العسكري أن نظام التسريح نوـعان: تسريح مؤقت يهدف إلى إراحة الجنـد لاستسقاء القتال، وتسريح نهائي ينتهي به مدة خدمة الجنـد في الجيش. إما النوع الأول وهو التسريح المؤقت فقد كان ممولاً به عند العرب، منذ أن سنه عمر بن الخطاب، فقد أرسل كتابه إلى القمر والولاة بالآلا يجمر الناس في شغورهم، ولا يظل مهمدة غبيتهم في غزوهم حتى يأمن الفتنة عليهم، وعلى نسائهم ويعيق العدالة بينهم، فكان الغازى لا يكتب في الغزو أكثر من أربعة أشهر، ثم يستقدم ويرسل مكانه آخر، وكان يسمى الجيش الجديد بجيش "البدال".

وقد كان هذا النظام ممولاً به في الأندلس قبل انضمامها للمراقبين والموحدين، فقد كان الخليفة يعقد لواءين لواء غازيا، ولواءا آخر مقيمًا، وكان رزق الغازى بلوائه مائتين دينار ويبقى المقيم بولا رزق ثلاثة أشهر، ثم يدل بنظيره من أهل وغيروه.

ومن الطبيعة أن تأخذ الدولتان المراقبة والموحدة بهذا النظام اقتناء بالرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين الذين حرصوا على توفير الراحة اللازمة لجنودهم حتى تتجدد طاقتهم.

وقد يتطلب الأمر ذلك؛ فمعارك الجهاد بالأندلس متواصلة وتغور المغرب والأندلس كثيرة ومتنوّرة تحتاج إلى مرابطين بها على الدوام.

أما عن التسريح النهائي، وإنهاء مدة الخدمة، فقلت في المؤرخ على سن محددة لها، ولكن الحكم فيها هو بلوغ الجنـد النظامي حد الشيخوخة التي تنعدم فيها القدرة للبدنية والقدرة على تحمل مشاق الحرب، وكان كل من بلغ حد الشيخوخة يسرح من الخدمة العسكرية، ليفردو مكانًا لجنود أخرين يتميزون بالكفاءة العسكرية.

هذا بالنسبة للمجنود النظاميين الذين سجلوا في سجلات الجيش بالديوان، أما بخصوص المجندن، فقد كانوا يسرحون بعد اقتناء الغزو مباشرة، ليستمروا ويبذلون أعمالهم المدنية.

(1) عبد الرؤوف عون، الفن الحرني، ص (89). (2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج (1) ت عدان ص (110).
الباب الثاني
تشكيلات الجيوش وأنظمةها وشؤونها الإدارية
الفصل الأول: صنوف الجيش وتشكيكاته
الفصل الثاني: النظام الدائم لكتائب الجيوش
الفصل الثالث: الألفسة والألوية والرايات
الفصل الرابع: الشئون الإدارية لجيوش الدولتين
لا يمكنني قراءة النص العربي من الصورة.
الفصل الأول
صنوف الجيش وتشكيلاته

كانت الجيوش المرابطة والموحدية تتألف من عدة فرق تضم الفرق النظامية والمنطوية وتتألف هذه الفرق من الرجال المشاة ويتسلحون بالرماح والحربة والترس، ومن الرماة من يتسلحون بالسيوف والآوام وألوص والترس والنشاب، وكل فرق من فرق الجيش تكملة لقذف النّفط يعرف رجالها بالنفاطين، كما تحتوي الجيوش على فرق من الدبابين والعيارين، وهم رماة الحجارة من المقاتلين. هذا بالإضافة إلى فرق من الفرسان المهرة.

وسوف نتحدث في هذا الفصل عن بعض هذه الفرق وعن مصادرها المختلفة.

أولاً: صنوف الجيش المرابطي

فيما يختص بكتائب الجيش المرابطي فإنه كما نعرف كان مقسمًا إلى عدة فرق، لكل فرق قيادتها الخاصة، ومكانتها في المعركة ولها أعلامها المميزة لها، ويدعو أن هذا التقسيم يخضع لاعتبارات قبلية محضة قد لوحظت في معاملة المراقبين لهذه الفرق، فقد كان المراقبون ينظرون إلى الفرق الأخرى على أنهم في مرتبة أخرى منهم، وقد ظهر ذلك واضحًا في تسميتهم لهذه الفرق باسم الحشة أو الأتباع (1)، كذلك لوحظ من معاملتهم لهذه الفرق في المعارك، ففقد كانوا يحصدون في مقدمة الجيوش لكي تتحمل الضربة الأولى ثم تتقدم الفرق المرتبطة حتى شмарк الظرف بعد أن تكون فرق الحشة قد نالت من العدو وأنهكته، وإليك نبذة عن كل فرق من هذه الفرق.

1 - فرقة السودان:

لقد استعان يوسف بفرق من عبيد الصحراء من غانا، وذلك ليتخذ منها حرسه الخاص، وقد زودهم بالسلاح والخيل ودربهم على جميع فنون القتال، وكانت قوة

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج (1) ص (283).
هذه الفرقة تقدر بألفين من العبيد مسلمين بشرق اللمط وسبعون الهند، وداريوق الزيار وقد أثبتت هذه الفرقة كفاءة نادرة في حروبها وولائها للمرابطين، فاستثناها منهم بدليلاً أن من شارك منهم في معركة الزلاقة كان زهاء أربعة آلاف.

وكان هذه الفرقة تدخل المعركة في خطواتها الأخيرة لانزاعي النصر من الأعداء فيتركون مكانهم في الساقية وينقضون عليها لإحداث خلل في صفوفهم، ويرمونهم على الفرار، وقد وضع ذلك جلياً يوم الزلاقة في الأندلس حينما أمرهم يوسف بن تاشفين في اللحظة الحاسمة بالانقاض في المعركة بأسلحتهم وطعنوا الخيل فرحت بفرسانها، وأجمحت عن أقرانها، وقد أدرك «الدفوش» عبد أسود لصق به وقبض على عنانه وانتضم خنجرًا أثبت في فخمه، فهتك حلق دعوه وهبت ريح النصر.

ويدو أنه بمرور الوقت صارت لهذه الفرقة أهمية خاصة لا يخلو منها جيش مرابطين تكون فيه مثابة الفرق الخاصة في عصوراً الحالى تكسب الجيوش منعة وقوة، وما يثبت ذلك أنه في سنة 573 هـ علم يوسف بخروج «ابن رذميمر» إلى بلاد المسلمين فقط على الرعيه سودان يغزوون في العساكر.

بل كان في جيوش المرابطين في آخر عهدهم عدد كبير منهم بدليلاً أنه عند هزيمة هذه الجيوش من الموحدين في &quot;أغامات&quot; قبل منهم ما يقرب من ثلاثة آلاف أسود.

2- فرقة جند الصقلب من النصاري:

وقد اتخذ يوسف بن تاشفين أيضًا فرقة خاصة لحرسه من النصاري وقد نظم هذه الفرقة في عهد ولده &quot;علي&quot; حتى أصبحت تؤلف جناحًا كبيرًا في الجيش المرابطين من النصاري المتنزقة، وقد شاركت هذه الفرقة مع جيش المرابطين في معارك عديدة.

(1) نفح الطيب، ج(2) ص(283)، دورى، ملوك الطوارئ، ص(284).
(2) نفح الطيب، ج(2) ص(530).
(3) تفتيش الجماهير، ابن القطا، ص(109).
(4) المصدر السابق، ص(116، 117).
ويرجع تاريخ هذه الفرقة من النصارى إلى زمن بعيد منذ فتح الأندلس فيهم الذين بقوا بعد الفتح تحت حكم الدولة الإسلامية وكانوا يكونون أقلية كبيرة في القواعد الأندلسية الكبيرة، لذا سموا بالنصارى المعاهدين، وقد كانوا يتمتعون في بعض الأحيان ببنفوذ قوى، واحتل كثير منهم مناصب هامة في الحكومة والجيش وخاصة في أخريات الدولة المرابطة.

وقد أشارت بعض المراجع إلى أن أول من استخدم هذه الطائفة في الجيش المرابط هو «علي بن يوسف»(1) ولكن يبدو أن أول من استخدمها «يوسف بن تاشفين» خصوصًا بعد ما شاهد من كفاءتهم في خدمة ملوك الطوائف فمن المحتمل أن يكون قد جلب عدداً منهم بعد أن أزال ملكهم، أو ربما وفرت عليه هذه الطائفة لعمل في خدمة الجيش المرابط على غرار الجيش المرتزة، أو وقعوا في أسر قوات المرابطين. وقد أشار إلى ذلك ابن القنن، فقد كان الأمير المرابط «علي بن ميمون» قائد البحر، يرسل الأسرى إلى مراكش ليعملوا تحت لواء المرابطين(2).

وقد ترك المرابطون للنصارى حرية العقائد والشعائر والاحتفاظ ببعض القوانين الفوطة، ولهم أساقطهم وقضاياهم الخاصة بهم.

وقد كانت هذه الطائفة شروكة في ظهر الدولة المرابطية يحاولون إحداث الشغب بكل الوسائل ويشجعون كل خلاف وثورة، ولم يدخروا وسعاً في الكيد للمسلمين والتآمر على سلامة دولة. ومن أبرزها، ومداخلة النصارى الإسبان، وتخريضهم عليها ومعاوتنهم على الإيقاع بها في كل فرصة مناسبة. وقد ظهرت خياناتهم ذروتها حينا عملوا على استدعاء ملك أراجوين ألفونسو الحارب لغزو الأندلس، ووعده بالانضمام إلى صفوفه، وتمويج جنوده، وقام ألفونسو بغوته مخترقاً بلاد الأندلس في عهد علي بن يوسف بعث في بسانتها، ومعاهدون يهرون له من كل ناحية، وأنتخب على ذلك أن يعمل علي بن يوسف على تشريد معظم النصارى وتغريبهم إلى المغرب ودخل بعضهم في جيشه، ووزع الباقي على مدن المغرب وأفريقيا(3).

(1) الخليل الموروث، ص(121)، وأشباح، تاريخ الأندلس، ج(1) ص(121).
(2) الجليل، ص(267)، أشباح، ج(2) ص(238).
(3) المصدر السابق، ص(96).
وقد استغفل عقلي بن يوسف هذه الطائفة من النصارى فعين منهم في بلاطه فرسانًا، وأنشأ أيضًا منهم فرقاً خاصة في جيشه أسندت إليه خدمات طيبة في حروبه ضد الموحدين بعد أن أعلنوا توبتهم وعادته على الإخلاص. وقد كان قائد هذه الفرقة رجلاً منهم يسمى البرتير ولهذا الاسم يشير إلى منصب قائد الروم، وهذا القائد فارس قطول من أسرة قائد الأسطول المرابطي على بن ميمون، وأتى به إلى مراكش ودخل في خدمة المرابطين الموحدين.

وبيدو أن المرابطين قد أحصروا استخدام هذه الطائفة من الجنود، وقد أخذو عليهم عقلي بن يوسف الهبات والأعطيا لتخذ منهم جند حراسة في مدن المغرب كما قلنا سابقاً، فقد كانت حضنًا أن يستعين بالنصارى في ضبط أمن بلاد المغرب لأنهم أقل غرضاً للإغواء أو تدبير المؤامرات مع أهل المغرب ثم يستعينو بأهل المغرب في مواصلة حركة الجهاد بالأندلس ليؤمنو فتنهم وتقلبهم عليه، وهذه وجهة نظر صائبة ولا شك.

3- فرق الأندلس:

منذ أن افتتح المرابطون بلاد الأندلس عمدوا إلى تجيج أهلها في جيوههم لتساركوهم معارك الجهاد ضد النصارى، وقد استطاع المرابطون استقطاب أعداد كبيرة من القادة والجند الذين عملوا في جيوش ملوك الطوائف بعد انهاء ملكهم. ومنذ ذلك الحين أصبحت فرق الأندلس قسمًا هائلاً من أقسام الجيش المرابطي لها مكانتها وأعلامها المميزة لها عن سائر جند المغرب. وكانت طريقة حشدتهم للقتال أن يخرجو إلى كل مدينة على رأس جيش من ولاية ويحمل علمها الخاص.

وتؤلف هذه الفرق الأندلسية جناحًا خاصة بها عند القتال للقتال فكانو أحيانًا يحشدون في مقدمة الجيش وذلك لأنهم أعظم بمسائل بلاد الأندلس وأدرى من المرابطين بأساليب قتال النصارى، وأحياناً يحشدون في القلب يحفلون بقائد الجيش رافعين راياتهم الحمر.

(1) نظم الجماع، ص(97).
(2) حسن مؤسس، مجلة معهد الدراسات بالمريدي مجددة(2) سنة 1955م.
(3) قيم دولة المرابطين، ص(281)، أشياخ تاريخ الأندلس....(2) ص(122).
(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المقسم الثالث، ت، العبادي، ص(242).
وقد عامل المرابطون هذه الجيوش معاملة قبلية فيها شيء من العنصرية إذ كانت قيادتها العليا وقفاً على القادة والأمراء المرابطين ولا سيما ذوي القربهم منهم مثل الأمير `سیر بن أبي بكر اللمتوني` وإلى أشبيلة، و `محمد الحاج` وإلى بلنسية، والامیر `أبو محمد مسلي` (والي قرطبة)، وهو من أبناء عصبة يوسف وغيرهم كثيرون.(1)

وقد استفادت الجيوش المرابطية من جند الأندلس استفادة عظيمة حيث أخذت عنها بعض المؤثرات الحضارية وتخلت عن بعض صفاتها الصحراوية القديمة، وقد ظهر ذلك واضحًا في أنظمة الجيوش وطرق تعبيتها وتسليحها وأشكال القتال واساليب القتال.

4- فرق الإبلية:

كان المرابطون في بادئ الأمر يعتمدون على الرجالة وعلى الفرق الإبلية التي قتالية على الإبل أكثر من قتالها على الخيل(2)، وبرزت الوقت تمديد الانتظار بعد احتكاكها بقبائل المغرب والأندلس من ناحية أخرى، فأصبحت جيوش المرابطين تضم طاقم من الفرسان الشجعان، ومع أن المرابطين قد توسعوا في تجهيز طائفة الفرسان إلا أن `يوسف بن تاشفين` أبقى على نظام وجود الفرق الإبلية حيث كان يستعين بها في معاركه في الأندلس، فكان يتخذ منها صفوفًا أشبه بالسياج تحدق بعسكره وتحف به(3). فحرية مؤخرة الجيش وتؤمن طريق مواصلاته، وأحيانًا يكون لهذه الإبل دور خطر في المعركة إذا كانت تقدم الصفوف وقد استثمارا الجند فشير الرعب في نفس الفرسان كما كانت تتخشى الجياد وتنفر منها مذعورة، ففى معركة الزلاقة التي خاضها المرابطون في الأندلس (أمر يوسف بعبور الجمال فعبر منها أعداد غفيرة ارتفع رغاؤها إلى عيان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جمالًا قط ولا خليلهم أفلت رؤيته، فنصارت الخيال تنجح من رؤية هذه الجمال وتفرع لرغائها(4))، وكان فرسان المرابطين يتخذون أحيانًا من هذه الجمال سوارًا تحميه من

(1) روض القرطاس، ص(91)، ابن خلدون ج(6) ص(185).
(2) الطبخ، ص(526).
(3) الطبقات، ص(179).
(4) المصدر السابق ونفس الصفحة.
سهام الأعداء وينذرون من خلال صفوفهم فيكرون على فرسان الأعداء ثم يعودون ليستروا بها.

كما كانت تستخدم هذه الأبل بجانب خوضها القتال في حمل الأقوات والخيام وراء الجيش ثم يتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف (1).

5- فرق الفرسان:

كان جيش المرابطين في مراحله الأولى يعتمد على فرق من الأبل كما قلنا سابقاً وتشير المراجع إلى أن يوسف بن تاشفين عندما فتحبلاد المغرب وخطط مدينة مراكش شرع في تأسيس جيشه وتنظيمه على أسس حديثة كان منها إنشاء فرقة من الفرسان المرابطين بحلف محل فرق الإبل، ويبقى الوقت صارت هذه الفرقة عماد الجيشه المرابطين وقد تولىها يوسف بن تاشفين برعايته حتى قبل إنهاؤه بلغت في عهده نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل (2).

وهذا الرقم وإن كان فيه شيء من المبالغة والغلو إلا أنه يدل على أن جيشه يوسف قد استجاب لدوافع المرحلة الجديدة التي خاضها على بطان أرض المغرب فترك طابعه البديء إلى طابع مغربي متمده، إذ تبين لهم أن فرق الإبل لا تستطيع أن تقتِّف أمام فرق الخيالة والفروسية من قبائل زاناته، فكان لزاماً على يوسف أن يكيف جيشه ويطرده ملاقاة هذه القبائل.

ويبدو أن يوسف بن تاشفين استعان بالفرسان الزنانيين على نطاق واسع فبعد أن خضعت له كثير من القبائل الزنانية أخرى يوسف أبنائه من الفرسان بالانضمام إلى جيشه وأغدق عليهم الأموال والجهبات واستعان بخبرتهم في تكوين تلك الفرقة (3).

6- فرق المشاة من الرماة وغيرهم:

فضم الجيش المرابطين أن أعداءه هائلة من الجنود المشاة المرحلين بالرماح والحراب والتروس من مختلف القبائل، وتشير المراجع إلى أن يوسف بن تاشفين استعان

(1) العبد، تاريخ الاندلس، ت. عنان. ج (2)، ص (15). (2) المصدار السابق. ص (96). (3) ابن أبي زرع، روض الفرات، ص (89).
ثانيًا: صنوف الجيش الموحد

إنه هيكل دولة الموحدين كان قريباً من هيكل دولة المرابطين السالفة الذكر، إذ كانت تقوم على أسس قبائل في الأسرور المدنية والعسكرية على السواء، وكانت القبائل التي يتكون منها هيكل دولة الموحدين، كما قلنا ينتمى معظمها إلى قبيلة مصوطة بما فيها من القبائل السبع التي سبقت القبائل إلى مبايعة المهدي، ثم تسمى بالموحدين وهذه القبائل هي: هريرة - قبيلة المهدي - وكانت قبيلة العدد(2) - قبيلة كومية وهي قبيلة عبد المؤمن - قبيلة تنمل - قبيلة هنانتة - قبيلة جنيسه - قبيلة جديبها - ثم انضمت إليهم مجموعة أخرى من قبائل المصمدة القوية مثل: هسكورة ودكالة وقيلانة وحاجة وغيرها.

وقد استأثرت هذه القبائل بالمناصب الكبرى والقيادة في الجيش بينما بقية القبائل كانت آتباً لهم، ولكننا في ذلك أن تلقى نظرة سريعة إلى تقسيم المهدي لحكومته، فتضح طبيعة ذلك النظام الطبقي الذي هو ع发展模式 أساس الدولة الموحدة، وقد أفرد ضمن هذه الطبقات طبقة للجند، وهم الذين ينتمون إلى القبائل الأخرى التي لم تسبق إلى مناصرة المهدي.

ثم جاء "عبد المؤمن بن علي" وقصر هذه الطبقات إلى ثلاث طبقات أو أصناف بعدما كان قد قسمها المهدي إلى أربع عشرة طبقة، وهذه الأصناف الثلاثة هي:

1. الخليل المرشح، ص (111).
2. الصوفي، ص (179)، البكري، المغرب، ص (166).
3. المركي، المرجع، ص (232).
4. الخليل المرشح، ص (79)، (80).

113
الصف الأول: من بقي على قيد الحياة من صحابة المهدي العشرة وأهل الحسمين وأهل السبعين والسابقين الأولين، أو من صلوا خلف المهدي دون التقيد بقبيلة معينة.

الصف الثاني: الموحدون الذين دخلوا في الدعوة الموحدية بعد موقعة البصرة سنة 562 هـ وحتى موقعة وهران 539 هـ دون التقيد بقبيلة معينة.

الصف الثالث: وهم الذين دخلوا في سنة الموحدين ابتداء من موقعة وهران إلى ما لا نهاية دون التقيد بقبيلة معينة أيضًا.(1)

وبهذا التقسم يكون عبد المؤمن قد كسر عقد شبالة السياسي وقف النظام الطبيقي الذي وضعه المهدي ولكنه تقريبًا أبقى عليه من الناحية العسكرية.

والموحدين جند من سائر أصناف الناس من العرب والغز والأندلس والروم ومن قبائل المرابطين وغيرهم. وهذه نبذة مختصرة عن كل صنف:

1- الحرس الخليفي:

كان الحرس الخليفي يتألف من العبید على غرار حرس الأمراء من المرابطين، وفي أواخر عهد الموحدين كان يتألف من الأندلسيين النصارى الإسبان، وقد أستهدت هذه الفرقة خدمات جليلة للموحدين في معظم معاركهم إذ كانت تضطلع بدور الحماية الحصينة لقبة الخليفة الموحدى إذ شهد الحرب بنفسه، ففي موقعة العقبة التي هزم فيها الناصر الخليفة الموحدى إذ ضربت قتله الخضراء فوق روية عاليمية تتوسط البسيط الذي تحته الجيوش الموحدية ثم دارت العبید وهم أغلبية الحرس الخليفي حول القبة من كل ناحية وكلها مزودة بالسلاح والعدة، كما ضرب في نفس الوقت حول القبة الخليفيه سباح من الأعمدة وعدد من السلاسل الحديدية الضخمة، وقد وقف جند الحرس وقد شهروا حرابهم في اتجاه العدو فكانت سدًا منيعًا دون احترافه، وجلس الناصر في قتله مستندًا إلى ديرته ومعه أشياخ الموحدين وربطت فرسه مسرجة أمامه ثم وضعت الساقات والبنود والطلوب أمام العبید تحت إمرة الوزير أبي سعيد بن جامع.(2)

(1) انظر الرسالة الثانية عشرة من رسائل موحدة ت ليفي بروفنسال، ص (53، 54).
(2) روض الفراتس، ص (158)، أشباح، تاريخ الأندلس ليفي بروفنسال، ص (376).
الجند الصقلب:

وهم الرقيق من أوروبا الذين كان يشترون المسلمون ليزيدوا بهم جيوشهم عددًا وقوتة أو ليكونوا خدمًا داخل القصور، وقد بلغوا في القرن الحادي عشر الميلادي عددًا هائلاً، فكان في قيروان منهم في بعض الحالات خمسة عشر ألفًا أو يزيدون، وكان يؤتى من بلاد أوروبا ومن شواطئ البحر الأسود.

كما استعانوا دولة الموحدين في أخريات حياتها بالنصراء المرتزقة حيث استعانوا بهم في مقاتلة خصومهم المتشفين على الدولة حيث بلغت الدولة من الضعف والتمزق شأوا كبيرًا، وتروى المراجع أن الخليفة الأموي الموحدي قد جا إلى ملك فشتنة فرناندو الثالث ليعمه بفرقة من فرسان النصارى ليعمر بها إلى المغرب ويقابل خصمه المشتق عليه والطعام في الحكم، وقد أخذ ذلك الملك بفرقة تقدر بخمسمائة فارس مقابل شروط قاسية منها أنه يتنازل الأمويون عن عشرة من الخصون الإسلامية القريبة لحدوده، وأن تقام في مراكش كنيسة للنصارى وأن يرد من أسلم منهم إلى إخوانه يقضون في أمره، وأن من تنصرف من المسلمين فلا

سلطان له عليه.

وفي الحقيقة إن كانت تلك الفرقة قد أسست إلى الأمويون وولده الرشيد بعض الخدمات في صراعهما ضد خصومهم إلا أنهم قد دفعوا الثمن باهظًا، فقد أقيمت في عاصمة دولة الموحدين التي رفعت لواء الجهاد في سبيل الله كنيسة للنصارى تحت رعاية الفرقة النصرانية مما شجع على قيام جالية منهم كبيرة قد اتخذت من هذه الكنيسة ملاذاً لقوادهم وجنودهم النصاريين يدبرون فيه المؤامرات والانقلابات السياسية العسكرية، وقد مكنهم من ذلك ما نالوه من عطف ورعاية في عهد الخليفة السعيد الموحدي مما حدا بالبابا أنكتب إليه رسالة ينصح فيها بأن يعتنق النصرانية.

(1) ليلى بروفسال الحضارة العربية في إسبانيا ترجمة طاهر مكي، ص(111).
(2) روض الفطرس، ص(176).
(3) أنظر كتاب الخليفة الراضي في رده على البابا، ص(58) من كتاب عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج(2).

115
الجند العربي:

...</p>
بيد أن إسهام العرب الهلاليين في الجيوش الموحدية لم يكن ذا أثر فعال بل كان خطأ عسكريًا فادحاً، فقد كانوا يتميزون بالتمرد والعصيان وعدم إسهامهم لأوامر القادة الموحدين، مما تسبب في خذلان الجيوش الموحدية في كثير من المواقع الحربية في أفريقية والأندلس كما سنذكر بعد.

- الجنود الغز:

وهم جنس من الترك، بلادهم في أقصى الشرق على تخوم الصين وقد أشار صاحب صحيح الأخذ إلى وجود طائفة من الجنود الترك في جيش الموحدين (1).

ويب朵 أن جيش الموحدين كان يشمل أجسادًا أخرى من الأكراد والجراكسة، الذين بعث بهم "صلاح الدين الأيوبي" لقتال "أبي يعقوب المصور الموحدي"، في صحية "تقى الدين عمر بن شاهنشاه"، أحد "صلاح الدين الأيوبي"، الذي قاد الحملة إلى المغرب، ثم عدل عن مشروعه، حيث قام قائدان من قواد بني أيوب بمواصلة هذا المشروع وهم: (شرف الدين قراقوش)، (إبراهيم بن فرانكين) وقد سارا نحو المغرب ثم افترقا ليحقق كل منهما ما أراده (2).

وقد ظهر "التجاني" أن غزو هذين القائدين إما كان دافعه حب المغامرة والطمع في المغنم، ولكن إذا ما سلمنا برأيه هذا، لوجدنا أن هذا الرأي لا يتفهم مع منطق الأحداث، إذ أن دخول الأيوبيين للمغرب لا يمكن أن يفسر في ضوء أعمال المغامرة، يقوم بها بعض الجنود، وإنما يفسر على أنه حدث هام آخذ له صلاح الدين، وكون له مجلساً شورياً اتخذ فيه هذا الرأي (3).

ولكننا لابد أن نتعرف على السبب الحقيقي وراء هذا الغزو الذي حدد بصلاح الدين أن يرسل هؤلاء الجنود نحو بلاد المغرب.

إنه سيتضح هذا الهدف إذا ما تعرنا على نوايا وخطط الموحدين نحو مصر وهذا أمر قد كشفته عنه بعض الروايات العربية المعاصرة، فيقول المراكشي وهو معاصر لعهد المصور إنه قد بلغه أن المصور صرح للموحدين بالرحيلة إلى الشرق،

---

(1) القلقشندي، صحيح الأخذ، ج (5) ص (177).
(2) رحلة التجاني، ص (111-114) - حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي، ج (4) ص (129).
(3) المصدر السابق بنفس الصفحة.
وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبسط مقولاً: نحن إن شاء الله مطهرًا ولا يحل هذا عزمه إلى أن مات (1). وتحدث الرحالة ابن جبير وهو أيضًا كان معاصرًا للمنصور في رحلته عن صدى الدعوة الموحدية بمصر حيث تطلع الجميع بقدم الموحدين وتملك البلاد وأن بعض فقهاء مصر قد أعد خطبًا ليلقيها بين يدي المنصور الموحد إذا ما تم له ذلك (2)، بل كانت فكرة غزو مصر أملاً يراود المهدى ذاته حيث إنه قال لبعض أصحابه إنه ينتظر اليوم الذي يرى فيه الموحدين أمراء يستللون سلطانهم في المغرب (3).

إذن قد تبين مما تقدم أن فكرة غزو الموحدين لمصر ترجع إلى ما قبل عهد المنصور وربما زادت إلحاحًا في عهده، ولم لا؟ وقد حقق المنصور مجدًا إثباتًا وانتصارًا رائعًا في معركة الأراك الشهيرة، بل ربما يكون حافزه لذلك اقتناعه بالقاطميين الذين خرجوا من المغرب وكونوا خلافة لهم في مصر. فمن المحتمل أن يكون أمراء مصر قد علموا بهذا المخطط فأرادوا أن يقضوا على زمام المبادرة في أيديهم، فكلف «صلاح الدين» بعض كبار شخصياته بالتوجه إلى بلاد المغرب، واتخذ مراكز نفوذ لهم بها، وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لسул ولإمارات الشرق في وجه الأطماع الموحدية، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها.

وكان وصول قراقوش بجنبده حوالي سنة 568هـ، ومنذ هذا التاريخ كان لهم شأن في تاريخ أفريقية في أواخر القرن السادس وأواخر القرن السابع وحلقوا عرب بنى هلال وأغزوا على الأرض الشرقية لمملكة الموحدين ففتحوا كثيرًا من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد. ثم انتقم الغز والعرب إلى بنى غانه ضد الموحدين في سلسلة من المعارك كان آخرها حرب «بيجيا» التي هزم فيها «علي بن إسحاق الموريقي» آخر دعاة المرابطين ومن معه من العرب الغز، وقد استأمان الغز بعد هذه

---

(1) الموجب، ص (160) ، 1332 هـ.
(2) رحلة ابن جبير نشر الدكتور حسن نصار القاهرة 1955 ص (33) ، 64.
(3) المراكيش، الموجب، ص (114).

118
الوقعة "أبا يوسف المنصور" فاجابهم إلى ما طلبوا وسيرهم إلى النغور لما رأى من شجاعتهم وشدة بأسهم (1).

ويروى المراكشي أن الخليفة المنصور قد أكرم هؤلاء الغز وأضاف عليهم بهباته وأعطياته، وأقطع أعيانهم إقطاعًا كإقطاع الموحدين أو أسوأ (2).

5- الجند الأندلسي:

لقد اعتمدت الموحدون على قوات الأندلس اعتمادًا كبيرًا في معارك الجهاد بالأندلس، كما اعتمد عليهم المرابطون من قبل، وقد كانت القوات الأندلسية تألف قسمًا خاصًا من الجيش الموحد، ويحملون أعلام أشبيلية، وقورطبة وجيان، ومالقة وغريناطة وغيرها.

وقد تميزت هذه القوات بشجاعتها وفائق دربها وخبرتها الكبيرة في قتال النصارى، ويدور أن الموحدين صاروا يعتمدون على هذه القوات اعتمادًا كبيرًا، بخلاف المرابطين فإنهم كانوا يحشدونهم إلى الحروب متوجسين من غدرهم يقظين لما بدور بينهم، فكانوا دائمًا يحشدونهم في مقدمة الجيوش مع بعض فرق المتطوعلين لتصطلي بالضربة الأولى لجيوش النصارى هادفين من ذلك مراقبة هذه الفرق وعدم فرارها، ثم يتقدمون هم إلى ثمار الظفر حسبما تملأ عليهم ظروف المعركة، وقد قسروا قيادة هذه الفرق على الفئات البرلمانية وذوي قرابتهم بينما الموحدون تركوا قيادة فرق الأندلس لقائد أندلسي مقرب إليهم، فقد كان قائدهم في معركة "ويدة" التي فشل فيها "الخليفة أبو يعقوب يوسف" الموحد "أبا العلاء بن عزوان".

ويبين أن مدار نصر الموحدين أو هزيمتهم كان يوقف على رضا هذه الفرقة أو سخطها بجانب العوامل الفنية الأخرى، ففتي معركة الأرك التي أحرز فيها المنصور نصره على النصارى الإسبان إذا كان بفضل استشارةه للفئات الأندلسيين الذين أخلصوا له الرأي والمشورة وتحقيق له النصر (3).

---

(1) المعجب - تحقيق العريان، ص (316).
(2) روض الفرسان، ص (147).
وعلى التقسيم من ذلك في موقع العقاب إلى من فيها الخليفة الناصر بهزيمة ساحقة ضاعت معها منعة الجيش الموحدة. قد كان من عوامل الهزيمة وأسبابها هو انفجاع أهل الأندلس وتحقيقهم على الخلافة الموحدة، وبخاصة الخليفة الناصر الذي قتل القائد الأندلسي "ابن قداس" وصهره كما أهان وزير "أبو سعيد بن جامع" وزن الناصر القواد الأندلسيين الآخرين حيث هددهم بالطرد من الجيوش.

6- الأجداد المرابطون:
توالت الاضطرابات بدولة المرابطين منذ ظهور المهدى ابن تومرت بدعوته واحتكاكه بهم في سلسلة من المصادمات المسلحة مما أتى كقوى المرابطين وشغله عن إصلاح حال الأندلس، فتأججت نار الفتنة بالمغرب واتصلت الحروب وغلت الأسعار، وعم الجدب، وقتل المجابي، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى عودة المغرب، ونقل معهم كثير من أسلحتها وعدها، وقد انتشرت النصارى فرصة سانحة، فزادت ضروبهم على جبهاتهم حينما علموا ببعض المرابطين عن الدفاع عنها(1)، وكان هذا من أعظم ما تأيد به "عبد المؤمن بن علي" على المرابطين وهو قيم أهل الأندلس عليهم واضطراب أمور القيادة وتضارب الأوامر إلى حد جعل رعاياهم يغترون منهم(2)، وكثر اعتداء الجند في المدن على حريات الأفراد وأموالهم مما جعل الأندلسيين يسخرون بالانضمام إلى الموحدين(3).

وإزاى هذه الاضطرابات وال الفتنة في صفوف المرابطين كنّت أحوال الموحدين في غور وتطور حيث سارع كثير من جنود المرابطين للاستلام إلى جيوش الموحدين، فعذّل لنا ابن خلدون أنه عندما أجمع عبد المؤمن على غزو بلاد المغرب في غزوه الطويلة منذ سنة 531 هـ إلى 534 هـ وهي التي انتهت بالفتح والاستيلاء على المغرب، حيث خرج عبد المؤمن من تسيم وخرج نافذ بن علي بعساكره يحاديه في البساتين، وكان المرابطون يفرون منه إلى عبد المؤمن(4).

1) الخليل الموشية، ص(89).
2) المصدر السابق، ص(93).
3) أشباح، تاريخ الأندلس ترجمة عمان، ج(2)، ص(238).
4) تاريخ ابن خلدون، ج(6)، ص(230).
وإمتدادًا عبد المؤمن بن طنطس، وذكائه أن يستمِيل إليه الكثير من كبار قوات المرابطين ومن هؤلاء القادة الذين انضموا إليه "الحبيبي العمار" اللمتيني النامع إليه من إيالة تاشفين بن علي، وقد أحسن عبد المؤمن لقاءه وعينه على رأس جيش لمقاتلة الثائر في مسجد.

وانتقل إليه أيضًا قواد "تاشفين بن علي"، "براز بن محمد المصطفى" وعقد له (عبد المؤمن بن علي) على حروب اللمتينيين في الأندلس (2) وبدأ أن كثيرًا من قوات المرابطين كانوا يهربون إلى العمل في الجيوش الموحدية إما بدافع الإغراق وجزء الأعطيات، وإما خوفهم من سوء العاقبة إذا ما ظلوا يعملون في جيش أوشكت مملكتها أن تنداعي وتتعرج.

وكان آخر هؤلاء القواد الكاتب الكبير "أحمد بن أبي حفص بن عطية" كاتب "أبي إسحاق بن علي" يراكش، وقد شمله عفو عبد المؤمن فيمن شملهم، وقد استكتب عبد المؤمن أولا ثم ارتفع عنده مكانة فاستوزره وصار من أعظم الوزراء والقواد المقربين إليه (3).

وأخيرًا نرى معظم جنود المرابطين وقوادهم قد انتظروا في سلك الجيش الموحد من يفتح مراكش، ما عدا فئة من المرابطين في الأندلس كان يقودها "الحببي بن غانية" القائد العام للجيش الموحدية بهما ومن بعده أخوه "محمد" الذي ظل على ولائه للمرابطين حتى دخلوا أخيرًا في دعوة الموحدين.

---

(1) تاريخ ابن حملون، ج (26) ص (232).
(2) المصدر السابق ونفس الجزء، ص (244).
(3) المصدر السابق ونفس الجزء، ص (233).
الفصل الثاني
النظام الدائم لكتائب الجيش

من المعروف أن الدقة والنظام هما الدعمان الأساسيان اللتان تستطيعان جرّجيش للقتال اتفاقاً عليهما. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بتقسيم الجيوش إلى وحدات صغيرة كي يسهل الإشراف عليها. وهذا ما يعتبر عنه العسكريون المعاصرون "البناء التنظيمي أو الهيكل التنظيمي" للقوات المسلحة، وهو على شكل هرم يقسمه الإشراف العرفي تقسم الوحدات على المستوى التنفيذى، ثم يتدرج البيئة الفردية لأعلى حتى قمة التنظيم وحيث القيادة العامة. وهذا ما نراه في جيشهما الحديثة التي تتألف من القيادة العامة في قمة الهرم نفسه يليه باقين تنظيمات الجيش التي تنقسم الى ألوية ثم تنقسم الألوية إلى كتائب وتتقوم الكتائب إلى سراي، ثم تنقسم السرايا إلى فصائل، ثم تنقسم الأخيرة إلى جماعات تشمل كل منها على عشرة جنود تقريباً.

فهل عرف المراقبون والموحدون هذه التشكيلات، وهل كانت جيوشهم تجري على نظام معين يسهل الإشراف عليها؟ هذا ما ستعطى خلال هذا الفصل...

أولاً: تشكيلات جيوش الموحدين

لم تكن المراجع بشيء بهذا الخصوص بالنسبة للمواطنين، وإن كانت قد أشارت إلى ذلك بالنسبة للمواطنين ولكن بالدراسة المتأنية والمقارنة لبعض النصوص يمكننا أن نقف على نظم تشكيلات جيوشهم.

فمن المعروف تاريخياً أن منطقة المغرب قد تأثرت بعدة حضارات مختلفة وقد تطورت حضارته ضمن دائرة العربية والإسلام، محافظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة، وتطورت إلى جانبها حضارة أخرى هي حضارة الأندلس التي استمرت روحها من ترات الشرك الذي نقله الفتحيون والمهاجرون إليها.

ومع أن للوصفية الجغرافية بعض الأثر في تكيف العقلية نوعًا ما وصدد الإنتاج الفكري ومظهر الحضارة بها، إلا أنه ظلت الحضارات الأندلسية والمغربية شرقين

(1) الموال جمال الدين محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (435).
بعد أن تفاعلنا نحوًا من ثلاثة قرون أي منذ عهد المراقبين إلى عهد المرويين تحت إشراف عاصمتهم مراكش وفاس (1)، فقد كان تأسيس مدينة مراكش تدعى لمركز المراقبين بالمغرب، ثم كان استياغهم على مدينة فاس سببًا في اختلافهم بالحضارة الأندلسية. بل لقد اتسمت معظم كبريات المدن المغربية بالخصوص الشرقي حتى شب المؤرخون فاس بدمشق، والرياط بالإسكندرية، ومرآب ببغداد.

فمن الضروري أن تكون دولة المرابطين قد تأثرت في أنظمة مملكة بعض أنظمة دول الشرق، وخاصة في منطقه أيضًا لنا نص يدل على اتصال «يوسف بن تاشين» بالعابيسين وطلب ولاء له بمغربية بعدما سئل حكمهم في المغرب والأندلس. فقد اعترف أبو عبد الله العربي إلى المستظهر بالله الخليفة العباسي بطلب منه توليتة على المغرب وبيقده مراحم الحكم والإمامة. فعندما بيع خلافة على المغرب بشرط استشاع زمهم في قبائل وربطه وخاطبه في أمن المسلمين (2)، لذا اتخذ المرابطون السواح شعارًا لهم في ملاسهم وأعلامهم أقتداء بذرئ بن العباس، فلا يلزم أن يكونوا قد اتبعتوا منهم أيضًا بعض نظمهم العسكرية وتشكيك جيوشهم.

وقد كان تنظيم الجيش في مرحلة الأولى في طور الرياط سهلًا فكان أعداده قليلة يسهل جمعهم عن طريق المنادي كما يسهل عليه خطابهم وتنظيمهم ولكن ابن ياسين كان محبًا للنظام وتسليه القيادة فقد عين ثلاثة من القادة في عصره ويدو أنه قسم أتباعه إلى عشرات على كل عشرة عريف.

وفي عهد يوسف تضمنت أعداد الجيوش بما اتضم إليها من القبائل، فليس من المعقول أن يعيش هذا العدد الضخم على غير تنظيم ثابت يخضع له عند الاصطفاف، وعند الخروج للتمرينات وعند الانسراح منها، وعند الثعيبة للقتال والاشتراك فيه، إذن لابد أن يكون هناك إشراف دقيق ونظام أكيد لهذه الجيوش.

وقد تردد لقب «أمير» في شمال أفريقيا، وقد تلقب به أول أمير من المرابطين، كالأمير محيي بن إبراهيم الجدالي، والأمير محيي بن عمر اللمتوني، والأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني وكان الأمير يقول الجنريل يخوض به المعارك ويقود به (3).

(1) عبد العزيز بن علي، مظاهر الحضارة المغربية، ج (1) ص (143).
(2) محمد عثمان المراقبين الجامعة اليوسفية، ص (447)، ابن الأثير الكامل، ج (8) ص (132).

122
ما يزيد على عشرة آلاف من الجنود ثم بعد رحيل الأمير أبي بكر إلى الصحراء قاد يوسف نصف الجيش ثم عين أربعة قواد عقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته(1).

وقد ظهر لفظ "عريف" في الأندلس عند وصف ابن الخطيب لجند غرناطة، ومن المرجح أن المرابطين والموحدين كانوا قد أخذوا به في تشكيكهم حيث قال ابن الخطيب: (والربيري منهم يتسم إلى أقطاب ورؤوس، ويرفع أمرهم إلى رئيس على رؤوسهم وقطب لعرفائهم)(2) وكان العريف يرأس عشرة رجال ويبدو أن هذا العدد كان متبعاً عليه لدى معظم الجيوش في ذلك الوقت، في تقييم المهمة وتنظيمه لأتباعه أنه قسمهم إلى عشرات وجعل على كل عشرة من هذه العشرات نقيباً(3).

وعرف النقيب في الدولة الموحدة باليونس بدلالة قريبة من هذه الدلالة العسكرية إذ جاء في مسائل الأبيضار أنه إذ كتب كتاب إلى النواحي المختلفة من المملكة لبعض نوابها جهز مع من يقع عليه الاختيار من التقي، أو الوصان(4).

إذن نستطيع القول إن تشكيل جيوش المرابطين اتخذ تقريباً نفس تشكيكوات وتنظيمات الجيوش الإسلامية المعاصرة لهم حيث تقسم الجنود إلى عشرات ثم مئات ثم آلاف ثم عشرات الألف، وكان رؤساء هذه الجماعات من رتب متفاوتة. أصغرها العريف ثم النقيب أو الخليفة، ثم القائد، ثم أمير الجيش.

وإذا ما تصفحنا الأنظمة المعقول بها في الجيوش البيزنطية والعربية آنذاك لعرفنا أن النظام المرابطي كان قريبًا منها بل أشد قربًا من أنظمة الجيوش العربية العباسية.

وقد أشار الدكتور "أومان" في كتابه "تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى"(5) إلى التنظيم الدائم للجيش الرومي كالآتي:

1. روض القرطاس، ص (88، 89).
2. ابن الخطيب، الإحاطة، ت، عمان، ص (142).
3. جبال الإخاء، ج (148).
4. الخليل الوليه، ص (79).
5. أومان، ص (149)، جرجي زيدان، تاريخ السمعن الإسلامي، ج 1 (131، 132)، ثمانية ثابت الجندية في الدولة العباسية، ص (123).
ثانيًا: تشكيلات جيوش الموحدين

ويندل بمجرور الوقت أنه قد حدث تعديل في بعض أنظمة وتشكيلات الجند في جيوش الموحدين إذ تعددت فيها الأنظمة حتى صارت أشبه بالنظام المدني وإن كانت قريبة في جوهها من الأنظمة السابقة مع تعديل في أسماء الرتب والألقاب. وربما يرجع السبب في ذلك إلى النظام الطبي الذي قامت عليه دولة الموحدين وتآثرها بالتقسيمات الشعبية والمتصوفة من جهة وانفصال أجيال في المغرب والأندلس عن دولة المرابطين شيئاً ما من جهة أخرى، مما جعلها تصطدغ بصبغة مغربية أكسبتها خصوصية في تشكيلها العسكرية. وهذه نبذة بسيطة عن تشبعت وظائف جيش الموحدين.

الطبقة الأولى: لقب شيخ:

فمن الرتب العسكرية الشائعة والمترددة في عصر الموحدين لقب "شيخ" وهم وظيفة معروفة في غرب العالم الإسلامي، وقد استخدم في الأندلس للدلالة على وظيفة عسكرية مهمة عرفت "شيخ الغزاة والمجاهدين" أي رؤسائهم وقائدهم.

وكان "الشيخ" أيضًا لقبًا لموظف مهم في دولة الموحدين بيتونس وكان يوصف أحيانًا "بالشيخ المعظم"، وكان الشيخ المعظم من كبار الموظفين ويعتبر صاحب الوظيفة الثانية في الدولة إذ كان يمشي نائب السلطان وكان يتولى عرض الموحدين وأمورهم على السلطان.

ووجد في دولة الموحدين في المغرب رتبة من الأسلاخ هم:

الأسلاخ الكبار: وهم ي追随ون الطبقة الأولى من طبقات جند الموحدين كما في تونس، وهم من بقايا أتباع المهدي بن تومارت ويمكن اعتبارهم بمثابة أمراء الألواف بصرى. ورتبة أمراء الألواف يطلق عليها "أمير مائة مقدم ألف" وهي رتبة حربية خاصة بأرباب السيف ويعتبر بهذه التسمية المركبة وظيفة واحدة يكون في خدمة حاملها مائة مقدم، وهي في نفس الوقت مقدم في الخروج على ألف جند،

(1) صبح الأعشى، ج (11) ص (191 - 211).
(2) نفس المصدر، ج (5) ص (139).
(3) نفس المصدر والجزء، ص (138).

126
وكانت أصحاب تلك الرتبة أعلى مراتب الأمراء في عهد السلاجقة بالشرق إلى عهد المماليك بمصر، وكذلك الحال في بلاد المغرب آنذاك.

الأشباح الصغير: وهم يؤلفون الطبقة الثانية من الجنود وكانوا يشبهون طبقة أمراء الطبلخانات في مصر في دولة المماليك، إمرة كل منهم في الغالب أربعون فارساً وقد سموا بهذا الاسم لأحققيتهم في دقة الطبول على أبواهم كما يفعل السلطان وأمراً المنشات لكن على صورة مصغرة، وبناء أنهم كانوا يسمون أمراء الطبلخانات تيمناً لهم عمن هم أقل منهم رتبة وليس لهم طبلخانات.

وأناً طبقات أخرى أفردنا لنا صاحب الأعشى بالإضافة إلى الطبقتين السابقين ذكرهما.

الطبقة الثالثة: الواقفون:

وهم قوم لهم خاصية بالسلطان يكونون معه في القلعة ممثلاً للامراء الخاصية وهم يقفون: واقفون كبير، وواقفون صغير، وكلهم يقفون بين يدي الخليفة في أوقات جلسته إذا، جلس في الناس يحملون السيوف والرماح والدروع.

الطبقة الرابعة: عامة الجناد المغاربة.

الطبقة الخامسة: الجناد من قبائل العرب.

الطبقة السادسة: الصبان:

وهم جماعة من الشباب تشبه المماليك الكنادية بالدار المصرية يكونون في خدمة السلطان، وقد أطلق المهدي ابن تومرت هذا الاسم على تلاميذه الأوائل، وقد روينا لنا "البيدق" ما يدل على ذلك فقال: (فلمحا كان يوم من الأيام دخل علينا العصوم وقال لنا: أين الصبان؟ فقالنا: نحن حاضرون قال: ما منكم أحد غائب؟ قلنا: كلنا حاضرون... إلخ).

(1) السلاح في الإسلام، عبد الرحمن زكي، ص (101).
(2) السلاح في الإسلام، ص (138).
(3) صبح الأعشى، ج (5) ص (138).
(4) صبح الأعشى، ج (5) ص (138).
(5) أخبار المهدي ابن تومرت، ص (24).
(6) المصدر السابق، ص (207).
(7) المصدر السابق.
الطبقة السابعة: الجند من الأفرنج:

ويعبر عنهم بالعслож وهم من خاصة السلطان لا يطمثن إلا إليهم(1)، ويبدو أنهم كانوا من الفرسنج المقربين إلى السلطان.

هذا هو النظام المتبع في دولة الموحدين على ما يبدو بالإضافة إلى تقسيم طبقة الجند إلى نقباء يقود كل نقيب عشرة عرقاء، ويرأس العريف عشرة جنود، وتمثل رتبة الأمير في الأشيام الكبر، والقائد في الأشيام الصغير، ومعنى هذا أن نظام الموحدين متشابه مع نظام المرابطين في رتب النقباء والعفراء بينما الاختلاف في رتبة أمير فيسمى عند الموحدين شيخ كبير، والقائد يسمى عنهم شيخ صغير، مع اختلاف في عدد الجنود التي يقودها كل منهم.

ويتفرد نظام الموحدين بوجود الوقافين والصبيان عن جيوش المرابطين ويبدو أن السبب في ظهور طبقة الوقافين يرجع إلى حرص الموحدين على نظام آلية الملك وعظمه، وهذا ما تشعره كثير من الدول وهو ما يسمى في العرف العسكري الحديث «الحس السهوري أو الملكي» الذي يظهر فخامة الدولة ورفعتها في عين الأمم الأخرى، ولم يكن المرابطون في حاجة إلى ذلك فهم قوم صحراءيون بعيدون عن زخارف الحياة وزيتها، فقد درجوا على الخشونة في العيش وعاشوا على فكرة الجهاد الخالصة لله.

أما طبقة الصبيان فهي طبقة الشباب التي كانت دولة الموحدين توليهم رعاية فاتحة وتعهدنهم بالربيبة والنشأة العسكرية الخاصة كما عرفنا من خلال لقاء المهدي ابن تومرت بهم، كما أن عبد المؤمن بن علي قد اعتنى بالصبيان عبادة فاتحة حيث أعد لهم بحيرة في بستانه وطفق يعلمهم السباحة وركوب الخيل ويدربهم على أعمال الفروسية وليس هذا غريب، فإن هذا النظام مطابق في أغلب البلاد المعاصرة لدولة الموحدين مثل تدريب شباب الممالكة الكتانية للديار المصرية وإن كان هذا الاسم «الصبيان» قد أطلقه المهدي على تلاميذه فإنه انسحب بعد ذلك ليطلق على هذه الطبقة من الشباب والتلاميذ.

(1) صبح الأعشى، ج (5) ص (139).
الفصل الثالث
الألوية والألوية والريات

يتناول هذا الفصل الحديث عن ذي الجند وملابسه وحديث أيضًا عن الألوية والريات وشوارع السلطان الخاصة به، كما يتحدث عن الموسيقى التي كانت تصاحب الجيش، واستعراض الجند قبل المعركة ثم السير إليها وأخيرًا الحديث عن الحور الخصي للمملوك والخلفاء.

أولاً: ذي الجند

كان من أهم ما يميز لباس جند المرابطين هو ذلك اللثام الذي كانوا يتلمذون به وقد أصبح علامةً لهم، فتسموا باسم "اللثامين"، لأنهم يتلمذون ولا يكشفون وجوههم (1) ويرتدون هذا اللثام ليلةً ونهار (2) في أوقات العمل والراحة واليقظة والنوم (3)، بل أصبح اللثام ضرورة حتمية لا يعرفون بعضهم بعضًا، إلا أنه إذا قتل منهم رجل في معركة وزال قناعه لم يعرفوه إلا إذا وضع على وجهه اللثام (4).

ويُعد ليس اللثام في نظرهم مفخرة يمدحون به لذا كان شعارهم أن يتلمذوا دائما لا يمتاز شيخهم عن شبابهم بل وساوهم من رجالهم لشدة شكيمتهم، وقد كانت العرب تميل لإظهار الشيخ بظهير الشاب الجلد في الحروب واقتفى اللثامون تلك الشيم في تغير السمات، فلا يعتبر الفرد مكمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه، وقد مدح لثامهم الكاتب الشاعر "أبو محمد بن حامد" وأثبت نسيمهم إلى حمير في شعره فقال:

وإذا انتموا صنهاجة فهم هم غلب الحياء عليهم فتلمذوا

لما حروا إحرار كل فضيلة

(1) الاستفاضة ج 2 ص (26).
(2) قياي دوله المرابطين، حسن أحمد محمود، ص (49).
(3) المصدر السابق والصفحة.
(4) الجامعة اليوسفية، محمد عثمان، ص (13).
(5) ابن الأثير الكامل، ج 9 ص (260).
وقد اختلف المؤرخون في تفسير حمل اللثام فقال بعضهم: إنه ناشئ من حاجتهم إلى حماية أفواهم من سفو الرمال، ويستشهد أصحاب هذا الرأي بقول المثثمين على غيرهم: إنهم "أفواه الذبان" (1)، ولكن هذا الرأى ضعيف بدليل أنهم يلتممن عند الأكل والتوم ويشير صاحب الاستقصاء (2) إلى أن اللثام كان خدعة حرة ليطوقوا عليه، فقيل إن قومًا من أعدائهم كانوا يقتلون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فتبخذون المال والحرير فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبتعوا النساء في زى رجال إلى ناحية وبرقوا في البيوت المثلثين في زى النساء فإذا أتتهم العدو ظنوهم لنا خرجوا عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ومن هنا التزموا اللثام تركًا به.

ويذهب بعض من المؤرخين إلى أن اللثام يرجع إلى أصول دينية وسحرية قديمة حافظ عليها المثثمون إلى اليوم ويتضح ذلك في استعمال الطوارق (3) اللثام في عصرنا الحالي (4).

ما سبق يبدو لنا أن المثثمون قد ارتدوا اللثام أول الأمر لإنقاء سفو الرمال وقية الصحراء، ثم أصبح عادة متوازنة حرص عليها جبل الأبناء، ففعلته أخواص منهم تسهيلًا لحميرة التي كانت تتثوم لشدة الحر والبرد فكذا ذلك حتى أصبح تفعله عامهم (5).

والثام كما وصفه لنا البكري أنه يستر الوجه كله فلا تبدو منه إلا حاجر العينين (6)، والثام عبارة عن قطعة من القماش المصبوغ بختلف لونه تبعًا لكتامة صاحبه، فالشراف يرتدون لثامًا مغايرًا للثلام الخشمي والعيد، وما يثبت ذلك أن ابن عبدو الذي تولى الخسية في الأندلس في عهد المراطين قد أشترط أن يكون لثام الخشمي مخالفة للثام الأشراف فقال: فإن الخشم والعيد ومن لا يجب أن يلبسون اللثام ولا يعبونه ولا يكون أبواه من الفجور كثيرة بسبب اللثام...)

(1) البكري، المغرب ص (17).
(2) الاستقصاء ج (2) ص (4).
(3) الطراوي المعاصرون جم سلسلة شعوب المثثمون قديمًا ويعتنون بنفس المناطق إلا كان يستمثروا المثثمون في العصور الوسطى.
(4) قيم دولة المراطين، ص (49).
(5) الاستقصاء ج (2) ص (4).
(6) المغرب للبكري، ص (17).
وكان الرجال يرتديون إلى جانب تلك اللحم المازر والعمائم، وكانت العمائم من الملابس التي حرص عليها الصنهاجيون، وقد غالي ملوك صنهاجة في لسناها فاتخوا عواصم شبه مذهبة يغلون في أثمانها تساوية العمامة الواحدة خمسًا إلى ستمائة دينار أو تزيد، وكانوا يعم المنها بتأتى صنعة فتنظهر كالنورجوان وكان بلادهم صناع لذلك يأخذ الصانع على تعليم كل عمامة منها دينارين أو أزيد.

وكان الرجال يخفضون الحروب بالعمائم وصف ابن الخطيب ل друзьяة: (وحان وقت الزوال من اليوم والحروب قائمة وقد اختلطت عمائم المرابطين بيضاء الروم).

وقد قدم لنا صاحب صبح الأعشى وصفًا كاملاً لزئي الجند والسلطان فهم يتعمون بعمائم طوال من الكنفان ويعمل فوقها أحمراء بلونها على أكتافهم ويقلدون السيف تقليداً بديعاً، ويلبسون الخفاف في أرجلهم وتسمى عندهم الأطفا من في أفريقية، ويشدون المهامز(1) فوقها ويتخذون المناطق وهو

(1) ابن عبد الوليعد - رسالة في الحبة، ص(18).
(2) زعيم دولة المرابطين، ص(51).
(3) الاستخار في عواصم الأئمة مؤلف مجاهد، ص(126).
(4) الشريف الإدبي بلاد المغرب، ص(175).
(5) تاريخ المغرب العربي، ص(244).

المهامز: مفردة مهارة وهو حديثة تكون عن مؤخرة الخف في مختار الصحاب.
الخواروج، ويعبور عنها بالمضمِّمات من فضيلة أو ذهب وربما بلغت كل مضمَّة منها ألف مثال ولكنهم لا يشدونها إلا في الحروب أو يوم التميمي وهو يوم عرضهم على السلطان، ويختص السلطان ببس الباي الأبيض الرقيق لا يلبسه أحد من الجند غيرة هل.

وبههم من وصف القلقشنيدي أن هذا هو الزى السائد لبلاد المغرب في عصر الموحدين وإن كان قريب الشبه من زى المراقبين لتميمي الفاروق الزمني بينهم وإندماج العادات والتقاليد بين شعوب هانيون الدولة.

وقد حدث لنا ابن صاحب الصلاة ما تقدمه الدولة الموحدة للجند المحارب من ديوان التميمي فقد كان كساء القارس عند الموحدين عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشفة.

أما لباس جند أهل الأندلس فهو مختلف عن لباس أهل المغرب من المراقبين والموحدين وذلك لقربهم من النصارى واحتكاكهم بالفرنج في الحروب المستمرة بينهم، لذا نراهم يلبسون غالبًا زى النصارى المجاورين لهم فسلاح أعدائهم ويشركون العمال ويرتدون أقية كاقبية النصارى، وكذلك أعلامهم وسروقهما وكثير منهم من يحمل طبلانًا ولكن لا يضعه على رأس إلا الأشياء المعروفة منهم، ويرتدون غزائر من الصوف الأحمر والأحمر، أما اليهود فقد اختصوا باللون الأصفر منها.

وقد أعطانا ابن الخطيب وصفًا لهيئة جند الأندلس بزيهم الحربي في معرض حديثه عن جند غربانة فقال: (زيمهم في القديم شبه زى أعدائهم من جيرانهم الإفرنج في الحروب فيلسوسون الدروع السابعة ويرتدون البيضات ويسلحو بالسلاح التقيئ فيهم نظيرهم جميعهم ويحملون السنان العريضة ويمطنون خيوطًا أخرى)

(1) القلقشني، ج، (3) في 2004.
(2) عنان - عصر المراقبين والموحدين، ج، (1) في 377.
(3) تكيب ارسلان - الحلال السندسية، ج، (1) في 2008.
(4) ابن الخطيب - الإحاتة ت عن ان، ج، (3) في 1428.
وبيدو أن هذا الوصف كان معقولاً به زمن المرابطين والموحدين لأنه حدث في
ئية تغيير في عصره حيث يشير إلى ذلك قائلًا: ثم عدلوا الآن عن هذا الذي
ذكروا إلى الجوانب المختصرة والبيضات المرهقة والشروق العربية(1).ولا غرابة في أن يشبه أهل الأندلس بزي النصارى الحربي الذي يخوضون به
الحروب وهم دائم الإحتلاط بهم، وقد ذكر لنا «الطرطوسى» وصفًا للباس «ابن
رذيم» قاله النصارى على لسان جندي يسمى "سعادة" قد غيّر زيه بزي الروم
والنغم في معسكره ثم صعد إلى الطاغية "ابن رذيم" فأفاده شاكًا في السلاح
مكتنًا في الحدود لا يظهر منه إلا عينان فجعل يتخيله ويرصد غرته إلى أن أمكنته
الفرصة فحمل عليه فطغته في عينيه فخير صريعًا(2).
فلا عجب أن يشبهشيئاً إلى الأندلسيين بزي النصارى في استخدام السلاح المثلي
كلاس الدروع السابقة والبيضات والسيقان والأذع الدينية.

الاهتمام بنظافة الجند وصحتهم:
وقد اهتمت الدولتان المرابطية والموحبدة بالصحة العامة لرعايتها وخاصة الجنود
فيهم درع الدولتين، عملاً بالمبدأ القائل: "العقل السليم في الجسم السليم". وفي
القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمرًا أساسيًا لتطهير الجسم
и نظافته، فقد ورد في الآثر: "النظافة من الإيمان" لذلك نرى الإسلام يهتم
بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك، والسنة الشريفة تقرر على المسلم أن
يغسل مرة على الأقل في الأسبوع وعلى الأخصر يوم الجمعة وبالغسل في
مناسبات معينة بعد الجنازة والجماع كما قررت غسل البيت وتعليم الأبناء السباحة.
وأما لا شك في أن المرابطين والموحدين كانوا يعمرون بكتاب الله وسنة رسوله وقد
كانوا يرتادون الحمامات للإغتزال والتنظيف، وذكر المقرى أنه كان يقضي قرينة
ثلاثمائة حمام(3)، ويوجد في المغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها
الأهالي ويؤمن بها باصفة دائمة، وقد كانت هذه الحمامات جماعية وترجع إلى

(1) ابن الخطيب - الإحاطة، ج(1) ص (142).
(2) سراج الملك للمطرطشى، ص (145).
(3) نفح الطبى، ج(1) ص (259-269).
عصور قدية، وقد أعطتنا الأدبيات وصفًا رائعًا لنظافة أهل "تارودنت" وجمال منظرهم فقال: (هؤلاء خلاط من البربر المصامدة يلبسون الأكمام من الصوف وعلى رؤوسهم الشعر الكثيرة ويحملون بها احتمالاً كبيراً وذلك لأنهم يضروونها في كل جمعة بالخانة، ويعضلونها أيضاً مرتين بريق البض وينطمئن الأندلس، ويحظرون في أوساطهم بما زار صوف يسمنوا أسفاقي.)

هذا هو الجندي المسلم الذي يعمل بتعاليم دينه وشرعه، والذي يأمر به يكون نظيفًا دائمًا، وسوف تنضح تلك الصورة حين نقارن بين الجنود الإسلامي وجناد النصارى، وسوف نضرب مثالاً كبيراً وعظماء الفنويس السادس الذي عرف المسلمون بقدارة وغزوه، فلدينا وصف وارد في كتاب "الذكرى في محسن أهل الجزيرة" لأبي بسам حيث دخل جماعة من فرسان المسلمين في الأندلس عليه، فوجدوه يمسح الكرى عن عينيه، ثائر الرأس خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضغم تغامة رأسه، فما نسب ذكر أطمِر ودرون أظفاره.

وقد اتهم المحدثون بنشر العلوم الطبية وفتح المستشفى لعلاج المرضى، فقد روى المراوقي أن يعقوب الناسر الودادي أنشأ بالمغرب "الدارستان" في مدينة مراكش وكان يتقدمه بعد صلاة الجماعة ويعود المرضى بنفسه.

وقد اتهمت الدولتان والحادية والعندية بتزويد الجنود بالفضائل والمزاجين والأطعمة سواء في المعسكرات التي ترتبط في الجند إذ كانت معسكرات كبيرة، أشبه بالدرون فلايد أن يكون بها الأطباء المعالجون للمرضى من الجنود، وقد يضطرون الجنود معهم في الساحة عند خوض المعارك، ففي معركة شتيرين التي هزم فيها الموحدون أصيب الخليفة "أبو عقبة بوسف" بجراح خطيرة فانفلت حوله أطباؤه: ابن زهر وابن طفيل وابن قاسم والخليفة محمود على محبه يعالجونه ويضدون جراحه ولكنه فارق الحياة متأثراً بتلك الجراح.

---

(1) الأدبيات - المغرب، ص (92).
(2) تقال عن عبد الهادي شهيرة - المراقبون واتهمهم السياسي، ص (7).
(3) المعجم في تلخيص الحبكة المغربية، ص (478).
(4) تاريخ نجد الإسلام، ج (1)، ص (720).
(5) "عند" عصر المراقبين والموضوعين، ج (2)، ص (127)، البيان المغرب، ج (3)، ص (137).
ثانيًا: اللواء والراية وشارات السلطان الخاصة به

من أخص الخصائص التي تميز الجيوش نشر الآلوية وقطع الرطبان والنفخ في الأذواق والضفائر، والسبب في ذلك هو أن النفس عند سماع الغموض والأصوات يدركه الفرح والترقب ويتملخ المحارب نشوة يستمتع بها الصعب ويستميت في القتال، هذا علاوة على أن هذه الأمور تحدد من مظاهر أبهة الملك وعظمة السلطان تباهي بها الأمم حتى في عصرنا الحاضر.

ويعد أن نوطد سلطان يوسف بن تاشفين في المغرب والأندلس شرفاً في الاختلاف بالخلافة العباسية كما أشار عليه جميع من الفقهاء حتى تكون ولايته صادرة من الخليفة وتبقي طاعته على الكاففة، وقد تم له ما أراد حيث جاءه رد الخليفة وأقره على بلاد المغرب، ووافقه الخيل والألعاب والقليدين، كما أشارنا سابقاً.

وقد اتخذ المرابطون السواد شعاراً لهم في ملابسهم وأعلامهم اقتداء بني العباس (1)، وليد أن المرابطين قد اتخذوا هذا اللون شعاراً لهم من قبل اتصالهم بالخلافة العباسية فيروى لنا يوسف أشباح أن المتتصص صاحب المرية قد اردت وشوب أسود بهدف التقرب من المرابطين عندما دخلوا شبه الجزيرة الأندلسية مهاوبة النصر في معركة الزلاقة (2).

ومن المرجح أنهم لم يستقووا على هذا اللون فقد تعددت ألوان الرايات عند المرابطين تخليفاً للبند، أو العلم الكبير إذ كان يرفع على مركز القيادة. أما الرايات التي كانت على الوحدات والقبائل فقد تعددت ألوانها وقد وضعت بالذهب واتخذوا من الخرج الخالص (3). فتروى المراجع أن الجيش المرابطي المخصص لشبه الجزيرة الأندلسية كان مكونًا من وحدات خاصة تحمل أعلام المدن التي تنتمي إليها.

(1) ابن الأثير - الكامل، ج (8)، ص (143).
(2) المعاد - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص (11)، الجامعة اليسوفية، ص (74)، أشباح - تاريخ الأندلس ج (2)، ترجمة عيان.
(3) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين عنان... ج (2)، ص (95).
(4) ابن خلدون المقدمة، ص (288)، عبد الله الجازري - الغابة من رفع الراية، ص (11).
فكان لاشبيلية علم والقرطبة علم ولغزناطة علم ولبنسبة علم ولمرسية علم... وغيرها.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى ذلك الغزل الذي يقع فيه كثير من المؤرخين حيث لم يفرقو تفرقة دقيقة بين الرواية واللواوية فأطلقوا كلاً منها على الآخر بلا تحديد ولكن من المراجعات الدقيقة لبعض النصوص يمكننا أن نفرق بينهما من ناحيتين:

أ- أن اللواء يكون كبيراً بيض اللون وفي داخله كتابة وقد يطلق عليه بند، فقد جاء في المختار من صحاح اللغة "مادة بناء" أن البند هو العلم الكبير، وهو لفظ فارسي معرب وجمعه بنود، بينما الرواية تكون مختلفة الألوان، وقد لوحظ من النصوص المختلفة في بعض المراجع أن المؤرخين يذكرون اللون مع الروايات ولم يذكروها مع اللواء أو البند، ويشيرون إلى الكتابة التي تكتب عليه ومن البدهي أن الكتابة تظهر واضحة في البياض لا في الألوان المختلفة.

ب- إن البند أو اللواء هو الرمز العام للجيش ويرفع على مركز القيادة العامة، أما الروايات فتكون صغيرة دالة على الوحدات والقبائل التي يتألف منها الجيش، وقد جاء في وصف ابن الخطيب لجيش "تانسفين بن علي" عندما اعترض جيش النصارى بحامية بطيئوس (فكنى هناك البنود البيض الباسقات من الحير مكتبة فيه بالذهب بعض الآيات بأعلى دائرة يسمونها العلم المنصور، يحمل دائمًا بين يدي السلطان في القلب ومعه وجه المرابطين).  

أما الوحدات الأندلسية فتحمل رايات حمر مزخرفة، وكان أبطال الجناحيين من أهل الغزاع عليهم الروايات المرفعت بالعذيب المجزعة، أما المقدمة التي تحتوي على مشاهير زينة ولفيف الحش ثيهم الروايات المصغبة والأعلام المزركشة.

وقد اختار المؤرخون اللون الأخضر كي يظهروا ميلهم للدولة العلوية(1)، وقد

(1) عناصر تاريخ المرابطين، ج(1) ص (419)، صحيح الأعلى، ج (5)، ص (2) (2) الإحاطة في إختيار فنون إسلامية المجلد الأول عنوان، ص (20)، أعمال الأعلام. العلوم النباتي ت العياشي (3) الصورة. (4) حسن على خمس رسالاته في التراث، ص (61)، تأليف - تاريخ الأندلس، ج (1) ص (41)، قيم، دولة المرابطين ص (236).
اهتموا بالبنود والرايات لدرجة أنه كان لهذه الدولة رايات متعددة حتى أنهم كانوا ينصبون راية على رأس كل مائة جندي بينما كان يتقدم كل هذا البند أو اللواء الأبيض المكتوب عليه (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله) (1)، كان من اهتمام الموحدين بالأعلام ظهور وظيفة صاحب "العلامات" مهمته الإشراف على الأعلام السلطانية وبوت الطبل (2).

وعلى الرغم من تعدد هذه الرايات فإن الموحدين قد قصفوا الطبول والبنود على السلطان وحظروا عابه سواء وجعلوا لها مركبًا خاصًا يتبوع أثر السلطان في مسيره، وقد كانت أعلام الموحدين تتراوح السبعة الأورست منها أبيض وهو اللواء وإلى جانبها بقية الرايات ذات الألوان المختلفة منها الأصفر والأحمر والأخضر غير أعلام القبائل، فكل قبيلة علم خاص بها مكتب عليه بعض الكتابات البسيطة مثل (لا إله إلا الله، أو الملك الله) وما أسبه ذلك. هذا وعند رفعها تكون مصحوبة بدق الطبول وأصوات البوقات والنفير (3).

ويبقى أن هذا التفتيش في أمر الرايات جاء بعد توعد ملك الموحدين وظهورهم، وبحكي لنا صاحب نظام الجماعة أن المهدي قال لآبائه عندما هالف قدوم أعدائهم من المرFileNotFoundException رافعين رايتهم بالألوان المختلفة: لا تهونكم هذه الخطر وأرفعوا أنتم ما لديكم من الشباب فعن قريب تصير هذه العلامات كلها لكم، فرفعوا أزرهم وأكسيتهم وأرديتهم ونحو ذلك، ثم أفاء الله عليهم علامات أعدائهم (4) ثم اتخذ المهدي لواء أبيض يكون رمزًا لجيشه كتب على أحد وجهه (الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله) وكتب على الوجه الآخر (وما من إله إلا الله، وما توفيقي إلا بالله، وأفؤد أخرى إلى الله) (5) وكانت تسمى العلم السعدي (6).

---

(1) الجاردي الغناي - من رفع الراية، ص.(12).
(2) صبح الأشعى، ج(5) ص.(139).
(3) المصدر السابق، حسن الباشا -الفنون الإسلامية، ص.(243).
(4) ابن الفاتح - ت محمود على مكي، ص.(28).
(5) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.
(6) الفائقشنتشي - صبح الأشعى، ج(5) ص.(143).
الموسيقى عنصر هام من عناصر رفع معنويات الجنود وإثارة هممهم في القتال. لذا لا نرى جيشًا محاربًا في قديم الزمان أو حاضر يغفل هذا العنصر الفعال في إلهام حماسة الجند سواء بالغناء أو قرع الطبول أو أصوات الأبواب أو الموسيقى. فقد كانت من عادة العرب في حروبها أن تقدم من يغتنهم أمام الموكب بالشعر فتجيذ همم الإبطال وقد كانت زيتها تقدم شاعّارًا أمام الصور يغتنمو فيحرك بغنائهما الجبال الرواسى، ويبعث على الاستماعه ويسعون ذلك الغناء «ناصوراً»(1) باللهجة المغربية.

وقد استخدمت الجيوش المرابطة والموحدة الطبول إذا كانت الجيوش تخرج إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواب(2)، وقد قدم لنا صاحب الحلول الموشية وصفًا لهذه الطبول الكبيرة التي كانت تضرب عند السفر أو الحرب فهى طبول مستديرة الشكل يبلغ درجة الواحدة منها خمسة عشر ذراعًا من خشب أخضر اللون مذهب الحافة وكان يسمع صوته على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه(3).

وكان لطبول المرابطين صوت هائل إذا قرعته أهتزت لها الأرض وتجاوزت الأفق وارتفعت العدو، وقد أذهلت هذه الطبول أهل الأندلس من النصارى لأنهم لم يتعودوا سماعها من قبل، وقد لعبت هذه الطبول دورًا بارزًا في معركة الزلاقة فعندما خرج الموقف أمر يوسف بدق الطبول فأحثت دوبا عانالى ثم هجم على محلة الفنوسا ففجأة مضرمًا فيها النيران فارتكب العدو وارتحلت فرائصه لقرع هذه الطبول، وحقق عاهل المرابطين نصرًا مؤزراً في هذه الموقف.

وقد خصص المرابطون للطبول وظيفة يسمى القائم عليها «صاحب العلامات» فقد كان من مهماته دق الطبول عند ركوب السلطان في الموكب ويكون مكانه عادة هو وفرقه خلف الأعلام وتقدمهم السلطان وتأخذ فرقة الطفل أو امراءها من فارس عن يمين السلطان(4).

(1) ابن خلدون المقدمة، ص (287).
(2) حسن أحمد محمود الدكتر - قيم دولة المرابطين، ص (280).
(3) الروافد - ص (311).
(4) الفقه الاصلي - ص (146).

128
وقد استعملت الطبول للجيش الموحد أيضًا منذ بدايتها وكذلك استعملت بالأساطير البحرية وكان لها فرق خاصة ونظم معينة تجري عليها، وكانت تستعمل عند الرحل، وعند هذه المعركة وعند كل إجراء عام يجب أن يقوم به الجند. وعند الانسحاب أيضًا، فقد كان من عادة الموحدين عند تحرك جيوشهم أن يبدأ المسير عقب صلاة الصبح على صوت طبل الرحل (1). وعند هزيمة "وبدة" التي أخفق فيها الخليفة أبو يعقوب يوسف، عقد مجلس حرب للتشاور مع قادته فقرروا الانسحاب فأمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التي صنعت معه، وفي الصباح ضرب الطبل الكبير إبذانا بالرحل (2).

رابعًا: استعراض الجند والتدريبات

إن الحرب عادة تحتاج إلى نوع معين من الرجال يتميزون بقدرات خاصة ولا يتأتي هذا إلا بممارسة التمرينات البحرية والتدريبات القتالية. وكان التدريب يقوم على أعمال البطولة والإقدام إلى كانت تضمنت في المبارزة بالرماية والسهام وسباق الخيل، وكان الخليفة يخرج أحيانًا إلى مكان التدريب للإشراف عليه بنفسه.

ومن المحتمل أن المرابطين أقاموا حلقات التدريب والفروسية لجذبهم لأنه من المعروف أن الفروسية ضرورة أساسي في حياة الربيع وشرط في التربية الإسلامية التي أعطاه الرسول غاية رعاهية واهتمامها، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يشجع المسلمين على الرماية فقال: "إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجادة: صانعه المحتسب في عمله، والرامي به، والمضم به. فارمو واركوا فإن تركوا أحب إلى من أن تركوا" (3).

فلا يعقل أن يخوض الجيش المرابطي المعارك قبل استعدادات وتمرينات يومية لفرسانهم وجنودهم، وما يثبت دوام التمرينات البحرية في جيوش المرابطين تلك

(1) الخيل الموثوقة، ص (116).
(2) عمان - عصر المرابطين والموحدين، ج (3) ص (79).
(3) ابن القيم الجوزية - الفروسية طبعة دار الكتب، ص (16).
الاستعراضات الكبرى التي تقام لهذه الجيوش قبل خوض المعارك فإن "يוסף بن ناشيفين" قبل خوض معركة الزلاقة قد استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منه ما يسره فقال المعتمد بن عباد: ها هم لنا جثنا له من الجهاد وقصد العدو، وكان عدد الجنود الذين حشدوا سبعة آلاف فارس فيما عدا الكثير من الرجال.

ومن المسلم به أن عظمة العرض ودقيقه لدليل على كثرة التدريبات الحربية، فيحكم لنا صاحب الحيل الموشية أن ناشيفين بن علي قد استعرض جنده بمدينة "تلمسان" - وربما أنه كان آخر عرض لجيوش المرابطين - وعندما بز الجيشه عجب الناس من كثرة عددهم وتكلفهم في الزينة حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسبًا ولا جمالًا وعة وكمالًا.

أما فيما يتعلق بدولة الموحدين في تربية شبابها تربية حربية، فقد أولهم عنايتها وفائق رعايتها إذ أقاموا لهم حلقات التدريب الشاق، وبين أيدينا نص بيث أن "عبد المؤمن بن علي" كان يعني بتدريب الحفاظ من دولته، فقد جمع منهم ثلاثة آلاف يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل قصره فياخذهم يومًا لتعليم الركوب ويومًا للمرام بالقوس ويومنًا للعوم في بحريتى صنعاء خارج بستانه.

من هذا يتضح أن الموحدين أنشأوا المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العالية فيها وتعاون على إخراج القادة الأكفان والمحاربين الواسط، وكان يجمع لهم الفتيان بالألوف وبالأخص من قبيلة "مصمودة" تراعي بينهم وحدة السن فيدرسون آثار المهدي وتعليمهم ثم يدربون على استعمال صنوف السلاح وعلى فنون ركوب الخيل والسباحة، ويدراسون كل ما يتعلق بالحصار والبحر والقتال ويتبادرون في السباق والرماية والقتال بالقوس. وقد أقيمت بجوار مراكش بركة وضعط فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة يتعلم فيها الطلاب التدريب وقيادة السفن وكل ما تطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة.

وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يعرضون من وقت لآخر أعمالهم وبراعتهم أمام الخليفة وكان التعليم على نفقة الحكومة الموحدية.

---

(1) دورى ملوك الطوائف، ص (88 - 290).
(2) المصلح السابق، ص (114).
(3) المصدر الموشية، ص (98).
(4) المصدر السابق، ص (114).
وإذا كانت الجيوش المعاصرة تقيم من آن لآخر مناورات حية لتجييشها لتدريبهم على جو المعارك ليستشعروا جوها في أنفسهم، فإن الموحدين قد حرصوا أيضًا على إقامة تلك المناورات، وكانت تمثل الحرب بين فرق الجيوش المختلفة، وكان من عادة السلطان في أخريات النهار أن يركب بعد العصر في مszęكره ويدهب إلى نهر، ثم يخرج إلى مكان سيفح من الصحراء فيقف به على مرتفع من الأرض وتتفاءل الخطيب قدمه وتطالب الفرسان وتلبس الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأن الحرب حقيقية ثم يعود في موكب إلى قصره وتتفطر العساكر.

وكان يتم هذا غالبًا قبل كل حرب فمثلًا أبو يعقوب يوسف بن عبد المنعم يستدعى الجنود من الموحدين وعرب أفريقيا ويتلقى معهم في مكان واسع بمراكش وتمثل الحرب أمامه خيبر مثلى، حيث تضرب القبة الخليفية الحمراء وسط الفحص، وتفرع الطبول ويحمل الفرسان من الجنرال كل على الآخر حملة مبارزة وريادة، فيصل ويجول الفرسان ويبدع كل منهما في حركاته(2). وقد حرص خلفاء الموحدون على استعراض جيوشهم قبل خروج المعارك فترى عبد المؤمن حريصًا على إقامة هذه الاستعراضات مثل الاستعراض العسكري الذي أقامه بالقرب من وهران، وكذلك عندما وصل بجيوشه صرب طنجة ليبصر منها إلى الأندلس أقام استعراضًا أيضًا جشيدًا، وأصبحت إقامة الاستعراضات هدفًا حرصت عليه القيادة الموحدة لتنظر جيوشها بظاهر لائق ترهب به الأعداء وتقوية من معنويات جنودها. وسوف نقدم وصفًا لما كان يجري في هذه الاستعراضات العسكرية لجيوش الموحدين من خلال استعراض الخليفة أي بعقوب يوسف جلبه في فحص مراكش حيث يقوم صاحب المخزن بتوزيع الدروع والبيضات والرماح والأسلحة والكسي والأعلام على الجنود، وفي اليوم المحدد لإجراء العرض يجمع الجنرال والحفاظ من الطلبة عند باب السدة، وفي هذا المكان تنظم الصفوف قبلاً قبلًا وسلامًا سلاحًا تقدمهم الطبول العديدة، وعندما تكتمل الصفوف يبرز الخليفة

(1) الفلاشندى - صبح الأعشى، ج (5) ص (102).
(2) عران - عصر المرابطين الموحدين، ج (2) ص (62) تحليلاً عن ابن صاحب الصلاة.
عتماً صهوةٍ فرسهٍ الأشرق وإلى جانبه وزيره سائراً على قدميه لصق ركابه يشير عليه فيما اعنى من الأمور، وفي ساحة الخليفة يسير أخوته ومن ورائهم حملة النبرد وأكبر الدولة يحمل كل منهم علمًا وعليه درع سباحة ثم يتبعهم سائر الجند من الحشام والصقلم والعبيد، وقد ينتهي هذا العرض بمشاركة بين صفوف الجيش ثم يأمر الخليفة بانتهاء العرض والانصرف الجند (1).

خامسًا: الحرس الخاص

ما لا شك فيه أن ظهور الحرس الخاص للسلطان أمر مرتبط بالتمدين والتأثير ببنايات النهضة الحضارية، فمنذ ظهور قوة المرابطين في دور الربيط لم نسمع عن حرس خاص لأمراء المرابطين الذين تربوا في مهاد الصحراوات وهم تكوينهم وتربونهم في رابطة ابن ياسين أمثال يحيى بن إبراهيم الجدالي، ويحيى بن عمر اللمنوني، وأبو بكر عمر اللمنوني، الذين تولوا قيادة جيوش الملثمين في أطرافها الأولى، ولم يكن لزعمهم الروحي ابن ياسين حرس خاص به. ومن المحتمل أن يكون يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين هو أول من اتخز حرسًا خاصًا به متأثرًا في ذلك بما كان يفعله ملوك المغرب من قبله إذ كانوا يتخذون حرسًا خاصًا لحمايته. وتشير المراجع أنه في سنة 642 هـ بعد أن وصل أبو بكر عمر إلى الصحراوات وترك نصف جيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين ابن عمه. أن يوسف هذا اشترى جملة من العبيد السودان ما يتأهِّل من أهل فارس ورسالة، فغفلظ ذلك حجابه وعظم ملكه (2).

وقد كان من السهل على دولة المرابطين الحصول على حاجتها من العبيد بالشراء، وقد كانت تتمد حدود هذه الدولة من حوض السنغال في الجنوب حتى البحر المتوسط في الشمال متوقلاً في بلاد السودان الجنوبي. ولم يكن يوسف بن تاشفين مبتدئًا في هذا الأمر فقد كان أمراء المغرب يستعملون فرقًا من هؤلاء السود يتخذون منهم حرسًا خاصًا يديرون لهم بالولاية، فقد استعان بهم الأغالبة ثم بنو زيري (3) من بعدهم. وكان يوسف أحيانًا يستعين بالعΛυح وهم من النصارى.

(1) عيان- عصر المرابطين والمحدثين، ج (1) ص (97) - (2) الحملة الشهية، ص (13). (3) حسن أحمد محمود الدكتور- قيام دولة المرابطين، ص (379).
المعاهدين الذين اجتازوا الإسلام حيث كونهم فرقة في حرسه الخاص كان عدتهم مائتين وخمسين فارسيًا تقريبًا(1)، كما قلت سابقًا تسهر على شخصيه(2). وكان هؤلاء الجنود من المرتزقة قد لعبوا هذا الدور في خدمة ملوك الطوائف بالأندلس من قبل، فلما أعجب بهم ابن تافيشين جلب عدءًا منهم وآخرين بهدوءه وصلاته واعتنى على من أشتاق منهم بالإخلاص والشجاعة بالهبات من الخيل والبيب والسلاح (3) كما أن هناك مجموعة من الوزراء كانوا نصارى وأسلموا واندرجوا في حرس السلطان وعن هذا الطريق وصلوا إلى مواضع نفوذ في جيوش الرابطين أمثال "رضوان بن أبي العمير"، و"أبي السرور مفرج" و"أبي القاسم بن رضوان بن بشاش"(4) وكانت هذه الفرق مزودة بالسلاح والخيل ومدرسية على جميع فنون القتال ويتلقف سلاحهم من سيفي الهند ومزاريع الزان ودرب القلم.

ولم يقتصر دور هذه الفرق على حراسة السلطان فقط بل كانت تلهم في معارك وحروب الدفاع عن دولة، وتستغل في المعركة في حظائرهم الأخيرة لتغلب كفة المازان والمزاعم النصر (5) من الأعداء، كما حدث في موقعة الزلاقة ودق سبق الحديث عن ذلك.

وفي دولة الموحدين كان للحرس الخليفى المكون من الجنرال عبيد ونخبة من الجنرال البربر كبير شأن، فقد كانوا يتصبحون الخليفة في سفره وغزواته، فمتى ضربت القبة الحمراء التي يربط فيها الخليفة - كما عرفنا سابقاً - أحبت بالسلاح الحديثة وحُذف بها الحرس الخليفي يحملون الرماح طويلة، وكان الخليفة يأتي رأى قواته خلال المعركة في حاجة إلى العون كان يقوم الساقة بنفسه وفيها الحرس الخليفي ليشد أزر قواته.

وقد أثبت الحرس الخليفي ولاء وإخلاصاً لقادتهم من الموحدين فعندما يتحرك الوقف ويستغرق لهيب المعركة كانوا يستمتعون في الدفاع عن قبة الخليفة الموحدي ويكونون سياجًا صلبًا يستعجل وصول الأعداء إليها، وكان أحيانًا يخترق العدو هذا

---
(1) الخال المنشية، ص(13).
(2) شيخ تاريح الأندس، ج(1)، ص(171).
(3) المصلح السابق، ج(2)، ص(236).
(4) لويس سكودو لوثينا- الوثائق العربية الغرطاني، ص(95).
(5) نفح الطيب، ص(520)، دورى ملوك الطوابع، ص(287).
السيّاج والسلال الحميدة التي تخف بالسقية الخليفية فتشعب الكارثة وينفي أغلب
الحرس دفاعًا عن الخليفة، كما حدث في موقعة العقاب التي هزم فيها الخليفة
الناصر الموحد، فقد ضربت قبته الحمراء فور رواة عامة تحيط بها الجيوش
الموحدة ودار الحراس الخليفي حولها من كل ناحية شارعين رماهم وسهامهم نحو
الأعداء وأحبطت القبة بعد ذلك بسلال من الحديد، فقُضِّبَتْ اللغام المنصرور
الأبيض، وقد استطاع النصارى أن يخترقوا السيّاج الحميدي تحت وافل من سهام
وحرب العبيد حيث كانت هجماتهم عنيفة، وقد صمد الحراس الخليفي أمام هجماتهم
مدافعًا عن الخليفة، وقتل في هذه المعركة ما يقرب من عشرة آلاف عيد.

وتقدم لنا الرواية العربية، وصفًا لموكب السلطان وحرسه الخاص في ولاية
المغرب الأقصى في عهد الموحدين، على غرار ما تفعله الأمم الحديثة من اتخاذ
حرس الشرف عند السفر أو استقبال ضيف كبير فيحتفل به احتفالًا رسميًا حيث
يصطفح حرس الشرف لتجنبه.

ويتكون ذلك الحراس من حملة الأعلام التي تقدم الموكب فيحمل أقذام العلم
الأبيض المعروف بالعلم المنصور الذي يكون دائما بين يدي السلطان، ومنها أعلام
دونه مختلفة الألوان، ويسير في موكب السلطان أيضا ثلاثة من خاصة وصفاته،
أو من أبناء خدم سله يحملون سيفًا ورمحًا ودرعًا، أما أكابر قواه من علومه
الفرنسية ورجاله من الأندلس فيحملون الأطيار ويعبرون عنها بالطبلزوات،
ويسيرون خلفه وأمامه. ويسير في موكب أيضا خمسون رجاء مشاة يحملون رماحا
طوالًا وقشًا مشدودي الأوساط بيد كل واحد منهم رمحان، رمع طويل والأخرى
قصيرة، وهو متصلد مع ذلك السيف. وتفقده أمام السلطان خبى عليها سروع
مخرزة بالذيب وركبيها من ذهب، كل ركاب زنه ألف دينار، وعلى ثواب
سروع من الخربشة مرقومة بالذيب ثم تدق الطبل ويتبين في الأبواب خلف
ساقته.

وكان يستخدم هذا الموكب في خروج السلطان سواء في السفر أو الحرب أو عند
الجلس للملؤم مع تغيير بسيط. فعند الجلسة للملؤم يجلس حول السلطان

(1) روض الفرجات، ص (159).
(2) صبح الأعشى، ج (5) ص (207).
ثالثة من كبار أشياخ الموحدين وربما عشيرة للرأي والمشورة، ويجلس معهم وزير الجند إن كان من رتبة الأشياخ وإن لم يكن كبيرا وقف بإزار أولئك الثلاثة، ثم يقف وراءه خمسون وقاقا يبلغون أواخر السلطان، فإذا أمر بأمر بلغه ووزير الجند الوافق وراء وبلغه الآخر حتى ينتهى إلى من هو خارج الباب، وهؤلاء الخمسون يسمون بالوقاقين الكبار، وهناك جماعة تسمى بالوقاقين الصغار وهي أقل رتبة من الخمسين بأيديهم السيوف حماية السلطان(1) كما قلنا سابقا.

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى وصاحب نظم الجمان وصف لموكب السلطان عند خروجه للسفر، ويدعو أنه وصف لموكب الخليفة الموحدى نفسه، فكان من عادة الموحدين إذا تحرزوا أن يقدمو أمامهم لواء أبيض مع عدد من الرجال يكون بينهم وبين الأمير مقدار ربع ميل، ويكون الأمير متقدمًا على الناس خلف اللواء الذكور في جملة حرسه وشيوخ الموحدين والقربين إليه، ثم تتبع الرايات الطبول والعسكر المعروفون بالساقية(2).

إذا ما ركب السلطان ركب إلى جواره فارسان من الشيوخ الكبار عن يمين ويسار، ويشي بالقرب من السلطان رجلان مقلدان سيفين أحدهما ممسك برأسه الأيمن والآخر ممسك برأسه الأيسر، ويلزى الرجلين جماعة من أكابر دولته يشيون حوله بالسيوف ويأتيهم عكاز، وفيما مشى في هؤلاء قاضى الجماعة، وأما هؤلاء نفر من الموحدين تقريب السلطان بسيوف ومزارق ثم العبيد السود. ويقال لهم حفقة بأيديهم حراب في رؤوسها رايات من حرى وهم لا يرون جيابًا بيشًا مقلدون السيوف(3).

إذا تحركوا فلا يزال القرآن يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشاء ماداموا لهم ركابا فكلما قرأوا حزينا منه وقف السلطان ودعا وامن ووزير الجند على دعائه ويومن الناس على تأمينه، فإذا قرأ حساب قراءة القرآن طيلة الموحدين خلفه وهم سائرون ثم شبيها من الحديث ثم يقرأون تؤليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللغان

(1) الفلكشندي، ص 144، (2) نظم الجمان، ص 128، (3) صبح الأعشى، ج 146 ص 145.
العربى، فإذًا فرغوا وقف الخليفة وبسط يديه بالدعاء كما سابق حتى يصل إلى منزله في خيمته١.

من هذا العرض يتضح أن دولتي modèle والموحدين قد استعملوا الحرس الخاص وقد ظهر الحرس الخاص في دولة modèle على يد مؤسسها العسكرى يوسف بن تاشفين، وكذلك الأمر في دولة الموحدين فإن الحرس الخليفي قد ظهر على يدى عبد المؤمن بن على مؤسس تلك الدولة العسكرية.

ولم يثبت أن الداعيين "عبد الله بن ياسين" للماربى، والمهذى "ابن تومرت" الموحدى، ان اتخذ أحدهما حرسًا خاصًا، فقد كانا في قلوب أتباعهما محفوفين بالرعاية لا يجرؤ أحد من أتباعهما أن يرد عليها قولاً أو يعصي لهما أمرًا، وكانت لابد أن يظهرها بظهر الزهد والعزوف عن مظاهر الحكم حي يبق فيها أتباعهما.

ولعل في حديثنا هذا عن الحرس الخاص بدولتي modèle والموحدين يكون فيه رد كاف على الدكتور "أومنا" الذي زعم أن العرب (لم يتمكنوا من تجنيب جيش ثابت معد للجهاد، ولم يعرفوا مزايا التدريبات والتنظيمات العسكرية وإذا كان حرس الخلافة هو الجيش المعد للجهاد، والباقي الجيش كان يتألف من أخلاق أخرى تبغي الجهاد في أهل المغانم، أو من جنود الآفاق والآمال)٢.

وقد تعرض لهذه النقطة أيضًا المؤرخ "جوستاف لوين" حيث قال: (والخليفة كملوك ذلك العصر، لم يكن صاحب جيش دائم، وكانت تقوم بالمحافظة عليه كنتيجة لهلا من الحرس، وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من رعاياه)٣.

ليس في حديثنا عن الحرس الخاص ما يدحض زعم هؤلاء المتناولين على حضايرنا الذين يحاولون إطفاء وهج منارة الساطع الذي ظل يسبع ببنوه قرونًا طويلة بهدى قادة القرون الوسطى من دول الغرب، وتعليمهم دروسًا من فنونها العسكرية الإسلامية بالمغرب والأندلس.

١) عبد الواحد المراكشي - الموجب في تلخيص أخبار العرب - تحقيق العريان، ص (٢٧٧).

٢) History of the art of war, p 209.

٣) حضارة العرب تعريب زعير، ص (٢٩٥).
الفصل الرابع
الشؤون الإدارية لجيوش الدولتين
الإطعام
الإسكان
الاعتيات
الدواجن
أولا: الأعتيات

كانت للجيوش المرابطية والموحدية أنظمة مالية وإدارية تختص بالإشراف على
شؤون الجند من حيث الأعتيات والرواتب الجارية.

وقد كان النظام القبلي أساس حشد الجنود المرابطية والموحدية، وكان نظام
التطوير يقوم بجانب الحشد الجبري، فظهر نواع من أنظمة التجنيد هما: الجند
الففي ومومومون على الجهاد ويتقاضون أعتياتهم ورواتبهم من الدوين، أما
النوع الثانى وهو جند المطوعة وهم الذين يلحقون بالجيش وقت الحرب فقط
ويسيرون وقت السلام، وحظمهم من الجهاد هو أسهمهم فقط.

وقد كان يتم حصر أسماء المحاربين في دوين الجند لضبط أعتياتهم المقررة،
الأمر الذي جعلهم يحاربون وهم مظلمون البال حيث الرواتب والأقوات كانت
تسلم إلى ذويهم بصورة منتظمة.

فكان الفارس المرابطي سواء في المغرب أو في الأندلس يتقاضى خمسة دنانير
مرابطية من الذهب في الشهر غير نفقته الخاصة وعلف فرسه، وكان من ظهر منهم
بشوريته وتفوقه يعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده (1).

هذا بالإضافة إلى الرواتب الجارية جميع الأموال بحضرة السلطان من اللحم
والتوابل والخبز والزيت، وكان لأعيانهم الكسوة وقد جرت عادة السلطان
أن ينفع على أعيانه بالخيل (2).

أما أراق جنيد الموحدين كما وردت في الرواية العربية عن مملكة المغرب فكان

kalai (1)

(1) الخليل الموشية، ص (57 - 59).
(2) د/ حسن الباشا - الفنون الإسلامية، ج (1) ص (125).
1- الأشياع الكبار: من الجند، وكان يجري لهم الإقطاعات حيث يعهد لكل منهم بولاية بعض القرى أو الضياع أو القلاع، ويتحصل منها كل سنة ما يقرب من عشرين ألف مشقال من الذهب بالإضافة إلى كميات هائلة من حبوب القمح والشعير وما يكفي خيله ودواه. وبجانب الإقطاع كان يجري عليهم الإحسان من السلطان في رأس كل سنة يمنح فيها كل شيخ حصانًا بسرجه ولجامه، وسيفًا ورجحًا، وقيمة قماش تحتوى على ثوب مطرز سكندرى أو قطعتين من الجوهر وثوبيين أنيضين من الكتان من صنع أفريقيا، وإحرازًا شاملاً طوله ثمانون ذراعًا، وربما ريد الأكباب على ذلك وربما نقص منه حسب مكانة هذا الشيخ إن كان من أتباع المهدى أو مقربًا من السلطان.

2- الأشياع الصغيرة: لهم من الإقطاع والإحسان نصف ما للأشياع الكبار من الحصان والسرج والملجم والسيف والرمح والكشوة، ومنهم من لا يلحق هذه الرتبة فيكون أنقص.

3- الطبقات الأخرى: من الأشياع فهي على طبقات حسب القرب من السلطان، فالقرب منهم يوال سنين مثقال، من الذهب كل شهر وما دون ذلك في الرتبة يتحصل على ثلاثين مثقالًا، وتناثر هذه القيمة إلى أن تستهي إلى أقل الطبقات وأجراها سنة مثالي في كل شهر للجندى الواحد.

فضلاً عن ذلك فقد كانت الدولة الوحدية تقييم المراهم والاحتفالات ولا سيما في ازدهار الدولة وقوتها، حيث تقوم المآد للطعام وتوزع الأسلحة والكشوة التي تمنح من قبل السلطان للغنار.

وكان كساء الفارس عبارة عن طقم كامل من عفارة وعصمامة وكساء وقسطة وشقة، هذا علاوة عن مبالغ من النقود الذهبية تسلم إلى القادة والأعيان تصل أحيانًا إلى المائتين دينار، لكل واحد منهم، كما أغرق الموحدون العطاء لأشياء الجند من العرب فقد يصل الواحد منهم إلى عشرين دينار.

---

(1) القلفشنتي - صح الأعشى، ج (5) ص (420).
(2) نفس المصدر السابق ونفس الجزء، ص (520).
(3) عفارة: ثوب يلبس إلى قبضة عفارة من همدان (الخنار الصباح) مادة عشر، قسطة: وهي نصب من الفضائل دون حياكة.
(4) القلفشنتي - صح الأعشى، ج (5) ص (128).
وقد تجري هذه الإعماكات عادة قبل كل معركة عقب عملية التمييز التي كانت تقام في أول الأمر بصورة تعسفية بقصد استبعاد الخصوم أو المارين أو إعدامهم وتطهير صفوف الجيش منهم، فيبقى بعد ذلك الصفوة من الجند وكان يقوم بإجراء هذا التمييز ديوان خاص به يسمى ديوان التمييز، يجري قبيل كل غزوة ويدخل به زمام من قبل الخليفة ثم يقرر بالإعماكات والبركات على الجند الذين فازوا به.

ومن هذا يتضح مدى ثراء دولة الموحدين وزيادة مواردها المالية حيث أخذوا على جنودهم بالأموال والهياكل الأخرى، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا يريدون استقطاب قادة الجند المرابطين وجنودهم إلى جيوشهم ليستعينوا بهم في معركة الجهاد بالأندلس، ويلاحظ أيضًا أن صرف هذه الأعاتيات كان يتم على نظام طبيقي حيث روعي الترتيب القبلي والقرب من السلطان.

ثانيًا: الإطعام

كانت جيوش المرابطين بالإطعام الجند وقد خصص لذلك وظيفة عسكرية خاصة تسمى «صاحب الطعام» يشرف على طعام الجند وإعداد الطعام لهم في المعسكرات بأوقات منتظمة.

ويبدو أن المرابطين لم يحتفوا في أول أمرهم بهذه الرتبة لأنه من المعروف أن اللحومى كانوا صحراويين لا يعرفون الحرف ولا الزرع ولا الخبز وإنما لهم الأغذية الكثيرة فيعيشون من لبنة وعجاوبها، لذا كان يقدم لهم اللحم مطحونًا مطحنةً عليه الشحم المذاب وياكلوه ويشربون عليه اللبن ويكلفهم هذا طيلة اليوم.

وأحيانًا كانت تقدم لهم وجبة مستحقة عند أهل مدينة «نول» وهي من قديد العسل والسمن وهو عبارة عن حنطة مقلوبة مدفوعة تعجن على النار بقدر متساوي من السمن والعسل متواز أنطاق المنطقة، فيما أخذ ملء الكفص وشرب فوقيه لين كفاه ذلك طول النهار وكانوا يستجيبون أيضًا شرب الزبيب المفقود في الماء.

(1) صحيح الأعشى، ج (5) ص (137).
(2) الاستنصر، ص (213)، المغرب لابن عبد البكر، ص (176).
(3) شعيرة - المرابطون و تاريخهم السياسي، ص (202).
ويبدو أنه عند خروج الجنود للمعارك كان كل جندي يحضر طعامه بنفسه حيث كانت تقوم سوق كبيرة للجيش يشترى منها كل جندي طعامه، لأننا نجد في بعض تعيينات المؤرخين عقب هزيمة الجيوش ما يشير إلى أسباب الهزيمة من قلة المؤن والزادة وغلاء الأسعار في سوق الجيش، واختفاء الزاد والعلف(1).

ولما تقدمت الجيوش المراقبة والموحدة، واختلطوا بشعوب الأندلس من المحتمل أن يكونوا قد جلبوا الطباخين إلى جيوشهم، وتفننوا أصناً من الطعام، وقد قدم لنا القلقشندى وصفًا لمادة سلطان المغرب، يبدو أنها كانت على عهد الموحدين حيث كان من عادة سلطانهم أن يجلس كل يوم ويدخل عليه الأشباخ الكبار فيسمون عليه ثم تقام لهم الموائد وعليها أطعمة مختلفة الأشكال والأنواع بالإضافة إلى الخواص المصنوعة من العسل والزيت وأخرى من السكر، فيأكلون ثم يتفرجون إلى أماكنهم ليشاهدوا التدريب على فنون الحرب(2).

ثالثًا: الإسكان

كان المرابطون والموحدين إذا افتتحوا بلدا أقاموا معسكراً بسيطاً في بعض ضواحيه ليقيم فيها الجند حراسة أهل ذلك البلد من التمرد عليهم، وكانت هذه المعسكرات بمثابة مزارات استراحة على أطراف الطرق الصحراوية حتى تم إنشاء معسكرات دائمة.

وكان عدد المعسكرات المؤقتة عبارة عن مضارب خيام في أول الأمر، وكانت تصنع من الكتان أو الصوف أو القطن، وكانت هذه الأحجام المختلفة ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار.

وكان المعسكر كثيرة العدد متباينة المنازل متفرقة الأحياء، وينصب جمعهم أو النداء عليهم، لذا فكروا في جميع هؤلاء الجنود في خيام متقاربة يسهل الإشراف عليها(3).

---

(1) آخبار الهسدي ابن تومرت، ص (191)، ابن الأثير، ج (1) ص (320)، وعثمان - عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (377).
(2) صحيح الأشعى، ج (5) ص (202).
(3) ابن خلدون - المقدمة ص (298، 299).
وينزولون بخيامهم المباعة المساحات على غير نظام يصعب عليهم، فيادهم أصبحت الخيام تقام في صفوف متقاربة منظمة يجمعها جميعًا ساحة واحدة يحيط بها سجاء من الكتان يمنع الناس من الاختلاط بهم، ويفصل هذا السياج بين فضاطق القائد وفضاطق الجنود.

ثم بمرور الوقت تحول هذا المعسكر المؤقت إلى معسكر دائم يضم فرق الجنود المختلفة ببعاليتهم ويحوي الكتاب والفقهاء والأطباء وأصحاب الطبول والآتياع وغيرهم، ثم تطور هذا المعسكر إلى مدينة كبيرة تعتبر مركزًا عسكريًا دائمًا تتربع فيه الجنود متمسكون للغزو عند إصدار الأوامر لهم. (1)

ومن المعسكرات المؤقتة التي تحولت إلى مدن أو قواعد عسكرية ثابته مدينة "تاكارت" بالقرب من مدينة "تلمسان" ليكون معسكراً لجنود يوسف بن تاشفين، ومدينة "بني ناود" التي بنهاها المرابطون لإقامة قيلت بنى غمارة ثم كان احتاط مدينة "مراشو" التي نزلها المرابطون في أول الأمر بالخيام لتكون نزلة لحيش المرابطين وقد أداروا عليها سورًا من الكتان وبنى فيها يوسف مسجدًا وقصبة خنزيرًا وسلاجقة، ثم توافدت عليها جموع المتمسكون حتى صارت بعد ذلك عاصمة المرابطين، بعدما كانت معسكراً بسيطاً لإقامة قبائل المصامدة في جبل دن.

ثم أتخذ المرابطون من الجزيرة الخضراء معسكراً لجندهم الغاربة من المغرب إلى الأندلس، وقد استولى عليها "يوسف بن تاشفين" من "ابن عباس" ثم شرع في بناء أسوارها وترميم أبراجها، وحفر الخبير حولها وشحتها بالأطماع والأسلحة ورتب فيها عسكراً من نخبة الرجال وأسكنهم بها (2)، ومن المراكز العسكرية الثابتة أيضًا في بر العدودة المغربية مدينة "سبتنا" تتجمع فيها القوى المرابطية ليعبروا منها إلى الأندلس.

وذلك كانت سلاً ورباط الفتح - كما عرفنا سابقاً - من مراكز تجمع الجيوش الموحدية سواء الذاهبة منها إلى أفريقية أو تلك التي تقصد العبور إلى الأندلس هذا

(1) ابن خلدون المقدمة، ص (298، 299)
(2) الخليل الموصلي، ص (33، 23)
بالإضافة إلى عدة مراكز عسكرية أخرى متشرة في جميع أرجاء الدولة المراقبة وكذلك الموحدة في المغرب والأندلس، وكنت هذه المراكز العسكرية الدائمة تضم عادة:

- نكن: لإسكان الجنود بقائدهم، وكان عدد الحامية التي تقطن كل ثكنة يختلف بحسب القيمة التعبوية والإستراتيجية للمدينة التي ترتبط الثكنة بها.
- إطار المخالب: خمس الخيل، ومراقب تربط بها.
- ج - مصادرات: مخازن لحفظ تجهيزات الجيش وأسلحته وโลتريه، لتوزع منها على مفارز الجيش المراقبة التي على مقرها منها.
- د - ديوان: هو سجل حاصل يضبط أسماء الجنود وعدهم وأعضاهم في كل مدينة، وكان يشرك عليها كاتب متخصص.

الدستور الإداري في الجيوش "الدعاوين"

أولا: جيوش المراقبين:

لقد اتخذ يوسف بن ناشفين الدعاوين سنة 464هـ - 721م، يقول ابن عذاري:
فون يوسف سنة 464هـ الدعاوين ورتب الأجواء وطاعة البلاد(1)، وكان من هذه الدعاوين ديوان الجنرال ديوان الغائر وثنقات الجنرال(2).

وقد اتخاذ أمراء المراقبين وزيراً عسكرياً لرئاسة ديوان الجنرال، يشرف على كل ما يتعلق بالجيش، ويتضح ذلك حينما اتخاذ يوسف بن أشفيين "صهر سبأ بن أبي بكر" وزيراً له(3)، ثم استورد بعد ذلك قائد الحاكم "يتابن بن عمر"(4)، وقد يرجع تولى القادة العسكريين منصب الرئاسة في دولة المراقبين إلى تشغيل المراقبين بفكرة الجهاد واتصال المعارك في المغرب والأندلس(5)، وقد اسكتت عدة دواوين أُخذت بديوان الجنرال لكي تولى الاهتمام بالجيش الرئاسي منها:

(1) الخليل المؤمن، ص (12).
(2) الجراح - تقدم العرفي في التعبير والصناعات، ج (1) ص (153)، وانظر رسالة الدكتوراة المقدمة من حسن علي حسن (125).
(3) الدكتور/ العبادي - دراسات في تاريخ المغرب، ص (154).
(4) د. حسن علي حسن رسلان للدكتوراة، ص (104).
أ- ديوان العطاء والنققات: لضبط أعطيات الجند ونققاتهم.
ب- ديوان الإطعام: للاهتمام بتقديم الطعام ومتعلقاته.

ج- ديوان السلاح: يشرف على تسليح الجيش وإعداد السلاح اللازمة للخدمة.

د- ديوان المراسلات: وذلك لتأمين إرسال أوامر الخليفة إلى قادة جيشه وعماله.

و- تلقى تقاريرهم عن حالة هذه الجيوش وممتلكاتها.

وكان المغاربة والأندلسيون يسمون حامل البريد «رقاصا» كما جاء في مذكرات
عبد الله بن بلكن(2)، وكانت تخرج الرسائل من حاضرة الدولة «مراكش» إلى
القادة والفقهاء في أغلب الولايات أو ترد منهم إلى حضرة السلطان بمراكش
كالرسالة التي بعث بها الأمير «علي بن يوسف» إلى «أبي محمد بن أبي بكر» بعد
هزيمة الفنلعة، والرسالة التي أرسلها إلى الفقهاء والوزراء والأعيان ببشكلية عند
نزول ابن رذيب على وغيرها من الرسائل.

وإذ كان نظام البريد في دولة المرابطين لم يحظ باهتمام من ولاة الأمر، فقد
كان سعة البريد يحملون الأهل 니 نققاتهم من زاد وطوائف لحيوهم وينزلون بأسفية
ال كثيرين منهم فيلفلونها، وبحلمونهم الكثير من العنا و النققات، مستعينين برهبة
السلطان وقوة السلاح، لذا فإنه عهد أمه بن على قد غيِر من نظامه ووضع أنظمة
جديدة للسعة سوف تعرفها فيما بعد عند الحدث عن بريد المماليك.

وأخيراً، اصطدم المراقبون عن طريق ديوان السشرح أن يربطوا ولايات الدولة وأقليماً
بعضها البعض، فسهل الاتصال بين القادة العامة في مراكش وبين القواد في
الولايات المختلفة في المغرب والأندلس(3).

ه- كتاب الجيش: وقد اتخذ المرابطون الكتاب لمعاونتهم في تسجيل المكتبات
الخاصة بشؤون الدولة وكانوا عادة يؤخذون من كتاب الأندلس، لما كانوا عليه من
خبرة عظيمة في مجال الأدب والبلاغة.

---
(1) صح الأعشى، ج (57) ص (137).
(2) مذكرات عبد الله بن بلكن، النبهان، ص (148).
(3) روض الفراتين، ص (91)، ابن خلدون، ج (6) ص (185) في تقسيم مملكة المرابطين إلى ولايات.
ومن كتاب المرابطين "عبد الرحمن بن اسبط" الآندلسى كتاب "بوسف بن ناشيف" والذي لعب دورًا هامًا في تدخل يوسف في شؤون الأندلس واستجابته لتصريح ملوك الطوايف، فقد كان يقوم بدور المستشار له نظرًا لخبرته وإجادته للغة العربية ونسان البربر، فهو الذي أشار عليه بمطالبه ابن عباد بالتنازل عن أرض الجزيرة الخضراء لتكون مركزًا لتجمع جيوش المرابطين في الأندلس.

وقد تولى الكتابة في دولة المرابطين بعد ذلك مجموعة من ألمع الكتاب وألقدهم منهم محمد بن سليمان بن قصيرة المعروف بأبي بكر بن القصيرة، والرئيس العالم أبو عبد الله أبي الحاصل والكاتب المؤرخ الكبير أبو بكر ابن الصيرفي.

و- صاحب العلامات: ومهمة صاحبها هي الإشراف على الأعلام السلطنية وبيوت الطبل التي كانت تشتمل على الطبل والأخبار وتواصعها من الآلات وكان من مهمته أيضًا الوقوف على بيوت الطبل عند ضربها في كل ليلة وتولي أمرها في النصر ثم الاتفاق عليها في الحرب وحث العسكر على الإقدام والبئر.

ز- صاحب المخزن: ومهمته حفظ الأموال والخلع ويُخرج منه عدة وظائف منها خازن السجلات والدفاتر، وخازن الغلال وخازن الكسوة وخازن السلاح وخازن البنود وخازن الديوان الذي يتفرع منه خازن ديوان الإنشاء والدراسات وخازن ديوان الجيش والروابط.

وبعد أن أميز هذه الدوائر فقد استحدثت بعد قيام دولة المرابطين احتكارها بمراكز الحضارة المغربية والإسلامية ثم استقبلوا بهدف العباسية والتي اشتروا شعار لونها، وإن كانت المراجع التي أرخت لهذه الدولة لم تذكر شيئاً بالعهده إلا أنها غدت واضحة جلية في نظام الموحدين الذين أفسح أجنحة وأدخلوا الكثير من النظام في جيوشهم.

(1) الخليل المحويثة، ص (32).
(2) القلشندى - صبح الأعشى، ج (4) ص (13).
(3) د/ حسن الباشا - الفنون الإسلامية، ج (1) ص (243).
(4) صبح الأعشى، ج (5) ص (73).
ثانيًا: جيش الموحدين:

دوان العسكر: وبعد أول ديوان أقيم في جيش الموحدين وأقدمها على الإطلاق
توكل إليها شئون الجيش ويرأسه وزير من أرباب السيفوف(1) وهو المردود إليه
الحديث في أمر الجند، وهذا الديوان يختص بالجند النظاميين والعبيد حيث يتم
إحصاء أسمائهم ومعرفة حاجتهم من كل النواحي (2)، وتفرع من هذا الديوان عدة
دوائر تنظم أمور الجيش الإدارية والمالية كما ستوضح بعد.

ويشترط في وزير الجيش أن يكون ملماً بالشئون العسكرية جريًا على عادة تلك
الدولة التي قامت على فكرة الجهاد والغزو في سبيل الله وهي فكرة قائمة ومستمرة
لدولة المرابطين سالفة الذكر، فهي المؤمن بن على قد استؤثر أحمد بن حفص
ابن عطية الذي كان كاتبًا لإسماع بن على مراكش، وبعد أن عفا عنه استكبه
أولاً وعندما ارتفع صيته استورزه ثم قاد العساكر وجمع الأمور (3).

وفي عهد المنصور كان وزير الجيش «أبا يحيى بن أبي حفص الهناثي» وهو
الذي قاد الجند وتولى قيادة المعركة المشهورة «الأرك» حيث قام بتفشيم الجنود
وعداهم خروج المعركة وحقق بهم نصرًا مؤزراً (4).

ويتفرع من هذا الديوان – دوان العسكر - عدة فروع تشرف على إدارة الجيش
وتنسبر أمور من الناحية المالية والإدارية، وهذه الفروع منها ما استحدثه دولة
الموحدين ومنها ما أبقى عليه من نظام دولة المرابطين، وقد تشابيت في مهامها
على ما يبدو، ومن أهم الفروع المحدثة:

1- كاتب ديوان التمييز: قد عرفنا فيما سابق ذكره أن من عادة الموحدين أن
يجروا تمييزًا لجنودهم قبل القيام بالمعركة لاستبعاد العناصر المارقة التي لا تدين
بالولاء لهم، وكل من فاز بهذا التمييز سجل في سجل خاص سواء في العاصمة
أو النواحي (5) وكان كاتبه «أبو عبد الله بن محسن» (6) وكان يسمى كاتب ديوان
التمييز ويقوم بصرف أعبات ورواتب الجنود المقررة لهم.

(1) صح الأعشى، ج (5) ص (37).
(2) ابن خلدون، ج (6) ص (203).
(3) د. حسن على رسلة الدكتوراه، ص (166).
(4) ابن عيسى، ج (2) ص (144).
(5) د. حسن مؤنس، عقد بولاية العهد، ص (150).
(6) د. حسن على حسن رسلانه، ص (176) نقلاً عن ابن صاحب صالة الميل بالأمامة.
وزير استقبال جند الروم: لقد ظهر هذا المنصب في أواخر العهد الموحدى وهو منصب وزير يقوم فيه صاحبه بمراسلة ملوك الروم والعمل على إنزال جنودهم في البلاد وتضييفهم والترجمة عنهم\(^1\), وقد وضع هذا المنصب منذ أيام الخليفة المأمون الذي توصل إلى عقد حلف مع فرناندو الثالث ملك قشتالة لكي يبدع بعدد من الفرسان النصارى لمساعدته في حروبه ضد منافسه في الخلافة "يحيى المنصر"\(^2\) كرساً سابقاً، وقد كان هذا الاتفاق في أوائل سنة ٧٢٦هـ - ١٢٢٨م ومن ذلك التاريخ نشأ أن النصارى الإسبان أصبح لهم وزير موحد مهمته استقبال هؤلاء الجنر واختراعهم وسفرائهم والعمل على رعايتهم.

ومن الفروع التي أبقى عليها الموحدون وتشابهت في مهامها وأنظمتها مع أنظمة دولة المرابطين وقد سبق الحديث عنها عند الحديث عن نظم هذه الدولة وهي:

١ - صاحب الطعام.
٢ - صاحب العلامات.
٣ - صاحب المخزن.
٤ - صاحب ديوان السلاح.
٥ - كتاب الجيش.
٦ - صاحب ديوان المراسلات.

وقد أدخل الموحدون بعض التعديلات في نظم بعض هذه الفروع كالآتي:

١ - ديوان كتاب الجيش: كان كتاب الجيش في الدولة المرابطية هم الذين يتولون كتابة المراسيم السلطانية بينما في دولة الموحدين أصبح لديها كتاب مختصون بديوان العسكر يطلق عليهم كتاب الجيش خلاف كتاب ديوان الإنشاء. ومن كتاب الجيش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن رجل يعرف بالكباشي وهو كتاب ذاع صيته، "أبو الخجاج يوسف المرامي". من أهل مدينة شريش بالأندلس، أبو جعفر أحمد بن منيع\(^3\).

---

\(^1\) المصدر السابق، ص (٢٦٥) (٢) المصدر السابق، ص (٢٦٤) (٣) المصدر السابق، ص (٢٦٣) (٤) المصدر السابق، ص (٢٦٤) (٥) المصدر السابق، ص (٢٦٥).
وكان يلتحق بديوان الكتابة كأكبر التوقيعات والطهارت وكلما يهبر بالعلامة، وكانت العلامة السلطانية لدى خلفاء الموحدين "الحمد لله وحده" يكتبها السلطان بخط غليظ في رأس المنشور، فقد أنشئت حفصة بنت الحاجة الركوية في أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على

أيمن على بطرس (1) يكون للدهر عمامة

المحمد الله وحده (2) تخت يميك فسيه

وكانت نفس العلامة عند السلطان الناصر الوحدي حيث أنشده بعض الشعراء أبا من الشعر وردت فيها هذه العلامة (3).

- صاحب المعنى: أحدث الموحدون في هذه الوظيفة تعديلاً وتطويراً فقد أعطوا صاحبها سلطات واسعة في الشهر على تحصيل الأموال العامة ثم إنفاقها في الأوجه المشروعة لها ومراقبة العمليات والمحاسبة، والقبض عليهم (4).

وأطلق الموحدون على هذه الوظيفة صاحب الأعمال الخمينية أو مولى أعمال المستخصص، وكان له وcline وزفوع في سائر المدن الكبرى يسمون بالمشرين، وكان المشرف بلوزة على المال والطعام ويشرف على الأموال الخمينية ويتولى يا تنظيمها وتحصيل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل كالسهام السلطانية في الغنائم وغيرها (5).

وكان يشرف على هذه الدوائر المالية وزير من أرباب السيف يعرف بأبي زيد بوزيز المال وهو المتحدث في أمر المال (6)، وكان يطلق عليه "مولى أشغال السبرين" المغرب والأندلس، وكان الخليفة يختار له كبير الوزراء، فقد أسند الخليفة المنصور هذا المنصب إلى كبير الوزراء أبي زيد بن يوجان (7).

---

(1) الطرس: الصحيفة المختارة، الصحاح. مادة طرس.
(2) تحقق العلمي، ج (2) ص (342) طبعة أولى سنة 1302 هـ.
(3) الصدر السابق، نفس الصفحة.
(4) البيان الغربي، ج (1) ص (1302) ص (237)...
(5) الصدر السابق، ص (1302) ص (227) وما بعده.
(6) البيان الغربي، ج (3) ص (1301) ص (237)...
(7) البيان الغربي، ج (3) ص (1301)
وليس بغريب أن يتصب خطة الحكومة الموحدة بالإصلاحات العسكرية على نحو ما تفعله الدول الحديثة اليوم في حالة الحرب المستمرة إذ تضع لها استراتيجية عالمية شاملة تهدف إلى توجيه جميع مكاسب الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية نحو تحقيق تلك الإستراتيجية وهي الغاية السياسية للحرب، ومن الوجهية التي أن القوى المسلحة ليست إلا أداة واحدة من أدوات الإستراتيجية العليا لتحقيق الأهداف العليا للدولة.

جـ: ديوان الرسائل: وسمي القائمون به "الرقاصين" وهذا المصطلح كان شائعًا في المغرب والأندلس (1)، ويحكى عن عبد المؤمن بن علي أنه أصلح من شأن هذا الجهاز، فقد أصدر أوامره بأن تقوم الدولة بتوزيع الرقاصين بالمولو والعلف والدواب، ثم أوصى بأنه يُخَيَّر له أهل المقدرة والثقة على أن تجد لهم الأوقات الكافية لتوصيل رسائلهم حسب مسافات مراحلهم وأن يحاسبوا إذا ما تكونوا في ذلك أو تأخروا عن المواعيد المحددة لهم (2).

وبذلك يكون قد قضى على الفساد الذي كان عليه هذا الجهاز إبان أواخر عصر المرابطين إذا كانوا يرهقون الاهالي بنفسهم ويطلبون بعفف دوابهم ويحلون ببساطتهم في خربونها كما عرفنا سابقاً.

(1) تنظم الجماعة، ص (116، 117).
(2) انظر رسالة عبد المؤمن إلى الطلبة والكافة بالأندلس، عنوان: عصر المرابطين والموحدين، ج (2). ص (552)
الباب الثالث

أسلحة القتال في الجيشين

الفصل الأول: أسلحة القتال الهجومية

أولاً: أسلحة قتال خفيفة

ثانيًا: أسلحة قتال ثقيلة

الفصل الثاني: أسلحة القتال الدفاعية

أولاً: وسائل دفاع خفيفة

ثانيًا: وسائل دفاع ثقيلة
الفصل الأول
أسلحة القتال الهجومية

في حدثنا عن أسلحة القتال في جيوش المرابطين والموحدين نود أن نشير إلى أننا لم نجد فيها جديداً يميزها عن بقية أسلحة جيوش المرابطين إلا في أسلحة القتال الدفاعية، لذا فإننا نراها امتداداً لأسلحة المرابطين ولا غرابة في ذلك لأن الأسلحة التي فتحت المغرب والأندلس جاءت مع رجالها من ناحية الشرق. ونظراً لدرجة الأدلة في تلك الحقبة التاريخية فقد استعنا ببعض المراجع التي تخصصت في دراسة الأسلحة بنوع عام وإن كان هناك ثمة اختلاف يميز أسلحة المرابطين والموحدين فسوف نشير إليه في مكانه.

كانت أسلحة الجيش المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين خفيفة مثبطة البداوة، وتألفت من درق اللمع وسيف الهند، ومقت من الطول، والمزرق المستنير، و لما طال مقام المرابطين بالأندلس والحرب والفرجة وجدوا أنهم يعتبرون اعترافاً مطلقًا على التسلح الثقيل، فلم يغفلوا هذه الناحية، وطبقوا السلاحون فرقهم بالتروس، وتشجعوا الدرعات الباهظة ويلبسون البيضات، واستعان يوسف أيضًا بفرق من الرماة والسهام والبطالب، ذاع صيتها بشدة الفتك وإنقاذ الرماية، ثم جاء الموحدين وملكن زمام الأمر بجيوش هائلة قد تألفت من أبناء القبائل المغربة، وبلاد الأندلس. كيف كان تسليح هذه الجيوش وماهي أسلحة القتال التي كانوا

---

(1) من المراجع التي اعتمدت عليها الباحث في دراسة أسلحة القتال بعضها من الشرق العربي والبعض الآخر من المغرب العربي مثل: الجمل المعوية، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لبيهي عبد الكريم، سراج الملوك للطرطوشي، نزهة المشتاق للإدريسي، نفح الطيب للمسفر، وهذه المراجع أشارت إلى هذه الأسلحة إشارات عابرة تدل على وجودها في جيوش المرابطين والموحدين، أما المراجع التي أشارت في شرح نوعية الأسلحة وكيفية استعمالها: السلاح في الإسلام، مبدول الرحمون زكى، الفن الإسلامي في صدر الإسلام لميدان روف، أبو الأول للحسن بن عبد الله، الجزيرة في الدولة العباسية لنعمة ثابت، الساجد والقصور للدكتور السيد عبد العزيز سالم - المخصص لابن سيد. (2) السيف، ص 25. (3) الاستقصاء، ج، ص 166.
يحاربون بها؟ لقد كانت أسلحة جيوش الموحدين هي نفس أسلحة الجيوش المرابطية تقريبًا، فعناصر الجيش الموحدى هي أغلبها عنصر الجيش المرابطي، فكان الراجل أو الفارس ينضم إلى الجيش الموحدى بفرسه وأسلحته.

فأسلحة الجيشين مشابهة وواحدة، فالمشاة يسلحون بالسيوف والأقواس والتروس والنشاب، والفرسان يسلحون بالرماح والسيوف والدبابة، مع توفر أدوات الدفاع كالدروع والتروس والخوذ وغيرها. وكل هذه الأسلحة كانت متوافرة بالمغرب والأندلس على مر العصور وهي نفسها التي استعملها المرابطون ومن بعدهم الموحدون، وإن كان ثمة خلاف بينهما فقد كان في كيفية استعمال السلاح وطرق أفعالهم في القتال كما ستعرف في باب فن القتال فيما بعد.

وقد رأينا تيسيرًا للبحث والدراسة أن نقسم أسلحة القتال إلى قسمين كالآتي:

1- أسلحة خفيفة: يستخدمها الجندي الواحد بمفرده كالقوس والرمح والسيف.

2- أسلحة ثقيلة: يشترك في استخدامها أكثر من جندي وتتحملها في الميدان.

حيوانات النقل كالمنجنيق والدبابة والعربة وسلح الخوارج . . . إلخ.

أولاً أسلحة قتال خفيفة

وهي على ترتيب استعمالاتها في المعركة كالآتي: القوس والسهم، الرمح والسيف، الخنجر والدبوس والنفس، وذلك بأن يكون القتال أولاً تراشقًا بالسهام عن بعد، ثم تاطسًا بالرماح عند المبارزة واقتراب الصفوف، ثم تصاداً بالسيوف عند الاختلاط، ثم تضاربًا بالأسلحة البيضاء، وخليساً بالصيت عند الالتحام والاختلاط، وهذا ما فهمتاه من وصف الطروطي(1) لصفة الليثاء مع العدو، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد في باب (التنظيم التكتيكي للمعارك).

1- القوس والسهم:

القوس هو عبارة عن عود من شجر صلب يحتى طرفان بقوة تم نصب بينهما وتر من الجانب أو العصب الذي يكون في عمق البصر، وتصنع القسي في أرض المغرب من عود قوي يسمى (القصب الشرقي)، وقد يتخذون أورارها من ذلك القصب

(1) سراج الملوك، ص (179).
وأيضًا كما هو معروف به في أرض السودان أو من خيوط مفترضة أو شراك جلد (1).
وعند الرمي بالقوس على الرامي أن يمسك وسطه باليد اليمنى ثم يثبت السهم في رصع القوس بيد اليمنى ثم يشدد شدًا قويًا إلى أن يصل مساويًا لموقعه الأيمن بكتيه مصوبًا نظره إلى الهدف، ثم يترك وتر القوس من أصابعه فيددع إلى وضعه الأول دائمًا أمامه السهم نحو الهدف المراد (2).
أما السهم أو النشاب فهو من مستلزمات القوس، فالقوس للرامي كالبنودية والأسهم كطاقاتها، والسهم عبارة عن عقد رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريبًا، ينحت ويسوّى ثم يفرز فيه حدوذ دائري لتركيب فيها الريش ويشد عليها بالجلد المتين، أو يلصق، ثم يركب في قمه نصلًا من حديد مدبوس له نستان في عكس اتجاهه ويجعلانه صعب الإخراج إذا نشب في الجسم ويصنع عادة من خشب الصنوبر الخفيف أو من قصب الشركي (3).
وقد حرصت قادة الجيش المرتبط والموحدون على الإكثار من صنع السهام وحملها في المعارك، لدرجة أنه تؤلف لها فرق خاصة تنمي النيلية أو النشابة أو الرامة، وقد كان لهذه الفرق مراكزها المحددة في المعركة لا تبرحها، فإذا قرب العدو رشده الرامة بالنشاب، ويبدو أنهم كانوا يستعينون بالرامة من أهل غانا والسودان فقد كان لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة (4)، وكانت تجلب النسا والسارام من أرض السودان (5).
وقد أكثر المرابطون من حمل السهام إدراكًا لأهميتها ودورها في المعركة، فقد لعبت سهام المرابطين في معركة الزلاقة دورًا بارزًا إذ كانت السهام والمزارق تسددي إلى الخيول بدلاً من الفرسان، من بعد ومن قرب حتى صار كل فارس مسيحي مشغولاً بمسيرة يجري عنه والخيول واقفة على أقدامها الخلفية (6)، وبذلك شغل الفرسان عن المعركة وأصابتهم الخبرة والاضطراب فكانوا صيدًا سهلاً للمسلمين.

(1) الإدريسي - زخرة المشتاق، (المغرب وأرض السودان)، السلاح في الإسلام، ص (48).
(2) الزنكي، عبد الله بن بهمن، النشابة، ص (104).
(3) البطراوي، نهائي الأرثر، ج (7)، ص (223)، الأنفوشي، ابن طفيل، ابن ه/order, (1).
(4) الأثيري، إسماعيل بن، الطموح في الإسلام، ص (33)، الازدهار في أصول السهم، وأجزائه في المخصوص، ابن سيدناء، ص (189)، ج (6).
(5) الكحلاوي، السحر، ص (167).
(6) الإدريسي - المغرب وأرض السودان، ص (5).
(7) نجع الطب، ج (3) ص (505)، نصا عين ابن خلكان.

162
وقد أكد هذه الحقيقة الاستاذ محمد عبدالله عنان إذ يقول أن سهام المرابطين في معركة الزلاقة كانت كثيرة للغاية، ومن دلائل ذلك أن أي سائح إذا حفر الأرض يجد يكون أن يحصل على سهم(1).

والله سمهم عدة استعمالات كانت شائعة في حروب الشرق الإسلامي ومغربه منذ عهد بعيد، ومن استعمالاته أنه كان يستعمل أداة للتخطيط يكتب عليها راميها ما يشاء ثم يرميها داخل الأسوار حظاً للأسرار، وكان يستعمل أيضاً في تحضير الروح المعنوية للمحاصرين، فقد كان يكتب في ورقة مربوطة به من عبارات التهديد ما يجعل العدو نهار معنوياته ثم يميلون إلى الاستسلام، وبالتالي كان المحاصرون حينما يطلبون الأماكن يكتبون في ورقة ما يريدون ويرمونه بالمدينة إلى الخارج (2).

وقد تطورت صناعة القسبي بمرور الوقت، فقد صنع المسلمون في العصور الوسطى من الأقواس آلات مركبة، واصطنعوا أيضاً لرسوم السهام دروبًا من المجانيق توضع في الواحة منها عدة سهام وترمي عنها بالاقواس (3)، وتتعلق دفعة واحدة مثل المدافع الرماية المضادة للطائرات في عصرنا الحاضر حيث تنقل منها المقاولات الأربعة في خطة واحدة.

2- الرمح والحرية:

من أسلحة المرابطين والموحدين الرماح والحرباء وقد أعطانا البحري وصفا للرماة وأسلحتهم في جيش المرابطين في مهده الأكبر، وكان معظم قتالهم مترجلين يقفون على أقدامهم صفا بعد صفا، يكون بأيدى الصفر الأول منهم القناطر والطوال وما يليه بأيديهم المراقي يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرعها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى (4).

وكان المرابطون يتخذون رماحهم من فروع الأشجار الصحية خصوصاً قصب الشركي كما قلنا عن القوس، وهذا القصب متشر في المغرب ويشبه البوعش بعد أن يسوية ويركب في رأسه نصلاً من الحديد ولرسوم الرمح "سناته" أنواع منها:

(1) عنان- مصر المرابطين والموحدين، ج(1).
(2) تاريخ الطبري، ج(4)، ص(216)، الفن الإسلامي في صدر الإسلام، ص(141).
(3) عبار الرحمن ذي- السلاح في الإسلام، ص(48).
(4) الخليل الموسي، ص(101)، البكري- المغرب، ص(167).
الشعب والعريض والرفيع والمستوى والمتوسطة وسيلة إيجاد واسعة في رأسها حرية أو حرية مستقيلة وحرية عوجاء
تستخدم في الطعن أو النقيب أو غير العدو عن بعد وخصوصًا عند الهجوم على
الأسوار واللسان.

كان للمروج أطوال مختلفة تتواءج بين الأربع أذرح والخمس والعشر وما فوقها
والنماذج الطويل كانت خاصة بالفرسان حيث تساعدهم الخيل على حملها والعمل
بها عند اللقاء. أما الرماح القصيرة والتي لم تبلغ أربع أذرع فإنهم يطلق عليها
حراً أو نيازك أو مزاريق أو المطارد وكليها أسماء لشيء واحد(3). وقد ورد في
مختار الصحاب عن المزارق مادة زرق: "المزراق هو الرمح القصير"، وكان الجند
المرابط يجمع عدة مزارق ليلبقيها دفعة واحدة على هدوء فلا يختبئ، أو ينحرف.

أما الرماح القصيرة فقد كانت تستخدم في حالتين هنا:

الأولى: عند مطاردة الباباين إذا ما شهد أحدهم على قارس بما يفوته أو أدرك
أن سيقبس يساحة لا تمكنه من الطعن برمجه الطويل عندما يستعمل النيزك وهو
أقصر من الرمح، إذا فإن فارس الباب قد قاتله رماة بالحرية عن بعد، أما الثانية: إذا
هاب فارس مخلطا عدوده لقوته فإنه يرمي بالحرية عن بعد ولا يطلق بالرمح(4).

وقد اهتم المرابطون كما قلنا بمزاريق الزان المنفسة وغيرها وقد كانوا يسلبون
بها فرقة خاصة من العبيد السودانيين وكانت هذه الفرقة بمثابة الفرق الخاصة في
وقتنا الحاضر إذ يدخلون المعركة في اللحظة المناسبة التي يراها القائد لانزال
النصر(5)، وقد كان هؤلاء العبيد يتميزون بقوة الطعن، فقد طعن عبد من فرقة
تاشفين بن علي الخصاصة قوم الروم فأخرج الرمح من وراء ظله وأسقطه من
 فوق حصنهم.(6)

(1) عبد الرحمن زكي - السلاح في الإسلام، ص(287).
(2) البستاني - دائرة المعارف، ج(11)، ص(194).
(3) عبد الرحمن زكي - السلاح في الإسلام، ص(287).
(4) عبد اللهوزي - فن الحرب.
(5) المفر - نفح الطيب، ج(2)، ص(530).
(6) ابن الخطيب - تاريخ المغرب، ص(259).
السيف

السيف سلاح ذو حقد يضرب به باليد، وهو أشهر الأسلحة البيضاء التي يفضلها المسلمون، وقد اشتهرت عداة بلاد ومند بصناعة السيف في العالم الإسلامي منها: طلبطلة، سرقسطة في الأندلس، وقد ظل طراز السيف المستقيم هو الشائع استخدمه في العالم الإسلامي إلى حوالي القرن الثالث عشر تقريبًا، ثم بدأ يستعمل السيف المقوس ذو النصل الواحد.

وكان تكتبه على بعض نصول السيفيات أبائه قرآنية أو عبارات تشير بقوة السيف وصولته وتنطق على بعضها الزخارف الطريفة كالسيفوف التي أدهاما "بوفس ابن تاشفين" لابن عمه الأمير "أبي بكر بن عمر، عند اقتحام الجيوش بينهما، وكانت أهدافها الخليفة الموحد إلى السلطان صلاح الدين الآيوبي.

فكتها سيف محلة بالنقش والكتابة.

4- الختام:

ويطلق عليه المدية أو الجينبية وهي تثبت في حزام توضع في الجانب، ولها أشكال متنوعة تنقل استعمالها من الجزيرة العربية إلى مراكش وألبانيا وتركيا وغيرها، ولتصل الجينبية حدان، وعند الاستحمام يطعن به خبزة، ويبدو أن أفرع الحرس الخاص كانت مسلحة به، بدليل أن العبد الآسود الذي التحق بالعهد، انتظى سلاحه وأثبته في فخذه، فهلك حلق درعه وظنه ختام.

5- الدبوس:

وهى آلية حرية من حديد عرفها القائمة المحيط بها، الدبوس هو هراوة مدمجة الرأس في طرفها كتلة صغيرة، وجاء ذكره في أكثر كتب التاريخ الإسلامي وكانت تستعمل في تهشيم الخوذة المعدنية، يحملها الفرسان في السروج تحت أرجلهم، وكانت تعرف أولا بالعمد، وقد ذكرها الأدريسي ضمن أسلحة

(1) عبدالله زكي - السلاح في الإسلام، ص (33).
(2) السواري - الاستقصاء، ج (2)، ص (116).
(3) المقري - نحو الطلب، ج (2)، ص (53).
(4) عبدالله زكي - السلاح في الإسلام، ص (22).
الغربي، وكانوا يتخذونها من شجر الأبنوس، ولقد أشتهر أهل أودغشت بصناعة هذه الدبابيس.(1)

3- الفأس أو البلطة…”طبّر”:

وهو سلاح له رأس نصف مستدير يركب في قضيب من حديد أو خشب بحيث يكون النصل مدببًا من ناحية، رقيقة مشوهة كالسكين في الناحية الأخرى، وقد يحفر على قضيبه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية(2)، وفي حالة ركب السلطان تكون فرقة "الطبّر دارية" حوله عن رأسه وشماله، مستعدها لضرب من يتقدم نحوه بغير إذن كما سبق في القول عن موكب السلطان الموحد(3).

7- الأطاس:

هو سلاح شبيه بالمخنجر وفيه إعوجاج يجعله قريب الشبه من المنجل لأنه مقوس، وكان شائعاً استعماله في المغرب، يسلح به الحرس الخاص الأسود يستعمله وقت الاحدام، وقد كان جديداً على الإسبان الصادري بدلاً أن الملك الأسباني في موقعة "الزلاقة" ظنه منجل، ولكنه ليس منجل بل هو سلاح الأطاس، أو الطاس كما يسميه أهل المغرب(4).

8- الأمدوس:

هو سلاح جمهور البربر وهي عبارة عن عصا طويلة مثناً بعضها صغير ذوات عوي في أواضعها تدفع بالأنام عند قذفها(5).

9- السيطاء:

وتسمى "السريقات" ويطلق عليها أهل الأندلس "ذنب الفار" وتصنع من جلد حيوان يسمى "جفوة" بمدينة "قلنسوا" ببلاد السودان، ومن هناك يحمل إلى جميع الآفاق.(6)

(1) الإدريسي - المغرب وأراض السودان، ص(5).
(2) السلاح في الإسلام، ص(39).
(3) صح الأعشى، ج(5)، ص(207).
(4) الحلال المولى، ص(44)، ابن الخطيب - تاريخ المغرب العربي، ص(243).
(5) ابن الخطيب - الإحاطة بالمجلد الأول تحقيق عثمان، ص(142).
(6) الاستصار في عجائب الأمصار، ص(218).
هذه هي الأسلحة الحقيقية التي يحملها الفارس الواحد أو الراجل في المعركة في عصر المراقبين والمهاجرين، وكانت دائما تخفظ في خزانة السلاح مقدار هائلة من هذه الأسلحة، وقد أنشئت مصانع للسلاح في كثير من قواعد المملكة لصناعة القسي والنشاب والخوذات والدروع والسهام وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع، وفي بعض الروايات أنه كان يصنع في مملكة الموحدين في عهد عبدالمؤمن بن علي كل يوم عشرة قناطر من السهام (1).

ثانيًا: أسلحة قتال ثقيلة

آلات الحصار:

من الفنون الحربية التي يرع فيها مسلمو إسبانيا بناء القلاع والأخنون على قمم الجبال والتلال خصابة الوديان والمضايق مما يجعلهم يجدون حروب الحصار. وقد كان المراقبين في أول عهدهم صحاودون غير مليء بفون الحصار، بل بدلاً فشلهم في حصار حصن ليبن (2) بعد نصرهم العظيم في معركة الزلاقة. وبدو أنهم تعلموا هذا الفن واتقنوه بعد فتحهم للأندلس واستقلارهم بها.

وقد ظهرت دلاًً لذال هذا الاهتمام وإتقانهم لنفس الحصار في حصارهم لمدينة شترتين (3) واستيلائهم عليها في عهد علي بن يوسف.

أما المولودون فقد برعوا في إن الحصار فما كانوا المراقبين في هذا المضمار حتى أن أكثر المدن معتقة كانت تحتضن أمام سلاح الحصار الموحد، وقد كان المولودون يستعملون أسلحة متنوعة في الحصار فأحيانا يستعملون الجراحات والمجنحة والعادات والدبابات وسلاح الحصار، أو يطلقون المياه الغزيرة في قوة وعنف فتزيد كل ما يقابلها من مبان وغيرها.

(1) الاستقصاء، ج، (1)، ص (158).
(2) حصن ليبن يقع في شرق الأندلس وهو قلعة حصينة كانت تستوعب حامية يتمارح عدد رجالها ما بين 12، 13، 14 ألف مقاتل، وكانت عصابات الشتالين تغير من هذا الحصن على المناظر المارة. وقد ركز فيه الفونسو السادس نشاط بعد هزيمته في معركة الزلاقة - انظر الدكتور السيد عبدالعزيز سالم في المعرض الكبير، ج (2)، ص (528).
(3) هي مدينة بالي الأندلس في الشمال الشرقي من أشمون على الشاطئ الأدنى من نهر تاغية وقد انتفها الأمير سمير بن أبي بكر المونوني، قائد المراقبين، وظل بأخيه المسلمين إلى أن استردها الفونسو السادس ملك قشتالة عام 542 هـ، انظر المرجع، ص (90 - 93).
وكان عبدالمؤمن بن على نفسه يجد فن الحصار، ففى حصار مدينة "فارس" التي قامته أسوارها الملبية جيوشه مدة طويلة، نرى عبدالمؤمن يستعين بعباء النهر التي أمر بحفظها في خزانات ضخمة ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار. 

وهي نفس الفكرة التي استخدمتها الجيوش المصرية في إزالة الساتر الشرقي، المرتفع قرابة العشرين مترًا، بخراطيم المياه، والتي أقامها اليهود على الضفة الشرقية لقناة السويس، وذلك في حرب العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر عام 1973م. 

وذلك نرى عبدالمؤمن يحرك أبواب مدينة وهران بالبران المحرقة بصورة يفجع الآلات، ويختبئ مدينة المهدية بحيلة مماثلة، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التي بلغ عرضها ما يفجع سير فارس متحامى عليه (1). ويمثل هذه المهارة الفنية العربية افتتاح عبدالمؤمن مدينة مراكش التي لم تقف أسوارها الملبية عقبة أمامه عند فتحها.

وعلوا هذا النحو سقط في أبى الموحدين كثير من القلاب في أضيق المفارز الجبلية في المغرب والأندلس، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التي كانت تفخذ كتلا هائلة من الحجارة والكروات المتهبة من الحديد والنفط.

وعنم الطبيعي نحن بصدد دراسة هذا الفن أن تتعرض لأسلحة وأدوات الحصار، التي كانت مستعملة لدى جيوش الدولتين، ويطلق عليها الأسلحة الطويلة لأنها تمتعت بالضخامة تفخذ على الجبال والبغال، وتختار إلى عدة جنود في إدارتها والعمل بها عند التغلب، وهي نفس الأسلحة التي كانت متبعة في جيوش المشرق إبان عصر المرابطين والموحدين.

1- المجتمع والعرفان:

ومن الطبيعي أن المرابطين قد عرفوا المجتمع والعرفان بعد نزولهم إلى الأندلس، ففى حصار حصن "البيث" نصب المسلمون على النصارى المجانيق والعرفان بعد حصارهم مدة طويلة، وقد أشترك المرابطون في حصار هذا الحصن مع الأندلسين.

(1) ابن زرع - وروى الفرطان، ص(123).
(2) ابن الأثير، ج(11)، ص(92).
وقد أشار إلى ذلك شاهد عيان في هذه الفترة وهو "عبد الله بن بلكين" وقد علّق فشل قوات المسلمين في افتتاح هذا الحصن لاختلاف كلمتهم بالرغم من استعدادهم لهذا الحصار.

وفي حصار المرابطين لمدينة طليطلة في عهد "علي بن يوسف" في عبوره الثاني للايسلد للجهاد بها، قد ضربوا أسوارها بالمجانين ضربًا شديدًا، وحاولوا حرق بعض أبراجها ولكنهم فشلوا أمام حصنة أسوارها فرفعوا الحصار عنها بعدما تُجع النصارى في إحرق آلات حصارهم الثقيلة.

وفي سنة 1014 هـ، نفذ أمر علي بن يوسف إلى البلاد الأندلسية، بإحياء المجانين والآلات الحربية، وقد روى لنا ابن عذاري أن المرابطين بعد صنع هذه الآلات كانوا يجرون عليها تجارب بالرمل بِها.

وكان الملوِّدون يهتمون بصنع المجنِّيقات، ففي سنة 579 هـ أمر الخليفة "أبو يعقوب يوسف" بصنع عشرة مجانيق جربت بالرمل بعد صنعها أمامه في منطقة البحرية خارج مراكش، استعدادًا لغزوة "شنترين" في الأندلس.

وهذا السلاح شديد النكبة بالأعداء بعيد الآخر في قتالهم، فبحجارة هُدِم الحصون، وبقتاليه تحترق الدور والمباني فهو شديد الشبة في أيامنا هذه بمدفعة الميدان الثقيلة.

ولبرادة آل أصغر من المجنِّيقات تلقى بها الحجارة على أبعاد طويلة وقد تستخدم العرادة في رمي السهام دفعًا واحدة إلى المسافات البعيدة التي لا تصل إليها رميات الأقواس، فكانت توضع فيها عدة سهام كبار ثم يرمى بها مرة واحدة، وبampilkan الوقت أطلقت عرادة على عريض المدفع.

(1) مذكرات عبد الله بن بلكين - النبيان، ص (118).
(2) روض الفرات، ص (100)، الخليل الموصلي، ص (22)، ابن خلدون، ج (2)، ص (188).
(3) ابن عذاري - النبيان العربي - نقل عن عيان عصر المرابطين، ج (1)، ص (82).
(4) المصدر السابق، ص (129 - 130).
(5) جورج زيديان - تاريخ التمدن الإسلامي، ج (1)، ص (156 - 159).
(6) السلاح في الإسلام، ص (4).
1- نوع لرمى السهام إذ توضع في المجنيق الواحد عدة منها ترمى إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة.

2- نوع لرمى الحجارة الضخمة لهدم الحصون.

3- نوع لرمى قدور النفط والكرات المشتعلة من النار.

4- نوع لرمى العقارب أو سلاسل الرموم وغيرها من الرماغ العفنية(1).

ومنها الكبيرة ومنها الصغيرة، ومنها ما يشبه بلوابل وأقواس ومنها ما يناد شبه القلاع إذا دار فيها الرجال رفعت السهام، فإذا تركت رتم وقذفت، وقد يكون الكرات سهاماً أو حجارة أو قدور النفط أو العقارب والرمم، فإن كانت المقذوفات خفيفة تلقوا بالرصاص وإن كانت من الصوامع كالنفط وغيره اتخذوا له كفة كالفأس علقوها بسلاسل(2)، وجريور الوقت تقعن المسلمون في طرق الوقاية من المجنيق(3).

الرمي بالبارياليونية "البارود":

اتخذ العرب عن الروم، ويرجع فضل اختراعها إلى "كالينوس" البعلبكي السوري(4)، والذي نقلها إلى القسطنطينية، وبيت مجاورة وتركيها مجهولاً عدة طويلة حتى أطلع عليها العرب وهي مزيج من الكبري والكريت وبعض الصنوبر والدهون يقذف به من أسطوانة نحاسية إما على هيئة سائل مشتعل، أو على هيئة كرات مشتعلة(5).

وقد استخدموا المراييلونون، ففهى حصار قلعة "شترين" وهي من أحصى المعاقل للنصاري وأقواها على المسلمين نرى أن المسلمين قد رموها بالبارياليونية عن طريق المجنيقات حتى أحرقوها، كما ورد في رسالة "ابن عبدون" في فتح المراييلونون لهذه القلعة(6).

(1) النصر في الإسلام، ص (59).
(2) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة، جزئي ركاب - تاريخ النصر.
(3) انظر طريق الوقاية في كتاب عبد الرزاق عون - الفن الحربي، ص (161)،ijdina في الدولة العباسية لثابت ص (180).
(4) السلاح في الإسلام، ص (69)، تاريخ الجيوش جورج كاستلان.
(5) نعثمان ثابت - الجندية في الدولة العباسية، ص (141).
(6) انظر هذه الرسالة في المجمع للمراكشي، ص (90، 91).
ولم تكن تلك البيران بغيرها على النصارى الإسبان فقد كان استعمالها شائعاً في عصر ملوك الطوارئ. فروى "عبد الله بن بلкий" في مذكراته خلال حصار حصن "ليليط" أن ابن صلاح دمآب بيّل أقامه وخرج به السور فأساهه من الحصن قبس من نار فاحرة (1).

أما عن استخدام المواد المفرقة والتي تطورت عن استخدام النار اليونانية فقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين هذه المواد المكونة من ملح البارود والكبير والفحم. وقد دحض المستشرق الألمانى جورجي يعقوب الرأى القائل بأن المدينة "برباء" اخترعت هذا المساحيق حين أغار "الوندا" على أفريقية واستخدمته للمرة الأولى حتى أصبحت هذه المدينة شعاراً لفرق المدفعية عند كثر من الأمم حتى اليوم (2).

ولدينا من التصور ما يثبت أن أهل المغرب قد عرفوا البارود واستخدموه قبل الأوروبيين فإن أهل مراكش قد استخدموا الأسلحة النارية في محاولتهم "سرقطة" سنة 1118 م (3). بل أن تلك البيران وما صبحتها من المواد المفرقة قد تطورت في آخر عهد الموحدين، وتشير كتب العرب التاريخية بصراحة إلى استخدام تلك الأسلحة، فرسى الموحدين في "البلة" حين حاصرها النصارى يطلقون على القوات النصرانية المحاصرة آلات تقذف الحجارة والخليط والمفرقات ويصفها دواي يشبه دوام الدفاع البدائي (4).

وقد فتك هذه الآلات بالجيش المحاصر وأرغمته على إطالة الحصار أكثر من سبع أشهر، ولكن الموحدين اضطروا إلى تسلم المدينة للقشتاليين سنة 657 هـ - 1257 م. وقد أثبت "ابن خلدون" أن العرب قد استخدموا البارود في معارك "سجلماسة" سنة 272 هـ - 1273 م في أواخر حكم الموحدين إذ نهض أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق من بنى مرين بعساكره من أهل المغرب، مع جمع

(1) مذكرات عبد الله بن بلكيه - النبيان، ص 118.
(2) الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ المدن الإسلامي، ج(1)، ص 210.
(3) جورجى زيدان - تاريخ المدن الإسلامي، ج(1)، ص 120.
(4) عنان - عصر الموحدين والموحدين، ج(2)، ص 443. 172
زنانة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ثم نصب عليها آلات الحصار من
المجائق والعرادات وهندام النفق القاذف بحصى حديد يبعث من خزانة أمام النار
الموقعة في البارود ببطيئة غريبة أدهشت المحاصرين حيث سقطت عليهم كتلاً منها
على حين غفلة فأحدثت فيهم رعبًا وخوفًا، ثم بادروا إلى اقتحام البلدة(1).

2- الدبابات والضرب:
الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيذهبون إلى الأسوار ليقبوها
وهي شبح متحرك له أحيانًا أربعة أدوار، أولها من الخشب وثانيها من
الرصاص وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا البرج
على عجلات تصدع إلى طبقاته الجنود لتبث الحصون ونسل الأسوار، وقد عرف
الفرس استخدام الدبابات وأخذوا منهم العرب، ثم أثقلت الأمويون ثم العباسيون
ثم انتشرت في بلاد المغرب والأندلس، عن طريق تأثرهم بالوساطة المشرقية
من جهة وباحتكاكهم بالنصاري الذين عرفوا هذه الأسلحة من جهة أخرى. فهى
حصار النصارى (السربطة) صنعوا أرباجًا من خشب تجرى على بكرات وقربوها
من أسوارها ونصبوا عليها العرادات وعشرين منجینًا(2).

وقد أثقل الموحدون هذا النوع وأخذوا تفوقهم على المشايخ في فن
الحصار واستعمالهم للآلات الشفيلة التي كانت تعاني منها أمعن مدن النصارى
وكلائهم.

وإليك العمل بها هي أن يدفعها الجندي أمامهم (متخذاً منها ساطراً يحميهم من
سهام الأعداء، حتى إذا ما أتربت من السور الصقولة به، ويحمل الجندي الذين
بداخلها على نقش جزء من السور، ثم يستنده بقطع من الخشب حتى لا ينهار
عليهم ويكونون ذلك ثم يفعلون في الخشب النار فينهار السور تاركًا فجوة كبيرة
يمكن للجادة الدخول منها(3).

(1) تاريخ ابن خلدون، ج (7)، ص (188).
(2) رؤف الفرطاس، ص (100).
(3) إثر الأول - الحسن بن عبد الله، مطبوع على هامش تاريخ الخليفاء، ص (214).

173
ويتعاون المجنيق مع الدبابة في عملية اقتحام الخصون حيث يقوم المجنيق بحرق الموانع وهدم التحصينات ثم يأتي دور الدبابة وهو الاقتحام من نقاط الضعف التي أحدثها المجنيق.
وكان المسلمون يغطون أسقفها باللباب أو بالجقود المشبعة بالخلي حتى لا تكون عرضة للاحتراق إذا ما رهما الأعداء بالنار من فوق الأسوار.
وقد توصل المسلمون إلى عدة طرق لمنع دببات العدو من التقدم وذلك بأن يحضروا خندقًا حول قلعتهم فيمنع تقدمها، أو يحضروا الخندق ثم يردوه بالتراب فتقتدم الدبابة فتغوص عجلاتها في التراب عندئذ يخرج منها المقاتلة وتلتقيهم سهام المسلمين.
أما الضرب فهو عبارة عن خشب مغطى باللباب يتقدم خلفه أو تعته الرجال للاقتراب من الخصون من أجل القتال، والضرب مثل رؤوس الأسفاط (1) ينتمي بها في الحروب، وهي قريبة الشبه من الدبابة ويدو أن الفارغ بينهما أن الضرب يستخدم في الانسحاب أو عند الاقتحام للفتح حركته عن الدبابة (2).

3- رأس الكبش وصل الحصار:
رأس الكبش آلة من خشب وحديد، ويجبونها بنوع من الخليل فتندق اللحاء فيتهشم. وأصل الكبش دبابة لها رأس في مقدمتها مثل رأس الكبش، ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحيث تحرية على بكر معلقة بسف قبالة لسهولة جرحها، ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في داخل الدبابة، وجدنود آخر استروا بدررة الدبابة ووقعوا خلفها ليعلون كل هؤلاء على ضرب السور بها حتى يعرفهم. أما سلم الحصار فهو آلة من آلات الخصار لا غنى عنها بساعد الجنود على اعتلاء الأسوار، وفتح مغاليق الخصون، وكان المسلم يتخذ

(1) عبد الرؤوف عنون - الفن الحرب - ص (169)، (170).
(2)流出 وأد الأسفاط وهو كالبليد أو كالرداء، مختار الصحاح مادة سقط.
(3) السلاح في الإسلام، ص (38).
(4) المصدر السابق، ص (48)، (49).
أحيانًا من الحبال تشكل على هيئة سلم له خطاف، ترمى على شرفات السور تتعلق به وتمرر الوقت صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد مرتفعة بارتفاع السور تقريباً على شكل سلم فرق الإطفاء يرتقي بها الرجال بعد أن يندوها إلى السور ثم صار السلم يصنع على قاعدة خشبية كبيرة تساعد على إيثابه، وأحيانًا كان يقوم عليه سلمان ينطلقان في النهاية العلوية ليثبت كل منهما الآخر، وجعلوا لهذه القاعدة بكرات أو عجلات ثابتة ليسهل بها نقله.

وقد وصف لنا صاحب الحلل حصار الموحدين لمدينة مراكش واعتداء أسوارها بالسلامم حيث أمر عبد المؤمن بعمل السلالم لارتفاء السور، ثم قسمها على القبائل، وأحذقوا بالمدينة، فدخلت هتانتان من جهة باب وكالة، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هسكورة وغيرها من جهة باب آخر فقضموا الأسوار ودخلوا البلاد بالسبيع سنة 541 هـ، وانتهى ملك دولة اللثام.

(1) الأفنى الخليلي، ص (173).
(2) الحلل المنشية، ص (104، 105).
الفصل الثاني
أسلحة القتال الدفاعية

تنقسم وسائل الدفاع إلى قسمين:
- آلات متحركة يحملها الجندي الواحد لحماية نفسه في المعركة كالدرع والخوذة والترس، وهي آلات خفيفة.
- آلات ووسائل ثابتة يشترك الجند في إعدادها أو يقوم بها طوائف العمال والفعالة كحفر الخندق، وتشر حسب الحديد وإقامة الجدران والموانئ وبناء الحصون والقلع والبئر.

أولاً: وسائل دفاع خفيفة

لقد كان المرابطون صمرون في أول عهدهم بالمملكة كانوا لا يخفون بزيهم العسكري الذي يتهابى بعامة الجيوش من ليس الدروع والخوذ واستعمال التروس إلا بعض آلات الدفاع الخفيفة وهي: درق اللبه، وبعض التروس وهي آلات دفاعية بسيطة تختلف عن وسائل الدفاع التي يستعملها الأندلسيون والنصارى والإسبان، وما يثبت ذلك اعتبار شعوب الطوائف، في الأندلس لمنظر المرابطين من بني دينهم حين عبروا للجهاد في معركة الزلاقة، فقد جاء في رسالة يوسف ابن تاشفين إلى صاحب المهدي، ذكر فيها وصف دهشة أهل الأندلس جنده قال: ًفهَرَى الناس من كل أفق إليهم متعجبين من هيثمهم، محتمرين لزيهم ونغماتهم لا يروعهم منهم شيء، حاشا الخيل وددنقر، والكل استصغرهم والجميع منهم احتقرهم، وقدروا أنهم طعم للسيف وغرض للحروف، وهدف للرماح، ونهب للسلاح.

ولما طال مقام المرابطين بالأندلس اقتسموا كثيرًا من أسلحة ملوك الطوائف والإسبان وتسليحوا بسلاح جيرانهم الإفرنج، واستعملوا وسائل دفاع تقليدية متمثلة في الدروع السابعة والتروس القوية وليس البيضات وحمل الأسنة العريضة.

(1) عبد الله شيخة - المرابطون، تاريخهم السياسي، ص (111).
(2) ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الأول، ت. عنان، ص (142).

173
وهذه نبذة عن بعض آلات الدفاع المتحركة والخفيفة التي تستعمل وسائل دفاع
في الجيوش المرابطة والموحدة وكلها أسلحة تقليدية كأسلحة الدفاع في الجيوش
المشرقة إبان عصرهم.

1- الدرع:
من آلات الوقاية وهو عبارة عن قميص ينسج من حقل حديدية رفيعة متناحلة
بعضها في بعض، فإذا نسجت حلقة داخل حلقة سميت "مفردة" وإذا نسجت
حلقات داخل حلقات سمي "مضاغفة"، وحلقاتها توصل بمسامير تسمى
"الغلاث" بحيث تشبه الشبكة التي يلبسها رجال الفرسان فوق أكتافهم(1).
والدرع نوعان:
أ- درع ساكنة: وهي التي تغطى البدن بأكاملها الطويل حتى الأذناء وتمتد
لتصل إلى نصف الساق ومعها "الغفر" الذي يغطى الوجه والبيضة التي تغطي
الرأس، والفم. ولا يرى هذه الدرع يكون مغطى بالحديد إلابدو منه إلا محاصر
العينين وهذا -كما يبدو- لباس غالبيا جند النصارى كما ذكر لنا الطراطوشي عن
لباس "ابن رذمر" (الذي كان شاكلًا في السلاح مكفنا في الحديد لا يظهر منه إلا
عيناه) (2).

ومن المحتمل أن يكون المرابطون والموحدون قد تسلاحوا بهذا الزي الشقلي،
والدرع الساكنة كانت تلزم القادة وحملة الأعلام وأهل الخطر في الحروب
كالفرسان في أغلب فرقها.

ب- درع بضاع: وهي القصيرة التي يلبسها أكاما بحيث تصل إلى أسفل الركبة أو
 فوقها بقليل، وهذه ضعيفة الحماية للاسها لأن كل أطرافه معروضة لضربات
السيف وطلقات الرماح، لذا كان من مهارة الفارس أن يتحري الأمان المكشوفة
والفاصلة من عدوه. وقد زود الأقدمون فرسانهم بتصنيح منها "لا تضرب الحصم

(1) انظر السلاح في الإسلام، ص (268)، الفن الحربي، ص (168) وما بعدها.
(2) سراج الملوك، ص (145).
إلا في المكان الذي لا سلاح فيه، وعليك بالأطراف، فقبل الجراح فيها كثير، ولا تضع الضرب في الدرب أو التروس، فربما قُبِّ السبع أو نشب أو التوى.

ومع تأمين الدروع لصاحبه فإن إصابته قد تكون من نقطة واهية فيها أو من فتحة نسبيه، أو عند اكتشافها عنه فجأة كما حدث مع ابن زهير الطاغية الذي كان مكشوفاً بالحفرة ولا يظهر منه إلا عنه، فترصد بعضه "سعادة" إلى أن أمكنته الفرصة فحمل عليه وطمغته في عينه فهو صعبا، وكان عبد السعد الذي أصيب بالقنصو في معركة الزلاقة، وقد انقضى خذلا وتحين غثرة فرأى في درعه نقطة واهية فهلك تبع حلقته وأثبت خذفه في فصده كما سبق الحديث عنه.

والزغبة هي نوع من الدروع اللينة الواسعة المحكمة ويبدو أنها كانت منتشرة بين جنود المرابطين كما ورد في رسالة ابن طاهر إلى ابن عبد العزيز.

وهناك الجواشين التي تغطي الصدر فقط بلا ظهر ولا أكمام وهي عبارة عن ألواح صغيرة من الحديد أو من الزيار أو الجلد تلبس حول الجزء الأوسط من الجسم فوق الثياب. ويبدو أن هذا النوع كان يقبل عليه معظم جنود المرابطين لإظهار بطولتهم، وإياضًا لأنفسهم من الفرار لأن ظهورهم تكون مكشوفة وعرضة للسلاح، وقد عرفنا سابقاً مدى ذلسة أهل الأندلس لظهور المرابطين بأسلحتهم الدفاعية الحقيقية.

ويبدو أن هذه الجواشين والزغبة كانت سلاحاً للمشاة والرماة فقد كانوا يتخففون من الحديد لتجنب هذه الشواهد وحرية العمل. وللدروع ملحقات منها:

أ- الحوفة: وهي مصنوعة في الأصل من الجلد ثم صنعت من المعدن بعد ذلك وهي أيضًا من الزرود الذي ينبذ منه الدروع على قدر الرأس وتلبس تحت القنسوة.

---

(1) الحسن بن عبد الله - آثار الأول - ديوان الخليفة العربي ورقية (161).
(2) د. مؤسس، مجلة الدراسات الإسلامية بمصر، مجلد 3، سنة 1955، ص 135.
(3) عبد الرحمن زكي، السلاح في الإسلام، ص 118.
(4) ابن الآبار - الخلاء السيام، ص 209.
(5) السلاح في الإسلام، ص 86، القرن العربي، ص 184.
ويتالى تحت البيضة جزء منه على الوجه للحمايته، وقد يكون المغفر سابعًا من الخلف أيضًا بحيث يغطي القفا(1)، وناب بعض الفرسان يلبسون فوق البيضة العمامة العربية أو القلبسية.

وقد كان المرابطون يعوضون الحروب بالعمائم، وقد وصفهم ابن الخطيب في معركة الزلاقة حيث قال: "وجاء وقت الزوال من اليوم والحرب قائمة وقد اختلطت عمائم المرابطين ببيضات الروم"(2).

ب - البيضة: وهي الخوذة من الحديد أو الفولاذ مبطنة ببعض المواد اللينة كالقطن وغيره، وتلبس لوقاية الرأس، وأعلى الخوذة يسمى "قونس" وتنتهي بزرد بطرقه الجندي على ظهره وهي مدببة من أعلى حتى لا تؤثر فيها ضربات السيف(3).

ج - الأذور والسيان والأكفر: وهي من مكملات الدرع ولهما يكون الفارس قد أخلى بدنه بالحديد. وما كان هذا ليشتهله لأن فرسه كان يحمله عنه، وقد أخذ فرسان المرابطين عن النصارى هذا اللباس الثقيل من الحديد بعدما نزحت جيوشهما إلى شبه جزيرة الأندلس واختطفوا بالأندلسيين واختبأوا بأعدائهم من النصارى.

٢ - النرس: هو صفحة من الفولاذ مستديرة يحملها المقاتل في اليد ويتلقي بها ضربات السيف أو السهام أو الرماح. ولكل سلاح نرس يناسبه، وكانت للنرس أسماء شتى عند العرب منها: الحجيفة والدرقة والمجن وكانت تصنع من الخشب الغطى بالجلد الفاسي، وإن كان صاحب الجاموس قد عرف الحجيفة بأنها نرس من جلد الابل أو البقر ليس فيها خشب ولا سivor من الجلد أو العصب(4)، ولكل يبنو أن هذا الجلد كان مشدولاً على خشب أو نحوه يقويه ويشد قوامه(5)، ثم صارت تصنع من الحديد والفولاذ. وأصبحت للنرس أنواع كثيرة بلبلد، ومجلة صناعته ومن أهمها: النرس الدمشقي والعراقي والغرناطي.

(1) الفن الحربي، ص (184).
(2) تاريخ المغرب العربي، ص (244).
(3) السلاح في الإسلام، ص (23).
(4) الغاموس مادة "نرس"، السلاح في الإسلام، ص (16).
(5) الفن الحربي، ص (186).
وقد أضافت المراجع في الحديث عن درق اللمط التي كانت مشهورة بين حدبة الثورين من فرق الحرس الخاص «العيني» أو «الزهيرة» وغيرها. وهي تصنع في مدينة «النول» مركز الدرج اللمطية، وقد اختصت قبالة لملة بصناعة هذه الثور، وقد ذكر الإدريسية وصفاً لأهمية تلك الدرج اللمطية فقال: «مدينة نول مدينة كبيرة، وعلى بها قبائل، ولزونا ولطها، وهذه المدينة صنع الدرج اللمطية التي لا شيء أشبه منها، ولا أصل منها صغيراً، ولا أحسن منها صناعاً، وبها يقاتل أهل المغرب لخصائصها وخفته محمولةها، وهذه المدينة قوم يصنعون السروج، واللحم والآفات المعقدة لخدمت الإبل».

وتصنع هذه الدرج من حيوان يسمى «اللمط» وهو دابة دون البقر لها قرون دقائق حادة لذكورها وإناثها، وكلما كبر الواحد منها طال قرنها حتى يكون أكثر من أربعة أشوار، وأوجه الدرج وأغلاها ثمناً ما صنع من جلد العوائق منها وهي التي طال قرنها وكثير منها. ومن البديهي أن الحارب لا يستغني عن ترسه فكما أن السيف لا يفقر، فإن الترس لا تفقر يساره عند القتال أو ظهره عند حمله في السلم.

ثانيًا: وسائل دفاع ثابتة

الحصون والأسوار

الكملة عامة:

لقد عرف عن مسلمي الأندلس بصفة عامة براعتهم في بناء القلاع والحصون على قمم الجبال، والالتمال لحماية الواديان والمضايق، وإجادتهم لحروب الحصار، وقد فرض عليهم هذا النوع من الحرب طبيعة البلاد التي عاشوا فيها بجبالها ووديانها ومضايقها، وكذلك عند الإسبان الأصليين الذين لم يتداولوا أبدًا في استعداد وطنهم، وقد لسنوا ذلك في حروب ملوك الطوائف للتصاري الإسبان، الذين كانت أغلب حروبهم دفاعية فقط، إلى أن جاء المرابطون الذين نهجوا مذهب الدفاع

(1) الشريف الإدريس - المغرب وأرض السودان - نزهة المشتاق، ص (59).
(2) البكري - المغرب في دكار بلاد أفريقية والمغرب، ص (171).

180
أيضاً في أغلب حروبهم وخاصةً في أواخر عهدهم اللهم إلا بعض الحالات الهجومية لخضاعهم لمدينة "شتيتين" واستيلائهم عليها، مع ما لاقوه من آلام الحصار ومتاعبه.

وقد عرفنا أيضاً أن المرابطين في أول أمرهم لم تكن لهم دراية بفن الحصار، كيف يتأثى لهم وهم قوم صحراويون لم يكن لهم فن الحصار عهد؟ ومن المحتمل أنهم أتقموا هذا الفن بعد استيلائهم على سلطان ملكوك الطوارق واحتلاهم بالنصارى المحاربين لهم. وقد عبر عن ذلك صاحب الخليل الموشية (ان بوسين بن تاشفين) شرع في بناء الأسوار ورم ما تقوض من الأبراج، وجزف الحفائر حولها وشحنه بالأطعمة والأسلحة ورتب فيها عسكراً نقي من نخبة رجاله وأسكتهم بها(1).

وقد اضطر عاهل المرابطين الأول إلى تعليم هذا النظام في العدوان المغربي والأندلسي رابياً من وراء هذا أن يقر السكنية في ربوع البلاد، وبضرب بيد من حديد على من تسول له نفسه من القبائل الخروج على حكمه وطاعته ويراقب منها القبائل المتمردة عليه.

وقد أقام "بوسين بن تاشفين" وأمراء المرابطين من بعدها عددًا من القلاع والحصون، كانت مشبحة في كل أرجاء المغرب الأقصى وخصوصاً حول المنطقة الجبلية في الجنوب والشمال وفي المغرب الأوسط وفي أطراف الصحراء حتى إن البذق عاد منها ما يقرب من عشرين حصناً كما سنعرف بعد.

إذن يمكننا أن نقول إن "بوسين بن تاشفين" هو أول من وضع أسس هذا النظام الفني في خطط الدفاع المرابطية. ثم ازداد هذا النظام كثرةً وانفتاحاً في عهد ابن "علي" فقد روى المؤرخون أن استعان بعض الأندلسيين في إقامة سلسلة من القلاع الخصبة خوفًا من خطر الموحدين، لأنه أدرك أن تلك الحصون التي ابشارها أبوه غير كافية، ففي سنة 516 هـ، أمر "علي بن يوسف" رجلًا من أهل الأندلس يعرف بالفلاكية وأ الأب من قطاع الطريق وقد تاب، فعفى عهده وقدمه على السكر.

(1) الخليل الموشية، ص (٠٦٧٧، ٢٨).
وطلب منه أن يحصني يغور مراكش، وأول ما صنع له كانت حصون ضبط بها غارات جبل درن الذي وقع بسببها الخوف من نزول الموجدين إلى الباستو، وثلك منهم من الهبوط إليها، ثم اشترك الفلاك في مع بعض قواد المرابطين الآخرين مثل ميمون بن ياسين في بناء سلسلة من الحصون لحماية المناطق المحيطة بمدينة مراكش من ناحية السهول الجنوبية، وحتى تستخد قواعد تنفذ منها القوات المرابطة إلى السوس حيث كان يحتوي ابن تومرت.

ثم شرع «علي بن يوسف» في بناء الأسوار حول المدن، ومن هذه الأسوار سور مدينة مراكش سنة 520 هـ، والذي أنفق فيه سبعين ألف دينار من الذهب عندما لاحظ نذور «المهدي ابن تومرت».

وكان هذا العام عام التحصينات والمتشائات الدفاعية سواء أكان في المغرب أو الأندلس حيث أرسل «علي بن يوسف» كتابه إلى الأندلس بوجوب إنشاء الأسوار في مدنها الكبرى فتم تعبيب غرناطة وقروطبة، وفرضت ضريبة تسمى «المعبت»، وهي إتاحة الدار على سائر أهل الأندلس.

من هذا يتضح أن المرابطين أبداء من أواخر «علي بن يوسف» قد التزموا بخطط الدفاع نظرا لظروفهم التي يمرون بها، لذا أثروا من تشييد القلاع والحصون وبناء الأسوار إلا أننا نلاحظ وفقا لخططهم الدفاعية هذه أنهما كانوا يجدون الامتناع بالقلاع ويجدون تحصينات ويرهقون المحاصرين لهم.

وإذا ما قارنا مهاراتهم في الامتناع بالحصون والدفاع عنها بمقدرتهم في الهجوم والحصار لاتضح لنا أنهم لم يكونوا على حظ كبير من الحصار والهجوم وقد يرجع السبب في ذلك أن دعامة قوتهما كانت تركز إلى الفرسان أكثر من المشاة وهم أقل براعة في فن الحصار.

أما فيما يتعلق بالموحدين فإنهم كانوا يمتازون بمهاراتهم في فن الحصار وتقويهم على المرابطين في هذا المضمار، وكانت أمن الأسوار والتحصينات تتحطم تحت

______________________________
(1) نظم الجمان. مكي، ص (85، 86، 87) - الخليل الموشية، ص (83).
(2) الخليل الموشية، ص (71).
(3) عمان - عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (115).
ضرربات آنهم المدمرة، وقد اتضح ذلك في حصارهم لوهران والمهدية بأفريقية وطرش ومحصنة القصر، وشلبا والبرتغال، وهذا ما ستناوله في الحديث عن الخصون فيما بعد.

أما من حيث وسائل الدفاع الثابتة التي كانت متبعثة في جيوش المرابطين والموحدين فهي:

1- حفر الخندق:

الخندق من أهم وسائل الدفاع القديمة والحديثة، فقد كانت الجيوش تقوم بحفره حول مدنهم وحصونهم للدفاع عنها من الخلف، وتكون مانعة لهم من الفرار والمفاجأة من جانب العدو، وكثر ما نصيح القواد بالالتزام بخنق الخندق خوفاً من مداهمة الأعداء لهم، فنصيرا إذا نزلوا ليلا في موقع خندقوا حول عسكريهم تأركين للمور، ما بين بابين أو أربعة أبواب متحصينين بالجسور والخندق المائي.

وقد حرصت القيادة المرابطة على إقامة الخندق في معظم حروبهم وتحركاتها فإذا انحاوا بحالة خندقوا عليها خشية المفاجأة لهم بالليل، وإن وجدوا عدوهم خندق على جيشه، ضربوا خندقوا حول خندق له شعوره بدوام الخوارق فيباس من فكه وبياد بالتسليم، وقد أشار إلى ذلك "أبو بكر الصيرفي" شاعر لمونة وأهل الأندلس في قصيدته التي مدح بها ناشفين بن علي والتي أمده فيها بعدة وصايا وتخديرات في سياسة الحروب فقال:

"يا تاشفين أقوم جيشك عذره بالليل والقـدر الذي لا يدفع

كانت ملوك الفرس قبلك تولع

أهديك من أدب السياسة ما به إلى أن يقول:

خندق عليك إذا ضربت محلة

سيا تنبيع ظافرا أو تنبع

ومبروك الزمن أصبح حفر الخندق ضرورة لازمة يحفرونها حول المعسكرات الدائمة وحول المدن والثغور ذات المرتكز الإستراتيجية الهامة. ثم أدخلت على

(1) ابن خلدون - المقدمة، ص (80).
الخنادق كثير من التحسينات فصاروا يبنون عليها الجدر عالية ويدفنون حول المدينة أكثر من خندق، ويبنون على كل خندق سورًا، وفي حالة الخوف يحفرون حول الخندق خسائر تغطي بالقصب والقضبان والتراب لتكون شراكة لقوات الأعداء(1).

أما عن طريق اقتحام الخنادق فإن حيلها كثيرة وكانت شائعة في أنظمة الحصار في معظم جيوش العالم الإسلامي شرقه وغربه، ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى كتاب "آثار الأول" للحسن بن عبد الله.

2- الحسك الشائك:

الحسك في اللغة العربية هو نبات تعلق ثمرةه بصوف الغنم، وورقه يشبه ورق الرجلة، والحسك من أدوات الحرب الدفاعية يتألف من قطع حديد ذات شعب تطرح حول المعسكرات أو أمام الخيل لعرقلتها، وكان لحسك الحديد شأن خطر في الحروب القديمة، ففي التاريخ شواهد مختلفة تذكر أن كثيرًا من الجيوش قد نجت من خطر التوقيع أو استيلاء العدو عليها. وقد استعمله الإغريق والفرس والعرب والروم(2).

وقد ثبت عن العرب إجادتهم هذا النوع من وسائل الدفاع، وكان له صناع يقومون بصنايعه وتحمل على الدواب ثم تلقى في الطرق والأماكن التي يتوقع قدوهم العدو منها، وقد أبى لنا "نعمان ثابت" حالات استخدام الحسك في الجيوش في حالات ثلاث هي:

الأولى: إذا نزلت الجيوش أرض العدو يحفرون حول عسكرهم خندقًا ثم يثرون الحسك الشائك حوله، تاركين مرمورًا متاعبًا عليها بين الجنود على غرار ما تفعله الجيوش المعاصرة من زرع القنابل ويث حقول الألغام حول المعسكرات.

الثانية: وقد يستخدم في حصار الأعداء وضيق الطرق عليه، وذلك عندما يريد الجنرال المأمون إخراج الجنود المحاصرين من قلاعهم فيناءوهم وينظرون

(1) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص (215).
(2) السلاح في الإسلام، ص (224)، وانظر ميخائيل عوا - مجلة المجتمع العلمي العراقي، ج (1)، ج (2) من المجلد العشرين عام 1945م - استعمال الحسك في الحروب القديمة.
القرار، فإذا خرجوا من حصونهم وراء المهاجمين ضيقوا عليهم المسالك وأجبروهن
أن يعودوا من طريق قد رعوها بالحُسْن ميرتيكون، فقُتِّنَت منهم سيفهم، ولهذا
يكون الحُسْن سلاحًا معاونًا لأسلحة الجيش.

الثالثة: وقد بلجأ القائد إلى زرع الحُسْن الشائك خلف جنوده ليُجبرهم على
الثبات أمام العرور وعدم الفرار.

3- القلاع والحصون والأسوار:

كان المراقبون في أول عهدهم قُومًا صحراويين يتخفون حصونهم من قطعان
الإبل الضخمة التي كانوا يسوقونها معهم في الخروج، يتحصنون بها وتكون
سياجًا يبحث بعسكرهم إذا أتاروا في مكان ما.

وبدعما تدفعت جيوش المراقبين من الصحراء صوب المغرب وتم لهم السيادة
عليه كان من الضروري بناء عدة قلاع وحصون تخف بمشاريع القبائل التي تم
إخضاعها وذال ذلك لراقبتهم ودع كل حركة تقوم بها هؤلاء القبائل من التمرد
والعصيان أو الثورة على المراقبين.

ومن القلاع والحصون التي اتبناها المراقبون في مستهل عهدهم إبان صراعهم
مع قبائل المغرب: "تليللا" بالقرب من سجلماسة، دار الحجر بمراكش(1) "تِاكُرْت" 
بالقرب من تلمسان في المغرب الأوسط خروسة قبائل الزناتيين والدفاع عن الحدود
الشرقية للدولة، ولم يكن للمراقبون حصون تاكركت على تلك الحدود بل ابتعدوا
على ساحل تلمسان عدة حصون أخرى منها: حصون تاكرمت، وحصن مرسة،
وحصن تاونت، وحصن أبو جون، وحصن كاريوا(2).

ثم أتبت المراقبون سلسلة من الحصون والقلاع لإحكام التدابير الدفاعية حول
مراكش وجبال درن وغيرها، ومن القلاع التي أقامها المراقبون لرد هجوم
المواطنين: بني تاودا - أمجد - تاسيموت.

(1) الجندي في الدولة العباسية، ص (114).
(2) الخليل الموشية، ص (16).
(3) البكري المغرب، ص (180).
وقلعة بنى تاردا: من القلاع المرابطية الأصلية التي بنيت خصيصًا لمراعاة سكان الجبال في منطقة الريف. وهي تقع على الطريق الموصل إلى جبال غمارة في واد فسيح مليء بالخيرات.

أما قلعة أمجر، فهي جنوب قلعة تاردا تقع على مرتفع من الأرض يشرف على وادي ورقة المفتوح من وادي سو، وقد بناها المرابطون لمراعاة سكان منطقة الريف أيضاً ل,',كترة ثوراتهم وتمردهم. وقد أشار إلى هذا الخصائص مصاحب الاستيماصر فهو مبني بالحجارة والجبر ولا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة.

وهذه القلعة من أروع أمثلة العمارة الحربية في المغرب في عصر المرابطين وقد تم بناؤها في عهد يوسيف بن تاشفين، ونلاحظ في بناء هذه القلعة تداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الأندلسية التي تذقلت إلى المغرب في عصر يوسيف، والتأثيرات الإسلامية المسيحية التي عملها النصارى المرتزقة في الجيش المرابطي.

وتتضح النواحي المسيحية في الأبراج المستديرة الشكل وفي السور الأمامية والقلعة على شكل ممتد الأضلاع، وقد انتهى المرابطون على سورها الخارجي اثنين عشر برجاً نصف دائرة لتدعمه وتقويه موزعة في زوايا السور، ويترقات أسورها ثلاثية أبوب، وفي داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل ترتكز في أركانها أبراج نصف دائرة ويتفتح في سورها بابان.

وقلعة تاسسيموم، من القلاع التي أقامها المرابطون لدافعة خطر وعدوان الموحدين، وقد قام بنياؤها "ميمون بن ياسين" بالاشتراك مع رجل من أهل الأندلس يعرف ببالفلاكي، كما قلنا، وتحق هذه القلعة على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرقي مراكش وعلى بعد عشرة كيلومترات شرقية أغماد.

وقد أحسن المرابطون اختيار موقع هذه القلعة فهي على سطح هضبة أطرافها ذات أجزاء وعرة شديدة الانحدار يصعب على الغازين ارتفاؤها ثم أدير على

(1) الاستيماصر ص (190).

Terrase L'art Hispano Moresque P.226
(2) الخلل الموهبة، ص (83)، نظم الجمال، ت مكي، ص (85، 86).

86
حافة الهدية سورة يتبع تعرجاتها، وتتوسط هذه القلعة وادي أغمات أيلان المفترع من وادي تسميتها المعلنة، كما كان الغرض من إنشائها هو حماية عاصمة المرابطين "مرأكش" من غارات الموحدين. وكانت تقيم بهذه القلعة حامية مرابطية من ماتى فارس وخمسمئة من المشاة من قبيلة هزجة (1).

وقد ذكر الدكتور حسن أحمد محمود اسماء ثلاثة وعشرين قلعة شيدت في العصر المرابطي (2) فإذا ما سلمنا بصحة هذه الرواية فتكون قربة من رواية البذوق والتي عددها منها قلعة المرابطين ما يقرب من عشرين حسبًا منشئة في أرجاء البلاد (3).

وقد عرفنا أن كل حصن يرتبط فيه تقريباً مائتان من الفوارس وخمسمئة من الرجلاء، فتكون القوة المرابضة في هذه الخصون والخازنة لقبائل بلاد المغرب أربعة آلاف وسبعمائة فارس، ومن المشاة أحد عشر ألفاً وخمسمئة راجل، وهذه القوة كافية لقمع حركات القبائل المغربية وقهرها. فإذا ما أعطنا هذا العدد إلى عدد الجندي المرابط في الأندلس وقوامه سبعة عشر ألف فارس موزعة على حصون أشباهية وفرطة وغرناطة وشرق الأندلس والغور المتاخمة لأراضي العدو (4) فتكون قوة المرابطين المرابطة في قلاب وحصن الجيش المرابطي كلية تقريباً واحداً وعشرين ألفاً وسبعمائة فارس، بأربعتهم ورؤبهم من ديوان الجنرال.

ومن الدهي أن هذه الخصون كلاً قد آلف ملكها للموحدين، بعضها قد سلم بسهولة، وبعض الآخر تهمن بها المرابطون إلى أن دهمهم الموحدون بآلات حصارهم القاسية.

وأهمهم الموحدين بإنشاء عدد كبير من القلاع والحصون في بلاد المغرب، تأثر أغلبها بالمؤثرات الأندلسية التي غزت كل مجالات الفنون والعمارة إبان ذلك العصر كما حدث في الحقيقة التاريخية للمرابطين من تأثر في هذا المجال.

(1) نظام الحماني، ص (12). (2) Qayam Daulat al-Murabitin، ص (341). (3) أخبار المهدى ابن تومرت، ص (128)، (129). (4) الخلال المونتي، ص (56)، (57).
ومن الخلفاء الموحدين الذين اهتموا بالبناء الحربي ‏(عبد المؤمن بن علي، وأبو يعقوب يوسف، والنصور، والناصر) أما عبد الملك بن على فنسب إليه بناء سور تأكترت في تلمسان سنة 54 هـ (1) ثم أمر بناء حصن جبل الفتتح سنة 555 هـ (2).

وبناء يوسف يعقوب بن عبد الملك قلعة أشبيلية (3) واستحمر لها عرفة أهل الأندلس وعرفة مراكش وفاس سنة 567 هـ. في عهد المنصور أقيم حصن الفرج بأشبيلية، وفي عهد الناصر تم بناء سور مدينة فاس الذي كان قد هدمه جده عبد الملك بن علي في سنة 540 هـ (4).

ثم تم إنشاء مجموعة من حصون داخل عهد الموحدين دفاعًا لحظر الاسترداد الأندلسي، ومن هذه الحصون برج الذهب بأشبيلية، وسورها الأمازيغية المعروفة بالحازم الباري، وقد تم إنشاء ذلك في عهد الخليفة ‏(العلاء إدريس) الموحد (5) وحصن الموحدين كثيرة متشرة في أرجاء الدولة، وما يلفت النظر حقًا أن معظم حصونهم كانت مزودة بتحصينات طبيعية رهيبة وسوف تتخذ حصناً واحدًا كمثال يدل على تلك الحاسة الاستراتيجية في اختيار أماكن المواقع التي تقام عليها الحصون.

حصن المهدي ابن تومرت ببنين:

وهو الحصن الذي نشأ فيه دعوته واتشذ ساعدها، ومنه خرجت جيوشه للحرب والقتال ثم العودة إليه. وقد اهتم مؤرخو المسلمين بوصف معناها ذلك الحصن وقوته مثل الأدريسي، وأبو الخطيب، وأبي الجاسم، وصاحب الحازم الباري وغيرهم. ويوجد هذا الحصن بمدينة ‏(تينمل) بلدة المهدي، وهي مدينة حصينة بما وهبها الله من مناعة طبيعية، فهي تقوم على الضفة اليسرى من وادي نفيس عند مدخل

1. الفراتس، ص (123).
2. المصدر السابق، الخلل الوشيكة، ص (118).
3. المركزي، ص (292).
4. الفراتس، ص (123).
5. السيد عباس مطلق، العمارة الحربية بالأندلس، دائرة معارف شعبعد: (146، 106، 158).
السهل الأعلى الذي يضيق في بعض مواضعه للغاية ومست岳 هذه المدينة من الشمال على جبل ومن الجنوب على الوادي الذي تنتمي في ضفتيه القابلة أجراف متنوعة شديدة الانحدار، أما الجهة الشرقية والعريبة لهذه المدينة فهما طريقان موصلا إليها يتحتم فيهما المحدود أعظم تحكم في منع الغازين للموصول إلى المدينة، فاوسع طريق فيما يمشى عليه الفارس وحده ثم يضيق جدًا إلى درجة تجعل الفارس ينزل عن فرسه، وقد صنعوا مرحلة من هذا الطريق من الحشب إذا أزيلت عدة حافات منها أغلق الطريق في وجه عابره. ولم يكتف أصحاب المهمة بذلك بل أحاطوها بالأسوار ثم نى على قمة جبلها حصناً يكشف ما وراء الجبل.

ومن مزايا ذلك الحصن، وتلك المدينة أنها تشرف على عدة طرق هامة مؤدية إلى بلاد المغرب فهي تقع في طريق «تالودنت» السوس إلى مدينة أغواة وريكة وبدأ من المحيط في أقصى السوس، ثم يمر مع الشرق حتى يصل إلى جبال نفوسة ثم بجبال طرابلس، وقد روعى في اختيار مكان هذا الحصن أن يكون متوافراً به الشمر والزرع والموارد وأن يساعد على إقامة حياة لساكيه إذا ما حواروا مدة طويلة.

التحصينات والنظم الدفاعية في المدن الأندلسية

لقد تميزت أكثر المدن الأندلسية التي أسسها المسلمون بصفة حربية بحثاً مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق المحيطة بكل مدينة. وأسماء هذه المدن يعبر بجلاء عن هذه الصفات مثل: قلعة جابر، القليعة، قلعة أيوب، قلعة رباح، حصن الفرج، حصن القصر... إلخ.

الأبراج والأسوار الأمامية:

كان النظام المتصن قبل المرابطين أن تدعم الأسوار أبراج تتوزع في السور على مراحل مختلفة، كما كان يجري بهذه الأسوار، أسوار أخرى أمامية، وتختصرها

(1) ينظر في وصف مدينة تيسم ولحصنها تضم الجمان، ص (95)، الخليل الموشي، ص (38)، الإدريسي في لزجة المشتاق، ص (24).
(2) الإدريسي - المغرب وآراء السودان، ص (93).
أبواب تيسم اتصال المدينة بخارجها، كما كانت تقوم قلعة أو قصبة في أشد أجزائها ارتفاعاً تدافع عن المدينة في حالة الهجوم من أعلى، وغالباً ما تستند هذه القلعة إلى جزء من أسوار المدينة ليسهل على حامية القتر في الوقت المناسب.

على أن تسنينات كبيرة أدخلت في النظام المعماري لبناء الأسوار الأندلسية في عهد المرابطين من سنة 1190 - 1145 م نتيجة حتمية للظروف السياسية التي كانت تحيط بهم وقتئذ، وقد وضعوا نصب أعينهم دفع التقدم الذي أحرزه التصاري في عهد ألفونسو السادس عند توسعه في حركة الاسترداد القومي.

إذن ما هي التحسينات التي أدخلها المرابطون في بناء الأسوار بالأندلس؟ لقد ابتكر المرابطون نظامًا جديدًا في تخطيط الأسوار، ذلك أنهم عمدوا إلى الأمكان من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة منكسرة.

وميزة هذا النظام أن يشرك الجند أعدادهم يقرون داخل إحدى الزوايا، ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيتكون بهم فتكاً ذريعًا(1).

ويبدو أن هذا النظام قد حقق أهدافه العسكرية التي صنعت من أجلها، ففي حصار الموحدين لمدينة «مراكش»، أكثر المرابطون من عدد الرماة في المراحل الأولى، واستطاع ابن همشك أن يحكم خططه التي فك بها الحصار وانهزم الموحدين(2). وقد عدد صاحب الخلل الموشية هزيمة الموحدين أمام المرابطين في سانش مراكش وحول أسوارها ما يقرب من أربعين هزيمة(3)، وربما كان السبب في هذه الهزائم راجعًا إلى هذه النظم من الأسوار.

ويشكل السور في أعلاه من درب يسير عليه المحاربون ويسمونه أحياناً ب«ممشى السور» وشرفات يقفون منها سهامهم، ودورات يحترقون خلفها، والدورات كتلة قائمة تنتهي بشكل مخروطي، ويتخلل جسم الدورة فتحات تساعد المحارب على النظر إلى أسفل دون أن تصيبه أسام الأعداء.

(1) السيد محمود عبد العزيز سالم - المساجد والقصور، ص (135).
(2) الخليل الموشية، ص (85).
(3) المصدر السابق، ص (86).
وقد تبقى من أسوار المدن الأندلسية عدد كبير مازال مسليماً في أكثر أجزائه كما هو الحال في أسوار غرناطة والمرية وقرطة وأشبيلية وطليطلة وشريش ومالقة وبلطيوس.

الأبراج:

من الأبراج الشائعة في الأندلس، البرج المضلوم أو كثير الضلوع ويبقى أنه كان تقليراً رومانياً، أخذ المسلمون عنهم، فقد كان البرجان البلذان بباب قرطة بمدينة قرمونة مثمناً شكلهما، وأبراج مدينة فريجوس مسديرة الشكل.

وقد تأثر المرابطون والموحدون بصفة خاصة بالعمارة البيزنطية، فشيدها أبراج مسديرة الشكل كالبرج المضلوم المعنزل في حصن العقاب بالقرب من جيان، والبرج المطل على قطرة القاضي بغرناطة.

وقد استعمل الموحدون البرج المثلث على نحو منتظم في بناء أبراجهم "البرانية" وهذا تعبير أندلسي عن الأبراج المثلثة عن نطاق السور وما لبث أن شاع هذا النوع في المدن التي تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى مثل مدينة القصور وبطليوس.

كما استخدموا أبراجًا مؤلفة من ثمان عشر ضلعًا كما هو الحال في برج "سبانتا بروس" ببطليوس وبرج الذهب بأشبيلية، وفي مدينة ليلة برج كثير الأضلاع يعرف ببرج الذهب، وقد شاعت الأبراج المثلثة في الأندلس كما تشاهدها اليوم في مدينة شريش وش锫رة.

البرج البراني:

وهو تصمييم إسلامي من ابتكرات الموحدين قصد به تدعيم المساكن لأنه يقع عادة خارج المساكن، ويربطها بها ستارة أخرى تسمى "فورة" في المصطلح العربي.

(1) الماجد والقصور، ص (136).
(2) المصدر السابق، ص (138-140).
(3) بناة موقع هذا الخصى في معركة الأرك الموحدة في الباب الخامس.
(4) الماجد والقصور، ص (137).
(5) الماجد والقصور، ص (138-140).
والقرحة تطلق على أسوار متفرعة من الأسوار الأساسية وتنتهي بإبراج بانية لتغلق الطريق أمام المهاجمين، وتلك الإبراج تقع عادة في أضعاف أجزاء السور.

ويبدو أن الموحدين قد لجأوا إلى هذا النوع من الأبراج لتفادي خطر المسيحيين على المدن الأندلессية، ومن أمثلة هذا النوع من الأبراج، إبراج قصة بطليوس وحصن القصر اللذان يرجحان إلى عصر الموحدين.

وقد تتخذ هذه الأبراج شكل المربع أو الشكل المكعب كما هو الحال في أبراج قصة الموحدين بطليوس وأسوار مدينة استجة وقلعة جابر (1).

ولكن البرج البراني المثمن يمتاز عن البرج البراني المربع بأنه أكثر مناعة وأكثر حصانة إذ أن جوانبه ضعف جوانب البرج المربع حيث يمكن المدافعين من التحرك في كافة الإتجاهات والزوايا.

وإن كان البرج المستدير أفضل من هذه النوعين، على الرغم من أن الموحدين لم يستعملوا البرج المستدير، وذلك راجع إلى سهولة بناء الأبراج المربعة والمثمنة بالملاط والاحجار عن بناء الأبراج المستديرة.

وقد شاع بناء هذه الأبراج الأخيرة في شمال أفريقية في قلعة آمرجو والربطة وهما من عصر المرابطين (2).

ومن أمثلة الأبراج البرانية بأشبيلية برج الذهب، وبرج الشرفة، وبرج «اسبانا بروس» بطليوس، ويربط برج الذهب، بسجارة أساسية عن طريق قرجة لم يبق منها اليوم أي أثر، وأصبح البرج منعزلًا عن حافة بهو الوادي الكبير (3).

السور الأمامية «الحزم البراني»:

هذا النظام مقنن من الأنظمة البيزنطية، فقد دفعت الحروب المستمرة بين المسلمين والنصارى إلى عنايتهم بالحماية الحربية ليحموا محاصنتهم الدفاعية فكانت مدنهم محصنة تحصيناً محكماً، وكنت أسوار هذه المدن تتألف من ستارة

---

(1) المساجد والقصور، ص (140).
(2) المصدر السابق، ص (141).
(3) المصدر السابق نفسه، ص (142).

192
أسمانية تدور حول الحصن أو المدينة ثم سور أمامى آخر أقل من السور الأساسي،
ويحيط هذا السور الأمامي بالأبراج ويدور حوله حجر أو خندق.
وقد نال هذا النظام المعماري إعجاب المسلمين بالأندلس فأقبلوا عليه وقد بدأ
العمل به منذ زمن المراقبين بشمالية أفريقيا كما هو الأمر في قلعة "آمرجو" (1).
وبدو أن الموحدين قد شرعوا بأهمية السور الأمامي الذي اقتصوه من النصارى إذ
أن السور الأمامي يمنع العدو والمهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسوار
الأساسية الرئيسية ويقلل من تقدمه بفتح الثغرات التي يمكنه أن ينفذ منهما داخل
المدينة.
وأما بثث اهتمام الموحدين بهذا النظام والعمل به، ماقام به الخليفة "أبو يعقوب
يوسف" من تحصين قلعة جابر التي تعد بمثابة المركز الأمامي الدفاعي لمدينة إشبيلية
بوع من هذه الأسوار.
كما أنه شيد الأسوار الأمامية لقصبة بطليوس النيعمة، ويغلب على الظن أن
الموحدين أقاموا الأسوار الأمامية في جيان وشريش والجزيرة الخضراء ووسطة
لوشة مالقة.
أما سور إشبيلية الأمامي فقد شيده الخليفة "أبو العلا إدريس المأمون" ابن أبي
يعقوب يوسف سنة ۶۱۸هـ- ۱۲۲۱م، وحفر حوله خندقًا، وقد ثبت من هذا
السور الإشبيلي أجزاء هامة منه (2).
الأبواب ذات المرافق:
من الطبيعي أن يتخلى الأسوار أبواب تصل داخل المدينة بخارجها، وكان النظام
المتبع في هذه الأبواب هو النظام البيزنطي وهو عبارة عن عقودين متقاربين،
أحدهما يفتح إلى الداخل والآخر يفتح إلى الخارج، وقد اشتدعربوابنواعًا
آخر من هذه الأبواب ذات المرافق، وتعني بذلك أن الممر الواسع بين فتحي الباب
ينحنى نزويًا قائمة في شكل المرفق. وتشتهر هذه الأبواب بوضع عقبات وراء انحناء
(1) (2) المساجد والقصور، ص (142).
الممر امام المهاجمين. يتلك الانحنات ومن هذه الأبواب ذات المرافق بابان
يوجدان بمدينة غرناطة ويرفعان إلى عصر المرابطين (1).
أما المروان فقد عقدوا من هذا النظم إذ انشؤوا أبابا مارفها مزدوجة وأخرى
ذات ثلاثة مراقب ولم يبقوا هذه الممرات حتى تاح الفرصة للرتج بالإشراف من
على هما المهاجمين، وقفهم بالنبال والقبائل الإعريقية ويمضون عليها صباً
ومن هذه الأبواب أيضا بابان بطرليوس.
أما الأبواب ذات المرافق الثلاثة فتوجد براكش، مثل أباب قصبة الأوردية
برباط (2) وهي من بناة يوسف بن ناشين، وقد انتخبوه عبد المؤمن بن علي دارًا له
فأدار أسوارها وبنى مسجدها ومدرستها وأجري إليها الماء من نحو عشرين ميلاً (3).
وفسوف نأخذ مثالًا لهذه الأبواب ذات المرافق المعقدة من بناء المروان وهو ذو
قيمة دفاعية كبيرة هو باب الرواح بمدينة رباط الغرناطة وكاملها المنصورة. وهذا الباب من منطق حجري
بوساحي الإغريق أو أمكنها المنصورة. هذا الباب من منطق حجري
تعرفب مكة بميتة وهو من قطع حجري
فوبيسه وفيه نافذة دفاعية شديدة الإتقان حيث بني له برجان
مربان يحمياه مدخله ومرات داخله إلى المدينة على أن يمضى في مركذة مرفقاً
وعندما يحترس السائر هذا المدخل يصل إلى الساحة الأولى وهي دهليز مربع الشكل
تعلوه قبة مضلعة قائمة على حروف مسبقة بكتفوف قيوت ممتعارضة، ويتصل بهذا
الدهليز المربع الثاني مربع الشكل أيضا يعلوه قبة مسطحة كروية، ويؤدي هذا الدهليز
بدوره عن طريق ممر إلى دهليز الثالث، مكشوف من أعلى ينزع عنه المهاجمون
لقتائف المدافعين وأعلى سطح الباب، ويتصل هذا الدهليز الثالث بهدليز رابع
تعلوه قبة مسطحة كروية ينفي منها الدخلي إلى المدينة، وكان من الطبيعى أن ينعيين
لإقامة هذه الأبواب ذات المرافق المزدوجة زيادة سمك البئان (4).

(1) المساجد والقصور، ص (143).
(2) المصدر السابق، ص (141).
(3) مظهر المقرارة الغرناطية - عبد العزى بن عبد الله، ص (28).
(4) السيد عبد الكريم حاج - وسائل الدفاع الإسلامى في العصور الوسطى، مجلة الجيش، عدد (82)،
1958 م، والمساجد والقصور، ص (43).
4- نظام التغور والرباطات:

من التنافير الدفاعية الدائمة إقامة التغور والرباطات، وهي المواقع الحصينة أو القلاع التي تقع على حدود الدولة الإسلامية وذلك إما لدفع العدو وصد غاراته أو لانتخاذها قاعدة للانطلاق لحماية العدو وفتح بلاده.

والثانية أن يقيم الجنرال الرسميون في التغور، وقد كان سكان التغور يشكلون خط "المعاقر الأمامية" للدولة فيتناوبون مراقبة العدو والتصدي له.

أما الرباطات فهي الأماكن التي يرابط فيها المسلمون جهادًا في سبيل الله بدون أجر أو نفع مادي كرباط عبد الله بن ياسين.

وكانت الغرور الأندلسي يجري على سن التغور في كل عصر، وقد حرست الدولة الإسلامية على اتخاذ مدن محصنة ثقافية عند الحدود، وكانت الدولة هي التي تبنى هذه التغور على نفقته وتبني بها منازل للجنود ويكون البناء في المدن

الثانية عملية مستمرة للحراسة الفعالة خوفاً من غارة أو بريات من العدو.

ومن نتائج العمارة الثقافية الحربية رباط "المنستير" القائم إلى الآن في تونس قرب المدية وهو من بناء قائد عباسي جاء إلى أفريقيا في مهمة عابرة وهو "هشمة ابن أعين"(1)، أحد قواد الخليفة الأمون، وهو نفسه الذي بني رباط "طرسوس" في شمال الشام وجنوب شرقي آسيا الصغرى. فهؤلاء أمام المراكز ومن بعدهم الموحدون جنوب غرباً؟ كان من البدوى أن يخلقوا لأنفسهم هذه الجبهة، وخاصة أن دولتهم قامت على أسس راسخة من العقيدة زكتها روح الجهاد التي أشرعلها في نفسها وهم بعثت رفاقهم الروحي "ابن ياسين" مؤسس الرบาย فكيف يكونون هم المراكز.

ولم يكن لهم جبهة ثقافية؟

إذن من الضروري أن يخلقوا لأنفسهم هذه الجبهة، ذلك يلزموا باحترام الرأي العام وتكتمل شخصيتهم الإسلامية ويرتفعوا إلى مستوى الثقافة الإسلامية.

وقد تعمدات دولة الممالك هذا العبء منذ قيامها وكانت جهتهم الأولى في الجنوب حيث كان قيادتها الأمير "أبكر عمر الصليبي" منذ أن ترك الشمال لابن

(1) البقري، المغرب، ص (310).
عَمَّه يوَسُف، فَقَد رَحَل إلى الصحراءِ حيث تنْقَح حدودِ الإسلام السَّوْدَانِيَةِ عند البَيْرَجِ فكَان يَنْشِر الإِسْلَام وَيَحْبِه لأَهَالِي الصحراءِ الذين انْحَرَفُت عقائِدَهُم، وَقَد لَعَبَت قُوَافِل التجارَةِ دُورًا هَامًا في نَشِر الإسلام في تلك البقاع.

وَبَعْدًا اكْتَحَلَت يوَسُف سَيَادَتهُ عَلَى المَغْرِبِ كَان لَابِد لَهِ مِن جَهَةٍ أُخَرِ في الشمال لِمِعَاهَج أَعَدَاءهُ النَّصَارَايِ. فَكَانَ أَمَامه جِهَانَةً: إِما جِهَةٌ صَقلَيْةٌ وإِما جِهَةَ الأَنْدَلْس. وَمِن الطَّبيعِ أن تكون جَهَةَ الأَنْدَلْسِ هي أَقْرَبِ الجَهَاثِينِ إِلَى يَلِيَّة جِهَةَ التقليَّة، وَالتي اجْتَزِهَا إِلَى قَبَلِ الزَّنَاطِينِ والأَدَارِيَّة.

وَقَد فَرَضَت الظروفُ عَلَى المرابطينِ هَذَا الْعَتِيق، فَقَد ضُغِطَت النَّصَارَايُ عَلَى تَغْفُر الأَنْدَلْسِ فَكَانَ لَزَامًا عَلَيْهِمْ أَن يَخْفُوُوا لِنَجْدَةٍ إِخْوَنِهِمْ في الذين الذين استَصْرَخُوهُم لِتَجْدِيدهُم.

وَقَد صَادَف هَذَا الْعَتِيق هُوَيِّ أَن يوَسُف بن تاَشَفِين إذ تَاَقَت نَفْسُه للعَبُور إِلَى شَبِه الجَزِيرَة فَخَذَ في إِنشَاء المَراَكِبِ والسُّفَن لِيَعُرَب بِهَا. ثُمَّ أَمَر بِعَبُور جَيْشِه إِلَى سِبِيْه وَنُزُوله إِلَى الجَزِيرَةِ الخَضْرَاء حَسَب نَصِيبَةٍ كَاتِبَهِ عَبَدِ اللَّه بن آَمِسِ.

وَعَنْدَما شَعَرَ ابن تاَشَفِين بِبَرْحَوَة ابن عيَّاد في تَسْلِيم الجَزِيرَة أَرَسَل جَنَّةِ بِقِيَادة ابن عَائِشة وأَمَر بِبَحْتِلَال الجَزِيرَة عَنْوَة، فَلَتَقْبَلَ الْبَرْحَوَة بِالْأَخْلَصِ يَعْقُب بن الحَمد وَقَالَ لَهُ: "وَعَدُّونَا بالجَزِيرَة وَنَحْنَ نَأْتِي لَأَذْهَبَنَ بَلَدَة وَلَا ضَرَّ بِسُلْطَانِ إِنَّهَا أَنْتَيَا لِلْجَهَاثِ إِلَّا أَن تَخْلَصُوا مِن هَنَا إِلَى وَقَتِ الظَّهْرِ مِن بَيْنِي إِلَّا فَلَا أَلَيْكَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ فَاَصْنَعَ". ١١)

لَذَا يَمْكِن لَنَا أن نَقْلِب إنَّ الْمَراَبِطِينَ حَتَّى وَلَو لَم يَسْتَصْرَخُهُم مَلْوُك الطَّوَائِف لَكَانَا مَجْهِينَ حَتَّى بَحْكَم مَهْدِيِّهِمْ الْدِّينِي وَبَحْكَم مَهْدِيِّهِمْ السِّيَاسِيَّ لِتَخْدِجُ جِهَةِ ثَغْرَة لِلْجَهَاثِ بالانْدَلْس.

وَبَعْدَ نُصَرِ الزَّلاِقَة رَجَع يوَسُف وَتَرَك بالانْدَلْس قَوْة مَكْونَةُ مِن ثَلَاثةَ آلَاف مَقَاتِل أَقَامَوا فِي الشَّعْوَرِ وَتَنْزِمُوا بِأَعْمَالِالجَهَاثِ، وَقَد أسْتَدْرَجَ قِيَادَة هذِهِ القَوْة إِلَى قَائدٍ مَراَبِطٍ هو "سِيْرَ بْن أبي بَكْر" كَمَا قَلَّنا سَابِقًا، وَقَد أَنْزَمَت هذِهِ القَوْة بِأَعْمَال

١١) الامام عبد الله بن بلكين - كتاب النبيان، ص (٣٧٠).
الماغرة بدلاً تلك الرسالة التي وجهها سير بن أبي بكر إلى الأمير يوسف يشكو من تصرف ملوك الطوائف. فقالوا: "إن الجيشه بالغور مقيمة على مكابدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أفيض عيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم واهلهم في أرغم عيش وأطيبه".

ظروف الجبهة بالأندلس:

كانت بلاد الأندلس مقسمة إلى قسمين هما:

1- القسم الشمالي: تقسم فيه ممالك مسيحيتين ثلاث هي مملكة قطليونية، وملكة أرجون، وملكة قشتالة.

2- القسم الجنوبي: وهو الأندلس الإسلامية والحدود الفاصلة بينهما تتبنا مجرى نهر النجع من مصبه إلى منبعه، ولا تكاد تتعدد عنه ثم تتجه إلى الحدود من بعد المبتع نحو الشمال إلى مستوى سرقتة ثم تجري الحدود من شمالي سرقتة بقليو نحو الشرق مع تقويص يسير حتى تصل إلى البحر المتوسط عند مدينة طركونية.

وقد قسم المسلمون خط الحدود الطويل هذا إلى أقسام هي:

أ- القسم الشرقي: يعرف باسم الثغر الأعلى لأن الجبهة هنا ترتفع عن خط النجع وهو غرب الشمال، من قبل إلى كانته إلى سرقتة ثم تشتت على جهة أفقية غربية شرقية، ثم تعودها سرقتة وإفراغها وواحدة.

ب- القسم الأوسط: ويسمى الثغر الأوسط، وأهم تغيره من الشرق إلى الغرب أفيش وقلعة رياح وماردبة وطليوس.

ج- القسم الجنوبي: وهو الثغر الجنوبي، وليس ثغور شترين. والعادة في الثغور أن تكون ثابتة لا تكاد تتعادل إلا لظروف استراتيجية ملحة وبنسبة ضئيلة، وهذا التحالف هو هدف الثغور، لأنها إذا تقام بعد نهاية كل فتح لم تصمد له التوسع فيه، فقد كان المسلمون كلما حققوا فتحًا أخذوا له ثغورًا أمامية تحبط فيها جنود

(1) المقرئ - نفح الطيب، ص (534).
(2) المراورون، تاريخهم السياسي، ص (4) (111)، د/ عبدالله علام - الدولة الموحدة بالغرب في عهد عادلأمون بن علي، ص (144) وما بعدها.

197
مناغرون، يناغرون فيها بصورة مستمرة، ومن وروانهم بلد يشارك جنده في حماية
الثورة على شكل غزو يسمى "صائفة أو شاينة"، فإذا تجاوز النزاع الغفور ودخل
أرض العدو فتكون ذلك سبعًا وراء هدف محدد دون قصد توسع كنثر الإسلام أو
الدعوة إلى مذهب معين. ومن أمثلة ثبات النزاع تلك الثورة الفاصلة بين أرض
طبرستان وأرض الجيل والديلم عند بحر قوزين ل، فإن هذه الحدوت ظلت ثابتة ثابتاً
مطلقًا، إلى أن دخلها بعض العلوين لاجئين فنشروا فيها الإسلام والمذهب العلوي
الزيدية فكان ذلك مقدماً للدخول الجيل والديلم أرض الإسلام ولقيام دولة بنى بويه
إذن وظيفة الثورة وظيفة دفاعية أساسها الدفاع لا التنوع، ويشمل الدفاع منع
أي تشكيل عدائي قرب الحدود أو أي تحصن يمكن أن يكون ملحاً يصمد فيه العدو
قرب حدود المسلمين، وأي تحصن يمكن أن يتحكم في قلاعهم النزاعية، ويشمل
الدفاع أيضاً إقرار الهيبة في نفس الأعداء حتى لا تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على
حدود المسلمين.

والمهمة التاريخية التي قامت بها الثورة الإسلامية مهمة حضارية هي العمل
على خلق علاقات سلمية ثقافية جارية دينية بين أرض الإسلام وأرض الحرب
وتحويل ما يمكن تحويله من نظام أرض الحرب إلى أرض العهد.

وقد حولت بعض الثورات نتيجة لهجوم الأعداء، فتما أزاحت أسرة مقدونية
ب🌐الحدود الإسلامية ودفعها نحو الجنوب في أيام الدولة الخدشادية.

وكان قد وقعت إزاحة للحدود الإسلامية في الأندلس مما أدى إلى دفعها نحو
الجنوب على أدي أدي ملوك النصارى الإسبان أيام ملوك الطوائف، وكان أبرز ملوك
النصاري الذي تعود حركة الاسترداد هو "الفوينو السادس" صاحب قتاله.

فأول إزاحة كانت كان سقوط قاعدة "طليطلة" التي جاها من أجلها نفوس أهل
الأندلس طويلاً، والتي تمثلت عن قدم المرابطين إلى شبه الجزيرة الأندلسية
نصرة لإخوانهم في الدين. ثم شاء القدر بعد أن استقرت الجيوش المرابطية
بالأندلس أن تقع عرمة الأندلسية مرة أخرى بفقد قاعدة جديدة من قواعدها
العظيمية هي "سر قسطة" قاعدة الثور الأعلى.

(1) المرابطون، تاريخهم السياسي، ص (144 - 111) د/ عبد الله علام - الدولة المحادية بالمغرب في عهد
عبد الروؤف بن علي، ص (144 - 144) وما بعدها. 198
وقد داب المرابطون على ترك الشغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلس، لكونهم أخيرًا بأحواضهم وأدرى بلقاء العدو وشن غاراته، ولم يكنوا أحدًا من ولايتهم سواهم مع الإحسان إليهم (1).

وقد اهتم المرابطون بهذه الشغور وأمدوها بالخيل إمدادًا دائمًا فكانوا كلما وصلتهم خيل من العدو يعثوا بها إلى أهل الثغور (2).

سقوط سرقة قاعدة الثغر الأعلى:

ومن تنمية الحديث عن الثغور أن نرجع في حديثنا عن تلك السقطة العسكرية التي مكث بها الجيوش المرابطية، ألا وهي سقوط «سرقة قاعدة» في أيدي النصارى، وسوف نتناولها البحث من الناحية العسكرية فقط.

فقد كانت سرقسطة مقراً لزعامة الأسر العربية ممثلة في بنى هاشم التجيبيين ثم في خلفائهم من بنى هود، حتى قدم المرابطون، فكانت سرقسطة آخر القواعد التي سقطت في أيديهم.

وكانت سرقسطة تحتل موقعًا استراتيجيًا وقائيًا، مهمًا ولعب عاهل المرابطين الأول يوسف بن تاشفين قد ادرك أهمية ذلك الموقع فعمل جاهدًا على أن يحسن استغلاله استراتيجيًا. فقد أوصى ابنه عليًا عند بيعته بأمر الخلافة من بعده بثلاثة أمر منها: أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى وأن ينشئ جيشاً مرابطياً ثامناً قوامه سبعة عشر ألفًا من الفرسان توزع على ممالك وثغور الأندلس، وأن يعهد إلى الأندلسين ببحارسة الحدود النصرانية فهم أكثر خبرة بحوال النصارى وكثر دربهم على قتالهم من المرابطين (3).

ومن هذا يتبين لنا موقع سرقسطة الاستراتيجي والقومي الذي شعر به مبكراً هذا القائد المرابطي، فمن الناحية الاستراتيجية كان موقع سرقسطة بعيدًا عن وسط الأندلس ومركز الحكومة الرئيسية كما أن موقع سرقسطة الحصن على الضفة الساحلية لنهر لبرا ومناعة أسوارها العالية قد تساعده الخارجي على تحديد الحكومة المركزية.

(1) الخليل الورشة، ص 110.
(2) الخليل الورشة، ص 95.
(3) الخليل الورشة، ص 96.
بقرطبة في وسط الأندلس، وكانت من ناحية أخرى حاجزًا طبيعيًا بين أراضي المسلمين وآراضي النصارى.

أما من الناحية القيومية فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية التي تحيط بها إمارة برشلونة من الشرق، وملكية آراجون وناوار (بئدة) من الشمال، ومملكة قشتالة من الغرب، فإن هذا الموقع يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى سياسة خاصة يغلب عليها طابع السلم والهادنة والملق، والخضوع أحيانًا في صورة أداء للجزية، وبإضافة إلى ذلك كان ملوك سرقسطة يستخدمون في جيوشهم كثيرًا من النصارى المرتدة بل كانوا أحيانًا يعتمدون على التحالف مع ملوك النصارى.

وقد شعر المرابطون منذ أن حلوا بالجزيرة بهذا المركز الحساس الذي تحتله سرقسطة في قلب هذا المعترك من الأساطير النصرانية المتميزة عليها، فجاءت وصية أمير المسلمين يوسف فابا على بأن تكون سرقسطة حاجزًا بين المرابطين والنصارى، وتقدم لنا الرواية العربية تناصيل مختلفة عن حوادث حصار النصارى لهذه المدينة لسنادي في حاجة إليها إلا بالقدر الذي يوضح مدى خلل طرق التموين ومراكزها، ومدى تقصير الإمدادات اللازمة لجيش المرابطين. والمتصور لأحداث تلك القاعدة الثقافية الهامة سيتأكد من ذلك التقصير الذي كان سببًا من الأسباب التي أدت إلى سقوطها.

وقد شجع سقوط سرقسطة "الفونسو المحارب" أن يتبع ظفته فتح ما بقي من قواعد النغام والأعمال ومعاقله، فاستولى على طرستونة، وبرجة، ثم فتح حصين آراجون ومانل، ومجيرون، وأبليا(1) وغيرها. ولعل تهاوي وسقوط تلك الحصون يبرز مدى الخسارة الكبيرة لسقوط سرقسطة، وهذا بلا شك يعيد كبوة واضحة وذلة كبيرة في جبين تاريخ المرابطين العسكري. وقد يفترض لهم ذلك ما أحرزوه بعد ذلك من انتصارات بعد المزلاة مثل نصر "أكليش" سنة 1056 هـ و"إفراغة" سنة 128 هـ. وبهملا استطاع المرابطون أن يحافظوا على أغلب رقعة الوطن الأندلسي من أن تردي في أيدي الأعداء ولكن إلى حين.

أما الموحدون فقد ورثوا تلك الثغور عن المرابطين بعدما استقر أمرهم في المغرب والأندلس.

---

(1) عبد الله علام- الدولة الموحدة بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص (144) وما بعدها.
وقد اهتم الموحدون بهذا التغور وأمدوها بالجند المرابطة والخيل، وقد بلغ من اهتمام عبد الله بن عبد الرحمن أنه خطط خطط حدود مملكته ومسح جميع أراضيها وحصل من الولاية على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خصائصها وثرواتها وغلالها. وكان يهدف بذلك إلى تقارير الضرائب الواجبية على كل ولاية، ومن جهة أخرى أن يختر من هذه البيانات أساسيًا لتحرير عدد الجند وأنواعه اللازمة لمشداها في تغور مملكته. فكان على السعور في المغرب والأندلس أن تقدم البحراء والسفن وعلى المناطق الصحراوية الغنية بالخيل أن تقدم الفرسان والخيل ودواب الحمل، وعلى الولايات الأخرى أن تقدم الجند من المشاة والسلاح من كل دبب لكل بنينة سكانها، فمروا في تقدم ٤٠ بحار وثغراً ١٥، وكل من طنجة وسبه ومرسى عريف ووهران، ومرسى حينين ١٠٠ بحار وتقدم الأندلس ٨٠ بحار، وتحتدع معظم هذه القوى في تغور مملكة الموحدين.

وعلى الرغم من أن الموحدين قد ورووا هذه التغور عن المرابطين وشحذوها بالرجال والسلاح والخيل إلا أنهم لم يحزروا مثلما حزموا أحرز الموابطون عن انتصارات وتوفيقه، فكم عبرت جيوش الموحدين إلى الأندلس مزودة بالعدة والعدد ومع ذلك لم يحالفهم النصر في أغلب حملاتهم، فتحطم حملة الخليفة أبو بعقر بن يوسف ضد القشتاليين تحت أسوار وبدعة سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م، وفشلت حملته الثانية ضد البرتغال تحت أسوار صقلية سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م، وهكذا الخيل في هذه الحملة ولم يحلفهم الحظ في الانتصارات إلا في معركة الأرك بقيادة المتصور ضد القشتاليين سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٥ م.

وكما حدث إزاحة بعض التغور المرابطة في الأندلس حدثت أيضًا هذه الظاهرة في انتخابات دولة الموحدين عقب هزيمتهم في موقعة «العقبة» سنة ٠٩ هـ - ١٢١٢ م، فلم يمض على هذه الهزيمة سوى بضع سنوات حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس وانتقاضت حدود مملكتهم ووقع كثير من السعور في أيدى النصارى وخاصة قواعد الأندلس الكبرى، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانذاع قواعدها الغربة: ماردة وبطليس، سنة ٢٧٦ هـ وغيرها، ثم قال: «فراندو الثالث» بانذاع

(1) أشناج - تاريخ الأندلس، ج (٢)، ص (٢٤٧).
قرطبة سنة ۱۳۳ هـ، ثم استولى ملك أراجون على الجزائر الشرقية وعاصمتها
«بلنسية» سنة ۱۳۶ هـ حتى انصهر ملك المسلمين في الأندلس في مملكة غرناطة.

حركات المرابطة في المغرب:

لقد عرف أهل المغرب الرباط، وعمل أول عندهم به يرجع إلى زمن الفتح
الإسلامي، ففي القرن الأول الهجري كان رباط «شاكر» وهو رباط معروف عند
الفرنجة «سبيد شكر» على ضفة وادي نفيس جنوب مراكش، وشاكر أحد أتباع
عقبة ابن نافع الفهري بناء يعلى بن مصرين أحد رجال رجاحة السبعة الذين
يقال إنهم وفدوا على الرسول بمكة - وإن كانت تلك الرواية تختاج إلى تدقيق-
فاسلموا وعادوا إلى المغرب ينشرون الدين الإسلامي، وقد جدد المولى محمد بن
عبد الله هذا الرباط سنة ۱۱۸۸ هـ – ۱۷۲۴ م.

ويرجع السر في قيام حركة المرابطة بسواحل المغرب إلى أن تلك السواحل ظلت
بعد الفتح الإسلامي تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي من قواعده في «صقلية»
و«سرديانة»، وجنوب إيطاليا، فلذا فقد كان المسلمين يرابطون في هذه الأربطة
كلون من ألوان الجهاد ليصدوا غارات الأعداء ويزودوا بالشهداء، وقد فهم هذا
الدور الكبير القائد الكبير «عقبة بن نافع» عندما قرر بناء رباط القيروان حيث قال:
«نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرابط»، ثم قال: «إنى أخف أن
يطرقها صاحب الفلسطينين فيها كها صاحب البحر، لكن أجعلها بينها وبين البحر
ما لا تنصهر فيه السنة فأهلها مرابطون».

ويمر الوقت أصبح للرابطات هدف آخر في شمال أفريقيا حيث إنها جمعت
بجانب الهدف الحربي هدفًا آخر دينيًا حيث نشأت هذه الرباطات كرد فعل سلبي
ضد المذهب الجديدة التي تختلف مع المذهب السني كالمذهب الشيعي والخارجي
وغيرها. لذا فضل الكثيرون خروجًا على فساد العقيدة أن يرحلوا إلى الرباطات
ويقطعوا إلى العبادة وتقنين العلوم الدينية، وبدأ خرجت الرباطات عن وظيفتها
الأولى وهي إيواء الجند المدافعين عن المغرب ورد أساطيل الغزاة الغزيرين، وبدأ
الناس يقصدون الأربطة ليس للجهاد فحسب بل لتلقى العلم أيضًا. وتوافد العلماء

٢٠٢
من كل فج يتهون من مواردها العلمية، ومن العلماء الذين ذاع صيتها: أبو القاسم علي بن محمد الحضرمي المشهور باللبدئ، وأبو الحسن الولائي وغيرهما.

وكان أغلب هذه الأربطة تنحدر من مذهب مالك دستورًا لها ومنهلا الذاهبين لا يقضبين قبل إنه: "قصور زيد المرابط بساحل أفريقيا دار مالك لكثره ما فيه من العلماء، والعباد والصالحين من أصحاب مالك".

وتواجد أهل التنقي والورع إلى الأربطة منقطعين إلى العبادة فارين بعيدين عنهم حتى اشتهروا الكثيرون منهم مثل: "عبيدالرحيم بن عبد ربه الريعي، وأبو سعيد بن إسحق الكلي، الذي كان يقضي بياض بهاء لواءه، وسواده أبيه في البكاء خوفًا على الله وحسرة على ما فرض من ذنوب وأقفل على نفسه بابه حتى مات. ثم تقولت تلك الأربطة من الزهد في تدريس العلم إلى مراكز حرية للذود عن مذهب مالك ضد المذاهب الأخرى ما لهذا المذهب من قول عند المغاربة.

وقد انتشرت حركات المرابطة هذه انتشارًا واسعًا حتى توغلت في السواحل ووصلت إلى المحيط الأطلسي وأوغلت في قلب بلاد السوس ووصلت إلى أطراف الصحراء، وعملوا على نشر الإسلام في تلك البلاد، ومحاربة البدع والفساد والذاهبين الأخرى. ومن أشهر روابط المغرب الأقصى رباط "تازة"، رباط "نادي ماسة"، رباط "تيبنطر" في بلاد أزмор، ورباط "مسلا" على البحر، ورباط "المنقطعين للعبادة" قرب فاس، ورباط "هرجة" ببلد السوس، ورباط "اصيلة" ورباطات أخرى في أقصى السوس.

ومن الأربطة الهامة التي قامت في تلك البلاد رباط "نفيس" الذي أقامه "وجاج ابن زللو الملمع" الذي كان له أكبر الأثر في تشكيل حياة دولة المرابطين، فلى ذلك الرباط تعلم ودرج "عبدالله بن ياسين" مؤسس دولة المرابطين الذي نهل من مورد أستاذه وثقف علوم الدين على يديه.

وعلى شاكلة رباط نفيس قام رباط السنغال الذي أنشأه الفقيه "عبدالله بن ياسين" تلميذ ووجاج ابن زللو، إذ كان المرابطون ينتمون فيه العلم ويتبعون ويتعلمون إلى الجهاد في سبيل الله والقضاء على عناصر الفتنة في شمال المغرب.
رباط ابن ياسين

من الأربطة الهامة التي قامت في ربيع تلك البلاد هو الرباط الذي أنشأه الفقيه عبده الله بن ياسين، وعلى ما يبدو كان على شاكلة رباط ئيسف الذي أقامه وجاج بن زللو(1) الذي تعلم فيه عبده الله بن ياسين، ونظراً لأهمية ذلك الرباط فسوف نتناوله من عدة وجوه:

موقع الرباط: عندما وفد عبده الله بن ياسين إلى ديار "جدالة" ليتعلم الدين ويفقه في العلم لم يعد قبولاً من رجال هذه القبائل إذ أخذوا بتعاليم الدين الصحيح التي تنافياً مع ما ألفوه من حياة الفساد والضلالة، وعندما رأوه ينتقص من حقوقهم الجائزة ويبضع حداً لجبروتهم سخطوا عليه وآذوه وطردوه، وقد أشار البكري إلى ذلك: "قفا عليه فقههم منهم اسمه "الجوهر بن سكن" مع رجلين من كبارهم يقولان لأحوهما "أيار" ونائل "أيتيكو" فعزلاه من الرأية والمشورة وطردوه وهدموا داره"(2).

وقد اختلفت المراجع في الجهة التي اتجه إليها "ابن ياسين" فبعضها يرى أن "ابن ياسين" خرج مستخدمًا من قبائل "صناجته" إلى أن وصل إلى استذائه "وجاج بن زللو" فقية "السوس" الذي كان قد أرسله إليه وكان يتزوج ظهور نجمه عن كثب، وقد سمع منه شكاوى فعاتبهم "وجاج" على ما كان منهم إلى عبده الله وأعلمهم أن من خالف أمر الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر وأمر "عبد الله" بالرجوع إليه(3).

ور بما بني "ابن ياسين" بدأ وتر "جدالة" نزولاً على راحة أميرها "حيى بن إبراهيم" الذي آره ووقف بجانبه وتمسك به وقال له: "إني لا أتركك تصرف إنما أتي بك لانتفع بعلمك في خصية نفسى ودينى وما عليه من ضل من قومي"(4).

ومن هنا فكر "عبد الله بن ياسين" أن ينتمي رباطاً يأريه هو وصاحبه يتبادلون ويؤهلان نفسيهما للدفاع والجهاد على شاكلة رباط "ئيسف" الذي تلمَّذ فيه "ابن ياسين" ثم اتجها معاً إلى جزيرة نائية لقيما فيها رابطة.

---

(1) البكري - المغرب، ص (112)، قيم دولة المرابطين.
(2) المغرب، ص (115).
(3) المغرب، ص (115).
(4) ابن أبي زرع - القرطاس، ص (78).

204
وقد كان "ليجي بن إبراهيم" الفضل في اختيار موقع هذا الرباط لأنه أدرك تضارب أرض قومه واختيار أصلح المواقع له.

وقد اختفت المراجع في تحديد الموضع الذي انتهى فيه "ابن ياسين" رابطته (1)، وكتبت جمع هذا الخلاف لود نظرنا إلى الهدف الاستراتيجي لبناء الرباط، فالرباط يشكل عادة في المناطق التي تعرض للغزو إني يتطلب الأمر حشد القوى بقصد الجهاد وردع الاعداء، لذا من المرجح أن تكون هذه الجزيرة التي قصدوها "ابن ياسين" وأتباعه تقع في "السنغال الادني" الفاصل بين أرض "السودان" والمجال "الساحلي". وما يقوى هذا الرأي أن "مالك السنغوي" الواجع إلى جنوب "السنغال" تغيير على مضارب المثمنين باستمرار وتهدد طرق القوافل، وقد كان المثمنون والسنغويين يتبادلون الاستيلاء على مدينة "أودغشت" مرات عدة، لذا تعين على "أبو الله" ابن ياسين" أن يتخذ "السنغال" الفاصل بين مضارب المثمنين ومضارب السنغويين مستقرًا لرابطته، بهدف نشر الإسلام والجهاد في سبيله في تلك البلاد ومحاولة رد غارات السنغويين.

وقد استندت "عبد الله" في ذلك إلى عصبه حيث إن الأطراف الجنوبية لقبيلة "الجبلة" كانت تتطلب حتى حروب السنغويين فإنه قوة يستطيع أن يلجأ إليها إذا ما فكر السنغوي في العدوان على المثمنين.

وهنا يظهر تساؤل آخر عن السبب في اختيار هذه الجزيرة مقرًا للرباط.

الإجابة واضحة إذا ما ألمًا وصف "ابن أبي زرع" لهذه الجزيرة، فهي جزيرة تتمتع لأعداد هائلة من المرابطين التي فاق عددها الألف رجل، وتوفر فيها المياه العذبة والنباتات والأشجار وصيد البحر، وهذا ما ساعد على إقامة الحياة في هذا الرباط (2)، وهي حياة مستقلة يعتمد فيها رجال المرابطين على أنفسهم في تحصيل الرزق من ماكل وسكن، وهذا بالإضافة إلى موقعها الآمن والخصوص فهو في أدنى "حروب السنغال" في منحنى "نهر النيجر" الذي يخترق بلاد "سيبو" و"مدغشقر" عند مروره بأرض "السودان".

---

(1) نظر حسين مؤمن مقدمة رياض النفس، ص (21)، ابن خليفة الشير، ج (183)، ابن أبي زرع، روض الفطر، ص 79.
(2) عثمان أحمد محمود - قيم دولة المرابطين، ص (123).
(3) روض الفطر، ص (79)، الاستقصاء، ج (1)، ص (8).
شكل الرباط وبناؤه: لم تقدم لنا المراجع وصفًا خاصًا لشكل الرباط الذي أقامه "ابن ياسين"، ولكن يمكننا أن نستخلص وصف هذا الرباط من عدة أوصاف لمراقب آخر، كانت قائمة في المغرب، ولعلنا نوفق في إعطاء صورة ولو قريبة لشكل بناء ذلك الرباط.

ويبعد لنا أن "عبد الله بن ياسين" حينما أتى رابطته أقامها في أول الأمر من خيام وكانت تزداد أعدادها بازدياد عدد الداخلين في الرباط، ثم بعد مرور الوقت لا يستبعد أن يكون "ابن ياسين" قد جعل رباطه على شاكلة رباط "نفيس" الذي تعلم فيه في بلاد المغرب، وقد تجرب أن يكون خصمه مكينًا يدافع عنه المراقبون عن أنفسهم، ويشتقل لهم لونًا من المعيشة الملائمة لحياة ذلك العسكر كما يهم لهم الانصاف للتحدي والتنسك.

وقد قال "الكرى" في وصف مراقب ومحارس مدينة "سوسة" بالمغرب الأقصى: "وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجتمع للصالحين، وداخلها محارس عظيم كالمدينة مسورة بسور متقن يعرف بمحرس الرباط، وهو مأوى للأحياء والصالحين" (1).

كما نفهم من وصف المراجع القديمة أنه أقيم بالرباط بوت مرتبة من الحجر، وطواحين لطحن الغلال، ومراحل للماء، كما يوجد حصن عالٍ على البناء وأنه قد يكون مكوّنًا من طابقين، كما يوجد في الرباط جامع، ويوجد في الرباط أيضاً ريح واسع وفي وسط الرحب حصن ثان كبير كثير المساجن والمساجد والمباني العالية، كما توفر الحمامات اللازمة للنظافة (2).

وهكذا من وصف السباق نستتب أن ذلك الرباط لا بد أن يتواجد فيه المسجد لإقامة الصلاة، ثم الأراضي الخصبة لزراعةها وفلاحتها، والحمامات اللازمة للاستحمام والتنظيف، ووفرة الماء اللازمة للشرب والمعيشة، كما أنه ينبغي أن توجد المساكن الصالحة لسكنى المراقبين وكذلك القصوب لتخزين الأقوات والسلاح، وحسن يحمي به المراقبون عند الخطر، ثم يحارب هذا كله بسور قوي يفتح منه أبواب متعددة يمكِّنهم التحكم فيها.

(1) الكرى - المغرب، ص (36).
(2) المصدر السابق وتفسير الصفحة، وكذلك ابن جبير، ص (234 - 287).

206
الباب الرابع

نظم الالتباس في جيوش الدولتين

الفصل الأول: التدابير التحضيرية للقتال الهجومي
الفصل الثاني: المعركة الهجومية وسير القتال
الفصل الثالث: متابعة المعركة
الفصل الأول

التدابير التحضيرية للقتال الهجومي

تمهد: ما اللواء بنظم التعبئة؟

التعبئة مصطلح عسكري، أطلقه المؤرخون القدامى من العرب على تنظيم الجيش وصف الكتائب في المعركة أو قبلها، فتعبير "عبأة عندهم مساهمة لتعبير انظام"، أما كلمة "التعبئة" في الإصلاح العسكري الحديث معناها حصر كل القوى الموجودة في الدولة وقت الحرب، وعمل مقارنة بين الجيش المقاتل وكافة المواد اللازمة له، سواء أكانت ثابتة أو غيرها استعداداً للقتال، وتوفرًا لكاففة مستلزماته، وذلك بحصر الكفاءات وتوجيه كل إلى الناحية الخصاصة به حيث لا ينقص الجيش المحارب شيء.

وينحن بصدقي دراسة حشد القوات وكل ما يلزمها للقتال سواء أكان ذلك قبل المعركة أم خلالها، لأن دخول المعركة فن يبدأ قبل المعركة بوقت طويل. وهذا الفن كما يعرفه العسكريون يمر بمرحلةين: الأولى: مرحلة ما قبل المعركة وهي التدابير التحضيرية للقتال الهجومي ويطلق عليها في الإصلاح العسكري كلمة "الاستراتيجية". الثانية: وهي مرحلة الاشتباك الفعلي مع العدو، ويظهر فيها فن تحرير القوات، والتنسيق بينها خلال المعركة وطريقة تنظيمها في حالتى الهجوم والدفاع ويطلق على هذه المرحلة مصطلح "التكتية"(1).

التدابير التحضيرية للقتال الهجومي

"التنظيم الاستراتيجي للجيوش"

وهي التدابير التي يتخذاها القوادر في الفترة التحضيرية التي تسبق اشتباكهم مع العدو وهي حسب تسلسلها الزمني: حشد القوى، المسر للقتال، حياة المعركة، دراسة أحوال العدو، وضع الخطة، توزيع الواجبات، الرسالة قبل الحرب، وسوف تتناول هذه الأمور بالتفصيل في الجيوش المرابطة والوحدة.

(1) العقيد محمد فرج، المدرسة العسكرية، ص (277)، واللواء محمد جمال الدين محفوظ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية، العسكرية الإسلامية، ص (234).
أولاً: حشد القوى:

كان من عادة المرابطين والموجودين أن يخرج الأقدماء والخلفاء للمعركة بذاتهم
وإذا ما حدثت ظروف لا تسمح لهم بالخروج لقيادة المعركة، كان يبقى بالعاصمة
لإدارة دفة الحكم، وتظييم حركة الجيوش وإمدادها بكل ما تحتاجها من الجند
والعتاد، وكانوا يبعثون مكانهم قوادًا يثرون بقدرتهم القيادة وشجاعتهم الفائقة،
وذلك بأن يدعوهم إليه ثم يعقد له لواء على رمح طويل، كما حدث مع "أبي بكر
عمر" شيخ القيادة، فقد عقد له "عبد الله بن ياسين" اللواء وسماه "أمير المسلمين"
وحث قومه على الجهاد معه وسماهم "المرابطين" (1).

وكان من عادة القداماء أن يغرسوا لواء الجهاد أمام المسجد ليقرأ الجميع
في سارعون بالانضمام إليه، وكان مرسم تعيين القيادة عند العباسيين، بأن يرسلوا
اللواء والخيلعة إلى الولاة عند تعيينهم، فإن كان الولاي حاضراً البسوة خلعة
القيادة، وإن كان غابًا بعثوا له بكتاب ومعه نفس الخلعة (2). ولا بد أن المرابطين قد
هجموا نهجهم لأنهم كما عرفنا يستقلون بظل الخلافة العباسيه.

فإذا ما خرجت الجيوش المرابطية والموحدية، دعا داعي الجهاد فتهرع المطاوعة من
كل فج للالتحاق بالجيوش، كما حدث في موقعة "اقليش" التي قادها الأمير "تيم
ابن يوسف"، فقد جاء في رسالته إلى أرسلها للأمير "على بن يوسف": "ومننا
بطاعة أمير المسلمين، وناصر الدين، على جهات سمعت منادينا، وتبعت هادينا،
وانتقادات وراءنا أعداد وأصداد برزوا من كمون، وتحركوا عن سكون، وأخذنا بغير
بيساة، وقد تواجه الجمع ملء البصر والمسمع" (3).

وقد عرفنا سابقاً أن أمراء المرابطين أعادوا نظام الإقطاع إلى الأندلس على ما
كان عليه قبل "المنصور بن أبي عامر" (4) فكان على كل وصال أن يعد الجنود ويجهز

(1) ابن الأثير - الكامل، ج (9) ص (332).
(2) نفس المصدر السابق، ج (144).
(3) المخطوطة رقم (488)، الغزيري المحتوى بكتبة الاسكوريال لوحة رقم (54) - 568، نقلاً عن عنان -
عصر المرابطين والموجودين، ج (1) ص (93).
(4) الطرطوسى - سراج الملوك، ص (100).

210
عدداً معيناً كل بحسب إقطاعيته وإمكانياتها، للاشتراع في الحرب دفاعًا عن السلطان، فكان الأمير أو الخليفة يوجه أوامره إلى الوالدة فيحبشدون ما تقرر عليهم من الجنرال في الجيش العام (1).

ومع ذلك فإن النظام القبلي هو أساس حشد الجيوش المرابطية والموحدة بالمغرب، فقد قيل قبلاً ما تعيين عليها من الفرسان والرجالية عند الاستنفار العام وكان نظام التطور يقوم كذلك إلى جانب نظام الحشد الجبري، فتحدد أعداد كبيرة من الجنرال على سبيل التطور دون تكليف رسمي، ويسمي هؤلاء بالتضوطة.

ولم يقتصر الحشد على الرجال فقط، بل كانوا يستجيبون الخيل والعدد والأسلحة والرماح، والبيضات والدروع والتروس والكسي، وتوزيعها على الجنرال والفرسان وفق نظام معين كما عرفنا سابقاً، فقد وردت في رسالة الأمير (علي ابن يوسف) إلى الوزراة والقواد في بلنسية عند نزول ابن رذم، عليها «واعلموا أن قد نفدت الآن كتبنا ثانية إلى ولاة أعمالنا كلهم الله وإياها تأمرهم بتسيب الأقوات وتعجيل إنفاذها نحوكم من كل الجهات، وسيرد عليكم منها الكثير المتوفر لأقرب الأوقات» (2).

и كان من عادة الموحدين عند حشد جنودهم أن يجروا تمييزاً لجنودهم. فتستبعد العناصر غير المرغوب فيها، ثم تجري الإبعادات والبركات على من ظفر بالتمييز وقبل الإشتراع في الحرب، وقد خصص للتمييز ديوان خاص يسمى «ديوان التميز» كما عرفنا سابقاً.

وقد بدأ التميز في بداية الدولة الموحدية إجراء تعسفية لاستبعاد الخصوم والمراقبين أو إعدامهم وتطهير صفوف الجيش منهم، ثم تطور هذا الإجراء بمضي الزمن، وأصبح ينصر إلى اختيار الصفوة من الجنرال.

ومن الأمور المطلوبة لحشد القوى، هي عملية التوجه المعنوي لكل أفراد الأمة حيث كان يأمر الوعاظ على المنابر، والقادة في القلنس، والرؤساء في أحياء المدن،

(1) قين الباش - الفنون الإسلامية، ج (1) ص (116).
(2) المخطوطة رقم (88), الأشكوليين، نقلة عن عمان - عصر الموحدين والمراقبين، ج (1) ص (543).
ان ي/shareوا الظروف التي تمر بها الدولة، حتى يتم تنسيق وتوجيه جميع إمكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية نحو تحقيق الغاية السياسية للحرب.

ثانيًا: المسير إلى القتال:

كان الجنود المرابطون عند تحركهم ينظمون كنما لو كانوا على وشك خوض المعركة (1)، وذلك ليأخذوا حذرهم وحيطتهم، وليكونوا مستعدين لرد أي هجوم جانبي أو خلفي يقوم به العدو، وكانوا يقسمون جيوشهم إلى ميمنة وميسرة ولقب ومقدمة وساقية، ويحافظ على هذا التنظيم عند النزول والانخاذة في أي مكان (2).

وقد عرف عن الموحدين أيضًا أثناء تحركاتهم حذرهم وحيطتهم ودقة نظامهم، وقد وصف لنا صاحب الخليل طريقة سير الجيش الموحدى حيث إنه بدأ السير عقب صلاة الصبح على صوت طبل الرحيل الذي كان يضرب ثلاث ضربات، فإذا ركب الخليفة، اجتمع حوله الأشباخ والآعيان ويسير على بعد منه مائة فرس، ويتقدم أمامه مصحف عثمان الذي صنع له هودج يحمل فيه على أحد الإبل وعلى الهودج أربع علامات حمر، ويبعده الخليفة، ومن ورائه أولاده ثم البنود والطول فالوزراء، وأكبر الدولة، ويسير الجيوش على ترتيبها دون تراحم فإذا كان وقت النزول أنزلت كل قبيلة في منزلها وعلى ترتيبها، لا يتجدد أحد طوره، ولهن رتب معلومة، وكان في محلته جميع الصناع، وكل ما يحتاج إليه، كان المسافر معه مقيم (3).

ومثا خط الجيش رحله، أقيم معسكر في منتهى النظام، وأقاموا حول معسكرهم خندقًا تسعب مهاجمته، ويحقق لهم ميزة دفاعية بحيث لا يؤتي إلا من وجهة واحدة.

(1) أشباخ، تأريخ الأندلس، ترجمة عزان ج (2) ص (131).
(2) لغة عن الاستقصاء ج (2) ص (58) والمقرئ نفح الطيب، ج (2) ص (58) وما بعدها.
(3) الخليل الفوشة، ص (115، 116).
ثالثًا: مراكز القيادة العامة ونقاط التجمع:

من المعروف أن "ماراكش" كانت عاصمة الدولة المرابطية الموحدية، وقد اختار عاهل المرابطين هذه المدينة لتكون نزلة لعسكره، ونقاط مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال الأطلس ترقب تحركات قبائل مصمودة وتترصد لها(1)، وهذا يدل على حاسة استراتيجيّة عظيمة وخبرة فائقة بهذا الفن حيث استطاع عاهل المرابطين أن يعرف أسباب المواقع لإقامة المدن والمعسكرات التي تكفل له سرعة توجيه قواته إلى أي جهة يبعث منها الخطر.

وقد كانت "ماراكش" مركز القيادة العليا لهاتين الدولتين تصدر منها الأوامر بالكتب مع الرسول إلى القواد والواليات ورابط بها الجيوش على استعداد تام للقتال، والзамيثون الصادرة إليه بالغزو في أي جهة.

ولدينا شاهدت عديدة على عظمة الحاسة الاستراتيجية لدى "يوسف بن تاشفين" تتضح في حسن اختياره لمراكز تجمع جيوشه وقاتله، ومن هذه المراكز مدينة ستة التي اتخذها مركزا لتجمع القوات المرابطية يعبرون منه إلى الأندلس، وذلك في كل عبور أو جوار(2).

وقد اتخذها ابنه "علي" من بعد مراكز لتجمع جيوشه أيضًا، فعندما عبر إلى الأندلس للمرة الثانية في جيوشه الجرارة كان عبوره من نقطة في الخامس عشر من محرم سنة 3 هـ - 109 م، وسار إلى غزاتة وأقام بها مدة إلى حين تلاحقت به حشوده وتأهبت متطوعته وجنوده، وكمما اتخذوا من ستة مركزا لتجمع جيوشهم بعدة المغرب، اتخذوا أيضًا من "الجزيرة الخضراء" مركزا لتجمع الجيوش بعدة الأندلس، وقد كانت هذه من أملاك "ابن عباس"، وتنازل عنها للمرابطين عند عبورهم للأندلس(3).

وكان غزاتة هي قاعدة الحكم المرابطى في الأندلس بعد فتح بقيادة العامة للقوات المرابطية، وإليها برر الرسول بكرههم من العاهل المرابطي ومنها

---

(1) خالد الوشبل، ص (52).
(2) الصدر السابق، ص (132).
(3) المصدر السابق، بنفس الصفحات.
تخرج الجيوش المرابطية وتلحق بها جيوش الولايات الأخرى. حسبما يصدر لها الأمر، ويبدو أن موقع هذه المدينة كان استراتيجيًا هامًا، فصادف هوى في نفس المرابطين فاندخوا مركزًا لعمليتهم الحرية، ولا أدل على ذلك من قول ابن غانية للمراقيين في مروته وقد عول عليها للاستعمال بدعوته: «الأندلس درقة، وغزارة قبضتها، وإذا جشمتها، بها معشر المرابطين القبضة، لم تخرج الدوامة من أيديكم».

وقد كان «عبدالله بن علي» كنظيره السابق «يوسف بن تاشفين» يتمتع بحاسة استراتيجية فائقة، فقد أدرك أهمية جبل طارق الذي هو أحد مواقع البحر المتوسط، فعمل إلى تحصينه وإلحاته إلى قاعدة أمامية للكتاب عن المغرب والأندلس.

وكان لأيديه من مراكز تجمع قواته، فوقع اختياره على مدينتين هما: سلا ورباط الفتح، ليكونا مركزين للتجمع الجيوش الموحدية سواء الحامة منها إلى أفريقيا أو تلك التي تقتصر العبور إلى الأندلس.

وقد اتخذت الحكومة الموحدية «أشبيلية» قاعدةً لحكمهم، وإن كان عبدالمؤمن قد أمر أن تنقل العاصمة إلى قرطبة لكون مستقرًا لجيوشه، وكانت حجته في ذلك أنها موسطة الأندلس، إلا أن الخلفاء الموحديين فيما بعد قد نقلوا مركز قيادتهم إلى أشبيلية وجعلوها مركزًا لجيوشه لعدة أسباب استراتيجية؛ منها بعداً عن خط قشتالة الذي بدأ يزداد شيئًا فشيئًا، ووقوعها على طرق مواصلات لاتصالها بالبحر.

وعن طريق مصب تعرها فيه، ووفرة مواردها وخبراتها لاتصالها بوايد الشرف.

رابعًا: فن تحريك القوات وتوجيهها:

أما عن توجيه القوات من مركز القيادة، فقد كان للمرابطين والموحدين مهارة فائقة في توجيه قواتهم بطريقة حاسمة ومنظمة تدل على قيادة بصيرة ودقة متناهية، فقد كانت جيوشه تتحرك صوب أهدافها في وقت واحد للاستيلاء على شبه الجزيرة الأندلسية من أيدي ملك الطوائف.

(1) ابن الخطيب - الإحاطة - تحقيق عنان، ج (1) ص (102).
وإن كان "يوسف بن تاشفين" على هذا المستوى الرائع في توجيه قواته فإن حفيدته "تاشفين بن علي" قد نهج نهجه في تحريك قواته وحسن إدارتهها، وقد ظهرت مهاراته في هذا المضمار في فترة الصراع العنيف مع الموحدين منذ أن تولى قيادة الجيوش المرابطة سنة ٥٣٢ هـ، وإن كانت الحروب التي دارت بينهما في هذه الفترة لا ترقى إلى مستوى المعارك المهمة إذ كانت أقرب شيء إلى ما يسمى في عصرنا الحاضر بحرب العصابات.

ولтехف الآن أمام عقلتيين مدبرتين قد اشتد الصراع بينهما في هذه الفترة، وهما عقلية "عبدالمؤمن بن علي" قائد جيوش الموحدين، والامير "تاشفين بن علي" ولئن عهد المرابطين الذي أخذ على عاتقه مطاردة الموحدين واستئصال دعوتهما، وقد ركزنا الحديث عن هذه الفترة التي تولى فيها تاشفين قيادة الجيوش المرابطة لأنه في عهده تحول الصراع بين الجهتين تدريجيا خطيرا، واتخذ تكتيكيًا خاصًا في تحرير دفعة القتال يتناسب وطبيعة تلك المرحلة وامكانيات كل منهما، ويمكن أن نطلق على حروب هذه المرحلة حروب السهول والصحراوي.

وتضح معالم ذلك الصراع الذي احتمل بين المرابطين والموحدين فيما تميز به طبيعة كل من الجهتين، فجبهة الموحدين أغلب رجالها من القبائل الجبلية لذلك كانوا أقدر من المرابطين في حرب الجبال، بينما جهة المرابطين صحراوية يجدي رجالها حرب السهول.

وقد لاح عبدالمؤمن إلى خطة جديدة بعد حصار عنيف من المرابطين في فتى الكبير من جيوشه، ففي سنة ٥٣٢ هـ خرج عبدالمؤمن بجيشه إلى جبل "تانجروت" المطل على أرض قبيلة "حائرة" الواقعة غرب "تينمل"، وذهب إليه تاشفين وعلى رأس جيش، وعسكر بموضع استراتيجي هام يعرف "تينزغورة"، وحاصر الموحدين بالجبل نحو ستين يومًا حتى فنيت جميع أقوائهم، وأشرفوا على الهلاك والفداء، وقد وصف البديع هذه الشدة حيث إنه كان من جنود الموحدين المحاصرين: كان المرابطون يصرخون في وجه الموحدين قائلين: "اصدعوا إلى..."
المواطنين، أو غوصوا إلى الأرض (1) فيفيهم عيّد الفطر بقوله تعالى: {سيجعل
الله بعد عصر يسرى} [الطلاق: 7] ويتوجه إلى الموحدين مرداً قوله تعالى: {ومن
يتبث له بخيراً وبرزقه من حيث لا يحسبون}. [الطلاق: 92]. ولما
تقن عيّد الفطر بأنه لا يمر من فكر الحصار، أمر قنوة المحاصرين وفق الحصار
بالسوم، وخرج الموحدون وقد أنهكهم المجمع ونالهم الضعف فتلقبتهم سيوف
المواطنين تحصمهن من كل جانب.

وهنا أدرك عيّد الفطر أنه لايد من تغيّر خططه تباعًا لتغيّر المحاصرين خططهم
حتى لا يكون فريقية جيش تأسيس الغناء برجاله وعناقه وقوئه، فلما ترى ما هي
خطة التحرك الجديدة؟

لقد كانت خططه هذه المرة أن تدور المعارك على قمم الجبال، ويروغ الجيش
المواطنين الذي لا ينير الصعود إليها والجرب فيها، فخرج عيّد الفطر في غزوة
كبرى سنة 534 هـ، من تبنيم بقصد التحول في أنحاء إمارة المواطنين بال뭌رين
الأقصى والوسط، وإحكام القبائل للدعوة الموحدية.

وقد أنقى في جولته هذه أكثر من سبع سنوات متصلة، وقد أظهر في هذه
الغزوة ضرراً من الجبال، وبعد النظر والجرب الحربية مما أنهك بها جيش المواطنين
واعتراه الضعف والوهن حيث استعمل معه ما يسمى في الحروب الحديثة "سياسة
النفس الطويل" التي يرمى من ورائها تدويخ فريسته.

فقد خرج أولاً جهة الشرق من تبنيم ثم اعتدل وسار في وسط المغرب ثم اتجه
شمالاً ثم شرقاً، متجهًا من الجبال بيوتاً وحصوناً، فإذا ما أتى لزادة الرسول إلى
القبائل بعض سراياه تدعوهم إلى التوحيد، فإذا استجابوا ودخلت في طاعتهم،
استعانوا بالجيش ورجلهم، وأتى اغتصاب أموالهم ووزعها على أنفسهم غنائم
حرب، وعندما تنب القبائل إلى هذه الحكمة التي رسمها عيّد الفطر تعقيوهم،
وساروا بإرائهم في السهول.

(1) اليابيّ - أخبار المهاجرين، نشر ليلى بروفسالس، ص (86).

216
وحقيقة الأمر أن عبدالمؤمن قد نجح في خطته هذه فقد ثبت حسن اختياره لاصبح المواقع التي يعسكر فيها جيشه موجها جنوده أفضل توجيه، فكان الموحدون يلزمون السير في الجبال ليتحصنوا بها، بينما كان المرابطون يكتفون بالسير في السهول والبساطة إزا الموحدين ظانين أنهم سوف يقضون عليهم بهذا الخصوص، ولكن كان الموحدون يتحركون في مجال أوسع حر الحركة يستعينون بالقبائل الجبلية التي تمدهم بضروريات الحياة ولا يهبطون إلى السهول إلا عند الضرورة القصوى ليغتنموا شيئًا يقاتلون به، إذا لم يجدوا شيئًا من القبائل الجبلية وذلك في غفلة من جيش المرابطين، فيقول البندق: "ثم هبطنا لموقع يقال له تاجرته ثم خرج منا جمع فهزم تاجرته وأقبل بغنائمها"(1). وقذف ملك هذه الحرة أيضًا إزا تغيير الأحوال المناخية التي تؤثر على سير المعركة وتحيز مجريها، فقد اتجه الموحدون إلى أرض غياثة شرقى فاس، ثم استقراروا في جبل عفرا وعسكر المرابطون بالسهل قريبًا منهم في مكان يسمى "الناظر".

وفي هذا الوقت اشتدت برد الشتاء وعصفت الرياح، وظللت الأمطار غزيرة فأغرقت السهول والمدن فمات كثير من الناس وفقد الجيشه كثيرًا من الجنود، ولكن خسارة المرابطين كانت أفتح، لأنهم كانوا يعانون فق𝗲د في السهول ففقدوا الأقوات والوقود(2). وتبنا خطة التركم الجبال ثم لعب المؤمن افتتاح مدينة فاس ومكانتها وكذلك عاصمة المرابطين مراكش.

وإذا كانت هذه الفترة الحارجة في تاريخ المرابطين والموحدين، هي في حقيقة الأمر فترة بداية للموحدين ونهاية للمرابطين، فقد تغيرت بالصراع الحاد بين جيشي هاتين اللتين، إلا أنه من الملاحظ أن قيادة الموحدين في هذه الفترة كانت تعتمد بالذكاء والحزم والمهارة في توجيه القوات، في الوقت الذي خلا فيه العسكر الآخرون من قائد محلك بذكر توجيه القوات في هذه الآونة، فليس من الجدارة أن نقارن

"عبد المؤمن بن بستاشفين بن علي" أو بأخيه "إسحاق بن علي"(3)، ولكن من

(1) آخبار المهدى، ص (88).
(2) المصدر السابق، ص (90 - 91).
(3) لما توفي تاشفين بن علي جعل المرابطون أمرهم من بعدة لأخيه إسحاق بن علي وكان صبيًا ودخل عليه.
الإنسان يمكن أن نقارن عبد المؤمن بن يوسف بن تاشفين فكلاهما قائدان، تميزا بفكر عسكري منظم وعقلية مدرة على أعلى مستوى في الفن الاستراتيجي.

وإذا كانت الجيوش الماردية قد فقدت العناية المدببة والجديرة بوجه الجيوش في أواخر عهد دولتهم، فمن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الجيش الموحدي لم يتمتع بقيادة حكيمة إلا في عهد عبد المؤمن بن علي 4، وبعض خلفائه، فقد كانت تعمره عدة غزوات تعرضه من أن لاخر إلى وقوع الكوارث المئوية، منها فوضى القيادة التي عانت منها الجيوش الموحدية بعد رحيل عبد المؤمن عنها بالرغم من حضورها الهائل.

وقد كانت هزيمة شترين أكثر دليل على تخطيط القيادة العسكرية الموحدية بقيادة الخليفة أبو يعقوب يوسف للجهاد بالأندلس، فقد أمر الخليفة بجتمع شيوخ الموحدين والعرب والقادة في مؤتمر عام وخرج إليهم ولده وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويعتبرهم في أمر توجهه هذه الحملة، هل توجه إلى إفريقية أم توجه إلى الأندلس؟ فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد في سبيل الله، فابتدت الخليفة ارتياحًا لهذا الراي (1).

ومعنى ذلك أن الخليفة حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأي حاسم في شأن الغزوة التي ينوي القيام بها، وهذا في ذاته يكشف لنا جانبًا من ارتباط الخطط العسكرية لدى الموحدين، وأنهم فقدوا الحاسة الفنية في توجيه القوات والتي أصبحت تتحرك بدون هدف.

ولدينا مثال آخر على تخطيط القيادة الموحدية وعدم قدرتها على اختيار أصلح الجهات لتسوجه إليها قواتهم، فقبل معركة العقاب نرى الخليفة الناصر كتب إلى الشيخ أبو محمد بن أبي حفص ينشر فيه الغزوة قابله عليه، فخالطه الناصر، إذ لم يكن له خطة موجهة مرسومة حيثُ فرائه مضطربًا متردداً يريد أن يقاتل في بلنسية بسبب تغلب العدو عليها، ثم يصل إلى أشبيلية ويستقر بها، ثم يستعد الموحدون مراكش سنة 542 هـ بعد حصار استمر أحد عشر شهرًا، فقتلهم صلبًا، وبه انقرضت دولتهم.

(1) ابن أبي زرع - روض الفراتك، ص (139).
للغزو، ثم يرجع إلى أشيابة ثم يقصد بلاد الأدفوش فيما يفتح قلعة شلمطرة ثم يصير إلى الموضوع المعروف بالعقبات (1) وإذا كان منى فيه بهزيمة ساحقة قتل فيها أغلب جيشه.

خامساً: صيانة الأسرار العسكرية وإخفائها عن العدو:
إن كتمان السر في أي عمل عسكري ضرورة لازمة حيث يتطلب للقائد العام السرية التامة في تحركات جيشه، وعدم تسرب أي معلومات عنه إلى عدوه حتى لا يستفيد منها، وتحتسي عليه فرصة كان في انتهازها مصلحة له ولجيشه.
ولا شك في أن ثروة القادة وانطلاق ألسنتهم من أصفحة وأخطر العيون التي يجب تجنبها وعدم الوقوع فيها. و من هنا جرت العادة قبل خروج المعارك أن يهنىء القائد الأعظم إليها، ليكون له أن يحكم عن الناس سرها، ويحاول معرفة الكثير من أسرار عدوه، بل إن نصره أو هزيمته يتنوَف عن مدى معرفته لقوات عدوه وستر أسرار قواته عنه.
وقد عرف القادة من المرابطين والموحدين كتمان السر في معظم حروبهم فكانوا يخفون مقاصدهم أحياناً كبيرة، بل كانوا يوهمون الناس بالاتجاه إلى وجهة ما، وإذا به غير مساره إلى وجهة أخرى ليتفاعاً عدوه قبل أن يستعد له.
ويفكي لنتين مدى كتمان السر في الجيشه المراقبة أن تتغيب عملية استيلاء المرابطين على شبه الجزيرة الأندلسية، واستنفاذها من أيدي ملوك الطوائف، وقد كانت هذه العملية تتطلب سرية تامة لإخفاء هدف هذه الجيوش وتتحركاها وعدم تسرب أي معلومات عنها، حتى لا تقع جيشهم بين فكي رجى معركة ضارية تكمن ملوك الطوائف أحد فكيها والتصاريح الفك الآخر، وكان الزامًا عليهم أن يأمنوا غدر التصاريح لهم إذا ما اشتفركة مبادرة ملوك الطوائف فلا يطفعونهم من الخلف.

إذن بايت الأمر يحتاج إلى خطة عسكرية حكيمة، محاطة بالسرية التامة، وأغلب الظن أنه لم يعرف هذه الخطة وهذا المقصد سوى قادة "يوسف الكبير"، وقد تجمعته قواته في سببة ثم عبرت مضيق مرتيلة واحدة، وقبة هو مقيمًا بها

(1) تاريخ ابن خلدون، ج (2) ص (294)
يتربص أخبار جيوشه الأربعة التي زحفت إلى الأندلس في وقت واحد كيف كانت خطته؟

لقد كانت خطةه مبنية على السرية التامة والتي أوصى بها قواده، بأن يخفوا ما في نيتهم من تحرش بملوك الطوائف بل أمرهم بمصادعتهم والترقق معهم حتى لا يكتشف أراضهم، وكان في نفس الوقت يتصدر هؤلاء الملك ويرقب مسلكهم عن كثب، وأمر قواده بالآلا يدعوهم للمشاركة في الجهاد كما فعل في المرات السابقة.

وتفيذاً خطته أمر قواده بالتقدم على غزو طبلطة وحصارها، ليوقع الرعب في قلوب النصارى على أنه لا يشتبكون معهم في معركة فاصلة، إنما القصد هو إرهابهم فلا يفكرون في طغونهم من الخلف عند اشتعالهم بمحاربة ملوك الطوائف. وبالفعل حقق القواد المرابطون الخطة كاملة ففاشطوا على طبلطة وحاصروها وعاقبوا في أرجائها وقطعوا أية صلة بين النصارى وملوك الطوائف، ولم تثبت لهم ذلك وتيقنوا منه، شرعوا ينفذون خطتهم الحقيقية التي جاءوا من أجلها.

وكان أول ما بدأوا به خطتهم من ملوك الطوائف هو صاحب مملكة غرناطة، ثم بدأوا يزحفون على البيرة ومالقة والمنكب، وقضى بذلك على ملك بنى زرئى، ثم توجه القائد «سيير بن أبي بكر» إلى أشبيلية لمنازلة ملكها «المعتمد بن عبادة» أكبر ملوك الطوائف وخلعه عن عرشه، كما اقترح الأمير «أبو عبد الله محمد بن الحاج» أسوار قرطبة واستولى عليها، كما اقتتح الأمير «أبو عبد الله محمد بن الحاج» أسوار قرطبة واستولى عليها بعد مقتل النامون بن المعتمد»، ودخلت قوات المرابطون قرموشة، ورثى ثم المرة، وبعد أن تحرر «سيير بن أبي بكر» من أمر «أبي عبد عبادة» خف إلى بطنوس مملكة المتوكل واستولى عليها، وقد حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه قوات داوود ابن عاشيرة تستولي على المهلة والسبونت ووردية وعمرية، واستطاع يوسف بن تاشين بفضل تكتمه لأسراره العسكرية أن يهزم ملوك الطوائف في آن واحد وبحارتهم في أربع جهات بعد أن أمى غدر النصارى من أن يلقوا بخيلهم مع هؤلاء الملك أو يطعونه من الخلف.

وإذا كانت الجيوش المرابطية قد عرفت السرية وصيانة أخبارها العسكرية فإن الجيوش الموحدة كانت هي الأخرى حريصة على كتم أسرارها العسكرية فقد كان «عبد المؤمن بن علي» أحد القواد الذين تميزوا بالفكر والمهارة في كتم أخباره.
العسكرية ورسم الكمائن وإخفاء الوجهة التي يقصدها، ويتضح ذلك في فتوحات
عبد المؤمن بشمال أفريقية وعلى الأخص عند فتحه لمدينة بجاية مملكة بني حماد
الزبيرين ونياد أراد أن يسارع بضمها إلى مملكته لتكون مقرا له يحارب منه
النصارى النورمان في مدينة المهدية، فقد عاشوا فسادا في الثغور الأفريقية على
طول سواحل ليبيا وتونس وأوشكوا أن يندفعوا إلى بجاية، لم يكن أمام "عبد
المؤمن" من سبيل في إنقاذ هذه الشغور من أيدى هؤلاء النصارى غير الاستيلاء
على مملكة بني حماد التي تفصل بين مملكته وبين أفريقية "تونس".

وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العام الأول وهو أن عبد المؤمن خشي أن
يتخذ المراقبون المتضردون عليه من بجاية مقرًا لما قاموا به، وقد أكد هذا الاعتبار أن
النصارى بالأندلس قد تدخلوا مع "محمد بن مردش" وصاره "ابن هشام" وبنى
غانية الذين أسوا مملكة قوية بجزائر البليار "ميروقية وابضعة" بهدف إضعاف
الموحدين والقضاء عليهم بالمغرب والنورمان، لهذه العوامل كلها صمم عبد المؤمن
على ضم بجاية إلى مملكته.

كيف كانت خططه إزاء هؤلاء الأعداء جميعًا من النصارى والنورمانديين
وحلفائهم المرابطين المتمردين عليه، وكذلك أهل بجاية من بني حماد؟
إذن يتطلب الأمر خطة عسكرية تنفذ بمثابهة الدقة على أن تحاكي بالسراية التامة
لكل تحركاته، وهذا ما حدث بالفعل.

فقد أخطر عبد المؤمن حملته إلى بجاية بالسرية التامة، ولكن أفضل أعداء فيما
ينجه إليه، أذن للوفود الأندلسية التي كانت قد طلبت منه إذن في لقائه، بأن
تقدم إليه لتقابله بمدينة سلا، ثم أخذ يزود هذه الوفود بالنصائح، وبعد أيام انتهى
إلى مدينة سبسة موجهاً أنه يعود إلى الأندلس تحقيقاً لرغبة هؤلاء الوفود الأندلسية
الذكر، ولكن أзуه إلى الشرق بجيوشه فجأة وأمر منادي أن ينادي في الناس "بأيها
الناس من تكلمن منكم بكلام معناني لي أين هذا السفر كان جزاؤه السيف"(1) ثم
سار مسرعا نحو بجاية واستولي في طريقه إليها على جزائر بني مزغان - التي

(1) الخلل المشهود، ص (112).
مكانها مدينة الجزائر الحالية. وقد فر حكامها. ثم زحف عبد المؤمن إلى بجاية التي استسلمت له دون مقاومة.(1)

هذه بعض الأمثلة بين أهمية تكتم الأسرار العسكرية والتي تعتبر من أهم المبادئ العسكرية التي تكمل النصر للعاملين بها.

سادسًا: بث العيون وأعمال التحسس:

من المعروف في النظم العسكرية، أن أعمال التحسس لازمة لكل جيش سواء كان ذلك في مرحلة التنظيم الاستراتيجي «مرحلة ما قبل الحرب» أو في مرحلة التنظيم التكتيكي «قيام الحرب»، لأن القيادة الناجحة هي التي تدرس ظروف المعركة قبل أن تخوضها لتضع خطة محاكمة تكفل لها النصر، وهذه الخطة لا توضع وضعاً ارتجاليًا، وإنما توضع على أسس مدروسة، ومعلومات صحيحة عن عدد العدو ونوع سلاحه وأسلوبه في القتال وحلفائه الذين يتضمنون إليه خلال المعركة، وكذلك معرفة طبيعة الأرض التي سيتلقى فوقاً مع عدوة هل هي مستوية أم جبلية؟ هل هي صحراوية أم زراعية؟ هل بها أنهار يجب أن يوضع في الاعتبار اجتيازاً لها؟ هذه المعلومات كلها كان يقوم بجمعها الجواسيس وتقدم إلى القائد الذي يقوم برسم خطة بناء عليها، لذا يجب أن تكون هذه المعلومات صحيحة وسريعة.

وبقدر صحتها وسلامتها يكون نصره أو هزيمته.

وقد عرف المرابطون والموحدون قيمة أعمال التحسس في حروبهم، فكان من عادتهم إذكاء العيون في غزواتهم وقبلها، وأعتقد أنه ما من حرب قاموا بها إلا كانت خططهم وحركاتهم وفقًا للمعلومات التي جمعتها العيون عن أعدائهم، وإذا فكيف تمت تلك العمليات؟ ففي معركة الزلاقة أذكى المتعمد عيونه في محلات المرابطين خوفًا عليهم من مكايد الأذونش إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قبل أن الرجل من المرابطين لا يخرج على طرف المجلة لقضاء أمر.

(1) ابن الأثير، الكامل، ج (11) ص (16).
أو حاجة إلا وجد ابن عباد مطيعًا بالمحلة، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب الملاحات.

بل لقد قام الجواسيس بدور رئيس في هذه المعركة فقد قاموا بجمع معلومات هامة كان لها اعتبارًا في رسم الخطة التي ستيظاه بها المسلمون النصارى، فإن هذه المعلومات قد نهبت المسلمين إلى الميزة والخِذير من غدر الفنوس وشفائه لهم فيروى لنا صاحب الروض المعطار، أن القُواد المسلمين قبل الاشتباك في هذه المعركة قد أذكروا عيونهم داخل محلات النصارى ثم رجعت إليهم بأخبار هامة، فقد قالوا: "استرقتا السمع فسمعنا الأذونش يقول لأصحابه: ابن عباد مسهر هذه الحروب ووُلِدُاء الصحرأوايون وإن كانوا أهل حفاظة، وذوي بصائر في الحرب، فهم غير غارفين بهذه البلاد، وإذا قادهم ابن عباد، فأقصده وهجموا عليه، وأصبوا فإن اكتشف لكم هان عليكم الصحرأوايون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة؟!".

وعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب "أبا بكر ابن القصيرة" إلى السلطان يوسف يعرفه بذلك، وفعلاً قام يوسف برسم خطته على هذه المعلومات التي جمعها الجواسيس، فترك ابن عباد يتحمل الصدمة الأولى حيث هجم عليه الأذونش بكل جموعه وأحاطوا به من كل جهة، واستعرت الحرب، وشانت الجبال في أصحاب ابن عباد، وانتهى يوسف فرضة انشغال الأذونش بابن عباد، فأمر بعض قواده أن يمضى بكتبة رسمها له حتى يدخل محله النصارى فيرمها نارًا! وتُد. ولقد حرص يوسف أشد الخصص على أعمال التحصين هذه لما لها من قيمة كبيرة في رسم خططه الحربية والتي أضحى يعتمد عليها اعتقادًا كبيرًا، فعندما انتهت معركة الزلة، وشاهد من ملوك الطوائف تفاعموهم في جِهاد النصارى، وعمالاتهم لهم، فبأن يفسد لهم أن يقضيهم عن كراسي ملكهم ولكنه يجهل الكثير عنهم وعن ظروف جهتهم الحربية وأسرارهم العسكرية، فقرر أن يثب العيون في بلاد...

(1) المقري - نفح الطيب، ج (2) ص (528) نقلًا عن صاحب الروض المعطار.
(2) المقري - نفح الطيب، ج (2) ص (529).
(3) المصدر السابق ونفس الصفحة.

222
الأندلس لتكوين له معلومات وافية عنهم، فبدأ يوسف يراسل المعتمد في أن يستأذن به في رحلات سفره. وفي الوقت أنلاء، ومخاوف العدو في بعض الملاجئ المقابلة للروم، فأمر له المعتمد بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس "الموكل" صاحب الغور (1).

وقد جهز يوسف من خبر صحابه رجاءً أن يأخذهم وأمر عليهم رجلاً من قرايبه يسمى "بلجين" وأرسل إليه ما أراده، فأختار بلجين المذكر البحر ومجموعته إلى شبه الجزيرة واستقرت بها. درسوا خلالها مسالم البلاد وطبيعة أهلها وقاموا بمراقبة ملوك الطوائف ورصد تحركات شيئاً فشيئاً وإحصاء أعدادها وعددها، وأرسلوا ما جمعوه من معلومات إلى يوسف بن تاشفين الذي رسم على ضوءها خطته في خلق هؤلاء الملك ولهذا ما يطلق عليه في العرف العسكري الحديث "الطابور الخامس" (2).

وتمكن أن أعمال التجسس لم تنج رؤية من أمراء دولة المرابطين بعد رحيل عاهلهم الأول "يوسف بن تاشفين" الذي أولى أعمال التجسس هذه جل غايته واهتمامه، وأكبر دليل على ضعف أعمال التجسس بعد وفاته تلك الغزوة الكبرى التي قام بها ألفونسو ملك "أراكون" للأندلس وفاجأ بها المرابطين بناء على تحريض النصارى المعاهدين في أول شعبان سنة 5119 هـ - 1125 م.

فقد استطاع هذا الملك أن يخترق الأندلس من النهر الأعلى حتى شاطيء البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة مرابطية أن تخفى في سبيله.

ويخيل لي أن عيون المرابطين لم يجدوا رعاية أو شجاعة أو حسابًا من المستلون وذلك لأنغماس أمراء الدولة في الترف والشغف يتدهور الأحوال الداخلية لهذه الدولة، مما جعل عيون الأعداء ينصب في جميع معلوماتهم وإرسلها للملوك النصارى، وقد قام بهذه المهمة الخطرة في هذه الأزمة الخروج النصارى المعاهدون الذين يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية، ويتبعون برعايتها على حين أنهم لم يشعروا نحوها بذرة من الولاء.

---

(2) المراشقي - المجمع - تحقيق محمد سعيد العريان، ص (1990).
وإذا ظهرت قوة الموحدين بالمغرب واستفحل أمرها، فإما يدل أتم دلالة على ضعف أعمال التحصين في أواخر عهد المرابطين، لأن له لم يكن على هذا التحصين لنشط المرابطين في القضاء على تلك القوة الجديدة التي أضحت في تزايد مستمر. وما حلت به الهزائم المتتالية والتي كثيرًا ما وقع فيها جيش المرابطين فرصة في كمائن "عبدالؤمن بن علي".

وغني عن القول أن الموحدين قد أولوا أعمال التحصين اهتمامهم، ويدعو عبدالؤمن عاهل الموحدين الأول كان حريصًا عليها نظرًا لصراع المرير مع دولة المرابطين وحاجته المستمرة لعرفة أسوارهم العسكرية وتحركات جيوشهم وترصدهم له، وقد نجح في ذلك نجاحًا فائقًا، فقد استطاع أن يتسلم إليه أعدادًا هائلة من جواسيس المرابطين أغراهم بالمال وقربهم إليه مع مجموعة القواد والجند الذين تركوا الخدمة في الجيوش المرابطية وانضموا إلى جيش عبدالؤمن وجمعوا له المعلومات عن جيوش المرابطين، فكان يرسم خططه وفق هذه المعلومات أو يغير منها كما رأينا في حرب السهول والصحراء. ويقابل جحافلهم بخطط عسكرية جديدة كخطة المربع الذي أضحى عماد فنه في القتال ليتغلب به على تفوق المرابطين في سلاح الفرسان، ويصمم بأعداده أمام حشودهم التي كانت تتقوى عدة وعددًا.

وكمما حدث في أواخر عهد المرابطين من ضعف في أعمال التحصين فقد حدث ذلك أيضًا في أواخر دولة الموحدين بعد رحيل خلفائها الأقوياء، بدأ أتى نشأة سلسلة من الهزائم مثني بها الجيوش الموحدة مثل خفاشهم في حصار وذلت وهزيمتهم في معركة شنرين والكارثة التي حلت بالجيوش الموحدة في موقعة العقاب، وإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على ضعف أعمال التحصين في هذه الدولة بعد رحيل عبد المؤمن عنها.

سابعة: الرسالة قبل الحرب:

كان من عادة المرابطين والموحدين أن يوجهوا رسالتهم إلى من يريدون محاربهم قبل خوض القتال معهم، عملاً بتعاليم الإسلام الخنف، يدعونهم أولاً
إلى الإسلام لأنهم إذا يقاتلون الكفر ليدخلوا من الكفر إلى الإسلام لا إلى
النجل (1)، فإن رفضوا الدخول في الإسلام فرضت عليهم الجزية فإن رفضوا
دفعها، كان السيف هو الفاصل بينهما.
وتشير الرواية الإسلامية إلى أن يوسف بن تاسفيق قبل معركة الزلاقة أرسل إلى
الفونسو كتبًا يخبره فيه بين ثلاث: إما أن يعتنق الإسلام، أو يؤدى الجزية لأمير
المواطنين، فإذا أجاب الاثنين فعلبه أن يبادر بالأشياء للقتل، وأنه أي أمير المواطنين
القوى عبر نفسه إلى أساساً ليوفر على ملك الصارمي هذا العناء ويلبأ نفسه،
وقد شاء الله أن يجعل بنيهما في ميدان واحد، ومن جملة ما جاء في الكتاب
블غننا يا أدولف أنك دعت إلى الاجتماع نبا وتمت أن تكون لك سفن تعبر بها
البحر إلينا، وقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسنتري
عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (2).
وكان لهذه الرسالة عاقبتها السيدة على نفس الفونسو، فعندما قرأها ألقاه على
النار مغضباً، وقال للرسول: اذهب إلى مولاك وقل له إذا سئلتي في ساحة
الحرب.
وتشير بعض الروايات إلى أن الأدولف أرسل رده لكتاب يوسف جاء فيه «إلى
ما كنت آتوق أن يصل الحد بالمسلمين على هذه المقتراحات الجارحة، ومع هذا فإن
لقد جئنا في استطاعته أن ينزل العقوبة على هذه الرفقة من الأعداء (3).
فطلب يوسف من أحد الكتاب أن يرد عليه، وما سمعه يوسف رداً، وما رداً مطلقاً
فافتكف بان يكتب في حاشية كتاب البابي مقوله هذه العبارة: «الذي يكون ستراً»
وبعث إليه بهذا الرد (4).

(1) مقدمات ابن رشد، ص (266).
(2) ابن خلكان، ج (27)، ص (483)）， نفع الطيب (2) ص (347)، الجهل المشهورة ص (35)،
الأستقصاء، ص 114، مع خلاف بوجه في العبارات بين مختلف الروايات.
(3) دزي – ملك الطوارئ، ص (298).
(4) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة، وهذا الرد يذكرنا برذ الخليلة هارون الرشيد على كتاب البابي مقوله
فافتكف بان يكتب في حاشية كتاب البابي مقوله هذه العبارة: «الذي يكون ستراً»
وبعث إليه بهذا الرد.

222
وكانت رسالة يوسف الأولي للأئدفسوتش تشير إلى مضمون رسالة قد بعث بها الأئدفسوتش إلى ابن عباد، يرمي من ورائها أنها أن تدور رحي المعركة على أرض المسلمين صيانتة لبلاده، وليتمكن من الانسحاب إذا ما دارت عليه دائرته البارو، وقد جاء في كتابة ابن عباد: "إن صاحبكم يوسف قد تعني من بلاده، وخاص البحر، وأننا كنافي العنا، فيما بقي، ولا أكملكم تعاب، أمضى إليكم وألقاكم في بلادكم رفقة بكم وتويروا عليكم" (1).

ثم قال الخايفته وأهل مشورته: إن رأيت إن مكتمتم من الدخول إلى بلاد ناجوزني فيها وبين جبارها، وربما كانت الدائرة على يستحكون البلاد ويحصدون من فيها غدا واحدة، ولكن أجعل يومهم معني في حوز بلادهم، فإن كانت على فاكثرموها ما نانوه، ولم يجعلوا الدروب وراههم إلا بعد أهية أخرى تفكون ذلك أصول بلادنا وجزرًا لمساكننا وإن كانت الدائرة عليهم، كان منى فيها وفي بلادهم ما خفت أننا أن يكون في وفي بلادنا إذا ناجوزني في وسطها (2).

ولم يخف ذلك على القائد المجرب "يوسف بن ناشفين" فقد عبر إليه البحر وعاجله بالسيير إليه ليجبره على أن يكون اللقاء في أرضه، وهذه نظرية استراتيجية من أحدث التطورات في الحروب الحديثة، وذلك أن يجبر القائد عدوه بأن تكون المعركة على أرضه حفظًا على أمن بلاده وسلامتها من التخريب والعدوان، وهذا ما تشاهده في الحروب الحديثة مثلما عملت إسرائيل في معركة سنة 1967 فهنا

حرصت على أن تكون المعركة خارج حدودها حفاظًا على أمنها وسلامتها.

وقد كان رد السعداء والخلفاء المسلمين بالغاً أثره في نفوس الأعداء حيث يتميز بالبلاغة والاختصار الشديد، فالخليفة يعقوب الملصور قد أجاز جوازه الأول إلى الأندلس وأحرز نصرًا على المسيحيين ما جعل الأئدفسوتش يطلب هدنة خمس سنوات فاجابه إلى طله، ولكن الفنوس لم يكد يستردها حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب الملصور كتابًا يطلب أن ينزل الخليفة له عن بعض الحصون والمنزل بالأندلس، وما جاء في هذا الكتاب: "الله ي باسمك فاطر السماوات (2).

(1) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(2) المصدر السابق ونفس الصفحة.
والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمه الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفى على ذهنه ثاقب، ولا ذت عقل لازم، أنك أمير الملة الحنفية، كما أنى أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلاصهم إلى الراحة وأنا أسومهم بحكم القهر، وإخلاص السار واسباب الزراري، وأمثال بالرجال ولا عذر لي في التخلف عن نصرتهم إذا أمكنك القدرة.

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه من قوله تعالى: {ارجع إليهم فلنأتي بهم بجند لا قبل لهم به ولا خرج بهم منها أذله وهم صاغرون} (النمل: 27). ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات: "ما ترى ما تسمع".

(1) السلازري - الاستقصاء، ج (2) ص (167، 167).
(2) السلازري، ج (2) ص (167).
الفصل الثاني
المرحلة الهجومية وسيرة القتال
"التنظيم التقني" في الحرب:

1- مجلس الحرب:

إذا كان القائد قد أعد نفسه للمعركة، فهجز جيشه وأعد أفراده المقاتلين وزودهم بالأسلحة الضرورية لخوض المعركة، وقد جمع المعلومات الكافية عن عدوه: رجائه وعدهم وعدهم وتسليحهم، وأسلوب قتالهم، وعن مكان المعركة وظروفها إذا تم له هذا - فإن دخوله المعركة يتطلب اتخاذ خطوة هامة هي تدبيره للموقف العسكري.

هذا التدبير الذي ينتهي عادة بوضع الخطة التي ستبنيها الحيال خلال القتال.

وتشتهر نظرية الحروب المركبة والموحدة، يلاحظ أن رسم هذه الخطط لم ينفرد بها القائد العام بنفسه، فقد حرصت كل من القيادة على الاستفادة من خبرة القادة الذين يعملون في جيشه.

وقد كانت قواد الفرق المختلفة وولاية الأقاليم من رجال لمنونة يجتمعون بالأمير على هيئة مجلس حرب للمشاركة في مختلف الشروق العسكرية، ولاتخاذ خطة موحدة في معركة الجهاد.

وقد كان يوسف بن تاسفيحن على الرغم من براعته في رسم الخطط العسكري لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة. وقد أخذ برأي أصحابه ومن بينهم كاتبه "عبد الرحمن بن أسطث الأندلسي، في كيفية معاونته "ابن عباد" ضد النصارى، فافترض عليه لا يعبر إلى الأندلس قبل إخلاء حصص الجزيرة الخضراء وبالدا يملك وعضا، أسبا تشمل حامية مخلصة، وتلقب في كل وقت على اتصال دائم بأفراده.

وفي معركة الزلقة نجد يوسف قد اجتمع بقيادة الجيوش الأندلسية والمغربية واثتشاروا جميعًا في رسم خطة مشتركة لمحاربة ألفونسو، وكانت مدينة "بطرول" هي مكان الاجتماع.

(1) المقدمة محمد فرج، المدرسة العسكرية الإسلامية، ص (6). 2003.
(2) شيخ- تاريخ الأندلس في عهد المراقبين والموحدين، ج (2)، ص (244).
(3) المصدر السابق، ج (1)، ص (71).
وقد نهج الأفراد المرابطون بعد رحيل يوسف هذا النهج، فلم ينفردوا بأنفسهم في رسم خطة الحرب، بل كانوا يحرصون على أن يرشدوا نخبة من قوادهم الأكفاء المعروفين بالحنكة والتعرفة العسكرية. ففي موقعة "أقليش" نرى قائد المرابطين الأمير "تميم" يستعين بقادة في رسم خطة القتال لمواجهة النصارى كما جاء في رسالته التي أرسلها إلى أمير المسلمين "على بن يوسف" بعد فتح مدينة "أقليش"(1).

وقد كان تاشفين بن علي أيضًا قائداً محبوبًا من قادته وجوهده، فلم يقدم على عمل عسكري إلا بعد مشورة من خصمه وقادةه. ففي غزوة "جبيل القصر" اجتمع الروم في جيوش كبيرة فاستحضر الأمير تاشفين زعماء المرابطين والقبائل الأخرى، ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم. وقد تفاهموا جميعًا في وضع خطة مشتركة.org

وكان الخليفة الموحدي أيضًا قبل نشوب المعركة يعقد مؤتمراً حربيًا لوضع خطة الغزو. ويستمع فيه إلى آراء قادته، فعندما أراد عبد المؤمن أن يغزو أفريقيا شاور الشيخ أبو حفص وأبا إبراهيم وغيرهما(2).

وقد استعادت القيادة الموحدية بحرصها على استنامها قادة الأندلس والأخذه بمشورةهم وأرايهم في مؤتمر الحرب. وقد لدتها التجارب على سلامتها آراء هؤلاء القبايل؛ فقبل معركة الأرك عقد الخليفة المنصور مجلس حرب للتشاور ووضع خطة الحرب. وقد كان لقاد الأندلس رأى حمصف في رسم خطة القتال، فقد أشار أبو عبد الله بن صناديد كبير قواد الأندلس بأن تبدأ المعركة باستبكا سائر حشود الأندلس وقبائل العرب وسائر قبائل المغرب من زناها والمصيدة وغيرهم وجنده المطورة وأن ينتظر الخليفة في الموقف ومعه جيوش الموحدين من الاحتياط والعبيد والحمش في موقع مستور، فإن أسفرت المعركة عن انتصار الموحدين.

(1) رسالة الأمير تميم نقلًا عن عنان عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (536).
(2) ابن الخطيب - الإحاطة - تحقيق عنان، ج (1) ص (557).
(3) تاريخ ابن خلدون، ج (1) ص (244).
فيها، وإن كانت الأخرى فعندئذ يبادر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو، وليس بظهور قواته المشتبكة، ويكون العدو حينئذ قد خبت قواه فيكون النصر للمسلمين.
وقد أعجب الخليفة بهذا الرأي وقرر اتباع هذه الخطة (1).
من هنا يتضح أن وضع خطأ الحرب ضرورة حتمية تتحرك بها الجيوش قبل خوض المعارك، ويقدر ما كانت الخطة بارعة وقائمة على التشاور والتتفاهم مع كبار الفواد، بقدر ما كانت ناجحة ومحققة للنور والمئام.
2- دور الطلائع في المعركة «دوريات الاستطلاع»:
لقد أدرك قادة المسلمين دور الطلائع في المعارك، فكانوا إذا نزلوا بأرض العدو، يقدمون بعض الفرسان طليعة لهم ليختبروا أرض المعركة ويعزفوا مواقع العدو ويجتمعوا المعلومات الهمة عنها، ويضمنوا أيضًا سلامة الطريق الذي سيسلكه جيش المسلمين من كمين معد له، أو أي عائق يرفع تقدمه، وهذا ما يطلق عليه في العرف العسكري الحديث «دوريات الاستطلاع» بهدف الاتصال الدائم بالأعداء، والقيام بأعمال التجسس، ويتيم هذا غالبًا في بداية المعركة.
وإذا كانت الطلائع في العصر الحديث تقوم بأعمالها مستخدمة السيارات والطائرات ومخصصا بسلاح خفيف لسهل رجوعها للجيش بسرعة، فإن المسلمين قد كانوا يحملون الطلائع على سوابق الخيل، الجيدة الخوار، وظهر ويرسلونهم متخلفين من كل تنقل يعوقهم، ولم يرودوا بسلاح سوى قوس وجمعة بها عشر شابات أو عشرون وقد سمروا حقبتهم خلفهم (2).
وقد فضل لنا الهرمي置于 واحد عدد الطلائع وطبيعة عملهم، فهو يرى باللأ نقل الطلعة عن ثلاثة: أحدهم يأتي بالخبز، واثنان يتقدمان إلى العدو بحيث يكون بينهما مسافة ميل في تقدمهما لحذف كل واحد منهم ظهر صاحبه، وتصح لهم بأن يكون تطعهم على المرتفعات وألا يجبر خيلهم على الأرض التي يثور غبارها ولا يدخلون أكثر من ثلثي الطريق بينهم وبين عدوهم (3).

(1) روض الفرات، ص (147).
(2) الهريم: مختصر في سياسة الحروب ورفة (34).
(3) الصدر السابق نفس الصفحة.

221
وقد حرص القادة المرابطون والموحدون على أن يختاروا لطلائعهم فرسانًا عرفوا بالمجدة وخدمة الحركة، مع سرعة البديئة، حيث كانوا يخصصون فرقة من جيوشهم يقدمونها أمامهم للاستطلاع حذرًا واحترامًا من جهة كمين أو هجوم مفاجئ. وكانوا لا ينزلون منزلًا إلا بعد إذكاء العيون ومعرفة المكان ودارسته جيدًا، ثم تخصيصه بالحرص والحنان، وكان الجيش لا يتقدم إلى موقع آخر إلا إذا أخبرتهم الطلائع بسلامة الطريق والمنطقة التي سيحللون إليها.

وقد لعبت الطلائع الإسلامية في معركة «الولاقة» دورًا حاسمًا ورائعًا، فقد حذر المسلمون من غدر الألفوتش بهم، ودرأت عنه مغبة مفاجآتته لهم، فقد بث المسلمون طلائعهم تجاه معسكر التنين لیرقبوا تحركاتهم وتقدمهم، ورجة الطلائع تخبر أن العدو يشرف عليهم صبيحة يومهم وكان يوم الأربعاء، فاصبح المسلمون وقد أخذوا مصاباتهم، فلما علم الألفوتش باستعداد المسلمين رفع إلى أعمال المكر والخدعة، وأجل موعد المعركة، فعاد الناس إلى محلاتهم.

ثم جا الألفوتش إلى رسم خطة غدر بالمسلمين ليهتف بهم على غرة فأرسل إلى ابن عباد يحدد يومًا للجهاد، فقال في رسالته التي أرسلها له: (غدا يوم الجمعه وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لنا وبيهما وهو يوم السبت).  

وقد فظن ابن عباد إلى حيلة الألفوتش وعرف أنه يريد الفتك بالمسلمين يوم الجمعة وباختصار جاء بالليل فسار من طلائعه المتمدد يخبر أنهم أشاروا على محلة الألفوتش وسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلحق بقية الطلائع متحققين من تحرك الألفوتش والروم على أثرها، والناس على طمأنينة.

وبعد أن طلائع المرابطين كانت على قدر كبير من المهارة وخفة الحركة، ففي عام 524 هـ خرج العدو ليعبث ويخرب في أراضي المسلمين، وقد غنم منها

(1) نفح الطيب، ج2 (528) نقل عن صاحب الروض المطار.
(2) المصدر السابق نفسه الصفحة 53.
(3) المصدر السابق، ج1 (530).
ولهبها وسبيًا عظيماً، وقد بلغ الخبر الأمير هاشم فاخد فيه أعقاب العدو، وقد قام عليه ناحية بطلبوس وباحة وحيرة، فهرب في كثير من الأندلاع والشهداء، وقد قام قام الطالع بدور حاسم في الاحتكاك بالعدو، فقد تيضمت كل ذروة ناحية، ثم أرشدنا تأشيف إلى فناء بقرب بطلبوس، وهو المكان الذي سيعترض العدو المجري، إليه. فكم فيه، ثم أدرك تأشيف الطالع نحو العدو فاقتربت هذه الطالع منذة بالقبض بالعدو والغنم، في يده قدر ملتل الأرض، ودارت معركة ضيقة فيهما المراقبة المستمرة على النصارى، فهزموا وانتصرت تأشيف واسترد غنائم المسلمين(1).

وكانت من مهام الطالع أيضاً حراسة المحلة بالليل، ففي موسمة أقليش يقول في رسالته إلى أمير المسلمين (علي بن يوسف): "إلى أن جوز النهار مدة، ونهب الليل جنده، فعدنا إلى محلةنا، وكتبنا لم حراسة المحلة بطلبوس جنانياً وتندراً آفاقهم(2).

وعندما استولى الخليفة المنصور الموحد على قلعة رياح عقب انتصاره فيها موسمة الأرك عين قيادتها "إي حاجي يوسف بن قداس" وهو من أجداد الفرسان، والقادة الأندلسيين، وكان يهاب على حياتها والدفاع عنها في سعي فارس(3).

وقد تقوم الطالع بعمل خطير وهام لتأمين سلامة الجنود واحتلال الممرات الهامة في الجبال الوعرة لقطع الطريق على الأعداء. في عصور الجيوش المكونة نهر الراوي الكبير، واتهمت جنوبية، اختار الخليفة بعض الفرسان من خبره أعاده من الطالع، وطلب منهم أن يحتفوا مرات جبل الشارات المؤدية إلى باب وابدة، ومنها{x} لوسا الوعر الذي تستطيع أن تخلقه قوة صغيرة، وتمنع جيشاً كبيراً من جزءها. وقد قامت هذه القوة من الطالع باحتلال ذلك الممر، وأتت عبر الجيز الموحد بها، حتى نزلت الجيش كلها في البيض الواقع تعالى هذا الممر، وقعدت الخليفة الناصر أن يصم في هذا المكان للقاء النصارى(4).

---

(1) ابن الخطيب - الإحاطة - تحقيق عنان، ج(1) ص (61).
(2) رسالة الأمير تيم نقل عن عنان أصر المراقبين والموحدين، ج(1) ص (53).
(3) وضواحة الفرسان، ص (15).
(4) عيان - أصر المراقبين والموحدين، ج(1) ص (311).
وإدراكًا لأهمية دور الطلائع في المعركة سنتقف أمام وصية الكاتب "أبي بكر الصيرفي" لناشيفين بن علي ينصحه باستخدام الطلائع ويحسن اختيارهم من أهل الشهامة، ويحذره من كذبهم وخداعهم في قصيدته المشهورة منها(1):

وتوق من كذب الطلائع أنه لا أرى للكذاب فيما يصنع

٣- اختيار موقع المعركة:

إذا المتعبدة للدراسة المعارك الحربية الظافية في التاريخ يجد أن حسن اختيار مواقع المعارك كانت من الأسباب الرئيسية في الظفر والانتصار، فبقدر توفيق القائد ومهارته في اختيار أصحا مواقع التي ستدور عليها معركته بقدر ما يصيب فيها من نجاح وتوفيق، لأنه يتطلب أن يكون الموقع حسبا يضمن سلاما جيشه في حالتة الدفاع والهجوم.

ولم يغن المرابطون والوحددو تلك الحقيقة الهامة، فكثيرا ما كانوا يحصون مواقعهم بالجبال، يسندون إليها ظهورهم، والأنهار وفروعها يجمعون بمنعطفاتها، والبحيرات والمستنقعات تحيط بهم، بحيث لا يقتنعون عدوهم إلا من جهة واحدة أو جهة.

وأما كانت منطقة بلاد المغرب الأقصى جبلية فقد تزامت القيادة المرتبطة والوحدة بقاعدة الاحتفاء بالجبال والانحجار إلى المرتفعات لحماية الجيوش وتأمين سلامتها.

ومنهتعان أن نقول بحق أن القيادة المرتبطة والوحدة آمنت بحلفى المواقع الطبيعية وأهميتها، وخصوصا أن بلاد المغرب والأندلس يكثر فيها تلك المواقع الطبيعية من وديان وجبال وهضاب، وبئرات، فكانوا دائما يعترفون في تلك الأماكن الاستراتيجية متخذيها فاصولا أو ستارا أو ماميا لظهورهم مع حرصهم في الاستحوار على الأماكن التي تتواجد بها الماء حتى لا يبلكون عطشان ويصدمون لخصار طويل.

(1) ابن خلدون المقدمة، ص (٨٠٣)، الخليل الموسية، ص (٤٩٧)، وإن كان صاحب الخلل ينسب هذه القصيدة إلى "أبي زكريا بن العربي".
قد عملت القيادة العسكرية في تلك الجيوش بمبدأ عسكري يعتبر من أعظم المبادئ التي تعامل بها القيادة العسكرية العاصرة، وهو أنهم اعتادوا أن يقاتلون أعداءهم على أديان حجر من أرضهم، فإن انصرفوا لم يصعب عليهم التقدم، وإن كانت الأطراف تفرقوا في الشعوب والوديان التي يعرفون مسالكها فكم أقلهم أن يطردوا ويتجمعوا مرة أخرى يؤازر بعضهم بعضًا.

وسوف تشيرني الآن للدراسة بعض المعارك المباركة والموحدة لنستند على مهارة هؤلاء القواو في اختيار أصلح المواقع لمعركتهم الحربية، ونعرف كيف كان القائد يحمي ظهور قواته ويخترق لقلب الجبهة جبالًا أو أرضًا صلبة، وأنهم كانوا ينتمون قواتهم ويشكلونها طبقًا لظروف أرض المعركة إن كانت مستوية أو جبلية أو صحراوية أو زراعية، وكذلك كيف كان هؤلاء القواو يقدرون آخر الجو في العمليات الحربية، لأن الجهل بطبيعة الجو يؤدي بالجيش إلى هزائم ساحقة، لهذا كانت القيادة تتعلم بدراسة المناخ وطبيعة الجو، ويبقى هذا موضع الاعتبار عند وضع الخطة. ففي معركة الزلاقة أثبتت القيادة المشتركة من المراقبين والأندلسين مهارة فائقة في اختيار أصلح المواقع لإدارة دفا القتال عليها، فقد كان أمهم موضعًا: إذ إن يتقدموا صوب مدينة قوية على نهر ناجحة ثم يقتضموا منها على مدينة طليطلة فيضروا عليها الخصائر ثم يعودوا إلى المسلمين. ونافعًا أن يتحركوا صوب بطيوس في الشمال الغربي لمدينة أشبيلية(1).

ولكن العبرة العسكرية المباركة التي تقوم الجبهة المتحالفة من حضور المغرب والأندلس، لم تعتمد إلى الغامرة، وتنتمى صوب طليطلة رأسًا، ولكنه اختار من بطيوس مسرحًا لمعركته مع النصارى، لأنه ل陶 توجه إلى طليطلة لمتصيد تمغله في ديار النصارى، وهي أرض يجهلونها، وليس لهم علم بطرائق النصارى وأساليبهم في القتال، ومن هنا يسهل على النصارى تطويقهم من الخلف، ويقطعوا صلته بالجرب ويرفضون على جيوشهم قضاة تمامًا.

بل فضل العاهل المراطي أن يرابط بقواته قريباً من بطيوس في انتظار لقاء النصارى حتى إذا سادت عليه الدائرة استطاع أن يلود بأسوار بطيوس ويعتصم كهدنة.

(1) حسن أحمد محمود - قيم دولة المرابطين.
بقلتها الحضينة، يؤكد ذلك توقيت الأنباء بتدفق قوات النصارى صوب هذه المدينة لملاقيات المسلمين.

وبالفعل قد أفادت هذه الجبهة وذلك الموقع قوات يوسيف بن تاشفين حيث عسكر بجيشه في فحص الزلقة، وكان يفرص بينهم نهر بليطس، وفي بطاح ذاك الفحص الذي تسخنه الأحراس، ضرب محتله وراء روة عالية تجبه عن أنظار النصارى، متفرغًا عن محلة الأندلسين.

وقد وقفت في قلب محتله يرقب تحركات العدو، متفرغًا فرصة مواتية لينقس كالصاعقة، ويحدث مفاوضة استراتيجية وتكنيكية (1) تحدث خلأت في صفوف العدو.

فلم رأى الجيش القشتالي قد التحزم بالأندلسين بدأ ينفذ مفاوضاته، وهي مباغتة العدو من الخلف، فزحف بأكبر جزء من جيشه على معسكر الأندلسين، وأجرى مذبحة هائلة في الجنود الموكلين بحراسة العسكر، وأشعل النار فيه فاحتراق، وانقض على ظهر القشتاليين وهو يحتوي أمامه الجنود الفارين (2).

أما عن اختبار المواقع التي تقوم عليها معارك الموحدين هذا ما سئلته من خلال معركة الأرك الشهيرة التي انتصر فيها الموحدون على النصارى.

فعندما تجمعت الجيوش الموحدة في جزيرة طريف استلأت مسيرةها إلى أشبيلية حيث مكث فيها الخليفة أسبوعين ينظم جيشه، ثم غادرها إلى قرطبة مخترقًا نهر...

(1) قيم، دولة المرابطين، ص (272) وما بعدها.
(2) تقوم المفاوضة الاستراتيجية على إخفاء نية الهجوم ووقت الهجوم، وحجم القوات المهاجمة، ومكان الهجوم أي (النبرة والوقت والجسر والمكان) وتطلب المفاوضة الاستراتيجية السرية النامسة في التخطيط، وفي حشد القوات وتعبئتها مع اتباع أساليب الخداع السياسي والعسكري. انظر اللواء محمد جمال الدين محفوظ المدخل إلى العقيدية والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (426). أما المفاوضة التكتيكية، فتحدث في نطاق القتال التكتيكي ومن أمثلتها إتباع أساليب مبتكرة في القتال والاندفاع في الأساطير الغير متوافق والسرية في تحرير القوات والتغيير المفاجئ لأغراض تحركها، وتحقيق عمومًا بما تحقق به المفاوضة الاستراتيجية فيما عدا النبرة. انظر المصدر السابق بنفس الصفحة (191)، قيم دولة المرابطين، ص (272) وما بعدها.
(3) انظر في وصف الزلقة، دورة ملوك الطوائف، ص (310) وما بعدها، أشابه، ج (1) ص (82)، وما بعدها، نهج الطيب للاستوري، ج (2) ص (543)، عبد الله بن يلكنين الشهبان، ص (138)، الخليل الموشي، ص (47)، روض القرطاس، ص (94).
الواصل الكحّل، ثم استراح بها ثلاثة أيام، ثم خرج منها من باب «مورادال» وسار
في قواته شمالا صوب سهل «شبلطرة» وقلعة رباح، أما ألفونسو الثامن ملك
قلعة قسرع بحشد قواته ببطولة بمجرد سماعه عن قدم الموحدين، ثم غادرها
سرعا نحو الجنوب، واختبر تهر وادي يانة متجمها نحو أراضي قلعة رباح إلى أن
وصل حصن الأرك وعسكر به، يريد أن يلتقى بالموحدين في ساحة هذا الحصن.
وكان ملك قشتالة قد أنهى هذا الحصن في محلة تعرف بالأرك وهي من أعمال
قلعة رباح تقع على مساحة أحد عشر كيلو مترًا في غرب مدينة «ثيودريال»
الحديثة(1). وهذه المحلة تقوم فوق ربوة عالية تمتد سفوحها حتى نهر وادي
يافا، وكانت وتقنن هي نقطة الحدود بين قشتالة وأراضي المسلمين.

وقد استمر الخليفة المصور في سيره مختصرًا أراضي قلعة رباح حتى وصل إلى
قرية من محلة الجيش الفيشائلي المعسكر في الأرك، واستمر في سيره حتى اقترب
من معسكر النصارى بقدر مرتين(2)، متخذا من السهل المنساب معسكرًا له،
بينما عسكر النصارى إلاسان على الربوة نفسها المعروفة بمغتتها ووضوحها حتى
يتحكموا في المسلمين من علي، ويلودوا إليها ويتحصنا بها.

وتشرف هذه الربوة في اتجاه الجنوب على وادي عميق متدنجر وهو المكان الذي
دارت فيه المعركة، ويجري وادي نهر يانة بحذائه هذا الواصل من شماله وغربه
وبدور في انحناء كبيرة حول ربوة الأرك، ويطلق اليومن على هذا الواصل الذي
تغمره الخضراء اسم محلة «ديجو»(3).

وتنص بعض النصوص عن وجود مرفق كبير في محلة المسلمين وقلعة
المدار، فمن المحتمل أن النصارى قد اتخذوا من مشارف ربوة الأرك مكانًا
لجلتهم على مقررة من حصن الأرك، وذلك ليعتصموا به وقت الازعج، ويسند
أيضًا إلى نهر وادي يانة ليحموا به ظهورهم، وقد امتاز موقعهم أيضًا بأنه على
اتصال بقارة بوليتي، التي يمكن أن تمدهم بالأمدادات التي يحتاجون إليها.

---
(1) عزقل - عصر المراقبن والمؤيدن ج(2) ص (211).
(2) روض الفرات، ص (147).
(3) المصدر السابق ونفس الصفحات.

277
أما عن محلة المسلمين فقد اخترعوا لها موقعًا حسيئًا أيضًا وسهلًا للمعترك، وعند تطعيم أن تمرق في خيول المسلمين، حيث كانوا يحتلون البسيط الواقع أمام هذه الربوة في أسفل الوادي، وقد حصنوا ملاحقهم بسرة وادي بانة من جهة الغرب، ولفتت الآن وقفة متائية لى ما يسفر عنه أهمية موقع كل من الطرفين في إحرار النصر، حيث كان كل من القائدين بارعًا في اختيار موقع ملاحته.

وفي الرغم من أن النصارى كانوا يحتلون مكانًا مركبًا وهو بربة الأرك، لينقضوا منها على جيوش الموحدين في البسيط أسفل الوادي، ويلوذوا بها عند الفرار، إلا أن الموحدين قد عرفوا ما لهذه الربوة من مزايا استراتيجية فاستغلوها في فهم خططهم، والتي تقوم على تحمل الصدام الأولي ثم يحولونها إلى ضربة مضادة حيث يحيطون بالنصارى في بقاع هذا السهل ويطرقونهم ويحرون بينهم وبين الاختيار بات تلك الربوة ويعملون لهم مصيدة تخصرهم وتبديد جيشهما.

وفي ضحى اليوم التاسع من شعبان سنة 591هـ - 1141م، نشب المعركة وكانت عنيفة، وقد تلقى الموحدون الضربة الأولى حيث إن الفتحي قد هبطوا من محلتهم في صفوف كثيفة قائمة كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسراباً تتدوير أسراباً، وأمواجًا تعقب أمواجاً(1)، وقد أدرك لنا صاحب روض الفاطس كيف استطاعت هذه القوة النصرانية أن تصد ضرباتها الأولى: إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أو كانت، ثم تقهيرت قليلاً ثم عادت إلى الاقتراب من المسلمين ثم ارتدت وتهبأت للهجوم الفعلي، وقد ركزت هجومها على قوات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، وقد كانت الصدمة شديدة، فقتل أبو يحيى، وقال معه جماعة من هتافانة والمطوعة وغيرهم. وعند ذلك، تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغوار والرماة وأحاتوا بالنصارى من كل جانب، ثم دخلت جيوش الأندلس إلى المعركة ورحبت مع قبائل زناتة وسائر قبائل البربر، واندفعت الجيشه الموحدة جميعها نحو محلة القشتاليين، واشتد القتال بين الفريقين وكثرة القتال في مقدمة القشتاليين التي قامت.

(1) روض الفاطس، ص (149).
بالهجوم الأولى، حتى اضطروا إلى التقهقر نحو الربوة فحالفت القوات الموحدة دون ذلك، فارتدتا ثانية نحو السهل فحملت عليهم العرب والمطوعة وهنعانة والأزغار والرماة، وعملوا فيهم سوفهم وراحهم وحضدوهم حصدًا وأفونهم حسبما تقول الرواية الإسلامية(1).

من هذا العرض يتضح أن القادة المسلمين كانوا ذا مهارة باختيار أصلح المواضع التي تدور فوتها معاركهم، بل ما من معركة ظفر بها المرابطون والموحدون إلا كان للموقع الذي اختبر للمعركة أثر عظيم في الظفر بأعفادهم.

4- أنظمة التعبئة:

وقد أعطانا ابن خلدون وصفًا لأنظمة التعبئة وقدمه إلى نوعين فقال: وصفة الحروب الواقعة بين الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين:

أ- الزحف صفوفًا: وهو قال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم.

ب- الكر والفر: وهو قال العرب والبربر من أهل المغرب (2).

فإن خلدون في هذا التقسيم يخص العجم بطريقة الزحف صفوفًا، ثم يعود ويتعذر في موضع آخر بشأن العرب كانوا يقاتلون زحفًا وذلك لأنهم وافدوا أن يقاتلوه أعداءهم بريئتهم (3).

ويمكن إزالة هذا الغموض إذا اعتبرنا أنه يريد بالعرب الذين ذكرهم في كلامه عرب بني هلال الذين حاربوا البربر في زمنه ببلاد المغرب.

ويبدو لنا أن المسلمين في بلاد المغرب سواء كانوا مرابطين أو موحدين كانوا يستعملون الطريقتين في المعركة الواحدة فإن كان يغلب في أنظمة نظام الصف، حيث كانوا يزحفون صفوفًا، وقد صفووا خلفهم أعدائهم وراحهم، فإذا احتلت

---

(1) روض الفوطار، ص (150)، ثم انظر هويتي، في بحث عن معركة الأراك، المنهد المصري بمدريد مجلة Grandes Campans de alarco، vol.11.P. 62-67 batalles de la reconquista.p152.
(2) القيادة لابن خلدون، ص (226، 227).
(3) المرجع السابق، ص (228، 229).
الظروف لا يسهم عنا في رحلتهم فاعادوا تنظيمهم للقيام بهجوم جديد،
وهذا ما كان يسمى عنهم "الكره بعد الفرحة" أو "الرجعة بعد الجولة"، والغرض
من الجولة أن تعرف القبيلة النسبية في الفرارة لأنهم عن المعروف أنهم كانوا يصفون
جنودهم على أساس قبلي، ويعين القائد لكل قبيلة مركزاً ويجعل لها قائداً
لتبدي القبائل في إظهار بطولتها، وتخزى أن يهزم الجيش بسبيها.

وقد فضل المسلمون نظام الصف في معظم حروبهم لما فيه من مزايا قتالية
للعاملين به فهو أصح في القتال وأرحب للعدو، وقد أفضى ابن خلدون الحديث
عن مزايا نظام الصف فقال: "وقتى الزحف أوثق وأشد من قتال النار،
وذلك لأن قتال الزحف ترتيب فيه الصفوف وتتسود كما تسوى القداح أو صفوف
الصلاة، ويحشون صفوفهم إلى العدو قدمًا، فذلك تكون أثبت عند المصارع
أصدق في القتال وأرحب للعدو، لأنه كالخانق المعنيد والقصر المشيد".  

وقد حرص المرابطون على استعمال نظام الصف في معاركهم عملاً بالقرآن
والسنة الشريفة، وقد أقدمت لنا الرواية الإسلامية وصفًا لطرقاتهم في القتال "بنظام
الصف" يقول البكري: "وكان للمؤمنة في قتالهم شدة ومباس خيالهم، وكان
قتلهم على النجح أكثر من الخيل، كان أكثر قتالهم مرتجين يقفون على أقدامهم
صقاً بعد صف، يكون بأيدي الصف الأول منهم القناطيل، وما يليه من
الصفوف بأيديهم المزارين، يحمل الرجل الواحد منهم عدة يزرقها فلأ يكاد يخطئ
وتأشى، ولهما رجل قدموه أمام الصف بيدته الراية فهم يقفون ما وقفت
منصتة، وإن أمالها إلى الأرض جلستها جميعًا، فكانا أثبت من الهضاب، ومن فر
أمامهم لم يشبعوه، وكانوا يختارون الوقت على الأبهام، ولا يحتفظ لهم فرار من
زحف 4)، وبهذا الوصف يكون المرابطون قد طبقوا فرائض الجهاد الخمسة التي
ذكرها ابن رشد: "الطاعة للإمام، ترك الغول، الوفاء بالأمان، النبات عند
الزحف وعدم الفرار" 5).

1) مقدمة ابن خلدون، ص (269، 229)، مخطوطات الهرنسي ورقية (4).
2) أبو عبد الربكاري - المغربي، ص (166).
3) مقدمات ابن رشد.
وقد تعود المسلمون ضرب المصاد وراء العساكر من الجمادات والحيوانات، فيتخذونها ملجأ للخيالة في كره وفرهما، يطلبون به ثبات المقاتلة لن يكون أدموم للحرب واتقوم إلى الغلب، وكان هذا النظام متبعًا على مذاهب أهل الكر والفر، وكذلك من أهل الزحف ليزيدهم ثباتاً وشدة.

فالفرس كانوا يتخذون الفيلة في الحروب ويحملون عليها أراجًا من الخشب مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرمايات، ويصفونها وراءهم في حومة الوعي كأنها حصون، بينما كأن الروم والقوط بالأندلس يتخذون لذلك الأسرة، ينصبون للملك سريره في حومة الوعي ويحف به الخند وحاشيته وجنوده ومن هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرمايات في أركان السير ويدفع به سيجار آخر من الرماة والرجالة فيفظح هيكل السير狱، ويصير فيئة المقاتلة وملجأ لكل الكر والفر.

أما نظام المرابطين وهو قوم صحراويون فإنهم كانوا في أول أمرهم يتخذون من إبلهم ودوابهم التي تعمل مستعده، فيئة لهم يسمونها "المجويدة" تتوثق هجمتهم وتدارخون دربهم، وقد كانوا يعتمدون على الأبل في أول عهدهم اعتمادًا كبيرًا حتى بعدما تمدينت جيوشهم، فقد أبقى يوسف نظام الإبلة يقيم منها صفوفًا تحدث بمسمى وتحمي مؤخرته، وتؤمن طرق مواصلاته، فلا يعتمد العدو إلى قطعها وتهددهم، وقد ظهر دور الأبل في معركة "الزلقة"(1) كما عرفنا سابقاً، واحيانا كان يتخذ منها الفرسان المرابطون سواتر وحصوناً يستترون وراءها، ثم ينفذون من خلالها للضرب والطعن ثم يعودون إليها، فهي بهذا تقوم بدور الفيلة عند الفرس.

وبدأ أن المسلمين قد أبطلوا هذا النظام على عهد "ابن خلدون" حيث يقول:

وقد ألغثوا الدول لعهدنا بالحملة، واستياسوا به الظهر الس秦皇 للأنفال والفاشط يحملونها ساقية من خلفهم، ولا تغناه الفيلة والأبل فصارت العساكر عرضة للهزناء ومسترعتة للفرار في المواقف.(2)

وقد كان من عادة ملوك المغرب أن يتخذوا طائفة من الجند الإفرنج في جيوشهم كما هو الشأن عند المرابطين والموحدين، فما السر في ذلك؟

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 23.
(2) مقدمة ابن خلدون، ص 262.
إننا لنراه دائماً يستخدمون هذه الطائفة في مقالة أهل المغرب من العرب والبربر فقط ويرجع السبب في ذلك إلى أن المرابطين والمحددين يتخذهن من فرقة الإفرنج مضافًا وراء عساكرهم بدلاً من الجمادات والحيواتات التي كانوا يخصصون بها ويزيد من ثبات المقالة، ومن هنا كانت هذه الفرقة عوضًا عن ضرب المصاف وراء العساكر حتى تكون رداً للمحات مرة ألم، وقد اختاروهم من النصارى لأنهم أقاموا تعودوا التحابات في الزحف، ولم يستخدمواهم في مقالة النصارى بالأندلس حذرًا من تمامتهم على المسلمين، وكان هذا هو النظام المتبع في المغرب على عهد ابن خلدون(1).

ويبدو أن المرابطين قد جمعوا بين نظامي الكر والفر ونظام الزحف في حروبهم الأولى ضد ملوك المغرب، وكان هذا نظامًا أمنًا عليه طبيعة المرحلة التي ظهروا فيها وطبيعة البيئة التي يحاربون عليها. ولتأخذ على ذلك مثالًا بين طبيعة حروب المرابطين مع ملوك المغرب في أول عهدهم ولتعرف من خلاله أنواع التعبئة للقتال في هذه المرحلة. وهذا المثال سيكون حول استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس التي تكثر حولها الحصون والتي طال استبلاها عليها. وفي الحديث عن الأسلوب التكتيكي لفتح هذه المدينة سئف قليلاً عند مصطلح عسكري ورد في عبارة لابن خلدون حيث يقول: "وأرتحل يوسف إلى مدينة فاس وتقرر منازلها، وافتتح جميع الحصون المحيطة بها"(2) فماذا يعني ابن خلدون بلغة "تقرر؟" التقرر في اللغة: استقرت البلاد أي تبعها يخرج من أرض إلى أرض(3)، وهو أن توجه الجيوش إلى بلاد المنطقة على الأتفق لحصار مدينة معينة مكتبة بحرب الجيوش التي تخرج إليها فقط وما يمكن أن يحصل عليه من مكاسب ممكنة، فإن تنضم إليه مدينة والمند في هذا الوقت كلها محصنة، وهو ما يطلق عليه سياسة النفس الطويل حيث يعتمد على إجهاد الخصم وتذويجه حتى يقع فريسة في يده.

---

(1) نفح الطيب، ج(2) ص (184).
(2) تاريخ ابن خلدون، ج(6) ص (184).
(3) المختار من صحاح اللغة مادة "تقرر".

442
وأمام هذه الظروف جرت حرب فاس بتكتيك التقرية عليها وعلى ما حولها من حصون صغيرة وكثيرة متشرة على المشاريع الجنوبية لجبل غمارة، فكان بذلك يتعرض لمجال فاس وعمارة، بينما كان يعرض الصلح والسلم على صاحب تجاونة ويدعو للتعاون معه ضد طغايا مغراوة.

وانتهى التطبيق أن تنقEMY الجيوش من الجنوب حتى ترد منطقة فاس فتدور على حصونها ثم تسير مع نهر سبأ أو مع روادها النازلة من جبال غمارة حتى تدور حول ما تشاء من الحصون ثم تعود، إذن ما هو تفسير حملات يوسف هذه نحو فاس وخاصة إن الحملة تنقMY فتред مدينة فاس، وقد تلقى بعض الجوشن، وقد تصلح بعض الحصون، ثم تنقMY مرة أخرى نحو غمارة، ثم تعود دون أن تحقق هدفًا ثمينًا. إذن ما هو الهدف؟ إن الهدف هو التقرية انتظارًا للشوط الأخير الذي يقع فيه الصيد المطلوب. وقد طالت عمليات التقرية هذه حتى سقطت فاس عام 422م، ووقعت الحصون التي تحكم المنطقة "عمارة" عام 425هـ، ثم وقعت منطقة تازا في شرق فاس عام 437هـ، على حين كان إبتداء هذه العمليات كلها عام 456هـ، أثناء حصارهم في القرى المشهورة "تامهديت"(1).

إذن إذا إزاء هذه الظروف فإن أنجب أنواع التكتيكات العسكرية للمرابطين هو نظام الكر والفر، ولكن أغلب تكتيكيهم العسكري كان يقوم على نظام الصف "الزحف" في أغلب معاركهم بالأندلس، وقد ذكر لنا ذلك مؤرخ معاصر وهو الطرطوشي.

(1) انظر محمد عبد الهادي شعيباء - المرابطون، تاريخهم السياسي، ص (88، 89).
حيث وصف طريقة اللقاء مع العدو في بلاد الأندلس، وكان هذا في مستهل الحكم المرابطي: «أما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رايته في بلادنا، وهو تدبير نفعه في لقاء عدونا، أن تقوم الرجال بالدروع الكاملة والرماح الطوال والمزاريع المسنونة اللافعة، فثوبون صفوهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض»(1).

يتبقى أن نعرف عدد هذه الصفو ونوع السلاح المستخدم في كل صف، وفيهم النصوص السابقة أن المسلمين في المغرب والأندلس كانوا يستخدمون صفين وأحيانًا ثلاثة صفو: في الصف الأول منها القنا الطوال، وما بليه من الصفوف تحمل المزارع كثاف فهم من كلام البكيري السابق في وصف طائر قطال لتوثيق(2).

وبدو أن إبالة المرابطين كانت تشكل صفاً ثانياً تحمل الفرسان الذين يقفون أمام الصفوف وإلى الجانبين، وذلك لتتمكن الرماة من مزاولة عملهم، وقد غير يوسف نظام الإبالة إلى نظام الخيلية بعد استيلائه على مدن المغرب الأقصى.

وقد اعتاد المرابطون والموحدون أن يجعلوا على الخيلة أميرًا خاصة يعثرون إليه لحمايته الجانبين. وهو نظام متبع في معظم الجيوش الملاحية في ذلك الوقت، بينما تقوم بحراسة فرسانهم رماة من العدائين والأجيال الذين اشتراهم المرابطون والموحدون من غانا، وجعلوا منهم أعدادًا كبيرة في فوق الخرس الخاص لما عرف عنهم من إتقان فن الرمي.

أما الموحدون فقد كانوا يصفون أربعة صفوف من الرجال: في الصف الأول بأيديهم القنا الطوال والطوارق المائحة، ومن ورائهم صف ثان من أصحاب الدروع والخرباب ومن ورائهم صف من أصحاب المخالي والحجارة، ثم الصف الرابع والأخير من الرماة وكانت تشكل هذه الصفوف على هيئة مربع وترك في الوسط دارمة مربعة ترتبط فيها قوى الفرسان.

(1) سراج الملوك، ص(179).
(2) المغرب، ص(166).
ويصف ابن البسج جدوى هذه الخطة التي اتبعتها عبد المؤمن ضد المرابطين:

1. كانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم لاتجه إلا الرماح الطوال الشارعة والحراب وطريق الحجازة والسهام ياسر، فحين تم من الدفاع وتثبيت، أخرج خيل المسلمين من طريق تركوها وفرج أعداؤها فنصبهم من أصابات، فإذا كتب عليهم دخلوا في غابة.

(1)

ويمكن تلخيص فوائد نظام الصف وأهم مزاياه فيما يأتي:

1- يتلائم هذا النظام مع متطلبات الترتيب العمقي مما لا يدع مجالاً لقيام العدو بعملية خروق للجبهة.

2- يترك بوع الشافع إمكانية الاحتفاظ بالصف الأخير كاحتياط يجوز في المكان المناسب عند الحاجة أو تكليفه بمهام الهجمات المعاكسة.

3- يؤمن تحقيق مبدأ السيطرة أكثر من نظام الكر والفر.

وحين كثر عدد القتالين من المسلمين وذلك باستيلاء المرابطين على المغرب والأندلس واحتاكؤهم بالنصارى في حروبهم، تطور نظام الصفوف إلى ما يسمى "التبني" أي ترتيب المقاتلين على نظام الكراديس، والكراديس كلمة يونانية ومعناها الكلة أو الكتيبة، والكتيبة تسمى باليونانية "Roartis" و"Phalanx".

وقد شرح لنا ابن خلدون خلاصة هذا النظام وفوائده فقال: "إن الدولة الكبيرة الأندلسية المماثلة، كانوا يقسمون العساكر أقسامًا يسمونها كراديس، ويسعون في كل كراديس صفوفه، وسبب ذلك أنه لم كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قارية النواحي، استدعي ذلك أن يجهل بعضهم بعضًا إذا اختلطوا في مجال الحرب، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لجهل بعضهم بعضًا، فلمكانوا يقسمون العساكر إلى جموع ويضعون المتحاربين بعضهم لبعض، ثم يرتبونا قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد.

(1) الخليل الموشي نقولا عن ابن البسج، ص (98).

(2) مقدمة ابن خلدون، ص (229).
في القلب يحيط به أربعة جيوش مستقلة بقوادها، جيش في اليمين يسمى "الميمنة"، وآخر في الشمال يسمى "الميسرة"، ثم عسكر آخر من وراء العسكر يسمى وقفاً، ويقف الملك في الوسط (1).

ويمكن إجمال نظام الكرديز في النقاط التالية (2):

1- العمل على تجاسى الجنود وحشدهم في مجموعات متعارفة حتى لا يجهل بعضهم بعضًا.

2- سهولة ومرونة تشكايل القوات وتحركاتها إبان المعركة وتعزيز موقف كل منها حسب ظروف المعركة وأوامر القائد الأعلى.

3- يمكن لهذا النظام تشكايل الجيش ذات العدد القليل لتحديها من مواجهة الجيوش ذات الأعداد الكبيرة، وذلك بتشكيل معين يختلف تشاكيل العدو فيحقق عنصر الفاجأة الاستراتيجية.

4- نظام الكرديز يدعم فرق الجيش بعضهم بعضًا ويعطي فرصة سانحة لقوى الفرسان أن يباشر عملها حسب أنه يكون بين جناحي الميمنة واليسرة طريقان لمرور الخيل ومرور أصحاب المبارزة فيكون بين الصفوف فرصة عند صاحب الميمنة وفرصة عند صاحب الميسرة عند صاحب القلب (3).

5- نظام الكرديز أثبت في الحروب لأنه إذا انهزم كردوس يثبت كردوس آخر، أما الصف إذا انهزم يعده تداعي سائره (4).

(1)Gitab ابن خلدون، ص (263).
(2) وقد كان نظام الكرديز شائعًا بين المسلمين في القرن الثاني الهجري كما كان متبعًا في النظام البيزنطي.
(3) وجب أن يكون بيروان بن محمد الخليفة الأموي أمر بتباع نظام الكرديز وجعله نظاماً رسمياً ولكن المتصفح لم يجد أن المسلمين لم يبطلوا نظام الصف نهائيًا بل كانوا يستعملون النظام معاً، فقد لاقت نظام التعبئة هذا معارضة من بعض دعاة الخلافة من أهل البيت الذين اعتبروا العدو عدوان على نظام الصف إلى نظام الكرديز بدعوى جيب إيطاليا، وظلوا فعلاً على الزحف صفوفاً، فإن الإمام الذي كان في حربه ضد الخليفة الناصر، يلزم نظام الصف ويбудد نظام الكرديز بدعوت الفيقول: "لاصطف النصارى إلا صف الإسلام"، وكان في النهاية هزيمتهم أمام العدو الذي اتبع نظام الكرديز.
(4) Mخطوط البديع، ص 264.
(5) ابن الأثير - الكامل، ج (299).
فقدступил المزمنين في مائر جموعهم، ونحوضهم؛ فالناربى نلم حملة القصى، وحملة النبل، والملف الزيتون، وألم فرضة، علماً تحكم النصر في المعارك الحاسمة، أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين، باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابط، وتألف من صفوه الجند وقوى الحرس على اختلافها، وكل هذا في المؤخرة أو ساق الجند.

وقد أفتتح الرواية العربية بوصف لجيش المرابطين في المعركة كان يقولها الأمير، تاشفين بن على سنة 524 هـ، ضد النصارى في فحص النزاعات بنبطيروس:

فلما تراؤى الجموع، واضطرت المحلات، ورثفت المراكب، فأخذت مصافقة ولزمت الرجال، مراكبهم، فكان في القلب الأمير، ووجه المرابطين، وأصحاب الطاعات، وعليه النبوذ الباسقات مكتبة بالآيات، وفي المجتبيين، كبار الدولة من أبطال الأندلس عليهم حور الرايات بالصور الجاهلية، وفي المجتبيين، أهل الغفرة والأشباح، من أهل الجلاء علىهم الرياس المرتعة بالعذبات المجزعات، وفي المقدمة مشاهير زناة وليف الخذاء بالرايات الصباغات والأعلام المنبتات.

ومن الملاحظ في هذه التجربة أنها قامية على نظام قبلي محض، فكان الحكم، وهم من الزناة، والمصممة، يعلومون قسمًا مستقلًا بذاته، وكان الأندلسيون والطاعة يعلومون قسمًا آخر مستقلًا، أما فريق ثوان، وغيرهما من أهل اللئام، فكان مستقلًا عن الفرق الأخرى، وكانت هذه الفرق تحشد في المعركة كالأي: فريق الحكم مع فرسان ذوات الهجاء في المقدمة، وفرق المله، في القلب، أما المحاربون من أهل الأندلس، فكانوا أحيانًا في الساحة أو مع أهل الغفر في جناحي الجند.

(1) أشباح - تاريخ المرابطين والمورخين، ص (479).
(2) ابن الخطيب - الإحاطة، تحقيق عمان المجلد الأول، ص (480). «الDismiss من الناس هم الفضروب المنفرد.»
ونصيحة فرق الحشمة يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير فقد وضعت في المقدمة لتصنف بئر الضربة الأولى وتكون بعبادة درع وقية لمسارك لمثوته حيث لا تقدم إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشمة قد نالت من العدو وأنهكه حينئذ تقدم للإجهاز عليه والظهير بالنصر.

وقد التزم الموحدون بتعويش جيشهم على النظام الحماسي بعناصره القبلية كما حدث في موقعة "شترين" والأرك وغيرهما. ففي موقعة "العاقب" التي هزت فيها الخليفة الناصر، قد قسم جيشه إلى خمسة فرق تتألف المقدمة من القوات المتنوعة في مختلف الطوائف، وتتألف قوات القبلي الاحتيالية من الجند الموحدين وهم أغلبية الجند النظامية، وتتألف الميمنة من القوات الأندلسية والميسرة من قوات البربر في مختلف القبائل.

وبمرور الوقت تقنق المسلمون في نظام التعبئة بما اقتبسوه من فنون الحرب لدى القادة الأسلامي، وقد عقدت دروب التعبئة حتى صارت سبعة تعبئة وإن كانوا لا يستعملونها كلها ولكنهم أدخلوها في فنونهم الحربية.

مرعب عبد المؤمن بن علي:

ينسب المؤرخون إلى "عبد المؤمن بن علي" خليفة الموحدين الأول الفضل في اختراع تشكيكة المرع، التي اتخذت من ذلك الوقت أساسًا لخطط الدفاع الموحدة، وقد اذكروا إليها عبد المؤمن ضد المرابطين في يوم "منداس"، فقد رأى عبد المؤمن تفوق المرابطين في عددهم وعدهم واعتدامهم على كوكب كبيرة من الفرسان فلما إلى خطة المرع المتزنة التي تعتمد على تحصين فرحيات紋 صفوف الفرسان فيما جُنُب جواب المرع تطبيغ أن تنطلق منها ثم تعود إلى أماكنها الداخلية دون أن تخل بنظام الرجالة "المشاة". ويقوم بالهجوم الأول قوات المثنى المجاهدة تؤديها القوات الحشيمة، فإذا استطاع العدو أن يوحد هؤلا وأن يتقدم حتى مواقف الجند النظامية، وقف حملة الحرب أمامه كلاصد الحديدي الذي لا يتركه، واستقبله.

(1) أشباح، تاريخ الأندلس، ص (223).
(2) روض الفراتس، ص (158) ، أشباح، تاريخ الأندلس، ص (37).
(3) ينظر جورجي زيدان، تاريخ النهضة الإسلامي، ج (1) ص (797).
الرماة من حملة القصى والنبال سبيل من السهام والحجارة، فإذا استطاع العدو أن يبتعد الصفي الأول وهم حملة الحرب استقبله حملة السيوف والدروع متأهبين لرد ويادر الفرسان إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية، فإذا استطاع بعد كل ما ينفده ينغلب على القلب والجناحين فانذري يقوم الجيش الموحد بالضربة الأخيرة، ويتقدم قوات الضعب الرابع من المراع وهي الساقة أو الاحتياطى المكون من صفوف الجند ولاسيما الحرس الخاص، ويقودها الخليفة نفسه وكثيرًا ما كانت هذه الصفوف الاحتياطية تساعد على إحرار النصر بسجعتها، وفائق دربها، وكانت هذه القوات تمنع أحيانًا داخل نطاق من السلاسل الحديدية تبرز من خلالها الحراب الطويلة فتخنق بذلك في العدو حينما يجرأ على الذهول منها(1).

5- إدارة المعركة وتعاون مختلف الصفوف:

كانت الصفوف تتزامن حسب الخطة الموضوعة، ففى بعض المعارك نرى الرجالة أمام الخيل أو فى أخرى نرى العكس، ولكن القول بشكل عام أن المشاة وقسمًا من النبالة كانوا يشكلون عنصر القلب الرئيسي، بينما يشكل الخيل قسمًا آخر من النبالة عنصرى الميمنة والميسرة، وكان الاحتياطى يشكل من جميع الصفوف، أما الشروط الإدارية فتبقى في المالف مع بعض النبالة للحماية.

ونوذ أن نشير قبل أن تخوض الحديث في تعاون مختلف الصفوف أن المرابطين والموحدين قد اعتادوا أن يباذروا بالهجوم عملاً بقول الرسول الكريم: [لا تتموا لقاء العدو، فعلي أن نتغلبه]. ففى معركة الزلاقة لم يادر المسلمون بالهجوم على النصارى بل إن محلة الأندلسيين قد تحملت الضربة الأولى لهجومهم العنيف. وفي معركة الأرك الموحدية، لم يبدأ الموحدون بمحاولة الإستيلاء، بل تلقى قلب الجيش الموحد الضربة الأولى، وكانت قوية حيث هب الفشاليون نحو ثمانية آلاف فرس كلهم قد احتسب بالحديد والبيضات والزرد وركبت هجومًا مكثأ على قلب الجيش (2).

(1) أثر الفعل الموسيقى، ص(98)، كشخا، تاريخ الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين، ص(48)
(2) عيان - عصر المرابطين والموحدين، ص(246) في القسم الأول، ص(423) في القسم الثاني
(2) رابن القرطاس، ص(439)، (10)
ولكن إذا اضطر القائد المسلم إلى القتال ولم يجد عنه مندوحة ونظم فوته طبقًا لحالة الشمس والريح، فلا يجعلهم يقاتلون الشمس في أعينهم، أو حين هروب الريح في وجههم، فإننا استطاع أن نجعل موقعهم بحيث تهب الريح من خلفه، وإلا استدار منحرفًا بحيث تهب على جانبه.

ويمكن لنا أن نقدم وصفًا شاملاً لتعاون صفوف المقاتلين على اختلاف أنواعها في المعركة يكمل بعضها البعض في تلاحجم وتعاون عجيب، كالأتي:

أ- مكان القائد وإلقاب أوامره:

في بعض المعارك كان القائد يتخذ موقعه في قلب الجيش، فيقيم عريشه أو خيمته على مرتفع من الأرض، ليلقِّب الأوامر ويصبر المعركة ويصلح الأخطاء التي يراها، وفي أحيان أخرى يكون الخليفة مشاركًا في المعركة يتخذ مكانه في مؤخرة الجيشه يقود الساحة ومعه حرسه الخاص ويتدخل في المعركة في الوقت اللازم ليقلب نظام المعركة لصالحه.

وإذا بما يختار القائد موقعه في أرض المعركة ينصبون له السرير "الكربس الكبير" في حومة الوغى وراء المقاتلة، ويفح به خدمه وحشمه وقبنده ومن هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الروايات في أركان السرير ويدق به سياج آخر من الرمأة والرجال فبعض هيك السرير، ويصير فيما للمقاتلة وملجاً لهم.

وقد قدمت لنا الرواية الإسلامية وصفًا لقبة الخلقاء الموحدين الحسناء، ففي معركة "العجـوب" قد ضربت هذه القبة فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذي تحتله الجيوش الموحدية، ودارت العبيد وهم أغلبية الحرس الخليفي حول القبة من كل ناحية، وقد شهروا حرابهم في اتجاه العدو، وقد ضرب في نفس الوقت حول القبة سياج من الأعمدة والسلال الخليدية الضخمة، فكانت سدًا منيعًا، وجلس الناصر في قبته حاملاً دروقته مرتدًا عليه الحربي، وفي إحدى يديه سيفه المسلح.

(1) مخطوط الهرثمي ورقة (25).
(2) جورج زيadan- تاريخ النجد الإسلامي ص (2005).
وفي الأخرى الصحف، وربطت فرسه مسرعة أمامه، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد تحت إمرة الوزير "أبي سعيد ابن جامع"(1).

وقد أوضح لنا الطرطوشي واجبات القائد نحو نفسه في صورة نصائح فقال:

"وليخف قائد الجيش العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعمل حليته والوان حيه ورائه، ولايلزم خيمته ليلًا ونهارًا، ولبيجله زيه ويغير خيمته، ويمعى مكانه كي لايلمس عدوه غره، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النفر اليسير من فوجه خارج عسكره، فإن عيون عدوه قد انكبّت عليه"(2).

وقد عمل بهذه النصائح القادة في حروبه ضد النصارى، ففى موقعية الأرك، ركز القشتاليون الهجوم الأول على قلب الجيش معتقدين أنه هو الجناح الذي يقوده الخليفة، وكان النصوص قد غير مكانه وأمر بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب لإبهام العدو وتشليه.

أما عن إذن الأوارى من القائد الأعلى إلى قادة الفرق المختلفة، فقد كانت تستخدم كل الطرق لتوصل أموارهم إلى قواد الفرق، فان كان القائد الأعلى أحيانًا يلقيها بصوته المرتفع إن كان أصحابه يسمعون، وإلا أناب عنهم من يبلغها كما حدث في موقعية الأرك، فقد أناب الخليفة المتصور الوزير يا يحيى في تبلغ أمواره، وصاحب جوري يقول للناس: "إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له، فإن هذا موضع غفران، وأن يغافروا فيما بينهم، وأن يطبوا نفسهم وأن يخلصوا نباتهم الله، فيكي الناس، وصاحوا من جانبي بطل الخفران من الخليفة وأنهم ين نيتهم، وصدق طويته، يرجون الخير من الرحمن، ثم قام القاضي أبو على بن حاجج، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبيانًا على الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدرته عند الله، وكان لهذه الحركة آثارها في إقناع النفسوس وإذاء العزائم"(3).

(1) روض الفراترس، ص (158) ، انظر أيضًا أشباح - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج(2) ص (244).
(2) سراج المركب، ص (144).
(3) البيان المغرب - القسم الثالث، ص (148، 149).
وطالعت المعركة كانت الرسل لا تفتقر بين القائد الأعلى وقود فرقه، ليوصوا أوامره إليهم إما شفهية أو مكتوبة.

ومن الأمور الجدير بالإشارة إليها، هي العلاقة بين القائد وقواده، فيجب أن تناسب بينهم علاقة حسنة بحيث يرتبط القادة والجنود بربط قوامهم الشقة المطلقة وأتاحت المشارب وتقارب القلوب، حتى يستمعوا له ويتذكروا أوامره، وإلا فقد يحدث للجيش تبكا تقيض عليه قضايا مبرمة بسبب مدر القادة والجنود على أوامره أو يفسرونها تفسيرا خاطئا، مثلما حدث في موقعة ‘شترين’ الموحدية والتي فني فيها أغلب جيوش الموحدين، وذهب ضحتها الخليفة أبو يعقوب يوسف لبدو فهم أوامره فقد صدر أمره بتغيير الأبوين من وضع نزوله إلى وضع آخر ففهم القواد أنه صدر بالكفر عن القائد، وكان أمر الخليفة أن تقوم قوات الأندلس لغزو مدينة ‘السوسية’ وهنا الثورة على أنجابها، وأي يكون رحيل هذا الجيش نهارا، فاساء السباق فهم أوامر الخليفة وظنوا أنه أمر بالرحل في جوف الليل إلى أشبيلية. ويقول صاحب روض القرطاس: وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحل، وفي هذه الليلة تحديت الناس بذلك وتأهبا له فرحل من الناس طائفة بالليل، ففعل أقرب الفهد أقطع السيد أبو إسحاق واقع كل من كان يلهب وتاببه الناس بالرحل فارتغوا وأمير المؤمنين قبل في مكانه لا علم له بذلك.’(1)

وكان أشع ما في ذلك هو ما حدث من غموض في فهم أوامر الخليفة والسرع في تنفيذها، فهرعت طوائف غفيرة من الجنود في الارتاد فورا في جوف الليل وعبور الأنهار، ووقع الارتاد في مناظر مروعة من الاحتلال والضييج والغوض، فلم يستمع القواد والجنود إلى الأوامر الصادرة بالانسحاب المنظم، ففيقول ابن عدؤار: ‘إن ثبات الخليفة تطوروا أولا الليل على الرؤوس وجمعوا وأوعزوا إليهم ترتيب التحرك وكيفية القلوع، وأن يكون كل قبيل من جمهورهم ثابتين مرضدين حتى ترحل المحلة والألفاء، وتتنطلق إلى السعة من المضايق والأحوال’(2).

(1) روض الفرات، ص (140).
(2) البيان المغرب، القسم الثالث، ص (131).
فلما ظهر الصبيح ظهرت الطامة الكبرى، فلم يبق حول الخليفة سوى الساقة،
وقد أدرك النصارى ما حله بالعسكر الموحدى من إقلاع وارتداد القول القربي منه،
فهجموها على ساحة الخليفة، ووصلوا إلى قبة الخليفة الحرراء وأصيب بعدة جراح
مات متناثراً بها. ومن الواضح أن أسباب هذه الهزيمة التكرار، إنما ترجع إلى
استشار الخليفة بتوجيه قواته، دون أن تكون هناك رابطة قوية تربط بينهم، مما
جعلهم يسيطرون فهم أموارهم أور يهشون لها، فقد نفتذت أموار الخليفة دون تدبر
ودراية، فقد أمر بتنقل مواقع الجيش من شرق إلى غرب وشترتن إلى الشمال
والغرب وهو أمر عارض القواد الموحدن لأنه يضع الجيش الموحد في مواقع
تعرضه للتطويق ثم جاء الانسحاب المفاجئ وما صاحبه من فوضى، وما انئى إليه
الأمر من فقد الإتصال بين الفرق المنسبة، وبين حرس الخليفة وخاصته وكانت
الكابرة التي أودت بالجيش وربحة الخليفة نفسه.

ومن الغريب أن نفس الأسباب هي التي أدت إلى هزيمة "الناصر" الخليفة
الموحدى في موقع العقاب، فبالرغم من اكتشام هذه الجيوب عدة وعدداً، إلا أن
عناصرها كانت منافرة، وقواتها لم تنكن تنديم بذرة من الولاة للموحدن، بل
كانت قلوبهم تحمل الكره والغضبة لهم، ولم تنكن هناك صلة مودة بين الطرفين أو
ثقة متبادلة بينهما، فقد حسبت أعطيتهم وتآثرت بينما كان المتحف أمين المصور أن
يمنح العطاء للجند مرة كل أربعة أشهر دون تأخير، ومن هنا خرجت الجنود إلى
الغزو وهم كارهون، فقد خبت قواهم العنوية، وقد بلغت بهم الحالة في المعركة
أنهم لم يبقوا سيقا ولا شرعوا رمجا ولا أخذوا في شيء من أھبة القتال، بل
انهزموا لأول حملة الإفرون عليهم قاصدين لذلك(1).

ب- بداية المعركة وتعاون مختلف الصفوف:

تبدأ المعركة بعبارة بين الأبطال من الجنائيين تحمسا للقلوب وتشويقا للقتال
وذلك أمام الجيشان المتواجهين، ففي معركة "أفيش" المرابطة برز فارس من العرب
فطن فارساً من النصارى، فأذاءه من مكره، ورامه بين يدي موكب(2).

(1) المرائيش - المعجب، ص (183).
(2) سرالة كثير بن يوسف في فتح أفيش كان كابرداب الشحف وهو شاهد على نقلة عن عصر المرابطين
والموحدين، ج (1) ص (537).

253
صاحب المسلمون مهلهين ومكرين، وبعد ذلك يقترب الجيشان وتلوح نذر المعركة، فإذا ما نوى القائد الهجوم، أمر المكرين بالتكبير وأمر أصحاب الطبول بفرع الطبول المدوية، ليحذر كل إنسان نفسه وأخذ مكانه من الصف، وكان شعار المرابطين أن يتदاوا بهذه الصيحة "يا خيل الله اركبي"، بينما كان شعار الموحدين وصيحتهم "أصح ولحم الله" وقد ردوا هذه الصيحة أثناء هزارهم لزهران حيث اجتمعوا في الجبل المطل عليها فصاحوا صيحة واحدة بلسان واحد، ولم يكن اللثميين يصيحون بذلك.

ووصف لنا ابن شرف في رسالته استعداد جيش المرابطين في حالتهم القصوى بعد هذه الصيحة "ورثنا كما ثار الشهم بفرصته، وطار السهم لغوصته، وأمرت رجالاً يلزم اللحمة فسداها فرج أبواها، ولداها بأبودها وأسبابها، فداروا بها دور السوار وانشوفوا انتظام الأسوار، وقد شرعوا الأستة من أطرافها، وأحلاحوا البوار في أكفانها، واضافوا الآفية، وقابروا بين الآفية".

دور النبالة:
إذا زحف العدو آماله الرماة حتى يكون في سهمهم، فيصطروه واباً من سهامهم، وهم جامعون على ركبهم جماعات بحيث تخرج سهامهم مجتمعة كأنها صادرة عن قوس واحد، فإذا أقترب العدو أشرعوا رماحهم في صدره بحيث توقف سوراً شائكة يمنع تقدمه، وهنا تتشبيك الرماح، فيشرع الرجال الرماح في صدر الرجال، وقد يعنون بالدروع الواقية، ثم يتداولون فاً يدحح أحدهم الآخر إلا إذا تغلب قوى على ضعيف، أو نقل على خفيف، أو تقصف الرماح من شدة الضغط عليه.

دور السيف:
إذا ما نفت المراقب والنشاب والرماح وهي آلات القتال التي يحمي بها وطيس المعركة، وانتقلت المعركة إلى ملحة، يتقبل فيها الخصم، وجهاً

(1) رسالة يمن بن يوسف في فتح أثيلض كان كاتبه ابن شرف وهو شاهد عيان، نقلها عن عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (16)، ملد (3).
(2) نظم الجمال، ص (127).
(3) تيم السابعة، ج (53).
(4) ارجع إلى وصف الطروش في مساج الملك، ص (149)، ووصف البكيري في المغرب، ص (165).
(5) الملحمة: مكانقتل الشمدين، بينما المعركة هو مكان القتال، والذوق أو الملفظ ما تضاف من أماكن الحرب. بنظر خليفة الفرسان وشعار الشجعان لأبي هزيل الامدالي، ص (174).
دورة الخيالة:

إن من أول مهام الخيالة الاستطلاع، وكان يختار لها سرعة الخيال، وتسمى الطبلة وهي التي تقوم باستكشاف مواقع العدو، ثم تعود بعد ذلك لتشتريك في المعركة ويكون عملها في بدء المعركة القتال بالذعر والفرار عن طريق المارزة، وعندما يحمد وطيس المعركة تكفل بحماية جانبى الجيشه أو تهديد أجناب العدو، لأن الخيال لا يعمل لها مع الرجال، ومن أعمالها أيضًا محاولة القيام بحركة التساقط حول العدو أو إحباط تلك المعركة من فرسانه إذا حاول القيام بها، ومن مهامها أيضًا تتبع الفارين والنقاطة ثم تكلف في نهاية المعركة بمطاردة العدو وتتبع الهزومين من الرجال(1).

عمل المشاة:

والوثيق لكتاب المشاة في المعركة يجدها بين كر وفر، يتقدم الرجل منهم في نبات يتقلد سيفه في يمينه ودرقتة في شماله، وقد كسر عن آتيه، وعض على نواجمه، وقطع على جيشه، ونظر شدراً ببعض عينيه، وأخفى صوته إلا همهمة في صدره، أو تلمظ بالشمسة، أو تهامًا بالحديد، لأن كثرة الضجة من أسباب الفشل، ولأن الصمت يساعد على الضبط ودقة التنفيذ، فإذا أجرت القوات على الرجوع أو أمرها قائلًاها، رجعت بانتظام بحيث يكون صدور الجند إلى العدو منحرفين بأجسامهم مختلفين النظر إلى الخلف حتى يعودوا إلى مواقفهم(2).

---
(1) جواثي زيدان- تاريخ التمدن الإسلامي، ص (187)، وحلة الفرسان وشعراء الشام، ص (173).
(2) الفن العربي في صدر الإسلام- عبد الروؤف عون، ص (247)، مقدمة ابن خلدون، ص (230).

200
ولا ترتفع أصوات الجندين بالتكبير إلا عند حدوث حدث جمل كهجمة عنيفة أو قتل قائد الأعداء أو فرارهم نهائيًا أو فتح حصن لهم، حيث يكون التكبير أثره في خلع القلوب وإثارة الرعب.

وقد جاء في رسالتي تيم ما يدل على ثبات جنده أمام هجمات العدو وصمودهم في وجهه، إذ وصلوا إلى مقدمة جيشه وكان هناك القائد أبو عبد الله محمد بن أبي زلفي مع جماعة فصدهم العدو بصدد غارة وقلوب أشرة فأنحوا بكل كل ورموا بجندل، وشدو فما ردو وصدا وصدا وصدا وصدا وصدا، وتفقه القائد أبو عبد الله غير مول، وتراعج غير مخل، إلى أن اشتد منا بطود وزحم من جيشنا بعود، فتمراء الجياع وتدانت السعكات، وأمسكنا ولاجئنا، ووقفنا والأنان اليمن، فعند ذلك صار النصر فمد يده، واناث الصبر فافترق ميحا، ونزلت السكينة وأخلصت القلوب المستكينة، واحتزرت الفيالق نائبة، وهدرت الشقائق هائجة، وجعلت العيون غضبًا، وطلبت البواير سببًا، وأذن الحديد بالجلاد، ويرزت السيف من الأغماض، وتصادمت الخيول، وتصاوتت القبول، فعند ذلك تواقف القوم كقوفة العير بين الورد والصدر. (1)

ثم تقدم لنا الرسالة وصفًا للملحمة التي اشتد وطيبها والتي استغرقت فيها القتال:(2) فعند ذلك اختلطت الخيل بل سال السيل، وأظلم الليل واعتنت القفران واندت الخرسان، ودجى الليل القائم، وضيق مجال الجيش الليهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرصاص بالأشباح، ودارت رحي الحرب تغر بتكالها وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتلك بأبطالها، فثلغ الصدور ابتعد وجزم القلوب اتهادة. (3)

نهاية المعركة:

وتم الانتصار على أهل عين باقيهم من المسلمين مزيد من الصبر والثبات، وقد تسفر المعركة عن حالات:

أ- عند انهزام العدو أمام المسلمين، صدر الأمر "فرقة المجردة"(4) بتعقب الفارين بالرماح والسيف وقد تخففت من الدروع وكلما ينقلها، أما باقي الجيش

(1) رسالة تيم السابقة، ص (37).
(2) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(3) ابن هزيل الأندلسي- حلفية الفرسان، ص (173).- المجردة وهي فرقة فجر لأعمال كثيرة منها تعقب الفارين.
(4) ابن هزيل الأندلسي- حلفية الفرسان، ص (173).- المجردة وهي فرقة فجر لأعمال كثيرة منها تعقب الفارين.
فأخذت في جميع الغنائم والسبايا ثم تسليمها إلى صاحب الأفواض، وأحيانًا يقوم بهذا العمل ساحة الجيش.

وإذا ما فر الأعداء إلى قلاعهم أو حصونهم فلا يشغلون أنفسهم بحصار هذه القلاع إلا بعد التقاء الخارجين عنها حتى لا يتجمعا ويرتدوا عليهم ويحدث انحصار لجيش المسلمين.

ب- والحالة الأخرى وهي عندما تسفر المعركة عن هزيمة المسلمين من انسحاب منظم، وتغطية هذا الانسحاب كان يختار كتيبة من الفدائيين الاستشهاديين فيغرون دواوينهم، ويرحون آلات حصارهم ويرجعون ويسعون أغماد سيوفهم حتى لاつくهم أنفسهم بالعودة، ثم يجمعون على ركبهم، وقد شرعوا الأسئلة في نهر أعدائهم ليغطوا انسحاب إخوانهم كما حدث في موقعية "شترين" والعقاب الموحدتين، وكان يقوم بهذا العمل الجرء غالبًا فريق الخرس الخاص، ففي معركة "العقاب" استطاع النصارى أن يخترقوا قلب الجيش الموحد إلى دائرة الخرس الأسود فردهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهورة، ولكن النصارى ردو أكفاء المدفعية إلى رماح العبيد فاختراقوا الدائرة المدرعة ودخلوا النصارى وفرق جيش الموحدين في كل ناحية، ولبث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة في مكانه وهو يحاول أن يُحَدِّث جنده على الصمود حتى تم انسحاب جيشه ولولا ثبات الناصر لاستكشلت جموع الجيشه الموحد، وقد قتل حوله من العبيد المدافعين عنه ما ي animator عشرة آلاف عبد، ثم اضطرب الناصر أن يتبع صهوة فرسه ويفجر هاريًا ويترك ميدان المعركة.

ويعد انتهاء المعركة وانسحاب كل من الجيشين ينصرف كل منهما بقدر استطاعته إلى نقل الجرحى ودفن الموتى وإحصاء المفقودين.

6- مناداة الجنود في المعركة:

لقد كانت لكل من المرابطين والموحدين شعاراتهم التي يتميزون بها ويتعارفون من خلالها، سواء أكان هذه الشعارات قولية يتصارعون بها عند القتال أو

(1) روض النبات، ص (159)، المركشي- المعجب، ص (182).
شاعارات للأفراد والجماعات تميزهم عن غيرهم كاختالاً لون بعينه أو تعليق علامات معينة.

والشعار القولي هو عبارة عن ألفاظ خاصة سريّة كان يتفق عليها سراً بين القائد وجنوده وهي تتمسّى في الخربح الحديثة «بكلمة السر» التي بها يتعارف الجند ويحذرن مفاجأة عدوهم.

ولدينا نص يشير إلى أن المسلمين كانوا يتخذون مثل هذه الألفاظ التي تسمى بكلمة السر، فوصف لنا ابن صاحب الصلاة مغامرات «جودية الجليقي» قاطع الطريق التي قام بها ضد بعض القواعد الإسلامية بتحريض من الفن سو هرتيكيز فقال: «كان يسلب في الباب المطرقة الحاكمة المظلمة الشديدة الرحب والثلج إلى البلاد. وقد أعد آلاف من المسلمين من أطول العديان. بعلمبر تعمل المدينة التي يريد اعتلاءها، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السلام إلى جانب البرج، ورقع عليها نفسه أولاً إلى البرج، ون قض على السامر، وقول له: تكلم على ما كانت عليه عادتك لتأت يشعر الناس بأنا إذا استوفى طلوع حملته صاحب بلغاتهم صريحة عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة، وقلبوا من وجدوه واستلبوه واخذوا كل من فيها سبيًا وغنيًّا».

ومن ثابت أن لكل من المراقبين والموجدين شعاع عام وهو التكبير الذي كان شعور كل مسلم، يجهرون به عند فتح الحصون أو ظهور بارقة النصر.

وكانت لهم صيحات تقال عند الهجوم العام، فقد كانت صيحة المراقبين "يا خليل الله اركب"، وكانت صيحة الموحدين "أصح الحمد الله". أما عن شارات الجيوش المراقبة والموحدة فقد كان شعار المراقبين العام السواد في ملابسهم وراياتهم اقتداءً بزي بنى العباس، بينما كان شعار الموحدين اللون الأحمر كى يظهروا ميلهم للدولة العمليّة. وكان لكل من الجيش لواء هو الرمز العام للجيش يشير إلى مركز القيادة أما فرق الجيش الأخرى وقد كانت ترفع رايات ذات ألوان مختلفة تدل عليها كما سابق أن تحدثنا عنه.

(1) نقلنا عن عمان- عصر المراقبين والموجدين، ج (2) ص (297)، وأيضًا البيان الغربي، القسم الثالث، ص (298).
(2) ابن الطبان- نظم جمعًا- تحقيق مكي، ص (137).
(3) انظر اللواء والراية وشارات السلطان.

208
وقد تعارف القواد المسلمون الأوائل مع جندهم على بعض المصطلحات
العسكرية ينادون بها جندهم للعمل بها في ميدان المعركة، فكانت علاماتهم
للهجوم هي "النقيف النفيSTER"، وعند الرجعة قالوا: "الرجعة الرجعة"، وعندما
يريدون ركوب الفرسان للحرب نادوا "الخيل الخيل" وعند الترتل يقولون:
"الأرض الأرض".

وأما تمدن المسلمون وتعدد أصناف جندهم وتنوعت حركاتهم، جعلوا لكل
حركة نداء خاصًا يدل للفهم على المراد به وهذه أسماؤها: الميل، الانقلاب،
الانقلاب، استدارة صغيرة، استدارة كبيرة، تقاطر، اقتران، رجوع، إلى الاستقالة،
استدارة مطلقة، أضعاف، أتباع اليمين، أتباع المشتركة، جيش المنحرف، جيش
مستقبل، جيش مورب، رض، تقدم، حشو، رادفة(1).

فكان إذا أراد القائد أن يُلبِّي جندى إلى جهة أو يتخذ شكلًا خاصًا من هذه
الأشكال أو حركة من هذه الحركات، ينادى بكلمة من هذه الكلمات، وهم قد
تدوروا على المراد من كل منها فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية في
جند هذه الأيام، ثم استعانوا على إقام المراد بالإشارات الميدانية، ولذلك كان
على الجندي أن يراعوا القائد بأعينهم حتى إذا مال مالوا معه، كما عرفنا من نص
البكى في بلاد المغرب.

7- بعض المناورات والخيل الحربية:

من تمام البحث في موضوع "التكتيك" أي فن القتال، أن نتحدث عن بعض
الخيل والحذف العسكرية لجيوش المرابطين والموحدين وهي تظهر مهارة القائد الحربية
إذا اختلف صفوفه، وقد يلجب إليها إذا أراد أن يستعمل النصر، أو ليشرع بها روح
جنده المنورة، أو يحطم بها معنويات عدوه.

وبدو أن هذا النوع من التكتيك - الحذف الحربية - كان متشابهًا في القرن العاشر،
فقد كانت الحروب تدور وتفتتح على أساس من هذه الحذف ممثلة في الكمائن
والتفحير الظاهر(2)، وقد أشار ابن خلدون(3) إلى عدة أنواع من هذه الحذف

(1) جورجي زيدان - التمدن الإسلامي، ج(1) ص (211).
(2) جورج جوزيف د.ك. باليت- أصول المؤلفات العسكرية - ترجمة الجمل، ص (59).
(3) القلمة لابن خلدون، ص (99).
الكمن:

يجب أن يكون الكمن في منخفض من الأرض متعن ويجب أن تكون دابة الجند الكامن سليمة من العلل التي تنبه الأعداء إلى مكان الكمائن، وعادة يكون على جانب الطريق أو خلف جبل، وكان من الوصايا الحربية التي أوصى بها بعض كتاب «تأليف بن علي»، فحذره من خداع العدو وينبه إلى أحكامهما.

والمبس لبوبس لا يكون مشهوراً، خذعه توقع في مضايقها وغوى واحيل توقعه وفانت موسع وأخفض كمينه خلفها إذ تدفع أخباره عند لقائها.

ومن هذه الخدع عند المراقبين، أنه عندما حاول «سيب بن أبي بكر» الاستيلاء على ملك أمراء الطوارف في الأندلس، قصد إلى ملك بنى هود، وكانوا ببوطة، وهي قلعة منيعة ومازأ يتم من أعلاها وقائمة من الأقواف والخضائر ما تكفيهم أوماء فقادها واطل الخضار مدة طويلة، ففكر في خذعهم يمكن بها من فتح تلك القلعة، فرحل عنها وجد أنجاده على هيئة الأفرنج في زهيم، وأمرهم أن يقصدهم ويغيروا عليها وكمن هو وأصحابه بالقرب منها وراء هضبة مرتفعة، فلما رأه أهل القلعة استعصوا وننزلوا إليه ومعهم صاحب القلعة، فخرج إليهم سير بجوده وقطعهم طريقهم إلى القلعة، وأعمالا فيهم سيفهم، وقبض على صاحب القلعة باليد وتسليم الحصن.

وكان المراقبين غالبًا ما يلجأون إلى هذه الخدع من الكمائن عندما يتعذر عليهم اقتحام الحصن والقلاع لناءتها، فبعدما عاد الأمير «فيهم» من معركة «أقليش» ترك قوات مرسية ويلسية تحت إمرة قائدهما، أما فلشتا على حصارها.

(1) مخطوط الهرميم ورقة (85).
(2) الخيل الوشيه، ص (94).
(3) المقرئ – نفح الطيب، ج (2) ص (532).
فترة والما رأيا مناعة هذه القلعة وأن حصارها سيطول نظاهمو بالانسحاب وارتدا في قواتهم قايلين ربا الكماتين، فظنوا النصارى أن المرابطين قد رحلوا بيضويهم فخرجوا من قلعتهم، فانقض عليهم المسلمين، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسرًا واحتلوا القصبة، وترتب على احتلال هذه القصبة أو القلعة أن سقطت في أيديهم عدة من البلاد والخضوع المجاور لها (1).

وقد عرف عبد المؤمن بن علي بقدرته الفائقة في رسم الكماتين والتمويه على الأعداء فكان في أغلب معاركه يتم له النصر بكمين أو أكثر يرسمه للعدو.

ففي حربه مع المرابطين في منطقة بني ملول دوخ أهل هذه البلاد واستولى على سائر أسلابه من الملي والشبايب والأقوات، فتبعته تاشفين بن علي وثبت بينهم معركة عنيفة هزم فيها المرابطون واستولى عبد المؤمن على أسلاههم، فهربت قوات جزيلة من مراكس إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين، وطمغ في أن تنزع الفتناء من الموحدين، فترتب لها عبد المؤمن الكماتين في مضارب الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتياهاً لله، وخرجت جزيلة وهاجمت ساحة الغنية وقتلت بعض حراسها، فخرجت إليها الكماتين الموحدة وأمعنت فيهم حتى أفتقهم واستولت على سائر أسلحتها ودراياها، ثم ارتدد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيه ظافراً (2).

الاستطراد:

هو أن يظهر القائد الهزيمة أمام عدوه ليتبعه، فيبعد عن حصونه وتطول المسافة بينه وبينها ثم يكر عليه مرة واحدة، ويصده بكل قوته فيهمه، وقد كانت هذه الحملة معروفة لدى المسلمين الأوائل، فيقول الهرمي: "إنه يجب على المسلمين الأ يبدعون إذا استطاعهم العدو فلا يحملوا عليه، بل ينظرون حتى يسكن الوهج وثبت لهم" (3).

وفي سنة 541ه توجه عبد المؤمن إلى حاضرة الدولة المرابطية "مراكس" وهو يعرف مدى حصائنه ومناعتها، فنزل بجبل بقع غربها ثم بني عليه مدينة استند إليها ثم زحفت جموعه على تلك المدينة فامعت قتى عليهم لحصائنه، عندئذ لما عبد

---

(1) روض الفرات، ص (121، 121)، نظام الجماني ص (18، 19).
(2) عتان - آصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (230).
(3) مختصر في سياست الحروب ورد (20).
المؤمن إلى حيلة عسكرية، وهي رسم الكمائن الكثيرة لهم، وأمر فرقة من الموحدين أن تناوشهم وتطهر لهم الهزيمة والفرار ليطمعهم فيهم. وبخورجحهم من حصونهم، فانهزم لهم الموحدون بجروحهم إلى الكمائن، وحينما وصلوا إلى مقرية من المدينة التي بناها عبد المؤمن بالجلب، وابتدعوا عن حصنهم، أمر جنده بالثقة، وأن يزلمو الأرض ويستروا من الرمي بالنار، ثم أمرهم بالهجوم العام، وضرب الطبول فخرجت الكمائن وانقضت على الفرسان المرابطين ومات في ذلك اليوم من أهل مراكش مالا يحصى(1).

إرهاب العدو وتضليله:

وهي من الجيل التي يرمى القواد من ورائها لتكويرو الروح العنيبة لجنودهم وإثارة الرعب في قلوب الأعداء وهو أمر تتبعه الجيوش الحديثة، وسكون ذلك بإبقاء العدو بقدوم الإمداد أو إظهار عددهم وقوتهم أمامه ليزيدوه خوفًا وارتباكًا، وكان غالبًا ما يفعل الموحدون ذلك مع أعداءهم من المرابطين، فقد عسكر تائفين بن علي في حصن على البحر شمال شرقية وهرجان فلجا الموحدون إلى إراغهم وبث الذعر في قلوبهم إذا أخذوا يطلقون أصواتًا عارية ودفعه وحدة سمعها المرابطون وأهل وهران جميعًا، ثم قادوا جميع دربهم وسقوها دفعة واحدة من عين وهران التي يلعنيها منها سكان الميناء، كل هذا والمرابطون يصردون تحركاتهم في توجس وخوف(2).

وفي سنة 529 هـ خرج عبد المؤمن لغزو بني يغفر، وهي قبيلة ذات بأس وشجاعة أرسل إليها المهدي ابن تومر أحد أصحابه ليجهدينه، فأنكرت عليه المهدية وقتلته ولم يستطع المهدي إخضاعها، فاراد عبد المؤمن أن يغزو هذه القبيلة ليستفيد بشجاعتتها في صراعة ضد المرابطين، ولكنها امتنعت عليه كما امتنعت على المهدي إذ وضع أبناؤها الخطب على ظهور الجمال، وأضرموا فيها الثيران، ودفعوها مذعورة في صفوف الموحدين، فزعزعت صفوفهم وملائمتهم رعبًا.

---

(1) الخليل الموشية، ص (103).
(2) نظم الجمل - ص (127) ت. محمود مكي.
وفقدًا ورجال بنى بني يأغر في أثر الجمال في بيوتهم وهكذا انتهت المعركة بهزيمتهما. (1)

وبعد استيلاء الموحدين على مدينة تلمسان هرعت المرابطون بقيادة "يحيى بن أبي بكر بن يوسف" المعروف بالصهراوي إلى مدينة فاس ليتحصنوا بها وينظموا خطط القاومة والدفاع عن المدينة، فعبر الموحدون نهر سو وصعدوا جبل "زالاغ" المشرف على فاس من الشمال وأوقدوا النيران فوق الجبل ليحرموا بها المرابطين الذين تمكنهم الاضطراب والفرج فدخلوا مدينة فاس وتحصنوا بها، وضرب عليهم عبد المؤمن حصارًا قويًا ثم افتتح المدينة بعد ذلك. (2)

وكان بعض القادة أحيانًا تجمع قواد كثيرون في جهة ما ليستعدوا لها عدوه فيظن أن الهجوم سيبدأ منها فيما يحشدوا قوات كثيرة تقابلاً ولهم نوعًا ما مواقعها الأخرى، فبسر هذا القائد بالهجوم على تلك النقطة الضعيفة في سرعة خاطفة، فتم له النصر في غفلة من العدو، ومن أمثلة تضليل العدو ما فعله الخليفة المتصور في موقعة الأرك حيث رفع الأعلام الخليفة على قلب الجيش ليؤهم العدو بأنه الناجح الذي يقوده الخليفة ثم سرعان ما غير موضعه إلى المؤخرة مع جند الموحدين، وقد ترك هجوم القشتاليين على القلب ظانين أنه جناح الخليفة بينما قام النصر وجد الموحدين وجد الأندلس وأحدثوا تطويقًا والتضيقًا على الجيش القشتالي المهاجم حتى بدأوا شمله وأحرزوا نصرًا مؤزمًا في موقعة الأرك.

---

(1) عيان عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (229) نقلًا عن ابن القطان
(2) ابن الأبار- الخلعة السيرة، ص (315)
الفصل الثالث
مرحلة ما بعد المعركة

في أعقاب كل معركة كانت تثار بعض المشكلات التي ترتبط بالحرب، وتعتبر نتيجة مقررة لها، وكان لابد من إيجاد حل لهذه المشكلات، ورسم السياسة العامة التي يلتزم بها المسلمون من المرابطين والموحدين إزاء مشكلات تلك المرحلة.

وأما لاشك فيه أن الرسول الكريم قد تعرض لهذه المشكلات فوضع لها الحلول ورسم الخطوط الرئيسية العريضة لمعالجتها، وقد التزم المسلمون من المرابطين والموحدين بسياسة الرسول في كل ما تعرضوا له من مشكلات الحرب والذى أفاد فيها الفقه المالكي بدلواً في هذا المضمور، وسوف نتناول هذه المشكلات بالتفصيل:

أولاً: مشكلة الأسرى ومعاملتهم

كان من النظام المتبعة في الحروب الإسلامية، أن يؤخذ الأسير بعد هزيمة قومه فيشل وثاقته ويرمي خلف قدمه، ثم يوضع مقيداً في محبسه، حتى يفصل القائد في أمره. وقد طبق قواد المرابطين والموحدين تعاليم مذهب مالك في نظام الأسر ومعاملة الأسرى، فقد ذهب مالك وجمهور أهل العلم إلى أن الإمام مخبر في الأسر بين خمسة أشياء: إما أن يقتل، وإما أن يفر ويستبعد، وإما أن يمن فيعتق، وإما أن يأخذ في الغداء، وإما أن يعقده على الدمة ويضرب عليه الجزية.

والتخليص في الأسرى ليس الحكم فيه باليوه، وإنما هو على وجه الادعاء في النظر لمصلحة المسلمين، كالتخليص في قتل الأسرى، فإن كان الأسير من أهل النجدة والفروسية والتكاهة في المسلمين قتله الإمام، فإن لم يكن على هذه الصفة وأمانته ولع قادته استرخ قائد المسلمين وقبل فيه النفارة فإن بذل فيه أكثر من قيمته، وإن لم يبذل فيه قيمة ولا فيه محسوم لأداء الجزية أعتقه كالضعفاء والزمنى الذين لا يتقال عنهم ولا رأي لهم ولا تدبير، وإن لم تكن له قيمة وفيه محسوم لأداء الجزية عقد له الدمة وضربت عليه الجزية.

---

(1) مقدمات ابن رشد، ص (277).
(2) المصدر السابق، ص (278).
وقد يرى الإمام باجتهاده خلاف ماذكرنا طالما في مصلحة المسلمين هذا الاجتهاد، كان يغري هذا الأسير المعروف بالنجدة والفروسية ببذل الأموال الكثيرة ليستميله إلى جانب المسلمين حيث يرى الإمام أخذ أولى من قتله (1).

وكره أغلب أصحاب مالك فداء الأسير بالمال، ويقولون إنما كان ذلك بيد أن النبي ﷺ علم أنه سيظهر عليهم ولكنهم يتفقون على جواز فداء أسرى الأعداء بأسرى المسلمين (2).

وسوف نعرض بعض الأمثلة لمعاملة الأسرى لدى المراقبين والموحدين كما نص عليه الفقه المالكي، والذي أتاح للقائد العام مبدأ الاجتهاد في معاملتهم حسبما يتفق مع مصلحة المسلمين، وتفعّل العام جيوشهم.


(1) مقدمات ابن عبد رشد، ص (278).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(3) أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروتسال 1958، ص (88).
بمثله فامر بإطلاق زوجة «يعزى بن مخلوف» ومن معها من النساء وبعثهن إلى
تبنم في أمر وعده وكرامة، فقال عبد المؤمن: "إذا أعمالنا ردت إلا لنا ونحن قوم
لا تعمل على هكذا العروض" (1).

وكأن عبد المؤمن أحبَّ أن يطلق الأسيري بدون فداء وذلك إذا رجا بإطلاقهم
صالحهم ونفعًا يعود عليه وعلى ذويه، وفي نفس السنة أُنقِح عبد المؤمن بجيوش
للمحاورَة المرابطين جنوب تلمس ووقعَت المعركة بين الفريقين وانتهت بهزيمة المرابطين،
وكلما وصل الموحدون إلى "داي" فسر حاكمها المرابطي "علي بن سافر" واستولى
عليها الموحدون دون مقاومة، وأعلن من كان بها من عندها بيعتهم للموحدين
وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عن كانوا معهم من أسرى صناعة فاجاب
مطلبهم (2).

وفي بعض الأحيان كان "عبد المؤمن بن علي" يلجأ إلى قتل الأسرى انتقاء
شرهم، ففي سنة 526 هـ خرج عبد المؤمن في جيش ضخم من الموحدين قوامه
ثلاثون ألف مقاتل وسار إلى قلعة "تازاجورت" وكانت تدافع عنها حامية مرتبطة
بقيادة "بدر بن وجوب" ففتحها واستولى عليها وسبى أهلها (3)، وفي رواية أخرى
أن قائد "تازاجورت" كان يدعى "ريحي بن مريم" وأن عبد المؤمن قتله وقتل معه
نحو عشرين ألفاً من الممسرين وأسر زوجته صبيحة بنت يثنا بن عم وصحابها
معه إلى الجبل حتى اقتديت فيما بعد من كان من أسرى الموحدين في تلمسان (4).

وفي بعض الأحيان كان يسترق الأسير إذا لم يجد فداء، أو كان غير أهل للمن
عليه فقوم بخدمة سيده ورعى مواصلته وله حق بيعه إذا أ قضى الحال، وكان يقام
سوق عقب المعركة لبيع السبايا على عادة أسواق الرقيق، فقدم جاء في رسالة ابن
عبدون قلعة "شنترين" و="أمرنا بإقامة سوق سبيهم واموالهم على مرايا
ومصرع من نسائهم ورجالهم فزادت ريحهم بذلك ركودًا ونارهم خمودا (5).

---

(1) أخبار المهدي ابن نويرة، ص (88).
(2) عبان- عصر المرابطين والموحدين، ج (1) ص (254).
(3) أخبار المهدي ابن نويرة، ص (85).
(4) أخبار المهدي ابن نويرة، ص (85).
(5) هذه رواية ابن القطان في نظم الجماه تقول عن عبان، ج (1) ص (225).
(6) المرازيشي- المجريب، ص (226).
وقد ازداد عدد النصارى الماسورين في عهد الموحدين فقد كان أسطولهم يغر
على سواحل النصارى فياصر رجال أعداداً غفيرة من أهلها ذكرها وفداً وياترون بهم
إلى بلاد الأندلس ويعملونهم إلى غرناطة ويقدمونهم إلى السلطان فيأخذ منهم ما
يشاء وهدى ويبع (1) وكان ابن ميمون قائد أسطول المرابطين ثم الموحدين فيما
بعد يقوم بهذا الدور فيبعث بالأسرى والعولج إلى سلطان المرابطين، ثم بعد ذلك
إلى "أبي يعقوب" الموحدي (2) بعد أن دخل ذلك القائد في طاعة الموحدين.
وكان نظام المغادرة من المنظم المتبع بين المسلمين في المغرب والأندلس وبين
النصارى لأنهم كانوا في حروب دائمة، وكانت هذه الحروب تتثبت عادة بأخذ
أسرى من الجنائيين، وكان أحياناً يفتقن الطرفان على أن يدفع أسرى المسلمين
بأسر من النصارى وكان عادة يحدد لهذا التبادل زمن ومكان يتم فيه.
فتوترى المراجع أنه عند غزو البرتغاليين لمدينة "باجة" واحتلالهم لها أخذوا من
أهلها أعداداً كثيرة أسرى بعد أن أحرونها وهدموا أسوارها، وقد أثني الموحدين
معظم هؤلاء الأسرى بالغادرة (3).
وفي سنة 575 هـ كثر عدد الأسرى بين المسلمين والقشتاليين عن طريق حروبهم
البحرية التي كانت لا يفتر أن يتخلع بينهم، فعندما اشتد عدوان البرتغاليين في البر
والبحر قرر الخليفة "أبي يعقوب الموحدي" أن يقوم بجهود لرد هذا العدوان فبعث
أسطوله المرابط "بسبطة" تحت أمرة "غانم بن مرشيق" لغزو شواطئ البرتغال، فاقتحم
صارب "أشونية" وهاجم نغمرها واستولى على سبيلين من سفن البرتغال برجالها
وعاد بأسلحته إلى سبسطة، وأتت سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب،
وهاجمت شواطئ ولاية المغرب الجنوبية واستولت على جزيرة "شلطيش" وألزت
كثيراً من سكانها المسلمين وبقوا في الأسر حتى امتهاهم الخليفة أبو يعقوب
الموحدي (4).

(1) القلقشي- صبح الأعشى، ج (5) ص (372).
(2) ابن خلدون، ج (2) ص (242).
(3) الباني المغرب- الوصيف الثالث، ص (101-102).
(4) المراجع السابق نفسه، ص (113).
ثم أمر الخليفة أبو عمرو أن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى، فخرج "غنام بن مرديش" وأخوه "أبو العلاء" في حملة بحرية نحو مياه البرتغال الشمالية، وتعمل المسلمون في داخل مياههم، ولكن البرتغالين دفروا لهم كميتًا وانقضوا عليهم ومرطقت صفوفهم وأسر غانم وأخوه أبو العلاء وجمع من أكابر الموحدين، واتحاوى البرتغاليون على أسلاكهم ومنتعهم وبعض من سفن الموحدين وأسرعوا من كان بهذه السفن وذلك عام 571 هـ، وقد كتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة الموحد "يلمض الغوث"، فعهد ذلك الخليفة إلى "هلال بن مرديش" النظر في فداء أخيه، فجمع المال اللازم لذلك وبعث به إلى أشبيلة وحمل إلى النصارى، وتم الإفراج عن غانم وأخيه وبيته أصحابه.

وفي سنة 775 هـ حدثت مواجهة بحرية أخرى بين الأسطول الموحد بقيادة "عبد الله بن جامع" قائد أسطول سبتة ومعه "أبو العباس الصقلِي" قائد أسطول أشبيلة ضد الأسطول البرتغالي جنوب "أشبونة"، وقد هزم فيها البرتغاليون وقتل قائد أسطولهم، واستولى المسلمون على عشرين سفينه من سفنهم وأسرعوا نحو ألف وثمانمائة أسير وغنموا غنائم وفيرة من الغطاء والسلاح، وبادر القائدان المتصرفان "ابن جامع والصقلِي" في السير إلى الحضرة الخليفة وفي صريحهما الأسرى والغنم، وقد قدموا هذا كله إلى الخليفة فأمر بتعيين بعض الأسرى لافتداء غانم بن مرديش وأمر بإعدام الباقين.

من هذا يتضح أن نظام فداء الأسرى كان معمولاً به بين الجيوش المرابطة الموحدة والنصارية، وكان المسلمون يتعبدون في ذلك ما نص عليه الشريعة الإسلامية في أغلب الأحيان. هذا وإن كانت المراجع لم تتمدَّنا بوصف تفصيلي بين كيفية تبادل الأسرى إلا أنه على ما يبدو كان نظامًا متبعًا بين جيشه دول العالم قبل المرابطين والموحدين وإيان حكمهم أيضًا.

---

(1) البيان الغربي - القسم الثالث، ص (116).
(2) المصدر السابق، ص (117، 118) ونلاحظ تعارض رواية ابن عدار في افتداء غانم بن مرديش، وانظر ابن خلدون، ج (1) ص (241).
وقد قدم لنا الأستاذ "المخضرِي" وصفاً لفداء تم سنة 1231 هـ - 846 م بين المسلمين والروم، وربما كان هذا النظام متبوعاً في أبان دولتي الماباطين والموحدين: "وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء، على نهر "اللاموس" وكان عدد من فوتي به من المسلمين 460 أسير، فوقغ الفداء كل نفس عن نفس صغير أو كبير، وقد عقد المسلمون جسرًا على النهر، وعقد الروم جسرًا فكان المسلمون يرسلون الأسير الرومي على جسرهم ويرسل الروم الأسير المسلم على جسرهم، وقد ذكر الخضر في دليل النساح الإسلامي أنه بقي مع المسلمين بعد اتهام التبادل 100 أسير رومي ففضلوا على الروم بإطلاقهم بلا مقابل".

معاملة الأسرى:

كيف كان يعامل المسلمون أسراهم؟ قبل أن نجيب عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نتحدث أولاً عن معاملة النصارى لأسرى المسلمين حتى يتفهم الفرق بين المسلمين وروس في نفف أمام نص تستشف من خلاله غلطة النصارى وقوتهم في معاملة أSERI المسلمين، يقول أشباح: "ولابد أن عدد الأرقاء في إسبانيا النصرانية كان عظيماً جدًا، وذلك أن جميع الأسرى في المعارك المستمرة التي كانت تنشب ضده فهم المسلمون كان يقضي عليها ببطش وکانوا يكذبون ضدهم وكنوا ينحون الحريات حتى بشرط اعتناقهم النصرانية، إذ كان يُسوغ للنصارى فقط أن يكونوا أحراراً في ملكهم النصرانية الإسبانية".

وقد كانت الدولة البيزنطية تعطي السيد حق التصرف المطلق في عبده فيما يعنه كما يشاء(1)، وان زاد عدد الرقيق في هذه البلاد زيادة هائلة لعدم الرغبة في عتقهم حتى بلغ عدهم في بعض الأحيان ثلاثة أرباع الأحرار من بنيائها يلاقون شر المعاملات بل أن بعض تلك الدول كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها وكتبت تحصل مكوسًا على العبيد والغلمان والخضان(2).

---

(1) تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة العباسية، ص (124).
(2) تاريخ الأندلس في عصر الماباطين والموحدين، ج(1) ص (125).
(3) محمد كرم علي - الإسلام والحضارة العربية، ج (1) ص (94).
(4) توماس بيلزن- الإمبراطورية البيزنطية- تعريب مؤسِّس وزايد، ج(1) ص (195) ص (123).
أما الإسلام فقد أحسن المعاملة لهؤلاء الأسرى، وكثيرًا ما كان الرسول يعمل على رعايتهم واحتراز إنسانيتهم، فكان يعفو عن الأسرى ويقبل فيهم الفداء، ويوصى أصحابه بالآلا يكلفوا عبدهم فوق طاقاتهم من الأعمال، وأن يرحمهم إذا كلفوه بها كما أمرهم أن يطعموه، مما يطعموه، مما يكلموه، مما يكلموههما يكلموهما مما يكلموه، مما يكلموهما.
وقد كان المسلمون يقيمون للأسرى المعتقلات بعيدًا عن المناطق السكنية بحيث توفر فيها شروط الإقامة عقب الحروب مباشرة وكانت هذه المعتقلات مسورة، وتوفر فيها كل ما يجب أن يراعى في أماكن إقامة جيوش الدولة الأسرة نفسها(1)، كما حرص المسلمون على أن يقدموا للأسرى الأكل واللبس المناسبين. وقد أوصى القرآن الكريم بذلك حيث يقول تعالى: «وَبِمَّا أُنْعِمْتُمْ مِّنْهُ دَخَلَ فَأَجْرُهُ عَلَى مَنْ كَانَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ مَغْفِرُ اللَّهِ فَلَا يُشْرَكُنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» [الإنسان: 8، 9]. وقد أوصى الرسول بإطعام وإكرام أسرى بدر، وقال: «أبو يوسف، والأسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويهنئه حتى يحكم فيه(2)». وقد حدد الفقهاء واجبات المسلمين نحو أسرى الحرب في سبعة أمور هي: معاملة الأسير، معتقلات أسرى الحرب، القيام بأود الأسرى وكسورهم ومحاكمتهم وحمل الأسرى على الإفادة بالأسرار العسكرية، وتقرير مصير الأسير، وتقدم الجندي نفسه للأسر، وفق الأسير، ومن أراد الاستزادة في ذلك فليرجع إلى كتاب «آثار الحرب في الفقه الإسلامي»(3).

1. الخضرى - تاريخ الدولة العباسية، ص (212).
2. وحة الزهلي - آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دار الفكر بيوت طبعة ثانية، ص (64).
3. الخراج: ص (119).
4. الدكتور وحة الزهلي عن رسالة الدكتوراه من كلية الحقوق جامعة القاهرة.
خلاصة القول أن الإسلام كان يرعى حق الأسبر ولا يقبله في المعتقلات حتى يموت جوعًا ومرضًا. ولا يكتفى من الأعمال ما يقسم ظهره أو يهدر آدميته كما رأينا في أيامنا هذه من معاملة أمريكا لأسرى المسلمين في قاعدة "جوانتامانو"، وكما تفعل أيضا في أسرى المسلمين في العراق وما نشرته صحف العالم من صور تعذيب أسرى العراق على أيدي الجنود الأمريكيين ومن وضعهم في أوضاع تهدد آدميتهم، وإطفاء أعقاب السجائر في أجسادهم وانتهاك أعراض نساءهم، كما أشرعت أبدانا من صور المشائق إلى أقباسها لإعداد رجال المقاومة المسلمين بالعراق، والإبادة الجماعية لأحياء بأكملها
وعلي سبيل فن بالنا ماتقوم به إسرائيل اليوم تجاه الأسرى الفلسطينيين وذلك بإجراء التجارب العلمية عليهم والتي لم تتكافوا بعد من نتائجها، كما أنهم يشوهون هؤلاء الأسرى تشويلاً بس عقولهم ونفسياتهم بالإضافة إلى أجسادهم، وذلك باستخدام أحدث الوسائل العلمية والتكنولوجيا بهدف القضاء على هذه الفئة وإفساد حياتها النفسية والتي أغلبها من الشباب فهو تخريب متدمر وقتل مصير مستور من قضية أسرى الحرب سيارة لهم.

وقد عامل المراقبون والموحدون أسرىهم معاملة طيبة وفق ما روى لنا المراجع. فقرر لنا المراجع أن "عبدوالمومن بن علي" الخليفة الوحيد قد جاءته نصاري المهدي الذين وقعوا في الأسر وسموا من مقاومته وطلبوا منه الأمان لكي ينسحبوا. فأرسلوا عشرة فرسان ليفوضوا الخليفة في أن يؤمن التصرف على أرواحهم، ووصلت به سماحته أن أمر بتجهيز السفن الموحدة لنقل التصرف إلى بلادهم سالمين، وكان قراراً حكيمًا إذ كان "ويليم" ملك صقلية قد قرر أن يقتل جميع المسلمين ببلاده إذا أقدم عبد المؤمن على الفتى بنصاري المهدي. ومما يدل على جمعة عبد المؤمن وسماحته وخاصة بالنسبة من العبيد أنه يقول في رسالته إلى أرسلها إلى ولاته يأمر فيها بالمؤامرة وينهي عن المنكر "فلس سبيل أحد من هؤلاء أن يتابع شيئا منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم بأمره منكم والشيوخ، فتلا بذهب الحق في ذلك وينسيق، ونتحدثوا للنظر في أسواقهم من ترضون دينه وأماتنه، وانتظروا بما يشهده وصباره، فمن أخوه له البيع والابتعاد أخضره الأمين"
المذكور، ليرفع بشهادته الشك والنزاع وتجرى السنة مجاولاً ويمثل بالأمر المطاع، وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغنموا منهم من تلك الأرجاء حتى تخاطبوا بأصول أمرهن وكيفيته، وتعلمونا من ذلك بجميع ليرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم، ويجري إليه اقتضاكم (1).

إذا كان هذا هو حال عبد المؤمن مع أسراء من النصارى فكيف كانت معاملة أعدائه لأسرى الموحدين؟

لقد قدمت لنا الرواية العربية صورة بشرة من تعذيب النصارى لأسرى الموحدين قام بها ابن همشك، وحلفاؤه من النصارى عند هجومهم على غزنة وانهزام الموحدين وتأثر جيوشهم بين قتيل وجريف وأمر، وبالرغم من فتحة الكارثة التي ألت بالموحدين فإن ابن همشك أخذ يتفنن في تعذيب أسرهم، فأخذ فيهم المثلة مبعراً من إخوانهم المحبصين إذ كان يلقى بهم من الشواطئ ويبضعهم في كففة المجنين ويدف الزم، وكان يضم أعضاء الشجر العادى بعضها إلى بعض ويربط الإنسان بينهما ثم يسرحها حتى يذهب كل غصن بحظ من الأعضاء (2).

وقد ارتاع عبد المؤمن لتلك الكارثة التي أصابت جبهته فجهز جيشًا ضخما، وزوده بالمأمون والعدد الكافية وجعل على رأسه ابنه يوسيف بن عبد المؤمن، وقضى على قوات ابن همشك، وصهره ابنه مرديش، قضاء مثيرًا في موسمة السبيكة سنة 557 هـ - 1162 م.

ثانيًا: فرض الجزية

فرض الإسلام ضريبة يدفعها أهل الدين في مقابل قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم من أي عدوان يتعضرضون له، ولإظهارهم بظهور الخاضع لحكم الإسلام في دولة الإسلام، وهي بمثابة إقرار لدفاعها من المعاهدين بالولاية الصالحة في هذه الدولة. وهذه الضريبة تسمى "الجزيرة"، وتقررت الجزية في قوله تعالى: "فأتلوا (1)...

(1) رسالة عبد المؤمن بن علي من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية، مخطوط كتاب نظام الجمان لابن القطان، لوجة (55) ب (2) يقال عن عثمان، عصر المرابطين، الموحدين، ج (1) ص (552).
(2) ابن الخطيب، الإحاطة المجلد الأول، تحقيق عنان، ص (2009-3).
الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين
الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يطروا الجزية عن يد وهم صاغرون [التيئة 29].
والجزية هي مبلغ معين من المال يفرض على الرؤوس من غير المسلمين ويسقط
بالإسلام، ويدفع عن غنى وقدرة كما قوله تعالى: "عن يد".
وقد أشار أصحاب مالك الحديث عن الجزية وجعلوها نوعين: جزية "عفوية"
كالتي فرضها عمر بن الخطاب، وأخرى "صلحية" لأحد لها إلا ما صوختها عليه
من الإمام من قبل أو كثير.
وتؤدى الجزية على ثلاثة أوجه: جزية مجمولة، جزية مفرقة على رقاب
الأعداء، دون الأرض، وثالثة أن تكون مفرقة على رقابهم وأرضهم أو على
أرضهم دون رقابهم.
والجزية العفوية هي التي توضع على المغلوبين على بلادهم المقررين فيها
لعمارتها، فإنها عند مالك رحمه الله تعالى على ما فرضه عمر بن الخطاب رضي
الله عنه أربعة دنانير على أهل الذهب (1) وهي تعادل أدنى عشر درهماً.
ويروى أصحاب مالك أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال المباشرين لأنها تمن
لتأميمهم وحقن دمائهم، والصبية والمرأة لايفتان، والعبد مال من الأموال (2).
ويستثنى منها أيضًا الأعمى والمفقود والمجنون والراهن إن كانوا فقراء.
ويرى أن تؤخذ الجزية من أهل الذمة عند وجوها، واعتقل في حد وجودها،
فقبل إنها تجب بأول الحول حين تعقد لهم الذمة ثم بعد ذلك عند أول كل حول
إذ كان مالك يرى أنها تجب في آخر الحول.
أما الجزية الصلحية إذا وقعت مفروضة من غير تحديد أن تؤخذ بعجلة عند أول
الحول لأنها عوض عن تأمينهم وحقن دمائهم وترك فتائهم، وقد وجب لهم ذلك
بعقد الصلح (3).
وقد عمل المرابطون والمرحدون بتعاليم السنة الإسلامية الخفيفة في حروبهم
النصاري فكانوا يذرونهم قبل الحرب بالدخول في الإسلام أو القبول دفع الجزية أو

(1) مقدمة ابن رشد، ص 281.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق، ص 284 (2).
الحرب كالرسالة التي أرسلها يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس قبل معركة الزلاقنة، وكالفرسان التي كان يبعث بها خلفاء الموحدين إلى قوات النصارى ليخبرهم باعتناق الإسلام أو دفع الجزية قبل إعلان الحرب عليهم.

وقد أفادت المراجع في أن يوسف بن تاشفين كان عادلًا في جناية الأمور فلم يعرض على رعيته إلا ما أمر الله تعالى به وأوجب حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأحmas غنائم المشركين(1). وقد كانت الجزية تجب على الوجه التالي:

1- أغنياء يأخذ منهم ٤٨ درهماً.
2- متوسطو الحال يأخذ منهم ٢٤ درهماً.
3- فقراء يكسبون ويأخذ منهم ١٢ درهماً (2)

وبقرار المرابطين والموحدين لنظام الجزية كما فرضه الإسلام يكون قد:

1- أوجب دفاعهم عن الحقوق ما أوجه للمسلمين.
2- أوجب حمل السلاح وواجب الدفاع عنهم والمقاتلة في سبيل أرضهم وذراريهم.
3- أباح لهم التمتع بما هو حلالي عندهم، وإن كان هذا الحلالي حرامًا عند المسلمين ولم يفرض عليهم أدنى عقاب لذلك.
4- مكنهم من أن يشعروا بوجودهم العقائدي وأباح لهم أن يقيموا ببعهم وكنائسهم، وأن يقيموا شعائرهم دون رقاب أو معارضة.

ثالثًا: توزيع الغنائم على الجنود ونصيب الدولة منها

قد جرت عادة المرابطين والموحدين أن يجمعوا الغنائم بعد تتبع المهديين ثم توزع في يد شخوص أمين حاسب يسمى: "صاحب الأقباض، أو صاحب النقل"(3) كما هو متبع في غالبية الجيوش المعاصرة، ولا تقسم هذه الغنائم حتى

(1) ابن أبي زرع- روض القرطاس، ص (٧٧)، عبد الله بن بلكين- النيابة، ص (١٢٧).
(2) حسن إبراهيم جسن- النظام الإسلامي، ص (٢٨٧-٢٨٨)، وتاريخ الإسلام السياسي لنفس المؤلف، ج (4)، ص (٣٥).
(3) الأديبيس- الترابي البعيدة، ج (1)، ص (٢٨).
نتهى الحرب لئلا يتشاغل الجنّد بها، فتحل بهم الهزيمة، فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب، ومع ذلك يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب معاهدة أمير الجيش.

وكان فرق بين الغنيمة والفاء، فالفاء هو كل مال وصل من الأعداء للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إجاف خيل ولا ركاب. أما الغنيمة فهى كل ما أصابه المسلمين من عساكر الكفار وعن طريق الحرب.

وبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة فيقسمه بين أهل الخمس على نسبهم، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: {واعلموا أنما غنيمتم من شيء فأن الله خمسة للرسول وليد القربى واليابمين والمساكين وابن السبيل} [الأئتمال: 41]. ثم يقسم الأربعة الأخماس الباقية على الجند الغائعين، غير أن الإمام إذا رأى أن ين على الأسرى بإلاقهم فعل وبطلت حقوق الغائبين منهم، وهي نفس قيمة الفيء إلا أن أربعة أخماس الفئ الباقية بعد خمس الإمام كانت تقسم في صدر الإسلام بين الجنّد في الأعمال الخيرية ومن تطلب من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب، وقد ظلت الحال على ذلك حتى ظهرت الدواوين وقدر أزراق الجنّد.

وقد عمل المرابطون الموحدون بهذه التعاليم، فعندما غنم المرابطون في حروبهم ضد أمراء مغراوة وأمراء درعة وسجلماسة مغاصات كثيرة، وزع ابن ياسين خمس هذه الغائان على فقهاء درعة وسجلماسة والباقي على جند المرابطين.

إذن حظ الدولة من الغنيمة هو خمس الغائان والفاء كما جاء في مذكرات "عبد الله بن بلكين" في معرض حديثه عن عدل "يوسف بن تاشفين" بأنه لم يفرض على الناس إلا ما أمر الله تعالى به وأوجب حكم الكتاب والسنة من الزكاة والاعصار وزجية أهل الذاذ وأخماس غائات منشورين. ومن الطبيعي أن هذا الخمس حق بيت المال ينفق منه السلطان على جنده ويشرى منه السلاح اللازم، وما تتطلبه أمر الدولة من نفقات.

(1) حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام السياسي، ج (4) ص (454).
(2) التبيان، ص (127).
أما حظ الجندي من الغنيمة فكان ثلاثة أنواع:

1- أسهمه من الغنيمة: كان يأخذ الرجل منهم سهمًا وحيدًا، والفارس ثلاثة أسهم منهم له وسهمان لفرسه(1)، وقد نوه ابن رشد إلى ذلك قائلًا: "وغير بعيد أن يكون تأثير الفرس بالفرس ثلاثة أضعاف تأثير الراجل، بل لعله واجب"، وربما يرى من وراء ذلك أن بين أهمية الفرس في القتال، فعليه يقع عبء المعركة في مراحلها الثلاث: في تقوم فرقة الطلائع بعملها قبل الاشتباك، وعليه يقوم الفرسان بحماية أجناب الجيشه، ثم عليه القيادة عند مطاردة الفارين في حال النصر أو النجاة بصاحبه من الموت في حال الهزيمة. أما الراجل فغناؤه عند الاشتباك الفعلي والماراة وهو نهض استثنائي للمعركة(2).

2- النفل: وهو شيء من المال غير محدود يعطيه القائد مكافأةً لمن أعد القتال زيادةً على سهمه تشجيعًا له، وقد اختفى فيما ينقله الإمام فقيل إنه لا ينقل إلا من الخمس لأن الأربعة الأخماس للغائبين، والخمس مصرف إلى اجتهاد الإمام وهو مذهب الإمام مالك(3)، وهذا ما فعله ابن ياسين فقد استولى على فئة منهم من سجلما، فأخبره من خمسه وفرقه على فقهاء سجلما، ودرعة الذين كانوا إليه للخوض في ظلم أميرهم "مسعود بن واتودين الزناتي" ثم قسم الباقى على المراقبين(4)، بل دأب المراقبون في أغلب غزائهم أن يوزعوا الخمس أو أغلبه على المجاهدين فضلاً لتحفيزهم على الغزو والظفر من جديد(5).

وقيل إن الإمام لا ينقل إلا بعد الخمس من أربعة الأخماس لأن الخمس عندهم قد صرفه الله تعالى إلى المذكورين في الآية فلا يخرج عنهم شيء، وقد قيل: "له أنه ينقل من جملة الغنيمة قبل أن يحسسها، ولايرى مالك رحمة الله تعالى للإمام أن ينقل قبل القتال لبغي الناس في العطاء فتفسد نياتهم في الجهاد.

(1) انظر ابن رشد في البداية، ج (1) ص (314).
(2) انظر عبد الرب رؤف عون - الفن الحريري، ص (277).
(3) مقدمات ابن رشد، ص (219).
(4) ابن أبي زرع - روض الفرطان، ص (81).
(5) أشباخ - تاريخ الأندلس في عهد المراقبين والموقدين، ج (1) ص (7).
1- سلب القتيل: وهو فرس وسلاح وملابس ونقاط القتيل، وقد كانت العادة المتبعة أن سلب القتيل لقتله إلى أن خمسه عمر بن الخطاب، فيروى «ابن رشد» عن بعض حروب الفرس أن «البراء بن مالك» قتل ميرزيانا فارسياً وأخذ سله الذي قدر بثلاثين ألفاً من الندماء، فلما بلغ ذلك «عمر بن الخطاب» قال في أصحابه: «إنا كنا لا نخصم السلب وإن سلب البراء بلغ مالاً كثيراً ولا أرى إلا خمسته»(1).

وبذل وضع عمر بن الخطاب مبدأ تخميس السلب إذا بلغ حداً كبيراً أو زاد زيادة غير معقولة(2).

4- الوضح: هو نصيب من لا نصيب لهم في الهبات كالأطفال والنساء والعبيد إذا باشروا القتال أو قدموا معاونة فعالة أو مساعدة مجدية مفيدة خلال القتال مثل معالجة المرضى وتقديم الماء وإعداد الطعام ومناولة المأتم. وكان بعض الذُّوات أيضًا يشتكون مع المسلمين في القتال، فكانت هذه الطوائف تمنح قدرًا من الغنيمة وهو شيء يقدر الفائد ولايبلغ به سهم القتيل، وقد ذكر أبو يوسف أن الذَّوات والعبد والمرأة يرضخ لهم من الغنيمة(3) أي يأخذون قدرًا لا يبلغ السهم.

رابعًا: العلاقات السياسية والسلامة الناجمة عن الحرب

تنتهي الحرب بين الدول الحديثة عادة معاهدة صلح تعقد بين المتحاربين يتقرر فيها إنهاء حالة الحرب والعودة إلى العلاقات السلمية بين الطرفين، ويسبق معاهدة الصلح عادة اتفاق الهدنة، وإيضاً ما يسمى بمقدمات الصلح.

والصلح الذي تنتهي به الحرب في الإسلام إما صلح مؤقت وإما صلح مؤبد، فالمؤقت يسمى الموافحة أو المهدية وهو مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة ببعوض أو غيره سواءً فيه من يقر على دينه ومن لم يقر، دون أن يكونوا تحت حكم الإسلام(4).

---

(1) بداية المجتمع، ج(1) ص(316).
(2) انظر مقدمات ابن رشد، ص(270).
(3) كتاب الخراج، ص(124).
(4) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص(662).

277
أما الصلح المؤيد فهو عقد الدماة، والذمة في اللغة: العهد وهو الأمان والرضمان والكشف، وعقد الدماة عند الفقهاء هو التزام تقريرهم في ديرانا وحمايتهم والذب عنهم ببذل الجدية والاستسلام لهم من جهتهم.

وإذا كانت الحرب قائمة مع العدو فأحس بهضعه وطلب الأمان والصلح فيجب المسلمون حسب ما يريه الأم من المصلحة، حتى لو كان مقصود العدو المخادعة لقوله تعالى: "إن جنحوا للسلام فأحل لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم" (2) وإن بيدوا أن يخدعوك فإن حسب الله هو الذي أليك بنصره والمؤمنين.

[الأنفال: 61] [النور: 4]

ولكن يجب أن تكون الخدعة من الخفاء بحيث لا يقع المسلمون عليها، أما الخدعة المكشوفة فلا يمكن معها الصلح ولا يمكن أيضًا دواهي الصلح عند الاتباع على نية العدو وإن كانت خبيئة لقوله تعالى: "وأما تخافن من قوم خياتان فأنيد إليهم على سواء" وحكم الصلح عند المسلمين أن يلزمنا الوقاف به وشرطه الصحيح لقوله تعالى: "أوقفوا بالعقود" (المائدة: 1) وقوله تعالى: "فأفتحوا إليهم عهدهم إلى ممتلؤهم".

وإذا اشتمل الصلح على عرض مالي فيجب دفعه بحسب ما تتفق عليه سواء من الجانب الإسلامي أو من غيره.

وقد اشترط الفقهاء لعقد الصلح شروطًا يجب أن تذكر فيه وهو أن يكون الإمام طرقًا في العقد أو نائب الذي يفوض إليه العقد وهو تفويضًا عامةً. وله الأمر، لأن الهدة تحتاج إلى سعة نظر وتقدير للمصالح العامة، وينبغي أن يعقد العقد إن كان فيه منفعة للمسلمين ستعود عليهم، وكذلك يجب أن يحدد المدة معينة فلا يترك مفتوحًا وأن يكون الصلح خالياً من الشروط الفاسدة، ونظرًا للحروب الدائرة والمستمرة بين الموحدين والنصارى فقد كانت تعقد بينهما هدنة أو صلحًا من هذا القبيل توقف فيها الحرب لفترة معينة ينص عليها العقد وشروط الصلح.

(1) آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص (262).
(2) المصدر السابق، ص (263) وما بعدها.
(3) المصدر السابق، ص (264).
(4) المصدر السابق، ص (268).
وتحكي لنا المراجع عن عدة معاهدات وقعت بين النصارى الإسبان والمسلمين من بتلك المعاهدة التي وقعها "ألكونت نوبيدي لارا" حاكم طليطلة، وألفونسو الثامن ملك قشتالة، وانضم إليهم "ألفونسو هنريكيز" ملك البرتغال فقد بعثوا رسلهم إلى الخليفة "أبي يعقوب يوسف" يطلبون المعاونة والصالح بعد اشتداد هجوم المسلمين على أراضيهم والانقلام لفشيهم في حسارة "وبدة"، وقد استمرت الفاوضات شهرين وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملك النصارى وذلك في شهر ذي الحجة سنة 568هـ - 1172م، وكان مما حمل الخليفة على إثار الصلح والهدانة رغبته في التفرغ لأعمال الإنشاء وتعويم البلاد التي خرجت من جراء العدوان والغزو مثل باجة وغيرها (1).

وأما لاحك فيه أن هذه الهدنة كانت في صالح الموحدين، فقد تفرغ الموحدون لتقوا جيوشهم وتنظيمها استعداداً للاحتفال بطرق أخرى قاسية، بل أحدثت تصدعاً في جبهة النصارى وخاصة جبهة البرتغال، حيث أحس "جيرادو" أو "جرينادو الجليقي" حليف ملك البرتغال أنه قد فقد مكانته بهذه الهدنة وقد أغفلت في وجهه فرص المعاقبة ضد الموحدين ولم يجد أمامه أفضل من الدخول في خدمة الموحدين، فسار في صحة ثلاثمائة وخمسين قنديلاً إلى أشبيلية سنة 568هـ - 1174م، وانتصب قبولاً عدداً واحداداً للخليفة قبل الخليفة التماسه ووصله بالإحسان والإكرام ثم قتل بعد ذلك خيانته واتصاله بالفونسو هنريكيز (2).

وفي سنة 575هـ - 1181م وقع النصارى عقد صلح ومهادنة مع الخليفة "أبي يعقوب يوسف" حيث أوفد "وليم الطيب" ملك صقلية النورماندي رسله إلى الخليفة وهو بأفريقية يطلب الصلح والهدانة، وقد تم الصلح على أن يدفع ملك صقلية إتاوة سنوية ثم الانتقام عليه بين الطرفين، ثم أرسل ملك صقلية مع رسله إلى الخليفة تحياً وذخائر نفيسة منها حجر يافوت يسمى "الخافر" لاستدارته فهو شبه بحافر الفرس، وقد وضع في تابوت مصحف عثمان، الذي ذاب الموحدين على إبراز احتفالهم به (3).

---

(1) (2) البيان المغربي- القسم الثالث، ص (310).
(3) المراكشي- المعجم، ص (142).
وإذا كان هذا هو الحال في لجوء ملوك النصارى لعقد الهدنة والاتفاقات الدبلوماسية في قوة الدولة وعظمة سلطانها، فإنه ما يرى له أن تلك الصورة المشتركة قد تبدلت بصورة أخرى مزية دلت على ضعف سلطان تلك الدولة وطغيان النصارى عليه، ومحاولة الموحدين العمل على استرضائهم والتقرير إليهم، وظهر ذلك في أواخر عهدهم عندما بدأ يتصدع كيان دولتهم الداخلية بسبب الخصومات والتظالمات حول كرسي العرش.

وقد بدأت صورة هذه العلاقات تزداد وتتأثر من حيث الاتهام بالإجحاف بالمسلمين منذ عصر الخليفة المأمون الوحيدين الذيائحدا إليهم ليستعين بهم في مقاتلة خصومهم، ففتح لهم باب الإمبراطورية على مصراعيه، وظهر نفوذهم داخل هذه الإمبراطورية، فقد بلغ من شئتمهم مع هذا الخليفة أن فرمانو الثالث ملك فت retaliation حينما عرف ضعف الموحدين وحاجة المأمون في عقد موعدة وحلف معه اشتراط عليه شروط قاسية ذكرها صاحب روض الفرات منها: أن يدفع ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة، وأن يسلم المأمون عشرة من الخصون الإسلامية في منطقة الحدود التي بخترتها نفسه، وأن تبني مراكش كنيسة للنصارى يقومون فيها شعائرهم، وأن إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ويرد إلى إخوانه يقضون في أمره، وفق ما يقول، وإن تنصر أحد من المسلمين، فليس لأحد عليه سبيل. ثم يقول ابن أبي زرع: إن ملك فاتحولة قد أمر به جيش كبير من اثنا عشر ألف فارس من النصارى ليستعين بهم في مقاتلة خصومه بالغرب العظمى في الخلافة، وأن هذا الجيش الضخم قد وصل إلى المأمون في شهر رمضان سنة 266 هـ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجارة الروم إلى العودة على هذا النحو.

ولكن يبدو أن في هذا الرقم مبالغة، فليس من المعقول أن يذهب ملك قشتالة بهذا العدد الضخم من فرسانه، والجيش القشتالي كله لم يكن يضم في كثير من المواقف أكثر من هذا العدد من الفرسان، والآرب من الفرسان، والآرب إلى الصريح أنه أخذ تقريبًا بقوة تبلغ خمسين فارس، وهذا الرقم يقترب من عقد أخر فيه يقول: فحشد الشهود وضم الجنود، جمع نحو خمسين فارس من الروم، لما كان يبغى من الحركة ويزع.
وبعدما تغلب المأمون على خصومه كان في مقدمة ماأعماله أن ابتني للنصاري في داخل مراكش كنيسة كبرى وكانت أول كنيسة أقيمت بالعاصمة الموحدية، وقد اتخاذ منها النصارى وكرا يلود به القادة والجنود من الروم عند تدبير المؤامرات، وقد تكاثر عددهم وصاروا شوكة في جانب الخلافة تؤثر المناعات وتدير الانقلابات السياسية والعسكرية.

وقد حيت الخلافة الموحدية هذه الجالية النصرانية بمزيد من الامتيازات وخصوصًا في عهد الخليفة الصابع مما حدا بالبابا «أونوريوس» الرابع أن يبعث بالقس اللوبي فرنانديز إلى مراكش في عهد هذا الخليفة ليكون أسقفاً بها، وقد بعث مع هذا القس كتابًا يهتدى فيه بانتصاراته على خصومه، ويشيد بالدول الذي قام به الجند النصارى في هذه الانتصارات، ثم ينصحه بأن يعتني النصرانية لكي يعمر حمائية الله وعطف النصارى، ثم يرجوه لضمان حمودة النصارى حتى لا يتعرضوا إلى الفتن والبطش، وذلك بأن يخصص لهم بعض الخصوص المتفرقة تحت سلطات الفييجوا إليها عند الضرورة، كما كتب البابا في نفس الوقت إلى أمراء تونس وبيجية وسبيتة يرجوهم أن يسهلوا لنصارى مراكش الاتصال بإخوانهم في تلك الثغور، ثم يبعث السعيد برده على هذا الكتاب مع الاستفوف (لوبي) يشير فيه إلى إكرام الموحدين لرسوله ويبرجو أن يحسن الاختيار فيمن يخلفه للإشراف على النصارى الموجودين في بلياد الموحدين ثم يختم الكتاب بتوجهه الشكر إلى البابا.

المراجع الإسلامية قد غصت بمثل هذه المعاهدات في عقود الصلح التي كانت تجري بين المسلمين والنصارى في المغرب الإسلامي وتحتاج إلى بحث مدقق يحققها ويخرجها إلى النور في بحث قيم.

أما فيما يخص التقاليد الدبلوماسية التي كانت تطبع عند إبرام هذه العقود وتلك المعاهدات، فإنها كانت تناقش المعاهدة ثم يقرر نصها النهائي شفويًا، وعندما يتم التوافق على النقطة الجوهرية فإنه يلخص ما أتفق عليه شفويًا ثم يصدر عليه بتشيك الأصواب أو بعضه، وتعد هذه العملية بمثابة إبرام المعاهدة، وأحيانًا تسلم رسالة للسفراء تنص على انعقاد المعاهدة.

(1) أنظر نص هذا الكتاب في قسم الوثائق في آخر هذا الكتاب...
وأول معاهدة مكتوبة وجدت، يرجع عهدها إلى سنة 1741 م، كما يرى بعض المؤرخين، ولكن يمكننا أن نقول بإمكان أن أول رسالة مكتوبة كانت عام 1181 م، وجهها أسقف فيزا إلى السلطان الموحد أبو يوسف تشير إلى معاهدة مكتوبة أبرمت مع ذلک الخليفة الموحد (1).

أما فيما يختص بالشيكلات فإن عدم الإشارة في صلب المعاهدة إلى بعضها - مثل حضور الشهود ومصافحات التأكيد وترجمة النص - ليس هذا معناه عدم إجراها، على أن معاهدات القرن الثاني عشر الميلادي تورد أسماء المفاوضين وتعلن أن الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد في إمضاء المعاهدة، وذلك رغم كون المفاوضين كانوا محاطين في الواقع بمترجمين وعدل وكتاب أو نسائين. وقد تشير المعاهدة أيضًا إلى تشكيك الأبداء كعنوان على إبرام العقد وكذلك إلى كون المعاهدة حررت في نسخين أصليين.

وسوف نقدم صورة عن سير المفاوضات بين السفراء النصاري ومملوك المغرب حسبما رواه لاتري الذي جمع الوثائق الدبلوماسية التي كانت خلال العصور الوسطى قاعدة لعلائق المغرب ببعض الأمم اللاتينية مثل وبلجيا وفرانسه والبندقية وجنوة... (2).

يأتي السفير المسيحي إلى إفريقية حاملًا من أميره رسالة اعتماد تخوله حق التفاوض فستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع إليه تجيات أميره وهداياه، ثم يرجع منه أن يحدد له اليوم الذي يمكنه أن يهبط فيه جلالته بصورة أوضاع وأتم ما جاء لاجبه.

وكان الاستقبال الرسمي يؤجل في الغالب لبضعة أيام يقضي السفير في زيارة الوزراء والحاشيشة الملكية، وفي الوقت المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة أو مذكرة تحتوي على بنود مشروع الاتفاق الجديد فصلاً فصلاً، ثم يحرر السلطان تقريرًا حول هذا المشروع يحال على لجنة تدرس بنوده.

(1) عبد العزيز بن عبد الله- مظاهر الحضارة المغربية، طبعة 1957 م الدار البيضاء.
(2) المصدر السابق، ص (99).
ونظرًا لوجود أسرى مسيحيين في المغرب كان السفير يستنكر في الغالب فرصة وجوهه بالخضرة المغربية ولقائه مع السلطان فيطبق فكه أسر بعضهم، وكانت الحكومة المغربية تتفصل في الغالب بتلبية رغبته فتتاجر بتسهيل افتكاك الأسرى المطلوبين، وقد تحمل هي نفسها تكاليف الفداء ثم تتفتح الحوادث فيما بعد، وكانت تجري في الغالب بالقصر أو في منزل أحد كبار الدولة. وفي جلسات المناقشة كأن أعضاء الوفدين الإسباني والسيسياني يدللون بعض النقاط والمذكرات التي تشكل فيما بعد مشروعًا تميزيًا يتخذ أساسًا للمفاوضات، وعندما يتم الاتفاق بين الطرفين على أسس المذكرة الجديدة تخرج نسخة من المشروع باللغة العربية أولاً وذلك في أغلب الأحيان، وبعد تحرير الأصل العربي تتبع نقمة جلسة رسمية لترجمة هذا الأصل إلى لغة الإسبانية اللسان، ثم يتم إضفاء النسخ ثم طبعها بالحائط الملكي (1).

وأتت هذه المرحلة الأخيرة تجسيد في أبئرة ضمن محفظة غفير في نفس المكان الذي اعتقدت فيه جلسات المؤتمر، وتسود قادة المشاركة في هذا الحفل بعض رجال الدين المسيحي من القاطنين بالبلدة، وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وبعض قواد جند الروم المسيحيين المخترقين في الجيش الغربي، وهؤلاء يوقعون على المعاهدات كشهداء (2) هذا بالإضافة إلى المفوضين وتراميها.

كل ذلك يتعز إذا ما تم إجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات في المغرب نفسه. أما إذا حرر نص المعاهدة في إسبانيا مثلاً مع سفير مغربي، فإن طرق العمل تختصر، وقد علل بعض المؤرخين هذا الإتفاق في الشكليات وذلك لوفرة العلاقات بين الإسباني والعرب وانتشار اللغتين العربية والإسبانية بين الشعب، فإذا ما تم الاتفاق بين السفير ووزراء الأمير الإسباني حول أسس المعاهدة؛ تكمل الدبلوماسية الإسبانية نفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالإسبانية يكتبان في نفس الوثيقة كل في جهة يفصلها هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى، ويوفر الوزير الإسباني باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة إلى المغرب لتسليمها السلطان.

(1) مظهر الحضارة المغربية، ص (101).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحة.
بحكمه وإمضائه فيحتفظ نسخة وعيد الأخرى، وكانت هذه الطريقة تتبع في المغرب الأدنى أكثر من غيره.
وفي بعض الأحيان كان النص الإسباني المزدوج يسجل في نسختين منفصلتين يختتمهما الأمير الإسباني بطباعه أولاً ثم يوجهان إلى المغرب بعد ذلك لتتبط
بالخاتم السلطاني. ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين موثوقتين بنفس الطابع، ويحتفظ الأمير المسيحي بالنص الذي يحمل طابع السلطان، بينما يحتفظ هذا النص المختوم من طرف زميله الإسباني والمعاهدة المبرمة 1274 م بين ملك أراجون
جاج الأول ونابالسيتي، في حقبة تاريخية تالية ليست بطويلة لعلها تعد
مذكراً لهذه الطريقة الأخيرة(1).
تلك صورة مقتضية عن الشكليات التي كان العمل جاريًا بها في المفاوضات
والإيضاء على العقود الدبلوماسية(2).
ويستخلص من هذا العرض مدى ما يتمتع به أمراء المرابطين والموحدين من
روح قانونية تسوي القوانين الدولية الآن ومدى حرص هؤلاء المنقولين على ضمان
احترام السيادة لدولتهم، كما يظهر أيضًا حرصهم على تطوير علاقات مسألة مع
النصارى الإسبان وغيرهم على الرغم مما كان يسود العصور الوسطى من حروب
صلبية بغيضة.

(1) مظاهر الحضارة المغربية، ص (٢٠٠). 
(2) أنهار ومدوم، دوماس لاتري، لسير المفاوضات بين السفرياء الأوروبيين وملوك المغرب في كتاب مظاهرة
الحضارة المغربية، ص (١٠٠) وما يليها الدائرة البضاء.
الباب الخامس
الأساطيل البحرية لدولتي المرابطين والموحدين
الفصل الأول: نشأة البحرية في دولة المرابطين
الفصل الثاني: نشأة البحرية في دولة الموحدين
الفصل الثالث: المعركة البحرية وإدارتها وأسلحتها
الفصل الأول
نشأة البحرية في دولة المرابطين

من المعروف أن المرابطين كانوا قومًا صحرائيي في أول عهدهم، فلم تكن لديهم خبرة أو دراية بركوب البحر، وشاء القدر أن تزحف جموعهم صوب المغرب الأقصى ثم اتجهت نحو السهول الساحلية بقصد الاستيلاء على أهم مواد المغزاز الأبيض المتوسط مثل طنجة وسبتة، وبدو أنهم حتى هذا الوقت لم يكن لديهم أي قوة بحرية تؤازر جيوشهم البرية للاستيلاء على هذه السواحل، بدليل أن "يوسف بن تاشفين" في حربه للمدتيني طنجة وسبيتة سار إليها من جهة البحار بمساره بينما بعث "ابن عبان" قطائعه البحرية لتعاونه من جهة البحر حتى ينالهاً.1

ولقد أدرك عاهل المرابطين "يوسف بن تاشفين" بعد اتصاره في معركة سبتة أهمية الأسطول البحرى في كسب المعارك، فبدأ ببحثه وبولي عظم اهتمامه، ويبدو أنه استعان بخبرة أهل السواحل المشغولين بركوب البحر ولعبه استعمالًا أيضًا ببحرية من الأندلس ودور صناعتها في تدابير أسطلوله.2

ومن هنا ظهر للمرابطين في عهد "يوسف بن تاشفين" أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس وإن كان يتميز ذلك الأسطول بكثرة سفن النقل عن سفنه الحربية3، وقد شارك هذا الأسطول في نقل جنود المرابطين من بر عودة المغرب إلى بر عودة الأندلس لحوض معركة الزلاقة، وأصبح ذلك الأسطول حزمة الوصل بين العدوتين لجعله "يوسف بن تاشفين" مشروعه العسكري الكبير باستيلائه على بلاد الأندلس وضمها لدولته الناشئة.

---
1 ابن أبي زرع - روض الفرات، ص (91).
2 حسن أحمد محمود - قيم دولة المرابطين، ص (394).
3 أنشاه - تاريخ المرابطين والموحدين، ج (2) ص (237).

287
ويفتح جزيرة الأندلس بدأ عهد جديد في تاريخ البحرية المرابطية، فكانت لهم في سبأ وقادس والمريه أساطيل دائمة، وكانت قطائع النقل تنجمع بنوع خاص في مياه سبأ وطينة والجزيرة الخضراء وطريف وسلا لنقل الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة الأندلسية أو منها إلى المغرب.

ثم بدأ الأسطول المرابطي في عهد يوسف بن تاشفين يظهر كنصور فعال في معركة النضال ولم يستمر قطعه على النقل فقط بل أكثروا من قطعة البحرية فاشتركل أسطول المرابطين في معركة بلنسية التي دارت بين المرابطين وبين القديسيطور (1) حيث نسمع أن أسطول المرابطين قد عاونت القوات البرية في شرق الأندلس ففتح بلنسية والجزائر الشرقية واللبار (2).

وإن كانت المراجع لم تشر إلى نشاط البحرية في عهد يوسف بن تاشفين فإنه المحتمل أنها كانت في عهده في طور البناء والتكوين إلا أنها في أخبار حياته فقد اكتسبت وظهر نشاطها وعين لها أمير يقودها وهو يحيى بن ميمون الذي عرف بلقب "أمير البحر" (3).

وقد ارتفى الأسطول المرابطي في عهد "علي بن يوسف" وأظهرت وحداته نشاطا ملحوظا في البحر الأبيض المتوسط يؤيد ذلك ما ذكره الإدريسي: "من أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز كان واليا لأمير المسلمين "علي بن يوسف ابن تاشفين" على جملة من أسطوله" (4).

(1) هو فارس قشتالي بنا حياة في خدمة شرب المسلمين بالأندلس من بني هود ثم خرج عليهم وانضم إلى ملك قشتالة حتى طرده سنة 1081م، ومن هذا التاريخ بدأ يظهر مغامرا يعمل لكتب المال من فضيلة تارة للمرابطين وأخرى للنصاري، ويبدو في معظم حملاته العسكرية فانطري ورئيسي عصابة، وقد ظهرت جزئية في ماسة بلنسية حيث غادر بهلها وحيرته قادتها ابن جراح (يشير في تاريخ الكيميادور: البيان الغرب، ج2، ص (200-206) - فتح الطبيب، ج2، ص (77-79) - أعمال الأعلام، ص (32، 33، 34).

(2) أشباح – تاريخ المرابطين والمحيدين، ج2، ص (237، 239)، وقيام دولة المرابطين، ص (393).

(3) أنظر قام دولة المرابطين، ص (393).

(4) المغرب وأراضي السودان، ص (54).
وقد ظهر تفوق هذا الأسطول المرابطي في أكثر من معركة بحرية تصادى فيها ل索取ون النصاري في رهبها. ويجبرها على الفرار. فقد عقدت دويلات: بيزا، وجوته، وإمارة برشلونة، حلفا لفتح الجزائر في سنة 580 هـ - 1181 م، فخرج من مياه جنوة أسطول الغزو وقامه نحو ثلاثمائة سفينة ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا وأحرصوا مدينة «ميوبورقة» عاصمة الجزائر ثم اقتتحوها وضربوها.

وقد حاول والي ميوبورقة الاستناد بمرابطين بعدما فرض الحصار على المدينة، فهاء عام قاسي فيه المسلمون آهالاً وشهداء لم يروها من قبل، ولكنهم توفي أثناء الحصار، وحاول خلقه القائد «أبو العبد سليمان» أن يغادر الجزيرة ليسعى في طلب التجدد، فأسره النصاري، ولكن التجدد جاء إلى «ميوبورقة» على يد بحار جرئ هو القائد «أبو عبد الله بن ميمون» الذي استطاع أن يخترق الحصار بسببه تحت جنح الظلام، ولم يستطيع النصاري حقاً به.

وكان على بن يوسف، قد أتهم عندئذ أهبه البحرية الضخمة، فبعث لإنجذاب الجزائر واستنادها أسطولاً ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة، وأقعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر، بقيادة أمير البحر المرابطي «ابن تفرتش» أو «تافرتش»، ولما علم اليزيديون وحلقوهم، قبضوا هذا الأسطول المرابطي الضخم، وأدركو أنهم لا أمل لهم إلى مدافعته، غادروا «ميوبورقة» مشقلين بالغائFontAwesomeIcon "fa-map-marker-alt" src="https://www.w3schools.com/icons/fontawesome-free-5.14.0-web/icons/marker.svg" width="16" height="16" style="vertical-align: text-bottom;"

وأخبروا روعهم، وأحرقواها وقتلوا معظم أهلها، ووصلت السفن المرابطية في آخرهم إلى الجزيرة في أواخر سنة 590 هـ - 1191 م، واحتلها المرابطون وشرعوا في تعميرها، ولما انصرفت السفن النصرانية ناجية إلى أوطانها، دفعتها العواصف والأمواج العالية، فحملت منها أربع سفن صوب غرب ذانة، فظطرها القائد أبو السدات حتى غرقت منها واحدة وتمكن من أسر الثلاث الأخرى.

ويبعد منذ ذلك الحين أنه أصبح الأسطول المرابطي قوة هائلة، يحسب لها الأعداء ألف حساب فقد دخلوا في صراع بحري عن طريق النصارى النازحين لأصحاب صقلي واغازروا على سواحلها عدة مرات حتى ضج ملكها بالشكوى.

(1) ابن خلدون، ج (4)، ص (165)، وروض الفرات، ص (50)، صحيح الأعشى، ج (5)، ص (257).

(2) قيم دولة المرابطين، ص (394).
واستمرت دائرة نشاط الأسطول المرابطي حيث امتدت غاراتهم إلى سواحل إيطاليا وفرنسا وبدأت ت供热 مع أساطيل بيزنطة في شرق البحر الأبيض المتوسط (1). وبدأت المراجع الإفرنجية تؤرخ لغارات أسطول المرابطين وتتحدث عن بطولاته وإقامة قادته "علي بن عيسى بن ميمون" الذي أخذ يغزو جنوب إيطاليا وبلاد الشام وشواطئ بروفانس ويحرق كل ما يصادله من قرى وقصور وكنائس، وقد سجلت مدونة ألفونسو السابع نشاط "علي بن عيسى بن ميمون" وذكرت أن الجالية المسيحية ببلاد المرابطين قد أسرها على بن ميمون أثناء إغارته بحوض البحر الأبيض وأنه نقلها إلى مراكش لنتدخل في خدمة الأمير المرابطي (2).

من هذا يتضح أن المرابطين قد امتكروا في أواخر أيامهم أسطولاً ضخماً من القطائع والسفن المقاتلة، وما يؤكد هذه الحقيقة أن الأمير تأشفي بن علي كان وهو يجوز معركة وهران ضد الموحدين كان يعلق أمله في النجاة على الأسطول. وقد استدعاه فعلاً لينقله إلى الأندلس، ولكن القدر شاء أن يصرع هذا الأمير ثم تنقل هذه الأساطيل بعد فترة قصيرة إلى خدمة الدولة الموحدة.

---

(1) قيم دولة الموحدين، ص (1395).

---

290
الفصل الثاني

نشأة البحرية في دولة الموحدين

لقد بلغت البحرية الموحدية شأوًا عظيمًا في عهد عبد المؤمن بن على الخليفة الأول للموحدين، فقد استحوذ على سائر أسطول المرابطين بعده ورجاله الأكفاء. ولم يكتف بذلك بل شرع في إنشاء قطع أخرى بلغ أربعمائة سفينة القت مراسبها على جميع سواحل بلاده(1).

وقد بلغ من اهتمام عبد المؤمن بالأسطول أنه أنشأ عدة مدارس بحرية لتخرج القادة الأكفاء والبصارة المدربين على استعمال السلاح وركوب الخيل والسباحة واساليب الحصار وبحر، وحيث أنه أنشأ لهم بركة على مقربة من مدينة مراكش ووضع في القوارب والسفن البحرية الصغيرة يتدرب فيها الطلاب على التجديد وقيادة السفن وكل ما يتعلق بالفنون البحرية(2).

ومن مظاهر اعتناء عبد المؤمن بالأسطول أنه قام بمسح أراضي مملكته وفرض على كل ولاية الضرائب حسب ثروتها وحالتها، وكذلك مايجب أن تقدمه كل ولاية من الجند من مختلف الأصناف، ففرض على مراكش أن تقدم أربعمائة بحار، وثغرها مائة وخمسين، وكل من طنجة وتانسة ومرسى عريف ووبران ومرسى حين مائتا بحار، والزم الأندلس ب تقديم ثمانمائة بحار(3).

وقد لعب أسطول الموحدين أدوارًا هامة في معارك الخلافة الموحدية عند افتتاح المهدية التي يحتلها النورمانيون سنة 555هـ - 1160م، حيث خرجت جيوش عبد المؤمن من جهة البحر تجاه تونس، وكان الأسطول الموحدى بقيادة: أبي عبد...

(1) من هذه السفن مائة وعشرون بالمهندسة، وثمانون سفينة بحوزة سنة وطنجة والريف، وثمانون سفينة بسواحل أفريقية تونس، ووبران ومرسى حين، وثمانون سفينة بعدو الأندلس، ينظر السلاوي، الاستضفاض.

(2) أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص (489-491).

(3) أشباح، تاريخ الأندلس، ج (2) ص (257).

291
الله بن ميمون: يحاذيها من جهة البحر وقد أرسل الملك "وليم" إلى المهدية أسطولاً ضخماً لإنقاذها مكون من مائتي قطعة بحرية.

وتشتت بين الأسطولين معركة حامية لم تغل فيها براحة النورمانديين شيئاً، وأحرز المسلمون عليهم نصرًا باله، وأحرقوا وأغرقوا جانبيًا من سفنهم واستولوا على جانب كبير آخر منها.

وكان للأسطول الموحدى نشاط ملموس يتمثل في حراسة الشواطئ الأندلسية من مياه البرتغال جنوبًا حتى مياه بلنسية والجزائر الشرقية وشواطئ المغرب الشمالية من مياه تونس والمهدية.

وقد سجل أسطول الموحدين في عهد الخليفة "أبي يعقوب يوسف" نشاطًا ملموسًا في جهة البرتغال التي أشتدت هجماتهم وتكرر عدوانهم على حدوت المسلمين بالأندلس، فبعث أسطوله المرابط بسبقه تحت إمرة "غانيم بن مرديش" لغزو شواطئ البرتغال، فصار صوب أشوبونة وهاجر ثغرها واستولى على سفينتين من سفن البرتغال وعاد بأسطوله إلى سبته.

وتروى المراجع أن أسطول الموحدين قام بعدة اشتباكات مع أسطول البرتغال ليوقف عدوانهم على ثورناء المسلمين وأثبتت مقدرة رائعة في التصدي لأسطولهم، وإيقاف هجماتهم وأنزل بهم هزيمة ساحقة في معركة بحرية عنيفة سنة 1181 هـ. وحال فيها قائد الأسطول البرتغالي "روبينيو"، واستولى الموحدون على عشرين سنة، وأرسوا نحو ألف وثمانمئة أسير، وقد نظم من خلال هذه المعارك مجموعة من أمراء البحر الموحدين من أبرزهم: "غانيم من مرديش" وأخوه أبو العلاء وعبد الله بن جامع.

وكان للأسطول الموحدى وحدات كبيرة ترابط في المعمورة وبسية وتونس ومالة وقادس وأحيانًا في مياه البرتغال الجنوبية.

---

(1) أشباح: تاريخ الأندلس، ج (2) ص (247).
(2) البيان المغربي: القسم الثالث، ص (118، 241) ابن خلدون، ج (6) ص (241).
وقد بلغت البحرية الموحدية أوج قوتها في عهد الخليفة "أبي يعقوب المنصور"، ففي عهده نشبت عدة مواجهات بحرية بين الأسطول الموحد ولبنن القطريين على مقرية من طرطوشة، وأحرز أمير البحر الموحد كثيرًا من ضروب الفتوح.

ولاحظ في ذلك فقد ذاع صيت هذا الأسطول وعمت شهرته الآفاق مما حدا في البصolah الدينية الآيوبية أن يستنجد به في حروبه ضد الصليبيين في المشرق.

وستختتم الكلام عن أسطول الموحدين بنص هام يدل على مدى نشاط هذا الأسطول والدور الذي كان يلعبه على سواحل بلاد النصارى. يقول صاحب صحيح الأعشي عن أسطول الموحدين: "وبالبلاد البحرية أسطول الحراريق المغرق في البحر الشامى، يركب الأتراك من الرماة والرؤساء المهرة، فيقاتلون العدو على ظهر البحر وهم الظافرون في الغالب، ويقرون على بلاد النصارى والساحل وما هو بقرية، فيашرون أهلهم ذكورهم وإناثهم ويأبونهم ولاد المسلمين فيبروزهم بهم وبحملونهم إلى غرانتبه إلى السلطان فابخر بهم ما يشاء ويبعد ويبيع" (1)، وفي نفس المعنى يقول ابن خلدون عن قائد الأسطول الموحد ابن ميمون: "كان يبعث بالأسوار والعلقون للخيلية أبي يعقوب الموحد" (2).

ويمكن للباحث أن يستكشف من هذين النصين أن أسطول الموحدين كان مسيطرًا على ساحل البحر المتوسط حاليًا لسواحله وثغوره من أي اعتداء عليها، وأنه كان يقوم بغارات مستمرة على سواحل بلاد النصارى فياشرون من أهلها أعدادًا كبيرة تعمل في خدمة السلطان.

ولكن ما أسباب تلك الغارات المستمرة وهل كانوا على حق في غاراتهم على بلاد النصارى وسواحلها؟

خلاصة أن هذا العمل عمل مشروع يقصد من ورائه الردع لإرهاب أعداء المسلمين وإلقاهم الرعب والفزع في قلوبهم، فلا تحدثن أنفسهم بالاعتداء على

---

(1) أشباح - تاريخ الأندلس، ج (2) ص (247).
(2) القشتالي، ج (2) ص (272).
(3) تاريخ ابن خلدون، ج (1) ص (243).

492
حدودهم، وهذه نظرية عسكرية متصلة في العرف العسكري قد أقرها الدين الإسلامي حيث يقول تعالى: "واعدهم لهما ما استعملتم من قوة ومن رباط الخيل ترهون به عدو الله وعدوكم" [الأنفال: 60]. وهي نظرية تعرف في الاستراتيجية العسكرية بنظرية (الردع).

وهذه الهجمات من جانب رجال الأسطول الموحد بالأندلس كانت تذكيراً روح الجهاد والعقيدة الإسلامية، تلك العقيدة التي خلقت من رجال هذه الدولة روحًا جديدة وحامية سكان بلاد الشواطئ، إذ تنافس جموع المرابطين في ثوران الأندلس لايغون شيئًا سوي الجهاد في سبيل الله، وسبب ذلك كثير في سواحل إسبانيا الإسلامية المراكز الخفية التي غدت بأعداد وقبرة من المقاتلين وقد يطلق عليها الأربطة.

ويبدو أن السلطات الحاكمة كانت تشجع هؤلاء النفر في غاراتهم هذه على سواحل النصراني وكانوا يقدمون لهم المساعدات والمون اللازم لذالك، وقامت تلك الدولة بتقليد بحري فريد سرعان ما انتشر من الأندلس إلى غيرها من البلاد العربية.(1)

---

(1) ينظر الدكتور إبراهيم العدو في كتابه القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، ص (103، 104).
الفصل الثالث
الحركة البحرية وإدارتها وأسلحتها

أ- إدارة المعارك البحرية (1)

من الطبيعي أن يسبق المعركة البحرية إعداد لها مثل حشد القوى وتعبئة الأساطيل والاستطلاع البحرى ثم الاقتراب وهذه كلمة مختصرة عن كل مرحلة من هذه المراحل:

1- حشد المقاتلة:

من أولى مهام أمانة البحار بعد تفحص السفن وتزويدها بالنفط والوقود وشحنها بالأسلحة أن حشدacellular المقاتلين، ويتخذ الحشد عن طريق القباء الذين يكونون بجميع الجند من بين الذين يجيدون الحروب البحرية. ونظرًا لما تتطلبه الحروب البحرية من نواعم خاصة كتبت الدولة تفرق عليهم الأعيان في احتفال عظيم يقام عادة قبل الإبحار بحضرته الخليفة ووزير الجيوش وصاحب الديوان (2).

2- تعبئة الأساطيل:

كانت تعبئة الأساطيل تأخذ الشكل الحماسي: قلب وناحية ومقامه وموقعة، وتصطف السفن إما على هيئة نصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطته به وحطمته. وإما أن تصفط صوفًا مستقيمة لتنجح مراكب العدو بالللجام وتفرقه.

(1) نظرًا لندارة المادة التاريخية في تاريخ المسلمين والمسلمين فإننا لا نجد عقدًا كبيرًا في إدارة المعارك البحرية بين أساطيل الموحدين والموحدين، وسوف نتضم على بعض المراجع التي تحدثت عن الأساطيل العربية بصورة عامة، وخاصة أنا لن نجد أساطيل المغرب طبيعة خاصة في معاركها البحرية، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها: القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط للدكتور إبراهيم العدوي، ومقالة ابن خلدون، وآثار الأولى لحسن بن عبد الله، ومن أراد الاستناد فليرجع إلى هذه المراجع.

(2) د. إبراهيم العدوي، القوات البحرية العربية، ص. (184).
التتحرك قطع الأساطول بعد إصدار الأمر إليها من أمير البحر، وفي أثناء سير الأسطول يتحتم على أمير البحر أن يقوم بعدة توجهات ليخفي أسطوله عن أعين الأعداء ويحذر إغارة سفن الأعداء عليه، ومن هذه التوجهات: عدم إيقاد النيران وإطفاء كل المصابيح، ويامر القائد بتركيب قلوع ورق (1) حتى يخفي مراكبه عن أنظار العدو، وهذا شيء يمكن تفعيله الجيوش المعاصرة من طلاء طائرتها ومركباتها بلون يناسب لون الصحراء حتى تخفي على العدو.

4- الاستطلاع والاقتراح:

قبل الانتحام مع أساطيل العدو، يقوم كل قائد من الأسطولين بالاستطلاع البحري، فيرقب حركات صاحبه ويحدد مكانه ثم يذبحه بحذر ولا يتم عملية الاقتراب عادة إلا في هذه الرياح وسكونها، وذلك ليصرف القائد سفنه حسب خطته ويجتهد ألا تهب الرياح عليه حتى لا توفر الخلل في سفينه (2).

وقد عمد أمراء البحر العرب إلى خطة جديدة لجذب سفن الأعداء إليها وذلك بأن يلقى عليها الكلافلب ثم تجذب سفينهم حتى يتقرب من سفن المسلمين ثم توضع ألوان بين جوانب السفن حتى تكون جسرًا يتساقل عليه الجناد المسلمين إلى العدو داخل سفن ويتلاقون عليها (3).

وقد كان لأمراء البحر اختصاصات واسعة من قبل الخلفاء وولاة الأمر، وكان يقوم أمير البحر بتوزيع هذه الاختصاصات على بضعة أفراد يعاونونه في عمله.

فقد كانت كل وحدة من وحدات الأسطول العربي معدة إعداداً تامًا من حيث رجلاتها ومعداتها، وذلك وفق نظام دقيق، فكل سفينة عدد من النوافات أو البحارة الذين يخضعون لكبرىهم الملقب بالرئس أو الريس، ويتولى الريس مع رجاله تنبيه أمر جريان سفينته بالريح أو المجاديف وكذلك عليه مهمة إنحراف السفينة واتلاف ماراتها.

إنه من حق نجوم البحر أن يختاروا الجهات التي تتناسب مع رحلتهم.

(1) الحسن بن عبد الله آثار الأندلس، ص (191).
(2) ابن خلدون- المقدمة، ص (212).
(3) د. إبراهيم العدوى- قوات البحرية العربية، ص (184).

296
وإلى جانب النواتية يوجد فرق من الجنر المعدة للقتال البحرى، وتعمل تحت
 أمري قائد يشرف على إعداد الأسلحة وتسير دفه القتال على السفن.
 كل هؤلاء يعملون تحت إمرة أمير البحر وهو القائد العام للأسطول، وهو الذي
 يتولى رئاسة السفن الحربية كلها، وكان يمنح سلطة مطلقة من قبل الخلفاء في
 إعداد حملاتهم، فله الحق في اختيار رجال الأسطول ومعاملتهم والإشراف على
 بناء السفن ومراسبتها، والإشراف على أعمال التجسس البحرى (1).

ب- الأسلحة البحرية:

من الأسلحة الرئيسية لرجال الأسطول: القسي التي تشتد بواسطة اليد أو
 الرجل، ثم المنجيق الذي كانت تخصص له مركب خلفه وحمل حجارته والجنود
 الذين يعملون عليه، ثم يقوم برمي مراكب العدو بالحجارة، والقوارير المطلعة
 بالنفط أو الجرار المملوء بالجير الحي المدخن، يرمى بها جند الأعداء بقصد أن
 يعده غبار هذا المسحوق أعينهم، وينتهب عليهم في هواء البحر المشبع بالبخار،
 وهذا ما يسب فيه الغازات المسيلة للدموع وغيرها. كما كان يرمى الأعداء بقدور
 مملوءة بالصابون لنزل أقدامهم وتزلف فوق خشب الأسطول فيكونون عرضة لرماح
 وسهام المسلمين (2).

ومن الأسلحة البحرية الغالبة أيضًا ما يسمى "اللجام أو الفأس" وهو عبارة عن
 كتلة طويلة من الحديد مدبة المقدمة كستان الرمح يحملها الجندي في سفينتهم ثم
 يدفعونها إلى سفينة العدو لتتصدمو به في مقدمها فتتحرق وتعزفها، أو يحملها
 الرجال وينتحرون به السفينة قوة يفجرون بها ثقبًا عميقًا ويسرب الماء إلى
 جوفها فتغرق ثم يطلب من بها الأمان (3).

وكانت تزود كل سفينة بنوع من الكلاببة تستخدم عندما تدنو منهم سفينة
 الأعداء إذ تلقى الكلاببة لتوقف سفينتهم، ثم يشدوها إليهم ويرمون عليها الألواح

---

(1) ينظر حق أمراء البحر وهمام اختصاصهم في كتاب الدكتور/ إبراهيم العدوى القوات البحرية العربية.
(2) الحسن بن عبد الله- آثار الأول، ص(216، 211).
(3) نفس المصدر السابق، ص(216).
ويجريون جسرًا من الخشب، ينشغل عليه الجند لقتال العدو، وكونا يبطل عمل الكلابيب بأن تقطع بفأس نقلًا.

ومن الأسلحة البحرية الشديدة الفتك «النار البحرية» التي استخدمتها الروم وزدوا بها أسلحتهم. وكان العرب يجهلونها في بادئ الأمر حيث جاورا إلى إطفائها بالماء فازدادت إشغالًا.

واستطاع الروم الاحتفاظ بسر هذه النار التي نسب إليها وعرفت باسم النار الإغريقية إلى القرن العشرين ميلاديًا- الراهب الهجري.

واستطاع العرب الوقوف على سر هذه النار وتركيبها، فكانت تتكون من كبريت نقي، وحمض التروطريك، والصمع الفارسي والمطر والقطر الحام والبترات، فإذا منج الخليل معًا، وغمس في هذا الخليط نسيج كتان، ثم أشعلت فيه النار انشر اللهد في الحال، وتفتئ النار بالرمل فقط أو بالخل.(2)

ثم تطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقعات وكانت تتكون من وحدات كل منها تحتوي رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم البلدى أو ست أرطال من نترات البنوتس ومسلح البارود، ثم بوضع المزيج في غلافات طويلة ضيقة محكمة أشبه بالخرطوشة وتطغى فتحتها بسلك حديدي، وتشعل هذه الأنبوب وتدفق في الهواء بواسطة المانونية ويسمع لها انفجار مدوٍ يصبح دخان كثيف مبسوط بلهد خاطف، بيد أن النار التpii زودت بها السفن البحرية كانت عبارة عن أنبوب من النحاس تقفز من مقدمة المراكب.(3)

جـ- طرق الوقاية من هذه الأسلحة:

ما لا شك فيه أن كل محارب يحاول جاهدًا حماية نفسه من طعناً خصمه، ويخصوص طرق الوقاية من السهام والرمى والسيف، فقد سبق أن تحدثنا عنها في باب الأسلحة، ولكن الخطأ سلاح يجب أن يتقي خطره هو النفي أو النار.
الإغريقية وذلك لسرعة اشتعاله في القار الذي كانت تطلبه به السفن، ومن طرق الوقاية لدفع هذه النار عن سفن المسلمين هو أن يعلقوا حول سفنهم البدلاء بالخل والملاء حتى لا تشعث فيها النار. وإذ إن ينجرفوا بالخل الممزوج بالشب والطروش، وإذا أن يردونهم بالطيب المعجون بالنطرون(1)، وكان رجال الأسطول يحمون من تلك النار بدهن أجسامهم باللباس(2).

- أنواع السفن:

كان الأسطول يتالف من الوحدات التالية:

1- الشوانى

جميع الشونة - أو الشينى - هي مركب حربي كبير ذو أبراج وقلاع ويستعمل للفحص وللعجوم ويجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفطية، ويحشد بالمقاتلة أو الجند البحرية، وهو من أهم أنواع السفن ومن أهم القطع التي يتألف منها الأسطول الإسلامي وغيره، لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالًا لحمل المقاتلة للجهاد، وكان متوسط مجاهده الشينى الواحد مائة وخمسين رجلاً، ويجدف ببئر مجزاف.

ومن وصف الشوانى من الشعراء ابن حمدي أسحق السرقوسي، قال يمدح

"ابن يحيى الحسن بن علي بن يحيى،(3)

أشاهت شوانى طاهرة
وتيت على ماء معدنا
بروح قتال تحميها
في شم شواهقه لنا.

2- الأغيرة

جميع غراب وهي نوع من المراكب لا تختلف عن الشوانى، وسمي بهذا الاسم لأن مقدمةه كانت تشبه رأس الغراب أو الطائر، وكان يسير بالقلاع كما كان يسير بعد من المجاديف لا يتجاوز مائة وثمانين مجدًا، ومن خصائصه أنه كان مزودًا

(1) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، ص (183)
(2) السلاح في الإسلام - عبد الرحمن زكي، ص (366)
(3) المصدر السابق، ص (121)، القوات البحرية العربية ص (117).
3- الخوارق:

وتعرض أحياناً بالحراقات لان السفينة منها أو الحراقة احتصت بقذف العدو بالأسلحة البحرية والترابية النفط، وكانت الحراقات تقل عن الشواطئ في الحجم وتمتاز بوجود المجانين عليها لقذف العدو بالحذر محروقة، وقد حلت محلها اليوم المدمرة(2).

4- الشنديات:

مفردها شندي وهي مرتبة حرية كبيرة مساحة لحمل المجانين والسّلاح وتعادل في أهميتها السفينة والحراقة وأصلها في اللاتينية، فقالوا: صندل ويستخدمها الأفرنج لنقل البضائع (3).

5- اليوس:

وهي نوع من المركبات أخذ المماليك عن الصليبيين وكان يستعمل في حمل المجانين والمقاتلة والسلاح والذخيرة وسائر آلات الحرب، وهي عظيمة البناء وتشمل على عدة طبقات يشغل كل طبقة منها فئة معينة من الجند بأسلحتها وتسيرها قلعة كبيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعة (4). ومن المتوقع أن تكون قد انتشرت في بلاد المغرب والأندلس لاحتكاكها بالصليبيين في معاركهم المستمرة.

2- القراقر والحمالات:

مفردهم قراقر وهي نوع من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للأسطول وأصل اسمها بالإسبانية "كاراكسا" بينما تقوم الحملات بنقل الذخيرة (5).

---

(1) السلاح في الإسلام، ص (166).
(2) السلاح في الإسلام، ص (16).
(3) السلاح في الإسلام، ص (168).
(4) السلاح في الإسلام، ص (168).
(5) القوات البحرية العربية، ص (119).
الطرادات:

ويَتَجَهُونُ طَرَادًا أو طَراذٍ وهَوِيَ رِفتٌ صَغِيرٌ عَلَى هَيْثَةِ البِرَامِئِ، بُدُونَ سَطْحِ
وَتَتَعِمَّلُ فِي مَطَارِدَةِ العَدوِ لِسَرْعَتِهَا (١)
بِنِمَا الْطَرَادَةُ فَهَيَ مَرْكَبٌ حَرِيعٌ سُريِّعٌ كَانُ يُسْتَخْدَمُ فِي نَقْلِ الْخَيْلِ لِلَّأَسْطُولِ
وَقَدَاخْذُ الْإِفْرَنجِ مِنَ الْعَرَبِ هَذِهِ الْتَنْسِيمَةُ فَعَرَفَتْ فِي إِسْبَانْيَا وَإِيطَالِيا وَلَكِنَّ الْأَنْباَثَ
الشَّبَكُ:

وَهَيْ مَرْكَبٌ حَرِيبٌ صَغِيرٌ الْحَجْمِ تَتَعِمَّلُ عَادَةً فِي الْبَحْرِ المُتوسِطِ وَيَقَالُ فِيهَا
أَشْباَكٌ وَشَبَكُ هُوَ مُحْتَوِيٌّ عَلَى ثَلَاثَةِ قَلَاعٍ وَاِحْيَانًا تَسْرِ بِالجَمِادِيَّ فَهَا
هِذَهُ عَجَالَةٌ عَنْ أَسْطُولِ الْمِرْتَبِيِنَ وَالْمُوَلَّدِيِنَ، وَإِنْ كَانَ خَارِجًا عَنْ مَوْضُوعِ
الْبَحْثِ وَهُوَ (الْجَلِيْحُوَشُ الإِسْلَامِيَّةُ وَحَرْكَةُ التَّغْيِيرِ) وَلَكِنَّ الْبَاحِثِ رَأَى أَنْ يُعْدَ
مِنْ تَنْمِيَةِ الْحَدِيثِ، لَذا قَدْ قَمَتْ بِتَقْدِيمِ نَبْذَةٍ عَنْهُ لَعِلْيَ أَكوْنُ قَدْ وَقَتَّ فِي تَقْدِيمِ صُوْرَةٍ
وَلَوْ قَرِيبًا مِنْهُ تَجَلَّى نَقْدُ لِهَذَا الأَسْطُولِ قُدْرَةُ لَا قَمَامُ بِهِ مِنْ مَعَارِكِ بَحْرِيَّةٍ فِي حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَيْضِ المُتوسِطِ لِيُذُوُّدُ عَنْ شَواطِئِ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَغْرِبِ
وَالْأَنْدَلُسِ.

(١) السَّلَاحُ فِي الإِسْلَامِ، ص١٨٣.
الباب السادس
دراسة مقارنة لبعض المعارك
أولاً: من معارك المرابطين (معركة الزلاقة)
ثانياً: من معارك الموحدين (معركة الأرك)
ثالثاً: المقارنة بين المعاركتين
رابعاً: مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين
خامساً: خصائص الحياة العسكرية لدولتي المرابطين والموحدين
من شرح العلل في غرامات العلل

بيان الانتقال من ملكة إلى ملكة

له الذيل السعدي

إن المدة بين العلة والفعالة تعتمد على...

والتمثيل بالحروف والأشكال والأشكال...

الفراغ بالحروف البائدة والشكيلة

التمثيل بالحروف والأشكال والأشكال...
أولاً: من معارك المرابطين (معركة الزلاقة)
الموقف العام

1- موقف المسلمين في الأندلس:

كانت جبهة الأندلس الإسلامية إبان عصر الطوائف يسودها الفرقة والضعف. وغلب كل أمير على ناحية منها حتى بلغ عددهم ثلاثة وعشرين ملكًا، وكل واحد منهم يتوجس خيفة من قواده أن يغلوا على بعض قلاعه وأن يضموا إلى الأسر المجاور له، كما أنهم اتخذا جميعًا في الترف والتعليم ما أدى إلى ضعفهم وتخاذلهم أمام ملك قشتالة الذي رأى انهيار جبهة الأندلس فرصة سانحة للفوز بحركة استرداد كبرى لبلاد الأندلس وقام بعدة حملات حربية تلتها حلفاتها في الضغط على الجبهة الإسلامية توجت باستيلاء الفرس على مدينة طليطلة.

وكان سقوط طليطلة ضربة قاضية للمسلمين في الأندلس إذ إن الفرس لم يقنع بها بل استولى على جميع الأراضي الواقعة على ضفتي نهر تاجة وعلى فلوج مديرة ومقوطة، ووادى الحجاره، وقلعة رباح، بل غدا بهدنة قرطبة وماردة وبزليس.

ومن هنا رأى الأمراء المسلمين في الأندلس شبح السقوط ونظراً أمام أعينهم فاتحروا لأول مرة واجتمعوا كلمتهم على أن يضعوا حداداً لفتتاح الفرسو، وإن كانت قوته مجتمعة لا تكفي لرد عدواته، لذا اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بقوة خارجية.

ويكشف ليبيان أن طلب الاستنجد هذا أصبح ضرورة ملحة ما جاء في كتاب "أبي بكر" وزير ابن عباد أكبر أمراء الأندلس (القد غضبت المساجد المروكة بالقساوة من أعداء الدين ونشرت الصبيان فوق المنابر التي كان يتبلا فيها الأذان من قبل، وأخذت التوافقيات تفرع من فوقها للقدس بعد أن كان يدعو الصلاة). (1)

(1) انظر رسالة الماجستير المقدمة من محمد إبراهيم زغروت إلى كلية دار العلوم في جامعة القاهرة سنة 1983 م من صفحة (205) وما بعدها، وكذلك انظر للباحثة مقالة في مجلة كلية الملك خالد العسكرية العدد السادس سنة 1400 ه بعنوان معركة الزلاقة.
ب - إذن ما هي الوجهة التي سيطلبون منها النجدة والرغوة؟ بل أشك أنها تلك القوة الناشئة في بر عدوى المغرب، إنها قوة ذويهم في الدين، تلك هي قوة المرابطين، فقد اتفقت كلمة هؤلاء الملوك على الاستناد إلىهم واستدعاءهم للأندلس.

فأمّت مدينة مراكش وقود شعبية كبيرة. (1) قدمت من الأندلس بزعم بعض الفقهاء تطلب الغون والغوث من أمير المرابطين، الذي كانت سباسته - والوفود الشعبيه تعتم ذلك - تزعم إلى المحافظة على الوحدة الإسلامية، وإنذاذ ما يمك إنقاذه من الأراضي الإسلامية في إسبانيا، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالجهاد في سبيل الله.

2 - موقف التصارى في إسبانيا:

وإذا كان القرن الخامس الهجري قرن ضعف للجبهة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، فإن غرب أوروبا حيث سقطت الخلافة الأموية وتفرقة شمل الأندلس، فإنه على الصعيد الآخر بدأت حركة المقاومة التسراطية تدخل في عصر جديد من أطوار نضالها هو طور الاسترداد، فقد أنهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار وبات على القوى المسيحية أن تتجمع شملها وأن توحد صفوفها لثورة المسلمين على أعقابهم.

وقد بدأت حركة الاسترداد هذه على يد الملك "شانغل" الكبير سنة 1010م، الذي استطاع أن يوحد قوى التصارى في نبرة، وقشتالة، وليون، واراغون، وبرشلونة عن طريق المصارعات حتى بسط سيادته على إسبانيا التسراطية.

وأما خلافه ابنه "فرديناند الأول" أضيف على حركة الاسترداد روحها الصليبية حيث بدأ المسيحيون في كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة حروب مقدسة.

(1) ابن عذاري أبو عبد الله محمد المرابطي ت، "القرن السابع الهجري"، اليوان الغرب في بيان خيار ملوك الأندلس والمغرب. 3 نسخة ثالث تحقيق مجموعه - ط طليان 1961م نشر معهد مولاي الحسن بالقطر (1) ص (311).
(2) حسن أحمد محمود (الدكتور)، "قيام دولة المرابطين" صفحه مشرفة من تاريخ المغرب - ط 1957م ص (248).
وبارت الكنيسة الرومانية هذه الحركة وخلعت عليه لقب "إمبراطور" لتؤكد سيادته على إسبانيا المسيحية، ومن هذا المنطلق بدأ يطلب بإخضاع المسلمين في الأندلس لسلطته، بل طالب بإجلاسهم عن البلاد، فقد روى "ابن عازر" أنه قال: "إذا نطلب بلادنا التي غلبتما عليها قدييماً في أول أمركم فقد سكتموها ما قضى لكم، وقد نصرونا الآن عليهم بشدة، فارحلوا إلى عدوكم واتركوا لنا بلادنا فلا خبر لكم في سكاناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو نحمكم الله بيننا وبينكم" (1) وقد جرى "فرديناندو" ثمار حركته تلك حيث بني اسراجيته في مدافعه المسلمين على خطة ذات شقين:

- إرهاب المسلمين ويث الذعر في قلوبهم فلا يدعهم يذوقون طعم الراحة أو الطمانينة، فبدفعهم إلى حرب مستمرة تنقل كاهلهم وتستنفد طاقتهم وأموالهم، عندئذ يضطران إلى دفع الجزية وتقديم الأملاك لدفع خطرهم، وقد حدث ما أراد حيث سارع كل من صاحب طليطلة وأشبيلية وبطليوس وسرقطة في دفع الجزية إليه وقُبى من وراء ذلك أملاكا طائلة.

- وإذا ما أتى من أمراء المسلمين ضعفاء مضي في توسعه لا يلوي على شيء فقد هاجم قليمرية، واتجه صوب الشرق فهاجم سرقسطة ثم انحدر إلى الجنوب فحاصر طليطلة وأشبيلية وبلنسية، وتمضكت حملاته المتعددة عن توسع رقعة أملاكا (2) وما كاد الأمر يؤول إلى "الفوسنو السادس" حتى عمل على استمرار حركة الاستعداد حيث جمع أطراف ملك أبيه وأمعن في التقرب من الكنيسة الرومانية فوق علقته بها واستمر عطفها، وأضحت هذه الحركة حربا صليبية

ترعاها كنيسة روما وتحتج الملححين من أجل المشاركة فيها.

وسار الفوسنو السادس على خطة أسلافه فعدد إلى ضرب الحصار حول القلعة والقصور بينما تعمل قواته على إلاف الزرع وإحلال الضرع، حتى إذا عض الجيوش المحاصرة سلموا للطاغية بدون قيد أو شرط. ثم قام بعدة حملاتحرية تلاحقت حلقاتها في الضغط على الجبهة الإسلامية قد توجت باستيلائه على طليطلة" عاصمة القوط القديمة.

---
(1) البيان المغرب - مرجع سابق - ج (2) ص (281).
(2) قيم دولة المرابطين - مرجع سابق - (251).
وكان لسقوط هذه المدينة أثره العميق على الجبهتين الإسلامية والنصرانية. فالإسلام قد تنفس الرعب في أوصالهم وبداروا إلى "الموسات السادس" يخطبون وده ويتعرضون بالبالغة في دفع الإثارة ولكنه لم يقنع بذلك بل عمد إلى اقتحام الديار وضرب الحصار على الخصوص الإسلامية فأخذت تتهاوى أمامه واحدة بعد الأخرى. وتضافت آمال المسلمين بهبوط عبدالله عاصمة القوط القديمة، وسما قدر الفوينوس السادس في نظر معاصره فاتخذ لقب (ذو الملتن) وصار يكتب أمراء المسلمين قائلًا: "من الإمبراطور ذي الملتن المفضل أديفنش بن شانغة"(1)، وقد أشار عليه أتباعه بليس التاج فقال: لا حتى أطلا ذروة الملك وآخذ قرطبة واسطة السلطك(2).

وعندما رأى المسلمون بالأندلس شبح سقوط المدن الإسلامية مماثلًا أمام أعينهم اتفقوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لأطماع الفوينوس السادس وإن كانت قوتيهم مجصوبة لا تكون لردع عدوئه أو الدخول معه في معركة حاسمة. ومن هنا تطلب الأمر أن يستنجدوا بقوة إسلامية أخرى. إذن ما هي الوجهة التي سيطلبون منها النجدة والغوث؟ ومن هم الذين سيستنجدون للجهاد في الأندلس؟

ظروف الجبهة الإسلامية في المغرب العربي:

إنه بلا شك تلك القوة المؤمنة الناشئة في براعونة المغرب، إنها قوة المرابطين التي قامت من أجل الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام، ودائت لها بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان حتى جنوب نهر السنغال في دولة قوية فتية تحت قيادة الأمير "يوسف بن تاشفين". وقد أجمع آراء الفقهاء والأمراء في الأندلس وعلى رأسهم أميرهم الأكبر "المهمد بن عباد" أمير أشبيلية على استدعائهم للمشاركة معهم في جهاد المسلمين بالأندلس، فتأتى مدينة "مراكش" حاضرة المرابطين آنذاك وفورد شعبية من الأندلس يحملون كتاب "ابن عباد" إلى "يوسف بن تاشفين" يطلبون العون ويتصرحوههم.

---
(1) قيم دولة المرابطين - ص (254).
وأما جاء في بعض هذه الكتب التي وردت من ابن عباد وغيره، فقد عرفت على
الجهاد عزانة وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزوة الشرك
أقوى قادر، فوجب أن تستدعي لابن إخوانه من الدواء ومساعدات...
(1) وقفو
 يوسف بن تاحفين على جلية الأمر وظهر له مدى الخطر الذي ينتظر إخوانه
المسلمين بالأندلس ورفع لواء الجهاد وبحث وورث سمعه ويهوين أركان الغزاة
محاربين المسلمين على الخروج إلى جهاد النصارى بالأندلس وهم كلهم ذلك، فقد روى
عنهم أنه قال: 
... ولكن عشت لأعدين جميع البلاد التي جلبها الروم في طول
هذا الفنادق إلى المسلمين ولأعذبهم خيرًا ورجالًا لا عهد لهم بالعدة ولا علم
عندهم برخاء العيش إذا هم أحدهم فرس يرويه.

الزعامات السياسية في المعسكر

أولاً: في المعسكر الإسلامي:

أ- في المعسكر الأندلسي:

كانت أبرز شخصية إسلامية في المعسكر الإسلامي الأندلسي هي شخصية
المعتمد بن عبد الأشبيلية، فقد كان صاحب فكرة استدعاء المرابطين إلى
الأندلس،تيني الفكره ودافع عنها، وراسل يوسف بن تاحفين يصون له سوء
الحال ويلهيب حمته وحماسه ويعتبر عطنه، وتعهد بتموين الجيوش الإسلامية
وتقديم كافة المستلزمات المعركة، وهو الذي قاد المعسكر الأندلسي في معركة الزلاقة
وتتحمل الصدمة الأولى للإسبان حتى افترجت المعركة على نصر مبين للمسلمين.

ب- في المعسكر المغربي:

كان يوسف بن تاحفين الأستاذيات وأبرزها في المعسكر المغربي، بل في
المعسكر الإسلامي كله، فقد كان مخطط أنظار مسلم الأندلسي، فهو يعرض الإتفاق
الذي تطلعت إليه الأنظار وتعقدت عليه الأمال، قاد معركة الزلاقة بعد أن خطط
لها ونفذ خططه بدقه وإحكام، وحقق النصر للمسلمين ووضع حدًا لمطلع الفونسو
السادس وصاحب الأندلسي من أن يتردى في أيدي الأسبان فرقة قرين من الزمان.

(1) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (259).
(2) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (265).
(3) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (32).
(4) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (103).
(5) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (132).
(6) المصدر السابق – مخطوط بغداد الفضل الثاني، ص (131).

209
ثانيًا: في المعسكر المسيحي:
كان من أبرز الشخصيات في المعسكر الأسباني النصارى شخصية."الفنوس
الشاد" الذي حشد قوى النصارى واستنفرهم الأمم المسيحية، فسولت أصوات
الاستنفار والاستنفاد في أرجاء أوروبا، وقد عملت الكنيسة الرومانية على إذكاء
الحماس في نقوس المتحددين من النصارى فخف فرسان إيطاليا وقشتالة وأرغونة
وجليقية وليون وغيرهم لجدة أبناء عمومهم من الإسبان والمشاركة معهم في
معركة فاسلة ضد المسلمين(1).

أهداف الطرفين

أولاً: هدف المسلمين:
كان هدف المسلمين من لقاء النصارى في هذه المعركة هو استنفاد جزيرة
الأندلس من أيدي الإسبان وذلك بوضع حد لغطرسة الفنوسو السادس وكسر
الشوكات ثم استرداد مدينة طلسطة التي جاهاست من أجلها قلوب المسلمين في
الأندلس بعد سقوطها في أيدي الإسبان.

ثانيًا: هدف النصارى:
كان هدف النصارى الإسبان في هذه المعركة مواجهة جيش يوسف ابن
تاشفين والقضاء عليها، وبذلك يخلو لهم الجو في الأندلس مع ملك الطوائف
فيسرونهم سوء العذاب وينسرون أصحابهم وطاقاتهم ثم يستترون ما بقي في
أيديهم من مالك وقلاع حسب خطتهم المرسومة في حركة الاسترداد الكبرى.

المستعداد للمعركة الكبرى "الفتح العبوي" 

1- القوات المضادة:
اختلقت الروایات العربية والنصارية في تقدير قوات المسلمين والنصارى التي
اشتركت في معركة الزلاقة على النحو التالي (2):

(1) يوسف أشباح: تاريخ الأندلس في عهد المراقبين والموحدين - ترجمة عنان - ط القاهرة 1958م - 
ج (1) ص (82).
(2) انظر الراوي الأول في تاريخ الأندلس ليوسف أشباح ج (1) ص (84)، والثاني في الحلف الموتية في ذكر
الأخبار المراقبة - مؤلف مجهول نشر علوش - رياض الفتح سنة 1937م - طنوس 1923م.
الجدول السابق يُشير لنا عدد ملاحظات يجب أن توضع في الاعتبار:

1- دُبِّت كل من الروايتين العرِبية والنصرائية في البالغة في تقدير قوات أعدائها، وفي نفس الوقت تقلل من عدد جيوشها أو تقلب الصمت أحيانًا مما يمثل عقبة أمام الباحث في التقدير الحقيقي للقوات المضادة.

2- وإذا كان لنا مورد في تقدير عدد القوات المضادة فمكن أن نتقن مع الرأي الثاني لصاحب كتاب الخلل الموسيقى الذي قدر قوة المسلمين (84 ألفًا) وقوة النصرائيين (80 ألفًا) وهي أكثر الروايات اعتدالًا وفقًا عين البالغة وأقرب إلى الحقيقة.

3- يستخلص من الروايات المختلفة في تقدير القوى المضادة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصرائي في هذه المعركة، وهذه حقيقة أشارت إليها بعض المراجع المسيحية.

2- مقارنة القوى:

يبدو من المقارنة بين القوات المضادة أن هناك ثلاثة فروق بين قوات المسلمين وقوات النصرائي:

1- أن العناصر المشتركة من المسلمين كانت مقصورة على مسلمي المغرب والأندلس فقط، ولم يشارك في هذه المعركة أي عناصر إسلامية أخرى من الشرق.

ص (38)، والثالثة روض القرطاس لأبي أشوب زرع الفاسي: الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله ت 726 (1322 الميلادي)، الأليس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوكي المغرب وتاريخ مدينة فاس - ط الباطن 1936م، ط أوريسا سنة 1963م تحقيق ونشر كارل تورنير - ط 1933م - ص (90).

(1) إشبا، تاريخ الأندلس - مرجع سابق - ج (1) ص (85).
الإسلامي، بينما تكون وجهة العدو الإسباني من عدة أجناس مختلفة من إيطاليا وفرنسا وبلجيكا وقشتالة مما جعلها حربًا صليبة أدت أوارها الكنيسة الرومانية.

2- على الرغم من أن عدد القوات الإسلامية كان أقل من عدد قوات النصارى إلا أن روح الجهاد الخلابة التي اضطررت في نفوس المسلمين كانت عوضًا عن ذلك النقص.

3- أما عن تسليح القوارب فقد كان بينهما تباين واضح. فالمرابطون لم يألوا السلاح الشديق من نفس الخوذات والدروع والزورق، كما يفعل أهل الأندلس في حروبهم. فقد اعتاد المرابطون تسليح الأسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البديلة البسيطة، فكانوا يتسللون بدرق اللب وبأبنان الطوال والمزاريق المتنوعة، واستعان الجيش المرابطي بفرق من الرماة والقبائل والنسوبيات. وشدة الفتك، بينما تسليح النصارى بأسلحة ثقيلة من نفس الخوذات والدروع السابقة والزورق حيث لم تظهر إلا محاجر العينين، ولا يخفى مدى ما كان يتمتع به الفارس المرابط من خفة الحركة والمرونة حيث تحرك ثقيلة من الأسلحة الثقيلة التي تعوق حرركه وتمنع مرونته.

3- حشد القوى:

أولاً: حشد المسلمين:

1- في ربيع الأول 479 هـ - 867 هـ عبر يوسف بن عثمان بن بيشة من سبسطة، وما كانت السفن تنشر قلاعها حتى صعد إلى مقدمة سفينته ورفع يديه نحو السماء ودعاه الله مخلصًا "الله إن كنت تعلم أن في جواري هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فساه على جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصبه حتى لا أجزوه". وشاء الله أن يهدى البحر وازتأت السفن سراحًا إلى شواطئ الأندلس، ومما نزل أرض الأندلس سجد الله شكرًا.

(1) الخليل المولوي في ذكر الأخيار المركزي - مرجع سابق - ص (111).

(2) ابن أبي زرع - روض الفرات، ص (93).
2- ثم تقدم صوب قلعة الجزيرة الخضراء في احتفال حضره القضاء والفرسان و"المعتمد بن عياد" أمير أشبيلية، ثم أمر "ابن تاشفين" بتحضين هذه الجزيرة فرتب بها حامية لحراستها وشحنها بمقدار هائلة من الأقوات والذخائر لكي تدعو ملاذا، وحلفا إذا ما منبت الحملة بالفشل، ثم غادرها في جيشه إلى مدينة أشبيلية.

3- فما كانت قواته تقشر من هذه المدينة حتى خف الناس إليه من سائر الجهات متضوعين للمشاركة في الجهاد، فغنت بهم المساجد والرهبات وانضمت إليه قوات الأندلسي النظامية، كل أمير يقود جيشه، وعلى أمير أشبيلية "المعتمد ابن عياد" عناية خاصة بإعداد مقدار عظيمة من الأموات، ولبث "يوسف بن تاشفين" في أشبيلية ثماني أيام يبرب فيها قواته وينظم أموره.

4- ثم تحرست القوات المشتركة صوب مدينة "بطربيوس" في أهبة واستعداد كامل على النحو التالي:

قوى فرسان المرابطين في الطليعة وعددهم عشرة آلاف فارس يقودهم الأمير المرابطي "أبو سليمان داوود بن عائشة".

قوى الأندلسي مجمعه ويقودها الأمير الأندلسي "المعتمد بن عياد" وكانت تؤلف جيشًا خاصًا منفصلا عن جيش المرابطين.

قوى جيش المرابطين ويقودها الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" بنفسه وقد صار بعدهم يوم واحد.

وكان ينزل في المسام المحلة التي يغادرها الأندلسيون في الصباح، وذلك تميزها للنصاري حتى لا يقدروا قوة المسلمين الحقيقية.

ووصلت الجيوش مجمعته إلى مدينة "بطربيوس" ولبث هناك ثلاثة أيام يضعون خططهم الحربية.

ثانيًا: حشد النصارى:

1- في تلك الآلانية كان نبأ مقدم المرابطين إلى الأندلسي قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار "سركبة"، وكان ألفونسو السادس قد
ركز معظم قواته عليها كي يعجل بسقوطها، ولم يتحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على طليطلة وعلى أراضيه الجنوبية، ثم أعاد حشد قواته وتآبه بكل طاقاته ليخوض المعركة مع المرابطين.

3 - ثم أخذ الفونسو السادس إزاها هذه الحمالة مع "سانشوس أميريز" ملك أرجون ومع الكونت "برنجار ريموند"، وكان الأول مشغولاً بمحاصرة طرطوشة والثاني يتأهب لغزو بلنسية، فعدل كل منهما عن مشروعه وانضما بقواتهما إلى الفونسو السادس. ثم حشد الفونسو قوات أخرى من جليقية ولون وبيكونية وفشتالة، ووفدت عليه أيضًا أعداد غفيرة من فرسا وإيطاليا(1) مما أضفى عليها صفة الحروب الصليبية.

ونظم الفونسو قواته فجعلها في جيشين، وجه أحدهما إلى غرب الأندلس فاشبليلاً على أن يجتمع مع الجيش الثاني الذي قاده بنفسه في طريقه قبالة قصر ابن عبادة. وقد وصلت هذه القوات جميعها إلى مدينة بطليوس حيث الالتقاء المرتفع مع المسلمين.

ثم عسكر الجيشان على مقرية من بطليوس في سهل تناخلة الأحراش تسميه الرواية العربية (الزلاقة) أو السهلة وسميته الرواية النصرانية (سكر الياس)، وفرق بين الجيشين نهر صغير يسمى نهر "حجري" أو نهر بطليوس، وضرب يوسف ابن تاشفين محتله وراء رية عالية منفصلًا عن محلة الأندلسين أمام محلة النصارى.

4 - خطة المعركة:

أولاً: خطة المسلمين:

بناء على المعلومات التي حصلت عليها الطلائع والعيون، وبعد دراسة متأنية لقوات النصارى وحجمها وطبيعة أرض المعركة والعوامل الجوية، وضعت خطة المسلمين، وقد كانت خطة جماعية قائمة على الشورى والتفاهم حيث جمع يوسف بن تاشفين قادة المسلمين في مؤتمر حربي وأدلل كل منهم برائه، وقد حرص على أن يسمح إلى آراء الأندلسين بصفة خاصة لأنهم أكثر دراية بأسلوب

(1) اسماء - تاريخ الأندلس - مرجع سابق، ص(80)
النصارى في القتال، وأعلم بكمهم وخداعهم، وقد تم الاتفاق على أن تكون الخطة والأسلوب كالآتي:

1- اختيار أرض طليوس مكانًا للمعركة حيث تتخلله الأحراش وتكثر فيه الروبوت.

2- انفصال الجيش الأندلسي عن جيش المرابطين، على أن يواجه الأندلسيون النصارى مواجهة كاملة لنهاك قوامهم، وقد عيّن جيش الأندلسيين كالآتي: المعتمد بن عباد يرابط بجيشه في قلب المقدمة، والمتوكل بن الأفطس في الميمنة، وأهل شرق الأندلس في الميسرة، وباقي الأندلسيين في الساقة.

3- بينما يتوسع جيش المرابطين كمائن تفاجئ العدو بعد اصطدامه بجيش الأندلسيين، وتمعنهم من التراجع أو القرار.

اتفق القواد على أن يكون أسلوب القتال كالآتي:

* يخوض المرابطون القتال بنظام الصف وهو نظام من التعبد يختلف عما تعود عليه النصارى في قتالهم.

* اعتمدت النصارى على نوعية من السلاح "السهام والإبل" مما كان له أكبر الأثر في حسم المعركة كما سماح به.

ثانيًا: خطة النصارى:

وكانت خطة النصارى لا تقل إحكاماً عن خطة المسلمين فكانت تعتمد على:

1- اتخاذ سهل الزلاقة مكانًا لمرابطة الجوش وميدانًا للمعركة.

2- قسم الجيش إلى قسمين رئيسيين هما:

أ- قسم يقوده الكونت "جارسيان" والكونت "رودريك" وخصوص مهاجمة المعتمد بن عباد.

ب- القسم الآخر يقوده "الفونسو السادس" بنفسه وقد رابط في القلب، بينما كان "سانشور اميري" ملك آراجون، والكونت "ريموند" جناحين له(1).

(1) إشباخ - تاريخ الأندلس - ج (11) ص (87).
ج- أما فرقة الطالبان فكانت بقيادة البرهان.

3- أن تبدأ الطالبان بالهجوم على المعسكر الأندلسي ثم يعقبه هجوم كارس من جيش النصارى الأول الذي يقوده الكونت نانسون جابيريان وروبرتة حتى يتم القضاء على أهل الأندلسي، ثم يتصدع الجيش الثاني بقيادة الهنود السادس إلى جموع المرابطين يحذق بهم ويوردهم ومواد النهلة، وبذلك يقضي على قوة المرابطين الإسلاميين.

تحليل خطة المعركة:

لقد حالف القائدين المرابطين والمسيحي التوقيف في وضع خطةهما العسكرية، إلا أن خطة القائد المرابط المسلم كانت أكثر تفوقًا إذ برهن على عبثريته الفذة كقائد عسكري مسلم في القرن الخامس الهجري ويتضح ذلك ما يلي:

1- اختيار كل من القائدين أرض بطليةس ميدانًا للمعركة مثجج سديد رد أكل منهما، فهما يحاربان على أدنى حجر لبلد كل منهما، فهي قريبة من ديار المسيحيين يستطيع أن يجلب منها رؤوس الخوارج والملصقات في أي وقت، كما أن خطوطه سهلة المغادرة من الحصون يستطيع أن يعتصمه بها إذا ما اضطر للانسحاب. أما يوسف ابن ناشيف فقد كان يعد نظراً في اختياره ميدان بطليةس من المعركة فهي قريبة من ديار بن الأفطس يمكن أن يلود بها إذا ما اسخر جيشه فلا تكون خسارته كبيرة، فإذا ما بيانت الجيوش الإسلامية كلها بالإخفاق تحصن بالجزيرة الخضراء التي سبق أن حصنها بحامية وأودعها الكثير من موته وعتاده، وفي هذه الحالة تعتبر خط دفاع حصين له. هذا بالإضافة إلى طبيعة أرض المعركة التي تكون فيها الأحراش والرياط العالية المناسبة لبث الكمائن التي اعتمد عليها خططة "ابن ناشيف"، بالدرجة الأولى.

2- كما أن حشد جيوش الأندلسي في المقدمة عمل له ما يثيره، فهم أدري بممالك بلادهم وطرقاتها، وربما خالف "ابن ناشيف" الشك في موقف الأندلسيين عندما يحمي الوطيس فيلاذون بالفرار ويتركون المرابطين لصبرهم، لذا اقتضت خيطة أن يصطلح الأندلسيون بالهجوم الأولى للنصارى، وفي الوقت نفسه كان يدرك عين هذه الجبهة نفسهم بفرقة من فرسانه خففت من عنف الهجوم.
معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ شكل رقم (٣)
3- أما اعتماده على نوعية خاصة من السلاح "الأبل والسهام" فكان له أثره في تغيير سير القتال وإرباك فرسان التصاريح، فقد أمر ببعض الجبال إلى أرض المعركة، فعبر منها ما أغص ساحة القتال وارتفع رجاؤها إلى عيان السماء ولم يكن أهل الأندلس قد رأوا جمالاً فق، ولا ألغتها خيولهم، فصارت خيول التصاريح تتجنح من رؤيتها وتفزع من رغائها.

وكان هدف يوسف من إدخال الإبل إلى ساحة المعركة أن يحذق بها عسكره ويعتبر منافذ فرسانه تخرج للطعن ثم يعود فارة لتحتمي بها ثم يقذف بها خيول التصاريح فتجنح بفرسانها، فبتخبت منها النبالة المسلمين فرصة سانحة بأن يسدون سهمهم إلى تلك الخيول بدلًا من الفرسان.

واضطرت الفرسان بخيلهم حتى صار كل فارس متشغولاً بفرسه يجري عانه، وشغله انتزاعة المعركة بالخيل من أمر خيولهم، فكانوا طعمًا سهيلًا لرماح المسلمين وسMerchantهم، وهذه الخطة هي نفسها التي اتبعها الفائد "صلاح الدين الأيوبي" في عصره العظيم في موقعة "حطين".

5- الرسالة قبل الحرب:

كان الموقع لا يحتمل التأخير، فضموا جيوش المسلمين من المؤن كان قليلاً، مما يهدد تلك الجيوش بالانقراض إذا طال مكثها في تلك البقعة، فأرسل "ابن تشنين" رسالة إلى ألفونسو كما هو متبع في الشريعة الإسلامية، يخبره فيها بين ثلاث: اعتناق الإسلام، أو أداء الجزية، فإذا أتب الاثنين فعله أن يعاد إلى القتال، وما جاء في هذه الرسالة "لقد بلغنا يا أدولفوش (1) أنك دعت إلى الاجتماع بناء، ومنعت أن يكون لك تلك البحر علينا بناء، فقد أجزنا إليك، وجمع الله في هذه البقعة بنينا ويبنيك وسنرى عاقبة دعائه وما دعا الكافرين إلا في ضلال (2). فلقى ألفونسو الرسالة على الأرض، وقال للرسول: قل مولانا إتنا ستلتقي في ساحة الحرب.

1) المصدر التلميزي: أحمد بن محمد التلميزي - ت (414 هـ - 1023 م) نفع الطيب من غصن الأندلس الريفي - ط القاهرة 1382هـ - ص (426).
2) الأنقاض هو الاسم الذي أطلقه الرواية العربية على ألفونسو السادس.
3) الديوان المصري - مصرية، (1282) إبن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت (388) وفاتي الأعيان وبيان الزمان - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة، 1367هـ - ص (483).

318
سير القتال «الفن التكتيكي للمعركة»

مرحلة سير الاقتراب:

تهيا الطرفان للمعركة واقترب كل منهما من الآخر وجمعته بينهما ساحة القتال، وأخذ كل معسكر يتحدى أفراده فوق العلماء والفقهاء في صفوف المسلمين بحث عن الصمود والاستشهاد، ووقف الرهبان والقسس في صفوف جيش النصارى بحث عنهم على القتال.

مرحلة الاغتيابة:

بدأت طلائع المعركة بهجوم عنيف من النصارى إذ سير ألفونسو القسم الأول من جنده بقيادة الكونتينو «جارسيا ورودريك» لينقضوا بحث عنف على معسكر الأندلسيين الذي يقوده «المعتمد بن عياد» وكان هدف ألفونسو أن يبعد بذلك الهجوم المتفاجئ الاضطراب والتفوق في صفوف الأندلسيين ولكن أشد ما أدهش النصارى إذ رأوا أمامهم جيشًا من فرسان المرابطين قواه عشرة آلاف فارس يقودهم داود ابن عائشة، يساند مسلمي الأندلس ويحول دون تحقيق الأهداف الأولى للهجوم النصارى.

وما عرف يوسف بن تاشفين أن قوات داود ابن عائشة لم تستطع سد هذه الثغرة دفع إلى أنون المعركة جيشًا آخر بقيادة «سيربن أبي بكر» على رأس قبائل زباته ومغارة، ولم يشركل هو في القتال وكان هدفه من ذلك أن تستمر المعركة دائرة المرح لأطول وقت ممكن حتى تشغل على النصارى تفكيرهم وتسترغ جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبره يوسف بن تاشفين من عنصر المفااجأة و يكون الإجهاد قد بلغ منهم أقصاه.

مرحلة القتال المتلامح:

وهال الأندلسيين منظر فرسان النصارى في دروعهم الحديقة «وكانمهم كل من السحب القاتلة» فأيظن بعضهم بعد عنف الهجوم الأولى بالهزياء فلاذوا بفرار

---

(1) روض الفراتس - مرجع سابق - ص (94).
(2) انظر الخريطة الموضحة للاحترام القواعد، ص (221) شكل رقم (3).

319
مشين، بيد أن فرسان أشبيلية بقيادة «المعتمد بن عباد» صدوا أمام النصارى وقاتلوا قتال الاستواء الصواري، وأنقذوا بذلك شرф الأندلس بمساندة إخوتهم المرابطين، وطال أمد الهجوم وطال معه صبر ابن عباد ورجاله، ولكن إلى حين، وأبقى الفونسو بالنصر عندما رأى مقاومة ابن عباد ورجاله تضعف تدريجًا أمام سيل جنده الأتار، ورأى حركة الفرار تتسع بين مسلمي الأندلس شبهًا فشيئًا فترك النصارى مواقعهم الأصلية وأخذوا يتعقبون أهل الأندلس وهم يتقهرون وابتدوا عن مكان معتقرين أملًا في إيقاع الهزيمة «بابن عباد»، وفي هذه اللحظة الحاسمة والرعية: غاب يوسف بن تاشفين إلى خلافاته الدفاعية، وقدر مسيرة القتال، فقد وجب عليه في آخر المعركة في الوقت الذي أخذ فيه قوى النصارى في الهبوط مصحوبًا بدوام قليلة السلاسلة تمكناً منها الإخضاع وترعد لها فرسان الفرسان هولاً، فهاجم معركة النصارى واستولى عليه واعترف فيه النصارى، فأضطرت قوات الفونسو إلى أن ترتدي صوب المعسكر تزيد أن تلقى هذه من الوقوع في يد المرابطين.

وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك حتى انقلبوا عن الفرار إلى الهجوم واتباعوا على النصارى من الخلف فأصبحوا بين شقي الريح، وأجر الفونسو السادس على أن يخوض المعركة بين اثنين ابن عباد ومطرقة ابن تاشفين، ودام القتال المتلاحج بضع ساعات صوبًا لنا «ابن خلدون» بأنها كانت ساعات حربة كانت الهجمات فيها سجالاً حول احتواء معسكر النصارى الذي اقتحمه المرابطون وصدوا محلة الأندلس. فاقتحموها ودخلوها وفتكوا فيها وقتلوا وضربت الطلب وزعقت الوقفات فاهتزت الأرض وتجاوزت الجبال والأفلاق وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدوا أمر المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى... (١).

(١) نقلاً عن نفح الطب - مرجع سابق - ج (٢) ص (٤٣).
مرحلة الجسم:

وأما حمي وطيس الفتات لجأ ابن تاشفين إلى مفاجأة أخرى ينهى بها المعركة ويحسنها لصاحبته حيث دفع بحرسه الخاص إلى ميدان المعركة وهي فرقة من عبد السوء قوامها أربعة آلاف أسود، دخلوا المتعة بدرع اللهمغ وسبيس البند ومرزاق الزان، فاقضعت على قوات النصارى انتحار الضاحكات الصاعقة، وشفت طريقتها إلى ألفونسو نفسه، وتلقح به عبد أسود لصفه وبقية على عانة فرسه وانتشى خنجرًا كان متناثرًا به فتأتيه في فتحه فهتك حلق درعه ونذف من فتحه، وجرحه جراحات ساخنة.

وأما السバス فقد أشرقت على الغريب وأدرك ألفونسو ورجاله أنهم يواجهون الموت بعد أن أن فلدهم المأوى، ولا جهن الليل ويسط الظلمة حجابه عليه سهل الزلاقة الذي غطي بالجند والدماء، بادر ألفونسو في ثلث من صحبته إلى الاعتصام بتل قريب، ولم ينم من جيش النصارى مع ملكه هذا سوى قلة قليلة تقدر بخمسون آتية فارس معظمهم جريح، ولم يذههم من الموت سوى دخول الظلات حيث أمر يوسف بن تاشفين بوقف القتال.

مرحلة المطاردة:

يعتبر العسكريون مرحلة مطاردة العدو بعد هزيمته وتحطيم قواته من أهم مبادئ الحرب والتي يحرص عليها الجيش المفترق لأنها تعزز للمكاسب الأرضية التي ظفر بها، والداس لمعركة الزلاقة بعد أن الرابطين قد تقاعسوا عن مطاردة جيش النصارى المهزوم، وفي الحقيقة، إن هذا أحد المآخذ العسكرية التي ناخذها على الرابطين، فلو طاردوا عدوهم عقب ذلك النصر لكان حريًا أن تسحق المملكة النصرانية في هذا الوقت حيث لم يتركوا لهم وقتًا للتهور من عنهم فكان يلوس الرابطين مطاردة القشتاليين وانتهاز فرصة إنهار جيشهم في محاولة لاسترداد طليطلا وهذه أحد الأهداف الرئيسية.

وإن كان بعض المؤرخين قد أشاروا إلى حدوث خلاف بين المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين بخصوص تقاعسه عن المطاردة إلا أننا نعزى ذلك على ما يبدو إلى ما يتعلق به ابن تاشفين من شيم أصيلة في معاملة جريح العدو المهزوم حيث روى عنه في هذا الصدد أنه لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف في التكيل.
بال العدو المقهور (1) وخاصة أن من عادة المئتين في الحروب أنهم يتفوقون أن يطبعوا عددهم من الخلف وهو يولي الأذى، فهم لا يتعقبون من فر آمهم (2).

الدروس المستفادة

للحرب بدون شك مبادئ تعتبر المفاتيح الرئيسية للنصر، ومبادئ الحرب وإن كانت هي صناعة عسكريين اليوم إلا أنها وجدت في ظل العصور الإسلامية منذ قرون بعيدة، وقد طبقوها المراقبون في معركة الزلاقة بحاراً فائقة إلى مستوى التجربة المفيدة والدرس النافع لكافة العسكريين وإليك بعض هذه الدروس:

1 - تميز حشد القوى عند المسلمين بحشد ضخمة من النظاميين والمطوعة وكانت تلك تحترى كبيرة من الدربة، وتميز في أهلها للقتال، ظهرت في مواجهتهم جموع النصارى في تلك المعركة التي خرج منها المسلمون بضربة أهمية الجبهة الإسلامية المتحدة والتي أثبتناها عندما توحد المسلمون الغربي والأندلسي في مواجهة قوى النصارى مجتمعة، وهذا لا شك بعض الداء الذي تعانى أمته الإسلامية اليوم في مواجهة الصهيونية وعربتها في فلسطين.

2 - عنصر المفاجأة كان من أهم العناصر التي هبط النصر للمسلمين، وقد ظهر ذلك عند دخول يوسف بن تاشفين المعركة فجأة واحتوائه على مبادئ النصارى بينما كان ألفونسو مشغولا بحشد الأندلسيين. وكانت تلك المفاجأة هي عامل الحسم الذي أنهى به المراقبون هذه المعركة لصالحهم.

3 - ومن مبادئ الحرب التي عمل بها المراقبون هو مبدأ "الاقتصاد في القوى" وقد لاحظنا ذلك في خطة ابن تاشفين عندما كان يدقف إلى أطراف المعركة بفرقة تلو الأخرى حسب ما يستدعه موقف المعركة، ثم رابنا كيف ادرخ قوة الحرس الخاص التي قدف بها إلى ميدان المعركة ليحسم أمرها لصالح المسلمين.

4 - وإذا كان على القائد أن يحافظ على إسلامة جنده وتشريكم معه في المعركة وهو المبدأ الرابع من مبادئ الحرب فإن ذلك المبدأ كان نصبه عيني ابن...
تآشffen فلم يدع الأندلسيون يواجهون عبء الهجمة الأولى للنصاري بل دفع إليهم بفرقتين من فرسانه يمتصان عنف هذه الهجمة ويطلان أمد المعركة.

5- وتعاون الجميع وتضامنهم من أجل الوصول إلى النصر كان من أهم المبادئ الحربية التي كفّلت للمسلمين النصر، فقد تضافرات جهود الأندلسيون مع إخوانهم المغاربة على كافة المستويات والمحاور العسكرية، نلمس ذلك في مستوى القيادة والتموين والفرق المختلفة والنبالة، السيافة، الخيالة، الإبالة، المشاة، فلم يدق...

أحد وسعًا إلا وأدلى به في دلخ المعركة.

أما القيادة في هذه المعركة فقد كانت على مستوى عال حيث تميزت بروحها الجماعية الاستشارية التي يسميها العسكريون اليوم «القيادة المشتركة» في رسم الخطة وتوزيع سائر المهام والواجبات على القوارع، وقد تعلّى كل من القائد الذين إبن تاشفين وابن عباد بالإقدام والصرع والتشجيع والإنفعال تجاه نفوذ الجنود وقد ظهر ذلك في خوضهما الممتعة وإدارة المعركة بتفانيهما لا بساليان بالخطر الذي تعه بهما إنما كان هم كل منهما إحدى الحسيني الظهر والشهادة.

6- استنفرت معركة الزلاقة قدرة الصليبيين فلم يعد في مقدورهم قتل المسلمين إلا بعد مضي فترة طويلة، كما أنها حققت نصرًا مؤزراً للمسلمين ردع ملوك الشمال ومنهم من معاودة تجرباتهم لأمراء المسلمين بالأندلس.

7- وكان لحسن تنسيق التعاون بين جيوش ابن عباد وابن تاشفين الفضل فيما أحرزه المسلمون من نصر مؤزر، وقد انتهج ابن تاشفين استراتيجية الاقتراب غير المباشر في ضرب مؤخرة الفونسو السادس، ثم دخل المعركة بعد أن يكون ابن عباد قد أنهك جيوش الصليبيين واستنفد قواهم.

8- وكان من نتائج الزلاقة أخيرًا أن ارتفعت معنويات المسلمين، واستعادوا الشقاق بالذات والقدرة على هزيمة العدو، وقضى نصر الزلاقة على تمييز ملوك الطوائف لبعض الوقت، حتى حلت الخصومة بعدئذ بين الأندلسيين المقيمين في البلاد، والمراقبين القادمين من المغرب. ولم تثبت هذه الخصومة أن استعنت حتى قسمت المسلمون في الأندلس إلى قسمين يترقص كل واحد منهم بالآخر.

٢٢٢
ثانيًا: من معارك الموحدين (معركة الأرك)
الموقف العام في الأندلس

١- الموقف على الجبهة الإسلامية:
أ- إملاء تاريخية:
في أقصى جنوب الصحراء المغربية ظهرت دولة المرابطين الكبرى على يد داعية إسلام يدعى "عبد الله بن ياسين"، استطاع أن يوحد بين قبائل صنهاجة الجنوب ويصعّن منهم قوة عسكرية تضم بلاد المغرب ثم تعرّض البحر تجاه أعداء الإسلام في شبه جزيرة الأندلس، وتخوض فيها سلسلة من المعارك العسكرية كان على رأسها انتصار لاقية العظيم عام ٤٧٩هـ - ١٠٨١م كما عرفنا.
ثم شاء الله أن يحول وجهة هذه الدولة من التقدم والتوطد إلى الإدراسة والانهيار الم фаيج فينما هي في أوج سلطانها إذ بها تجد نفسها فجأة أمام طفرة إسلامية قام بها الفقهاء المسلمون "اللهمد بن ثمر" المغربي في مسجد القرن السادس الهجري مستفدها بها تقويض دولة المرابطين، وبعد سرعة سياسى وعسكري ظاء أمده توجت جهوده بسقوط مراكش حاضرة الدولة وإعلان قيام "دولة الموحدين" عام ٤٥١هـ - ١٠٥٦م، التي شملت جميع أقطار المغرب العربي حتى حدود مصر بالإضافة إلى شبه جزيرة الأندلس.
وقد تعاقد على ملك دولة الموحدين مجموعة من الخلفاء بدأت بالخليفة "عبد الرحمن بن علي" عام ٥٤١هـ، وانتهت بسبب أهل-earth بالله عام ٥٦٥هـ، وفي عهد الخليفة الموحدي الثالث "معقوف منصور بن يوسف بن عبد المؤمن" ٥٨٠هـ - ٥٩٥هـ كان نصر المسلمين في موقع الأرك الشهيرة ضد النصارى في الأندلس.
فما الظروف والملاحظات التي أدت إلى خروج هذه المعركة؟

ب- أسباب المعركة:
بعدما تولى الخليفة يعقوب المنصور مهام الخلافة هدأت الحروب في الأندلس. بضعة أعوام لعدة أسباب كان منها عرض الخليفة "النصور"، ثم انشغاله بثورات المغاربة في أفريقيا.
وعندما توجه المنصور لإخماد إحدى تلك الثورات في المغرب الأوسط، انتهز البرتغاليون فرصة غيبتهم ومحاصرة مدينة «شلبي» على حين غرة وقطعوا عنها الإمداد. فأضطرت المدينة إلى التسليم في صورة مجززة ولم ينج من سكانها البالغين ستين ألفًا سدى ثلاثة عشر ألفًا، خارفًا بذلك الهندة التي عقبها مع الموحدين عام 586 هـ.

ومن جراء ذلك تواتت وفود الأندلس إلى الخليفة المنصور تضح بالشكو من وطأة النصارى وتفاقم غارتهم المكررة، مما حدا بالنصارى أن يعدل خط سيرهم من أفريقية إلى الأندلس لمواجهة ملك قشتالة (1).

2- الموقف على الجبهة النصرانية:

لقد حرص «الفسوسو الثامن» طوال مدة الهيمنة على إيقاف الحرب بالأندلس، وعدم إثارة المسلمين ضد ليبريغ إلى فض النزاع الدائر بين ملوك النصارى في تلك الأونة.

ولكن حينما عين الفسوسو الثامن «مارتن دي بسيجا» مطراناً لطليطلة خلفًا للمطران «جولانلو» راح المعارك الجديدة يثيرها حربًا صليبية ضد المسلمين، وكونوا حملة كبيرة ضد مسلمي الأندلس وهاجمت البلاد إلى أقصى الجنوب تخريب وتدمر وتنسي النساء والأطفال.

ولم يقنع بذلك بل حرص الفسوسو الثامن ملك قشتالة على القيام بخروق الهيمنة والإعداد لمعركة نصرانية كبرى فانصاع له وكتب إلى الخليفة المنصور كتابًا يدعو فيه إلى القتال ويتخذه بأنسلوب يفيض غروًا وزخرفة، فقالوا وصل هذا الكتاب إلى المنصور اشتد حنقه واستعد للحرب وأمر بإذاعة الخطاب على عامة المسلمين. فصاحوا جميعًا يطالبون بالانتظام واجتمعوا على الجهاد. عين ذلك مزرق المنصور الكتاب وكتب على ظهر قطعة منه:

(1) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد - ت 682- 1482 م - العمار وديوان المنداء والخيرير - ط دار الكتب المصرية 1982م وطب بولاق 1284هـ

320
ارد إليه، فإنما ينفعه لا قبض لهم بها، أو الخروج منهم منها أذلة وهم صاغرون…”

[النمل: 74]. الجواب ما ترى إلا ما تسمع (1) ثم ذكر هذا البيت:
ولا كنت إلا المشرفة عليه ولا رسل إلا الخمين العمران

الزعامات السياسية في المعسكرين

في معسكر المسلمين:

1- الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، قائد المعسكر وخليفة المسلمين، يتحلى بالصبر والشجاعة الفائقة، قوى العقيدة، راسخ الإيمان، كان حريصًا على استشارة قواده بعكس أبي يوسف بن عبد المؤمن الذي كان من أكبر أخطائه فترده ورأيه وعدم استشارة الناشئين فهلك عند أسوار «شترين» وفشل في أكثر من معركة.

2- أبو عبد الله بن صناديد: من أعلم قواد الأندلس وأكثرك خبرة بيكادي العدو في الحروب، وقد ساهم في وضع خطة المعسكر برأي وئيه عمل به المنصور.

3- أبو بعث بن أبي حفص: كبير وزراء الخليفة المنصور، وقد استمر بصد الرأي والفتنة والشجاعة في كثير من الحروب، وقد ولى المنصور القيادة العامة للجيش المولد في هذه المعركة.

في معسكر النصارى:

1- ألفونسو الثامن: ملك قشتالة، وقائد جيش النصارى في معركة الأرك، بعده المؤرخون من أبطال حركة الاسترداد الكبرى لممالك الأندلس بعد ألفونسو السادس، وقد منى بهزيمة ساحقة في هذه المعركة.

2- مارتون دي بيسيرجا: مطران طليطلة كان وراء اشتعال تلك الحرب بما بثه في نفس ألفونسو الثامن وإثارة النصارى ضد المسلمين وكان يقوم بدور معنوي بين صفوف الجيش النصارائي لجعه على النبات والواصلة القتال ضد الموحدين.

(1) ابن خلكان - وفيات الأعيان وآتي الزمان - مرجع سابق - حيث أورد نص هذا الكتاب، ج(7) ص(1).
أهداف الطرفين:

المسلمون: كان المسلمون يهدفون إلى الدفاع عن الأراضي الإسلامية والذوب عن أهلها الأثنيين ضد عبث القشتاليين اعتداءاتهم المتكررة، ثم تأديب الفينوسي التام الذي نقض الهيمنة المبرمة بينه وبين المسلمين فيلم يزعم جهداً ولم يرض فهم، وصار أكثر إشراقة، فталوا على المسلمين وعلى خليفتهم ومن ثم لابد من كسر شوكته.

المصري: كان المصري يرمون إلى إنزال الهيئة بالجيش الموحد، ورضاع هيبته ومنعته في شبه الجزيرة الأندلسية بحملة صليبية كبيرة على غرار الحملات الصليبية التي يرجعها صلاح الدين الأيوبي بالشرق الإسلامي، هادفين من ذلك إضعاف المسلمين في الأندلس حتى يتمكنوا من استردادها بلداً بلداً.

الاستعداد للمعركة «الفتح العبوي»

1- القوات المتضادة:

أحجمت الرواية العربية التي وقعت في أديانة عن ذكر عدد قوات المسلمين المشتركة في هذه المعركة، بينما أفاضت القول في ذكر أعداد قوات المصري يمكن تقديرها كالأتي:

- رواية ابن أبي زرع (1): 30000
- رواية عيسى وراجل وهي رواية فيها شيء من المبالغة.

2- رواية الضبي (2): 25000 فارس + 200 راجل، وكان مع الجيش القشتالي جماعات من تجار اليهود لشراء أسرى المسلمين وأسالبهم.

والرأي الثاني أقرب إلى الواقع حسبما تشير إليه خسائر القشتاليين في المعركة التي قدتها صاحب نفح الطيب (3): 146 قتيل، 30 أسير، وفي رواية ابن الآثير (4): 144 قتيل، 30 أسير.

1. (1) الأأئم المطرب بروض القرطاس، ص (149).
2. (2) الضبي: أحمد بن بحري بن أحمد (598هـ - 1263م) بنيا المنتمي في تاريخ رجال أهل الأندلس.
3. (3) الفنر - نفح الطيب - مرجع سابق - ج (1) ص (41).
4. (4) ابن الآثير: علي بن أحمد - ت (579هـ - 1342م) كتاب الكامل في التاريخ ط القاهرة (1357هـ - ط الأندلس 1362هـ) ج (2) ص (45).
- مقارنة القوات:

يستفاد من معظم الروايات أن عدد قوات المسلمين كان أقل من عدد قوات النصارى، وليس في ذلك أدنى مبالغة، فقد كانت العناصر المشتركة في جيوش المسلمين تتألف من جنود المغرب والأندلس فقط. بينما كانت جهود النصارى من حشود هائلة جاءت من ممالك غرب أوروبا بما أكسبها الصبغة الصليبية، هذا وإن كانت قوات النصارى قد فاقت قوات المسلمين عددًا فإن روح الجهاد العالية التي تعلو بها المسلمون كانت عوضًا عن ذلك النقص، فليست العبرة في الكم وإنما تكون في إعداد المقاتل وقوة إيمانه.

- حشد القوى

أولاً: حشد المسلمين:

درو صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب، وهرع الرجال والشباب من كل مكان للانضمام إلى ألوية الجهاد في الأندلس، وعند مدينة «القصر الصغير» بدأ الخليفة عقب الهزائم ينظم جيوشه ويحرص على مكوثها.

وفي أوائل عام 591 هـ اجتاح الخليفة البحر بجيشه إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس على الترتيب الآتي: قبائل العرب، ثم قبائل زائنة، ثم المصادمة ثم غمارة ثم المطوعة، ثم الموحدون ثم العبيد. وأخيرًا عبر الخليفة في حشد كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء.

وبعد ذلك استنفج جيش الموحدين سيرته إلى «نابلسية» وهناك مكث الخليفة عدة أيام يستكمل أهبة، ثم أجري تميزًا في الجيش، فاستعرض الجند صفاً صفاً، وقبيلًا قبيلًا، ثم أخرجت الرواتب والمركبات ووزعت على سائر الجنود.

ثم بادر الخليفة بالسير نحو قشتالة خشية من نفاد الماء، وعندما بلغته الخبر بأن ملك قشتالة قد حشد قواته متجهة شمالاً قلعة رباح على مقربة من قلعة «الأرك»(1)

معتزماً أن يلقى المسلمين بها وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه.

(1) انظر: روض القرطاس، ص(1412)، وانظر أيضًا: البيان المغرب، ص(194، 193).
وعند وصول المنصورة إلى هذا المكان، وقريباً من جيش النصارى ضرب مسكونه، ثم عقد مجلساً من القادة والاشتراك لبحث الحزوة التي يجب اتباعها في خوض المعركة.

ثانيًا: حشد النصارى:

تظهر "الفنووس الثامن" ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ أن سمع بعبوره إلى الجزيرة الخضراء. ثم طلب العون من ملوك النصارى وانتظر أياماً في طليطلة حتى واقته خشود النصارى، وعندما أكمل استعداداته غادراً مسرعاً إلى الجنوب مخترقاً نهر وادي يانة متجهًا نحو أراضي قلعة رباح حتى وصل إلى حصن الأرك، وكان الحصن يقوم على ربوة عالية تنتقد سفوحيها إلى نهر يانة والتي تعتبر حداً فاصلاً بين قشتالة وأراضي المسلمين، وفي هذا المكان عسكر الفنووس الثامن بجيشه غارماً على لقاء المسلمين فيه.

4- خطة المعركة:

أولاً: خطة المسلمين:

تميزت خطة المسلمين بالروح الاستشوارية حيث انعقد مجلس استشواري حربي على مستوى عالم من قادة الأندلس والمغاربة وكبار الوزراء، واستمع المنصور إلى آراء الجميع، وبعد مشاركات استقر الرأى على تنفيذ رأى كبير قواد الأندلس "أبي عبد الله بن صناديد" لما من خبرة كبيرة بمواجهة أساليب العدو ومكانده ووسائل خداعه وكانت خطة المسلمين كالآتي:

1- يكون الوزير القائد "أبي يحيى بن أبي حفص" قائدًا عامًا للمعركة، وأن تنظري تحت راية جميع الفرق من مغاربة وأندلسيين، وأن يتولى قيادة فرق الأندلس قائد الأندلس معروف بنشاطه فاختبر "عبد الله بن صناديد" لقيادة هذا الجناح على أن يخضع بدوره للقيادة الأولى "أبي يحيى بن أبي حفص" في كل أوامر.

2- تكون القوة الرئيسية المكلفة بلقاء العدو من جند الأندلس والمغربية النظاميين وعلى هذه القوة مواجهة الهجوم الأولى لجيش العدو.

(1) يوسف أشياخ. تاريخ الأندلس. مرجع سابق. (ج2) ص(32). 229
- أما بقية الجيش، وهي القوة المؤلفة من قبائل البربر ومعظمهم من غير النظاميين، وجمهورة المتطوعين فتكون قوات احتياطية يدفع بها إلى المعركة عندما يتخرج موقف المسلمين.

- أما الخليفة ومعه قوات حرسه فيرابط وراء الثلال متظاهراً الفرصة لينقض فجأة إذا ما ظهر الإيذاء فرجع كفة النصر للمسلمين.

- وكان أعظم ما في هذه الخطة ذلك التمويه العجيب الذي أشار به ابن صناديد حيث رأى أن يرابط الوزير أبو يحيى بن أبي حفص في قلب الجيش بدلاً من الخليفة، وأن يرفع فوق قيته الأعلام الخليفية، بينما يرابط الخليفة بقوات الحرس الخليفي وراء الثلال، حتى لا يكون هدفاً للقشتاليين يتالون منه.

ثانياً: خطة النصارى:

1- أدى ألفونسو الثامن أن ترك أساليب القتال القديمة في الحرب ورسم خطته بطريقة مزدوجة استضافة على حلفين حسبما تميله طبيعة الموقف.

الأول: تجنب الاشتباك مع المسلمين في معركة حاسمة وإبعادهم عن التحصن بالقتال ليرغمهم على الانسحاب لنفاد المؤمن وتفشي الأمراض أو خلو الشيء.

الثاني: أن تقوم فرسانه بتوجه الضربة الأولى لقلب الجيشه الموحد الذي يقوده الخليفة، كما يطلقون - معتمدين في ذلك على تسليحهم الثقيل الذي لم تكنه فرسان الموحدين من جهة وهبوبهم السريع من أعلى ربوة الأرك كأسلس في الجارف. من جهة أخرى.

2- ادى ألفونسو بعض القوى ليدفع بها إلى ساحة القتال كلما تفوق عليهم الموحدون في القتال.

تحليل الخططين:

ما لا شك فيه أن خطط الطرفين كانتا دقيقة ومنظمتين للغاية فكل منهما أحكم خططه ليتال بها من الآخر، أما عن ألفونسو الثامن فقد وافق في نقل المعركة

(1) عنان: محمد عبد الله - عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس الفرس الأول والثاني ط (هـ 1373 – 1954م) ج (2) ص (200).

220
إلى بلاد المسلمين وتوسيع دوائر الصراع على حسابهم، ثم وفق أيضًا في اختيار مكان محتل به حيث ربط بها على هضاب قلعة الأرك ليوحى أعلى من خصمه ويتحكم فيه ويسطر عليه، فإذا كانت الدائرة عليه توزع جنوده ووجدت لها مسائل نحو بلاده وقلاعًا ويعتمدون بها كقلعة رياح المجاورة لهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يضمن استمرار متومن جيوشه بالمؤن اللازمة له، لذا كان في مقدوره أن يتحمل حربًا طويلة الأمد، هذا في الوقت الذي لا تستطيع فيه جيوش الموحدين الاستمرار في حرب طويلة خوفًا من نفاد المؤن.

أما خطة الموحدين فقد تميزت أيضًا بالدقة والإحكام فقد كانت خطة جماعية تعاونت فيها مختلف الفرق والقبائل بصفة روح الفريق الواحد، فالاندلسيون تنسي قيادتهم إلى قائدهم منهم فكانوا أكثر استجابة وطوعية للأوامر من لو أفردت قيادتهم لقائد موحد.

ومن مزايا خطة الموحدين بالإضافة إلى جماعية القيادة ذلك التمويه الذي صدم كل أمثال القشتاليين، فقد ركزوا هجومهم على القلب ظنًا أن الذي يقود هو الخليفة، بينما اقتضت الخطة تغيير مكان الخليفة ورفع الأعلام الخليفة على القلب لتضليل العدو فضاع أم القشتاليين في التركيز على القلب وإن جاء هجومهم عنيدًا وقاسيًا.

سير القتال «الفن التكتيكي للمعركة»

أ- مرحلة السير والاقتراب:

بدأت قبل المعركة بوقت قليل مهام سراي الطالقان في الجيش لنجمع المعلومات عن تحركات الجيوش وتشكيلاتها، وقد ظهر نشاط طالقان المسلمين وفعاليتهم في جمع معلومات دقيقة عن العدو وفي إبداتها لأكثر من سرية استطلاع تابعة للمقشاليين.

ثم عِشت جيوش تعبئة حرب وعقدت الرايات لسائر القبائل والوطائف، وشقت حملة النبل طريقها تحت أعلامها الخضراء إلى مقدمة الجيوش لتحتن القتال مع العدو. ثم أمر الخليفة "يعقوب المنصور" جيوشه بالرشف نحو محلة النصارى

(1) انظر المربحية لما رحلا سير القتال ص (340) شكل رقم (5).
أوضاع القوات المتضادة شكل رقم (4)
إلى أن اقتربت من محلاتهم، وخرجت بعض كتائب العدو لملاقاة الموحدين ولكن لم يحدث أدنى هجوم من المسلمين لأن المنصور لم يرد أن يخوض المعركة في ذلك اليوم بل قرر خوضها في اليوم التالي، فلما رأى النصارى جمود الموحدين خشوا من رسم الكمين أو استغلالهم فعادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أطلقوا أسلحتهم الحديدية (1). 

ب- المرحلة الانتقالية:

وفي ضحى اليوم التالي التاسع من شعبان سنة 591هـ - 1194م أمر الخليفة الموحدين جيوشه بالزحف واندفعت جنوده تحاول اقتحام سفح الثل الذي يحتمه ملك قشتالة، وإذا بفرسان الأعداء تهبط كالميل الدامس والبحر الزاخر أسرابا تتنور أسرابا، وأمروها تعبّق أمراً، وقد هبط في الدفعة الأولى منهم ما بين سبعة آلاف وثمانمائة ألف فارس كلهم قد احتسب بالحديد والبيضات والزرد والاندفعت هذه القوة حتى لطمها أطراف رماح المسلمين ثم تقهيرت قليلاً وعادت للاقتراب من جيوش الموحدين وتقيات للهجوم الفعلي (2).

ج- مرحلة القتال المتلاحمة:

ركز القشتاليون هجومهم على قوات القلب التي يقودها القائد العام "أبو يحيى ابن أبي دفي" ظنائه أنها القوة التي يقودها الخليفة، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ولكن الصدمية كانت عنيفة والهجوم كانت قاسية فسقط أبو يحيى ومعه جماعة من جنوده. عندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز (3) والرماة روى الفراتس - ص(148، 149).

(1) عمان - عصر المراقبين الموحدين - مرجب سابق - ج(2) ص(5) وما بعدها.
(2) الأغزاز هو جنرال من الشرك، وقد أشار صاحب صبح الأعيشى إلى وجود طائفة منهم في جيوش الموحدين، ويبدو أن جيش الموحدين كان يقسم أجناساً أخرى من الأكراد والجراكسة الذين بعدهم صلاح الدين الأولي لقتل أبي بعوجب المنصور الموحدي، وعندما فشلت تلك الحملة توزعت جنودها في المغرب العربي فاستغلوا المنصور ثم أدخلها في خدمته. انظر الفراتس: صبح الأعيشى - ط دار الكتب 1982م وط القاهرة 1982م ج(5) ص(178)، انظر رحلة التجاني: حسن حسن عبد الوهاب.
(3) المطبعات الرسمية التونسية سنة 1958م ص(111-114)، المراشي: الممجح - مرجب سابق ص(116-117).
وأتظوا بالنصارى من كل جانب في دفع القائد "ابن صناديد" قائد الميمنة بجيوش الأندلس إلى المعركة وصفت مع قبائل زنانة وسائر قبائل البربر.

واندفعت الجيوش الإسلامية بجميلتها نحو محلة القشتاليين، واستقلت بين الفريقين وسالت الدماء بغزارة وكثير القتل في مقدمة القشتاليين التي اضطلع بالهجوم الأولي، فاضطرت إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التي تجناها محالتهم، وأسفرت الجولة الأولى تلك عن تحقيق قلب الجيش الموحد وتوطيد مقدمة جيش النصارى.

وباختصار صاحب روض الخراسان وصفًا تفصيليًا لدوران المعركة بعد هزيمة القشتاليين في الجولة الأولى، فقد كان ايفوسو الثامن معتصمًا مع باقي قواته بروة الأرك، فلما قرر القشتاليون يحاولون الاعتدام بهذه الربوة، وصمدون العون من ملكهم، لكي ينظموا أنفسهم ويعودوا الهجوم ثانية على المسلمين، دار المعركة في السهل وحاصروا تلك القوة وحاصروا بينها وبين الصعود إلى الربوة ثم اردوا ثانية نحو السهل، فحملت عليهم سائر قوات المسلمين (1) بسيوفهم ورماحهم.

د- مرحلة الحسم (2):

ودارت معركة حامية استمرت سويعات ونبطاد النقص في العديد عن الموحدين بالإقدام والشجاعة، وبدأ على القشتاليين التعب والإرهاق عند نزف المصور في قواته الاحتياطية تحت لوائه الأبيض ليجزه على البيئة الباقة أو يلتجأ إلى الفرار، وكانت ملحمة مروعة والفرقان يقتاتان تحت سحب كثيفة من الغبار، وارتجت المكان تدوى بوقوع سنابك الخيل التي تقرى القتلى وقوع الطبل وأصوات الأبواب وصلب السلاح وصباح الجنرل وأنين الجرحى وانجرفت الشمس ولاحت تباشير النصر أمام المسلمين، وتساقطت فرسان النصارى أمام ضربات الموحدين، ونفد المصور بقواته إلى قلب الجيش القشتالي الذي يقوده ايفوسو الثامن بنفسه.

(1) ابن أبي زرع - روض الفراتس - الصفحات السابقة.
(2) انظر خريطة أوضاع القوات المندامة، ص (336) شكل رقم (4).
يحيط به عشرة آلاف فارس - وهي البقية الباقية من الفرسان - تاققوا جميعًا قويًا لإزاء هجمات الموحدين.

ولم يشا الفرسون بالرغم من اشتاد ضغط المسلمين عليه ومواجهة خطر الهلاك والمساعد المحقق أن ينقذ نفسه بالفرار، ويتحمل عار الهزيمة، ولكن عندما رأى رجاله استحالة الوقوف أمام ضغط المسلمين تصرعوا تابعهم أن يتحفظ بحياته حيث إن الله قد تخلي عنه، فرفض أن يستجيب لهم فجذبهم رغم أنه، وارتدوا نحو طليطلة وقوبلهم تقترح أسي وحزيًا لمنعهم من معركة الهزيمة، وتأييده الله بالنصر لجنوده المسلمين (1).

- مرحلة المطاردة واستثمار النصر:

قام الموحدين بعد انتهاء المعركة على هذا النحو بمطاردة لقائد الحرس الفرساني المهزوم التي اعترضت بهين الأرك، فطوق المسلمون هذا الحصن حيث كان المتصور في موقع أن الفرسون الثمانين قد التفاجأ إليه ولكنه قرب بعد ذلك أنه لا يزال يطارد إلى طليطلة. فاقتتح المسلمون الحصن وأسره منه 240ين نازل.

فقد اختفت الروايات في مصير هؤلاء الأسرى في روي صاحب نفح الطيب أن المتصور دفعت بهم 5,000 أسير مسلم بينما يروي صاحب روض القرطاس بأن المتصور من عالم عمريًا بالإفراج وأطلق سراحهم، وأن هذا التصرف قد أغضب قادة الموحدين بل ندم على الخليفة المتصور نفسه (2). ولم يكمل المتصور بمطاردة الفرسان في أراضي قلعة رباح واستيلائه على بعض حقولها بل إنه وصل سيربه إلى الأراضي الفرسانية واتسمرها شمالًا حتى وصل إلى طليطلة فحاصره وضربها بالمجانق والفونسو معتمدًا بداخلها مكسور المجناح لهبوط معنويته، ولكن

---

(1) انظر ما قبل عن معركة الأرك في روض القرطاس، ص(150)، عثمان- عصر المرابطين والموحدين ج (2) ص(88)، والقرن نفح الطيب، ج (1) ص(418)، انظر أيضًا رسالة الماجستير السابقة بعنوان الجيش في عهد المرابطين والموحدين. المقدمة من محمد محمد إبراهيم زغور، وكذلك انظر المعركة في مجلة الملك خالد العسكرية لفس الباحث العدد السابع سنة 1450هـ.

(2) المقرى طبيعة أولى - ج (1) ص(418)، ابن أبي زرع ص (151).
مراحل سير القتال شكل رقم (5)
النصور لم يفلح في اقتحام أسوار المدينة فعاد مسحيًا إلى الجنوب بعد أن اكتفى بعدد هدنة مع القشتاليين، وربما كان دافعه وراء الانسحاب خسارة نفاد التموين أو تفشي الأمراض في جيشه ولا سيما أنه مقبلون على فصل الشتاء.

وبعد أن انتهى النصر في توزيع الغنائم على الجنود وأردو نصيب الدولة في بيت المال سار بجيشه المظلوم إلى أشبيلية وأقبل على الوفود مهيئة بالنصر وجدت قريحة الشعراء بفرحة هذا الانصرار العظيم وهم الشاعر الأندلسي ألف بن حزمون (1) الذي أنشد قصيدته بين يدي الخليفة قائلًا:

حييتك مبعثة النفس
قذر الكفار ومماتهم
إِنَّ الإِسْلَامَ لُقِي عَرْس
النتائج والدروس المستفادة

أولاً: على الصعيد السياسي:

تعتبر معركة الأرك من معارك الإسلام الفاصلة حيث خاضتها قوى الإسلام مجتمعة من المغرب والأندلس ضد تيار حركة الاسترداد الكبير التي اضططع بها ملوك النصارى في غرب أوروبا.

وإن كانت لهذه المعركة بعض النتائج في المجال السياسي فإنها نتائج محدودة استطاعت أن تكتِشف نشاط النصارى إلى حين، وتوقف زحفهم على أرض المسلمين ثماني عشرة سنة، بعدما استألف ألفونسو الثامن ومعه ملوك النصارى حركتهم المسيرة لاسترداد البلاد وأزلت الهزيمة الساحقة بالموحدين في موقعة العقب عام 1212 م، فصمت كل آثر لنصير الأرك العظيم، وتوالت بعدها مدن الأندلس في السقوط تباعًا في آيدي الإسبان.

وما يوحي له أن الموحدين لم يحاولوا استثمار هذا النصر العسكري حيث نظرت إليه على أنه هدف في ذاته دون أن يرتبطوا ب استراتيجية سياسية، ومن هنا

المراجع: المعبّر في تلخيص أخبار المغرب - ص 115-117

227
يبرز هذا التساؤل: هل غير نصرهم العسكري في موقعية الأرك من الخارطة السياسية للأندلس؟ إن المحدودين قد أعطوا هذا العام الهام، فظروف الملكة النصروية عقب هزيمتهم في موقعية الأرك كانت مهيبة لاستمرار المحدودين العام السياسي، حيث انعدم التنسيق بين تلك الملكة النصروية وأضحت كل منها تخطب ود المحدودين بتفاصيل سريعة بعدما استشرى بينها النزاع والتحول المستمر، وقد عرفنا سابقا أن المنصور المحدود زحف بجيشه إلى طليطلة معقل النصارى، ووضع الداء والهدف الرئيسي له من المعركة ثم لظروف غامضة يفتك الحصار عنها ويركزها ويعود إلى المغرب.

وهذا هو الخطأ الفادح الذي وقع فيه المنصور حيث إنه أعطى النصارى فرصة استعدوا فيها أنفسهم وأعدوا تنظيم جيشهم، وسرعان ما أخذوا بثارهم في موقفية نابلة لهم وهي موقفية الغزاة التي كانت نتيجة حتمية لهذا الخطأ السياسي الفادح، وقد روى عن الفونسس الثامن عن حزيمته في الأرك أنه حلق رأسه ولهبه ونكس صلبه واقتحم النصارى فراش ولا يقرب النساء ولا يركب نصرا ولا دابة حتى يأخذ بالثائر(1).

ثانيًا: على الصعيد العسكري:

أبرزت معركة الأرك مجموعة من الدروس العسكرية المستفادة منها:

أ- تميزت القيادة العامة بروحها الاستشارية الجماعية فأكسبت القائد العام قوة التأثير في رجاله، وقد انعكس ذلك في ظهور الروح الع Yöنية العالية بين الجنود، وسادتهم روح الفريق بما كان له أكبر الأثر في رفع السكاءة الفتنية للمسلمين وإحراز النصر.

ب- أظهرت تلك المعركة مدى ما يتمتع به الخليفة المنصور من دماثة الخلق والتحلي بأداب الحرب الإسلامية وحسن المعاملة مع الأعداء، فإنه لم يلطخ صفحة نصره الواعظ بالانفعال إلى قسوة لا مبرر لها في معاملة الأسرى، بل أطلق سراح:

(1) المقرى - نفح الطيب - ج(1) ص(184).
أسلم ما نبت على يد الميدان. ولي فهم ما يعنى صورة صادقة لسماحة
دقة الإسلام.

جـ: أبرزت المملكة مبدأ عسكريًا في غاية الأهمية وهو الاحترام بقوى
احتياطية ترجح ميزان المملكة بالنصر، إذ احتفظ المنصور بقوات الاحتياطية من
حرسه دخل بها المنصور بحسم المملكة لصالحه في الوقت المناسب.

دـ: كما أبدت المملكة عن أهمية المفاوضات والتفاهم على مسار عمل الإلحاق.
أثبتت خلالها نقل الخلفية إلى الاحتياطية ورفع أعلامها الخفيفة على
القلب الذي يقوده «أبو يحيى بن أبي حفص». وركز الفيضاليون على القلب
قاصدين قتل الخليفة فضاع جلدهم هباء، ثم لعبت المفاوضات دروها الحاسب عندما
زج بقوته الاحتياطية إلى أتون المملكة وبدلت شمال من بقي من الفيضاليون.

هـ: هذه إحدى معارك دولاء الموحدين الذين بذلوا جهودًا فاقت أهميتها، في سبيل الاضطلاع
بحركة الجهاد في غرب أوروبا وصد عدوان النصارى عن الأندلس الإسلامية طوال
عصر الخلافة العظمى من حكامها، الذين ما فتئ أن لهم متصلاً في تدعيهم
الكيان العسكري لدولتهم الإسلامية حكومة وشعبًا، مسخرة في سبيل ذلك
الهدف كـ مواردهم الاقتصادية والبشرية في تعبئة حربية دائمة.

وـ: وسجل التاريخ العسكري لهذه الدولة حافل بالأمثلة التي تبرهن على القيمة
العظمى للكيان العسكري الذي حرص خليفتهن الأول عبد المؤمن بن علي
ومن جاء بعده من الخلفاء الموحدين على إنجاهه. ولهذا الكيان العسكري حققا
انضمامات رائعة كان أعظمها انضباط الأرك الشهير كما عرفنا. وعندما
غاب هذا المبدأ العسكري الهام من حياة الموحدين أسفلهم إلى الضعف
والتحاول وتوالت عليهم الهزائم وصارت دولتهم أشدًا بعد أشد.

ولا يغيب عن آذاننا أن ما تعنيه أمننا الإسلامية اليوم إما هو افتقدها
لكيان العسكري الذي يلمس شملها، ويجرب قاصماها، ويضض دانهما في
توقيف مسيرة لتحقيق غاية قومية أو هدف استراتيجي يقوم به قادة

339
المسلمين اليوم ليرفع من شأنها بين الأمم التي تكالبت عليها كما تتكالب الآكلاة على قصعتها، ويضع حدًا لعبارة اليهود في أرض فلسطين المقدسة، ويقضي على الهيئة الأمريكية التي أصبحت القوة الوحيدة في العالم ذات القطب الواحد والتي أرادت أن تتحرك هويتنا الإسلامية وأصالتنا العربية تحت ادعاء الديمقراطية المزيفة، ولن ينفصل حال أمتنا إلا بأخذ العبيرة والعظة من التاريخ، وترى ما فعلت الجبهة الإسلامية في جناها الغربي (المغرب والأندلس) حيث أقامت من مسلمي المغرب والأندلس جبهة إسلامية موحدة وأدك روح الجهاد في نفوس أبنائها، وبذلك صارت الأمة كلها أمّة مjahدة أو أمة محاربة كما يفهم الغرب وهذه إحدى النظريات العسكرية الحديثة التي جعلت من الحكومات والدول حكومات حرب.

فما أحوجنا اليوم إلى رفع شعار الأمّة المجاهدة ليعيد إلى الأمة عزّتها وكرامتها ويجعلها أمّة مروية الجانب بقوتها العسكرية الرادعة وصدق الله العظيم إذ يقول: وَأَعِدُّوا لَهُمَا مَا أَسْتَطِعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيلِ تَرْهَبُونَهُ بِعَدْرِ اللَّهِ وَعَدْوَكُمْ وَأَخْرَجُونَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمَّ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ [الأنفال: ٦٦].
ثالثًا: المقارنة بين المعركتين

ما لا شك فيه أن هاتين المعركتين تعتبران من معارك الإسلام الفاصلة التي اعتبرت بهما الإسلام وعلت كلمته، فقد خاضتمهما قوى الإسلام مجتمعة من المغارة وجنده الأندلس، دفاعًا عن محارب الإسلام وذوًا عن حياضه، ووقعًا ضد تيار حركة الاسترداد الكبرى التي اضطلع بها ملوك النصارى الإسباني الإنانس في أرض الأندلس. فقد انتهت الزلاقة بنصر رائع رد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلم، بعد أن كانت ينذرها بالمحو والفناء العاجل، فختم الإسلام حياة جديدة في الأندلس، امتدت إلى حين وهبات الأندلس لتكون ولاية مغربية تابعة للمرابطين ثم للموحدين، لمدة قاربت مائة وخمسين عامًا، وكان نصر الأرك أيضًا تدعيمًا لقوى المسلمين وتحطيمًا لسيل النصارى الجارف وسداً له.

وإذا ما تعرضنا لهاتين المعركتين بالتفصيل والتحليل ليجدنا كثيرًا من التشابه في تنظيمهما الاستراتيجية والتكتيكية في بعض النقاط وتبنيًا في بعضها الآخر، مما يقوى تلك المقارنة ويدكها أن كلاً من المعركتين يمثل دور الأوج والفقوة لكل من دولتي المرابطين والموحدين، وإن كانتا مستباعتين من حيث التاريخ والزمان، فالزلاقة في عصر الأمير يوسف بن تاشفين المراطي والثانية في عصر الخليفة أبي يعقوب المنصور الموحد. وسوف تنضج المقارنة من خلال النقاط التالية:

1- الأسباب والدوافع التي أدت إلى اندلاع المعركتين كانت مشابهة، فقد كان أهداف المرابطين والموحدين موجهة إلى الحفاظ على حلجهم ببلاد المسلمين في الأندلس، وإيقاف زحف النصارى نحو حدودها والتتصدى لمشروعهم في استرداد بلاد المسلمين.

2- أما عن حشد القوى الإسلامية في المعركتين، فقد كان متعمدًا بحشود ضخمة مضطربة بروح عالية، على درجة كبيرة من الاستعداد للقتال، مدرة أعظم دربة على القتال، وقد تم إجراء تميز لها قبل المعركة ظهر من خلاله كمال استعدادها وتمام أهليتها للقتال. إلا أن هناك فروقًا في حشد القوى: فقد تميزت
جسد الموحدين بأعدادها الضخمة في تلك المعركة فهو جيش يضيق له الفضاء (1)، وهذا هو دافع الموحدين في معظم حروبهم.

على أن جيش المرابطين قد عرَّضت هذا العجز في الحشد بروحهم القتالية العالية، فقد كانت حشود المسلمين من مرابطين وأندلس مهما تواجهوا في الزلاقة قوى أسبانيا النصرانية كلها، والتي حشدها الزعيم النصراوي "الغونسو السادس"، أما في يوم الأرک، فقد كانت حشود الموحدين مقتصرة على مائدة ملك قشتالة وقواته دون أن يعتمد على معونة حليفه ملك ليون، أو ملك نافارا.

وقد شاركت جنود الأندلس في كلتا المعركتين، وقامت بنصيب متوفر في هاتين المعركتين إلا أن دورهم كان مختلفًا في المعركتين. ففي معركة الزلاقة حشدوا في مقدمة الجيوش وكانوا يكونون جيشًا مستقلًا عن جيش المرابطين، فكانوا من أصبي من معسكر المسلمين، وكثر منهم القتال لولا أن تداركهم في النهاية "ابن تاشفين"، وهذا بخلاف ما حدث في معركة الأرک حيث نبت الجيوش الموحدة النصرانية مجتمعة وفي جبهة واحدة. ومن ثم كانت موقعة الزلاقة "مقسومة إلى مكدرة الصفو" ولكن معركة الأرک جاءت "هيئة المشاة عامة المسرة" (2).

3- وقد كانت القيادة على مستوى عال في المعركتين سواء القيادة العامة أو قيادة الفرق المختلفة. وقد تتطلب القائد لكل من المعركتين بالإقدام والصبر والشجاعة التي من شأنها بث الثقة في الجنود، وقد تمتعها بالحنم ورباطة الجأش، وقد ظهر ذلك جليًا في أشد مواقع المعركتين تحرجًا، فقد صبر "ابن تاشفين" في الجولة الأخيرة التي دارت رحاها بينه وبين "الغونسو السادس" وظلت الجولات سجالًا بينهما حتى اكتشفت المعركة على ظهر هائل له، وكذلك صبر المنصر في الجولة الأخيرة والفاصلة بينه وبين "الغونسو الشام" والتي تكسر فيها قلب الجيش الموحد النصراني فلو صبر كل من الاعمال ورباطة جاش كل منهما، ثم إشاعة تلك الروح في رجالهما لما حققها ظفرهما هذا في المعركتين.

(1) ابن الأثير الكامل، ج (12) ص (65).
(2) روض الفردوس، ص (151)، البيان المغربي- القسم الثالث، ص (191).
وقد كان كل من الرجلين مطلعًا اطلاعًا تمامًا على رجلهم. يعرف قدر كل منهم حق المعينة، ووضع كل منهم في المكان اللائق به كما عرفنا سابقًا في توزيع القيادات المختلفة والأدوار على القواد ليقوم كل منهم بدوره الموطئ به، ولا تكون مبالغين إذا قلنا إن هاتين المعاهنين في حقتهما معركة بين عزتين؛ عزيزة القائد المسلم وعزيزة خصمه، وقد اتفقت لنا مدى ما تمتع به القائدان المسلمون من عزيزة ورباطة جاش وجدل على المكاره.

وقد تميزت القيادة العامة في المعاهنين بروحها الجماعية الاستشارية مما أكسب القائدين قدرة التأثير في مروؤسيهما، وتمتعهما بحب الجميع لهما، وقد انعكس ذلك في الروح المعينة العالية، وتمتع الجيشان بما يسمى في عرف العسكريين المحدثين "روح الفريق" مما كفل للجرشين كفاءة قتالية عالية بعناصرها المختلفة. وما لا شك فيه أن دور القائدين بشخصيتهما وسلوكهما وأسلوبهما في القيادة كان لهما أكبر بالنسب إلى بناء هذه الروح العالية، وذلك للدراسة معانيات الجيشهين المرابطين والموحدين يرى مظاهر هذه الروح في عدة نواح منها:

أ- الوحدة والتعاون القائمنة على فلسفة "التوحيد" الذي هو مبدأ الإسلام وجوهره والذي تغفل في كيان هؤلاء الجنود وعمر قلوبهم وأنفسهم، ومن ثم كانت الاتجاهات الفكرية للجماعة الإسلامية موحدة ومركزة في مبادئ وعقلانية عامة يعتنقيها جميع جند المرابطين والموحدين، وهذا هو الأساس الأول والأصيل لوحدة الجماعة الإسلامية وتماسكها.

ب- الفخر والاعتزاز بالجيش والأمة، وهذا الإحساس هو الذي ولد روح الفريق في وحدات الجيشهين اللذين تمتاها بسمعة طيبة نتيجة للانتصارات التي حققها كل منهما في الحروب السابقة، ويكفينا في هذا المقام أن نبين نظرة المعتبد لجيش المرابطين عند طلبه النجدة والاستغاثة كما روى "ابن بسام" (صح العلم بأنك لدعاء الإسلام ناصر... ووجب أن تستدعى ما أفضل من الداء وتنسطت) (1).

ج- فضيلة إنكار الذات التي يدعو إليها الإسلام، ويحرض المؤمنين على أن يؤدوا أعمالهم اتباعًا وجه الله وتقبل ثوابه ونعيمه، وبهذه الفضيلة ظهر من أبناء...
المرابطين والموفدين أبطال عمالقة سادوا وقادوا وفعلوا المكارم، ومع ذلك لم يتباهوا بما فعلوا، ولم يفخروا بما قدموا بل أنكروا ذواتهم وكنمو أعمالهم وانتغو بها وجه الله، ولا أدل على ذلك من موقف الخليفة الناصر حينما اكتمل الحشد حيث أمر قائدته العام أن يبلغ الجند عنه «أغفروا له - فإن هذا موضع غفران - ونفروا فيما بينكم وطبيعوا نفسكم، وأخلصوا لله نياتكم»، هذا بخلاف ما نراه اليوم وسمعه حينما تسحب أجهزة الإعلام وتثنى الثناء كله على بعض القادة المعاصرين وإن لم ينجروا مشارعا ما أجزه قادة المرابطين والموحدين.

- نشر الأعلام والرايات من الأمور التي ساعدت على خلق روح الفريق في الجيشهين وفي وحداتهمما لأنها تبث في نفس الأفراد الفخور والعزة بالانتماء وكان لكل جيش علم لمبادرة، وعلم لكل فرقة، وكل وحدة، يعتبر رمزًا لها تجمع عليه قلوب رجالها اعتزازا وفخرًا.

وإن كنا أفسنا الحديث عن القيادة العامة للمعركة، فكيف كانت أوضاع القيادة الأخرى لقيادة الفرق المختلفة؟ لقد أحسن كل من القيادات اختبار مجموعة قواده، فقد أحبط عاهل المرابطين بنخبة من القواد الأكفاء الذين أداروا معه معركة الزلاقة وأثبتوا كفاءة عالية في القتال أثاث داود ابن عائشة وأسمر بن أبي بكر، وعبد النبي بن جعفر، وأبو الحج.. وغيرها، وكذلك الحال فقد أصطفى المنصور مجموعة من القواد منهم «أبو يحيى بن أبي حفص»، و«ابن صانيدز» و«جبريل بن رباح» و«منديل المغراوي» و«محمد بن أبي بكر ابن حمامة» و«جابر ابن يوسف» و«عبد القوى الشجاعي» و«محمد بن منغاد» و«الحاج أبو خزر بخلاف الأوريني» وغيرهم (1).

على أنه يمكن أن نتبنا اختلافا في القيادة بين معركتي الزلاقة والأرك، فقد كان «يوسف بن ثابت» عاهل المرابطين هو القائد العام للمعركة يديرها ويحرك قواته وله القول الفصل، بينما أسند المنصور قيادة الأرك إلى عهده القائد «أبي يحيى بن محمد بن أبي حفص»، وظل هو يقوم القوة الاحتياطية لرجوع كافة المعركة لصالحهم، ثم أسند المنصور قيادة جند الأندلسين لأنفسهم، فقد قدم «ابن

(1) روض القرطاس، ص (148).
صناديد على عساكرهم كما أذكى روحهم المعنوية وأحسوا بكيانهم وقيمتهم فصنعوا المعجزات في تلك المعركة.

4- وقد تميزت خطة المركتين بالروح الاستشارية الجماعية، فقد عقد كل من القائدتين قبيل المركتين مؤتمراً حربياً جمعاً فيه قادة كل منهما ليأخذوا آرائهم ويستعينا بأهل الخبرة والتجربة منهم، وهذا ما حدث قبل معركة الزلاقة والأرك كما سبق الحديث عن خطة المركتين.

5- وبعدما توضع الخطة كان المرابطون والموحدون على مختلف مستوياتهم يلتزمون بها كما وضعها القائد الأعلى، وكانوا يحرصون على تنفيذها بالصورة التي انتهت إليها. وهذا ما حدث في معركة الزلاقة فقد رسم يوسف خطة الحرب ولم يحد عنها مطلقًا، رغم ما تكبدته الجبهة الأندلسية من خسائر فادحة، ولكنه تدخل في المعركة في الوقت المناسب حسبما خطط لها في خطة المعركة، وكذلك فإن الموحدين قد حافظوا على خطتهم التي وضيعوها فكنت لهم النصر.

6- وفي مقدمة العوامل التي ترتبت عليها انتصار المرابطين والموحدين هي روح القتال العالية التي يتمتع بها جنود هاتين المركتين، وما لا شك فيه أن روح القتال تلك هي العامل الهم في المعركة، فالعدد والسلاح لا يقومان مقام الشجاعة والإقدام والرغبة في إحراز النصر، ولم يغفل قائد المركتين هذه الناحية، بل حرصا عليها أشد الحرص وخاصة في أموج ساعات المعركة، يوسف بن تاشفين يوضح المعركة بنفسه في مقدمة الصفوف وقد عقرت تحته أفراس ثلاثة، ثبت بين الصفوف وهو يذكر حماسة جنده للنصر أو الشهادة بعبارات تفوق حماسة وقوة، فقاتل المسلمون قتال من يطلب الشهادة وينتمى الموت (1)، وكذلك كان النصارى مثلاً رائعاً لجنده في حماسته فهو لا يقل عن «يوسف بن تاشفين» شيئاً في هذا المجال، فقد ترك ساقته ووضيعه عندما اشتد هجوم التصاري على قلب جيشه، وسار متفردًا من خاصته وحرسه، ومر على الصفوف والقبائل وألقى إليهم كلمة حماسياً في الهجوم على عدوهم والدفاع إليه وعاد إلى موضعه وساقته (2)، وهو لا يفتر ولايزال يثير حماسة جنده ويدفعهم إلى القتال والصير إزاء هجوم التصاري العنيف.

---

(1) روض المرابط، ص 95.
(2) البيان المعربي - القسم الثالث، ص 194.

450
7 - وقد شابهت كلتا المعركتين في بداية كل منهما، ففي معركة الزلاقة بدأ النصارى فيها بالهجوم وكان على المسلمين تلقى الهجمة الأولى، فقد هجم "الفونسو السادس" على جنود الأندلس في تلك الموقعة حتى أجبرهم على الفرار ثم أخذ يطاردوهم دافعاً جنوده إلى الأمام، وكذلك في معركة الأرك الموحدية فقد اضطحل "الفونسو الثامن" يهجم عنف على قلب جيش الموحدين حتى في أغله وقت قائد المعركة، وربما كان المسلمون يرسلون خططهم على ضوء ذلك الهجوم الذي غالبًا ما يادر به النصارى، فقد كان المسلمون يتحملون الصدمة الأولى للنصارى محاولة الصبر والثبات والتقليل من خسائرهم بشتى الطرق، ثم بعد ذلك ينقلب دفاع المسلمين إلى هجوم مركز بعد استنفاذ كل طاقة لجند العدو، وهذا ما حدث في موقعة الزلاقة والأرك فقد تجول دفاعهم فيها إلى هجوم عنف أثني سائر جند العدو كما وضحنا سابقًا.

8 - وقد استمدت كل من خطط الزلاقة والأرك على عنصر المباغة والفناجة، وتضح ذلك في دخول "يوسف بن تاشفين" المعركة فجأة واكتشافه على مسكر النصارى بينما كان الفونسو وفرسانه مشغولين بمطاردة الأندلسين وكانت مفاجئته هذه ضربة قاصمة لمجيش النصارى أنهى بها معركة الزلاقة لصالحنا، وهذه المفاجئة تذكرتنا بالفناجة التي أحدثها "المصروف" في موقعة الأرك أيضًا حيث تدخل بقواته الاحتلالية مع باقي فرق الأندلس والفرق الأخرى في الوقت المناسب مراكزهم هجومهم على قلب الجيش القشتالي وإفاعته عن آخرهم ثم القيام بحركة تطويق لفرسان النصارى عندما حاولوا الفرار إلى ربوة الأرك للاعتماد بها فحالوا دون صعودهم وأفغنوهم عن آخرهم.

9 - وقد ظهر في خطط المعركتين أيضًا عنصر التمويه على العدو، ففي معركة الزلاقة أختفى جيش المرابطين وراء ربوة عالية محجبة عن أنظار النصارى، ثم توزعوا كسائر ومعاصيد تنفخ على جيش النصارى عند اللحظة الحاسمة في المعركة، وكذلك كان التمويه عادة خطة معركة الأرك، فقد غير النصارى مكانه في المعركة حيث أمر أن ترفع الأعلام الخليفة على قلب الجيش حتى يظل العدو أنه الجناح الذي يقوده الخليفة بينما ترك الخليفة هذا الجناح إلى ساقة الجيش واعتفى

246
في مكان محجوب عن أنظار العدو، وفعلاً تركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحد الظاهري أنه الجناح الذي يؤدي الرخوة الخليفة، بينما تدخل المنصور بجانبه في وقت حرج من أوقات المعركة وهو الوقت الذي وصل فيه القشتاليون إلى ذروة الإجهاد والتعب.

1- وتختلف المعتكبان من حيث عنصر المطاردة، ذلك العنصر الذي تقتده دائمًا في حروب المرابطين، فمعركة الزلاقة بالرغم من أنها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة، وقضت مؤقتًا على الخطر الذي كان يهدد ملوك الطوائف فإنها اقتصرت على تحقيق النصر للمسلمين، ولم يتع يوسف نصره في هذه الموقعة بأية مطاردة للنصارى الذين ذهبت ريحهم وهزموا هزيمة منكرة، فلم يحاول ابن تашفين محاولة أخرى لاسترداد طلبطة أو غزو أراضي قشتالة، وضاعت منه فرصة ثمينة ونادرة فلو حاول ذلك لاسترداد طلبطة وهو الهدف الاستراتيجي من الحرب، بينما المنصور في معركة الأرك نرأه يطارد فلول عدوه المنهزم ويعاصره في قلعة الأرك، ثم يستولي على عدة حصون في أراضي قلعة رباح، ثم لم تمض بضعة أشهر حتى خرج المنصور في قواته ثانية لتغزو أراضي قشتالة ووصوله إلى أبواب طلبطة بهدف ردع العدو.

وخلاصة هذا أننا قد ألمتنا إملاءة مفصلة لمعركتين من أشهر المعارك الإسلامية وأعظمها، وقد لاحظنا من دراستنا لهما أنهما تشابهتا في الكثير: في الحشد، والمسير، والأسباب، والقيادة الرشيده، وتمتع الجوشه بروح الفريق، وجماعية القيادة، وإقامة المجالس الحربية القائمة على التفاهم والتشاور ثم الالتزام بالخطة مهما كانت الظروف دون تحجر، وتميز جيشهما بروح القتال وخفة الحركة والقدرة على المناورة، والالتزام بخط الدفاع وتحمل الصدمة الأولى التي سرعان ما ينقلب الدفاع فيها إلى هجوم عنف وخطف، وقد ظهر في أثناء سير القتال طرق الحل المفتوحة من القيام بالمباغات المفجعة للمعدو والتي تسبب المذعر والاضطراب بجندوته، مع إدخال القوى للقيام بها بحركات مضادة يرتتب عليها تطبيق لاجتباء الجيش النصراني.
وإن كان ثمة خلاف بينهما فقد ظهر في تحمل الموحدين والأندلسيين في الأرك لعب المعركة مجتمعين والجميع قد اصطلي من لفح هجمة القشتاليين حتى استشهد القائد العام لجيش الموحدين ومعه نخبة من كبار القواد ورئيسي الدولة. بينما في معركة الزلاقة فقد تحمل الأندلسيون بعفوهم عبء هجوم النصارى في الضربات الأولى ولم يساندهم سوى فرقة بقيادة "داود ابن عائشة" بينما تدخل المراقبون بعدما استنفد الأندلسيون جهد وقوى النصارى فدخلوا المعركة بعد أن مهدت لهم السهل دماء الأندلسيين، فبالوا ظفرًا شهيبًا، وفما لا شك فيه كانت خسائرهم بالنسبة لجند الأندلسي قليلة إذا ما قورنت بما استشهد بهم في هذه المعركة.

وثمة فارق آخر ظهر في نتائج كل من المعركتين وهو عنصر "الفاجأة والطائرة" فقد أقتصر المراقبون على النصر ولم يحاولوا استغلالهم بمطاردة العدو ثم الهجوم على طليطلة واستردادها، بينما حرصت القيادة الموحدة على استغلال هذا النصر وذلك بمحاولة الهجوم ومطاردة النصارى وتعقب فلول جيشهم المنهزم واستشعار هذا النصر بعد المعركة مباشرة.
رابعًا: كلمة حق ورأي:

مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين

يجدر بنا في هذا المقام أن نلقي للآذان حقيقة تلك الدولة المرابطية وتظهر ما لها وما عليها، ونعرف هل أنصف المؤرخون هذه الدولة؟ أم انساقوا وراء أهوائهم وميولهم، فذكرنا المثال ولم يشيدوا بالمحاسن كما يفعل المستشرقون.

كأنى بهذه الدولة الفتية لم تلت نصيبها من العدل والسماحة في معظم الروايات العربية وغيرها من مؤرخى الإسلام والأجانب. وربما يرجع ذلك إلى قصر حياة دولة المرابطين التي لقيت حتفها وهي في عهود شبابها قبل أن تهم أو تشيخ، فجاءت بعض أخبارهم شاذات مترافقة في صفحات المراجع الإسلامية واجاء بعضها الآخر متموجة معامله وحقاقه بسبب تعبير كثير من المؤرخين للبلاط الموحدى. هذا ولم تكون المراجع الأوروبية تساعد حظًا من سالفتها، فقد جاءت روائعها مصبوغة بصبغة التنصب اللذيني والجسني في أغلبها.

ومن هذه الآراء المنفصلة التي تشتتهت في الحكم على المرابطين آراء المؤرخ دوزي الذي يقول في بعضها: "لم يكن الشعب الأندلسي باستطاعة عامةً عندما قدمن إلى المرابطون، ذلك أن الحكومة والقادة والجند، قد أفسدوا جميعًا في وقت قريب من إمارتهم... فقد كان سرود يوسف حينما وفدوا إلى أسبانيا صحاويين بسطاء يتحلون بفضائل التقوى والشجاعة، ولكنهم سراً ما غربوا في التعليم ومعهم الحياة ما أخذته عليهم يوسف من كنوز أمورها، ففقدوا تلك الفضائل وعكروا على التمتع بتلك الفوزيات يريدون أن يقلدوا ملوك الأندلس الذين خلبوهم، ولكن أسوه حظهم أنهم كانوا من دوئ الجلد الخشن الذي يحلو دون تمتهم بمعاه التسمعة والرقة فعجزوا عن مجاراة الأندلسيين".

ثم يقول في موضوع آخر: "لم يكن الجلد المرابطي بأفضل وضعًا من قادتهم ورؤسائهم، فقد كانوا معرضين باللؤم الخالص نحو أهل الأندلس وصالين والهلع أمام العدو، وقد أ nghìn جبينهم الأمير "علي بن يوسف" مما حدا به أن يجدن
النصارى في جيشه، الذين يأتي بهم "على يد ميمون" قائد أسطوله من شواطئ جليقية وقطرانية وإيطاليا، ومن مظاهر لؤمهم مع أهل الأندلس أنهم كانوا يسبلون منهم كل ما حلا لهم ورق من مال ونساء، وقد شجعهم على ذلك ضعف حكومة المرابطين التي عجزت أن تقاوم طغيان هؤلاء الجنذ.

ما لا شك فيه أن في أقوال "دوزي" هملاً كبيراً على المرابطين، فقد وصفهم بالخشونة إزاء الأندلسيين، فماذا يعني بالخشونة؟ لقد حرصت مصادرنا القديمة على أن تصف الملحمين بالخشونة كصاحب روض القرطان والبركى وابن خلدون، وهم يوصفون بالخشونة هذه الخشونة الضرورية لحمل عبء الكفاح، وليس المقصود الخشونة الوحشية التي يعنيها "دوزي".

إذا أفته الدول في فكر المؤرخين القدماء هو الترف والانغماس في متع الدنيا. وقد انخدع كثير من الدارسين بلفظ الخشونة، فقصروا أن حكم المرابطين هو حكم وحشي خشن، ووضعوا في الطرف المقابل لذلك ترف أهل الأندلس ورقة طباوعهم، وهذا فهم منحرف عن القصد والأعتاد وقع فيه المؤرخ "دوزي"، وكلما يمكن أن يقال عن خشونة المرابطين هو أنهم كانوا يتصوفون بصفات تؤهلهم تأهلاً تامًا للقيام بدورهم التاريخي العظيم من حيث الخشونة والتمسك بالمبادئ، والتزام البساطة وقوة العزم وسلامة الطبع. وقد أشاد "ابن حمديس" بخشونة الملحمين اللازمة لإظهار شجاعتهم في القتال فقال:

الأف، قبلهم الخضوع لرحبهم وواصفيهم عليهم تتنمر، يرموُن أغراض الخشوف بأنفس، وتهور في هائم العلوم جداول من كل وحشي الطابع كأنه لهذا نرجو أن نتحاشى كثيرًا من السمات الوحشية التي أظهرها الدارسون المحدثون في وصف الملحمين، وأن نعتبر تلك الخشونة إما هي لازمة لإظهار بأسمهم


(1) انظر ديوان "ابن حمديس".

(2)
في القتال، أو اعتبار المسلمين أهل مكارم كمكارم الجاهلية قبل الإسلام على الأقل، أما قول "دوزي" عن قواد المرابطين بأن كنوز الأمويين الأندلسين التي أغدتها عليهم يوسف قد جعلتهم يفدون فضائلهم بسرعة، يفتنون في الرد عليه في هذا المقام أقوال رواية معتدلة تشهد بخلال المرابطين التي لم تغيرها حياة الأندلس وترفع حين قدم أشياب المرابطين فيها - الأندلس - وكانوا قبلًا أقوامًا ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل (1)، ويقدم لنا صاحب الحلل الموثقة أيضًا رواية عن شاهد عيان قد عاصر عهد المرابطين حتى استيلاء عبد المؤمن الموحدى على مراكش وهو "القاضي أبو بكر بن العريبي" المسوف في سنة 542 هـ. فقد جاء في كتابه "عارة الأجرود في شرح الترمذي" قوله: "المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حمامة المسلمين الذابون والمجاهمون دونهم ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا قدم ولا وسيلة ولا موقف إلا الزلاقة التي لن تذكرها حروب الأئل، وحروب داحس والغراء مع بيئًا واث، لكن ذلك من أعظم وأرجح عبرهم (2)".

ثم يبدو تسامح "دوزي" على المرابطين قاسيًا فيصفهم بالجبن إزاء العدو ويرى جنبهم فادحا حتى إن الأمير على اضطر أن يتغلب على بعضهم للتصاريح بأن يحشد منهم فرقًا في جيشه.

ويكشف لنا لاحق هذه الشهبة أن نسمع ما قبل فهم "وكأن لهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الأتهام ولا يحفظ لهم فرار في زحف (3)."

فهل من العدل أن نصفهم بالجبن إزاء العدو وهو الذين حققوا انتصارات باهرة بعد نصر الزلاقة في أقليس سنة (528 هـ - 1134 م)، وفي أفراغه سنة (528 هـ - 1134 م)، وأنهم استطاعوا على وجه العموم حتى أواخر عهدهم الذي استطال بالأندلس زهاء خمسين عامًا أن يحافظوا خلالها على رقعة البلاد الإسلامية بالأندلس ولم يسبي إلى كفاحهم ضد التصاريح سوى قيام الثورة عليهم في مختلف القواعد عند ظهور الموحدين وعبرهم إلى الأندلس.

(1) الحلل الموثقة، ص (59).
(2) الصدر السابق، ص (101).
(3) انظر أشباح، ج (1) ص (19)، وابن الآبار، الخلة السبئاء، ص (209).
والمعتبر لناصرًا «دوزي» ينجز حملة التشهير التي أقامها على المرابطين وعلى عائلتهم «يوسف بن ناشيف» (1)، وإن كان يجد في بعض الروايات ما يدفعه على تحامله إلا أنه كان غير مدقق لتلك الروايات، فقد نقل عنها دون أن يتعرف على معيون أصحاب هذه الروايات، فقد نقل عن المرابطين صاحب المعجب وهو كما عرف عنه مؤرخ ينتمي إلى البلاد السورية، لذا كانت روايته عن المرابطين غير دقيقة بدعاف التقصيب والانحياز.

وقد عرف عن «دوزي» تعصبه ضد المسلمين وتحامله الشديد عليهم وأنه كثيرًا ما يميل إلى التعصب الذي أسسأله إلى الخطأ في استباد النتائج، وقد رمى المستشرق «كوديرا» بهذا التحامل ووجه إليه نقدها في هذا الصدد قائلًا: «القد صيغت أحكام قاطعة جدًا، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين، ولم نعتقد أنه لم يعرف لهذه الأحكام، بالرغم من مكارة» (دوزي) العظيمة، الذي هذا حذوه معظم الكتاب المتأنين، فإننا نعتقد أنه يجب أن نقول شيئًا من عدنا، لأنه إذا كان يرى أن العلماء الهولنديين يستند في أفواههم إلى أفواه مأخوذة من الكتاب المسلمين، فإن أشعر أنه يتجه بكثير من التحامل، وهذا يرجع بالأخص إلى ما يظهر من تعصب ضد رجال الدين، وإلى تطبيق التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية وإلى ميله الواضح إلى التسميم، وإلى استخراج النتائج بالاستناد إلى تلبيل من الوقائع (2).

وما لا شك فيه أن دولة المرابطين كأمة دولة لها محاورتها التي تتكيفها، وعليها مشاكلها التي تؤخذ عليها. فإن كان للمرابطين قادة وجنودًا من محاضن فهمن إجمالها في فكرة الجهاد التي قامت عليها دولهم منذ مهدها الأول في الصحراء، ثم إبانًا بهذه الفكرة انتقلت من الصحراء إلى بلاد المغرب ثم زحفوا إلى الأندلس من بحور الأندلس. وهذا التغير من الصحراء إلى بلاد الدار ثم إلى المدينة والحضيرة بالأندلس، تطلب منهم تكييف مستمرًا وهو الذي أجهذهم حتى استنفد كل قوامه قبل الأوان، وقد لبثت الدولة المرابطية قادة وجنودًا طوال عهد يوسيف ابن ناشيف» وأواتيله ولده «علي»، دولة مساهدة تحتفظ بكثير من فضائلها من التقصيب والمنعاء والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة.

(1) تاريخ دوزي، مرجع سابق: ج (3) ص (155 – 168).

F. codera: Decad. Y. Desp. de Los Almoravides P - 190 - 191.
 وإن كانت بلاد الأندلس هي جمهورها الثقافية والتي كان عليها مسرح معاركهم في كيف أنها استنفدت منهم كل جهد وطاقة، في استناد تلك الجهة وسحقهم لجيوش إسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة العظيمة، وتصديهم لطامع ألفونسو ملك أراكون وألفونسو ريوتوس ملك قشتالة، بل لا يملك الإنسان إلا أن يقهر لهم بالفضل العظيم لما سجلوه من صفحات مشترقة من الكفاح في فترة حالية كانت تمر بها الدولة من ثورات داخلية وفتى ظهرت مع ظهور الموحدين، منذ موقعة أقيلية 504 هـ إلى موقعة أفراحية 528 هـ، وهنا كله تظهر بجلاء بسالة هذه الزمرة الأكفاء من قادة المرابطين وما قاموا به في سبيل إعلاء كلمة الله.

وإن كانت هناك بعض المشاكل التي تذكر على المرابطين صفة صفوهم العسكري فيمكن إجمالها فيما يأتي:

1- فقدهم لعنصر المطاردة وعدم استثمار النصر في أغلب معاركهم مع العدو كما حدث عقب موقعة الزلاقة وقد وضحتا ذلك سابقاً.

2- ومن التغييرات العسكرية التي تؤخذ على المرابطين والتي صدعت من هويتهم في شبه الجزيرة الأندلسية هي سقوط "سرقسطة" قاعدة الثغر الأعلى عام 514 هـ. وبهذه الفترات العسكرية قامت أزمة زاوية استمرت عشرين سنة عصاماء لم يبلغ فيها المرابطون رتباً، وحمل الأمير "أبو الطاهر تيم" بطل أقاليش مستولية هذه السفينة، وازداد من قسوة هذه الأزمة تشبع أهل سرقسطة أثناء الحصار وبعده بالمرابطين، فقد كتب كتب تقليد سرقسطة إلى الأمير "قيم" المرابطي رسالة تعين وتقرير، يؤذن فيها على اقتراحه من سرقسطة ثم تكوسه عنها، وقد جاء في رسالته: "يا معشر المرابطين، أنتم المطالبون عند الله بدمائنا، بريتم من نصرة الإسلام يعنيك الله عنكم، هو السد الذي إذ فتقت ففتق بعده أسداد"(1) وخرجت من سرقسطة جمع ساحرة على المرابطين في أنفسهم جروح عميقة من تخاذلهم والتكوس عن مجدتهم.

3- وترتب على سقوط سرقسطة سقوط بقى قواعدها، وفي غمرة هذه الأحداث الحزمة من المرابطين بهزيمة ساحرة في كتيبة عام 515 هـ، وكان سببها...

(1) انظر تلك الرسالة في قسم وثائق مرابطنة - تحقيق عنان - عصر المراطبة والموحدين، ج (1) ص (538).
أن ملك أراجوان "ابن رذميرا" رحف بجيشه للاستيلاء على قلعة أبوأو فلما أراد المرابطون إنقاذ هذه القلعة اشتكوا مع جيش "ابن رذميرا" في معركة حامية هزم فيها المرابطون في ظاهر بلدة صغيرة تسمى "كتندة" واستشهد في هذه الموقعة عدد من العلماء وكانت النتيجة أكبر من المخاطرة لأن الهزيمة جاءت والروح المعنوية ضعيفة متخاذلة.

4- من المعروف أن المرابطين قوم صاحراويون، وعلى الرغم من بداولهم وتقشفهم إلا أنهم كانوا يتمتعون بكثير من الفضائل والصفات الحسنة من الشجاعة والفروسية والقوة والورع والتعلق بالجهاد في سبيل الله، إلا أن هناك طفف من الخصم والعبيد التابعة لهم كانت تعتمد على الناس وتعبث بالأنصار تحت ظل ستار اللجام المطلق، فكانوا يتلثمون على الناس ويهبونهم، ويأتون أباويا من الفجور كثيرة بسبب اللجام وهنا. لذا ترك "ابن عبدون" وكان في بلال "علي بن يوسف" يسجل ذلك في رسالته ويُلعب حدًا لهذه الأعمال ويقول عند ذكر المرابطين: "يجب أن يتم لا صلى، أو متنور أو مسؤل، فإن الخصم والعبيد ومن لا يلبس بينوشمون على الناس ويهبونهم، ويأتون أباويا من الفجور كثيرة بسبب اللجام..." (1).

ثم يقول "ابن عبدون": (يجب أن يمشي أحد في المدينة بسلاح، فإن ذلك داعية إلى الفضاد، ولا سيما البربر، فإنهم قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا) (2).

هذا ما يعطينا صورة لما يتسم به بعض الجنود البربر من سرعة الغضب وتورط. وكذلك ما يدفعهم إلى القتل أو الجرح بسهولة دون ترقب أو تعقل.

وبعد، هذه أحوال المرابطين بين المديح والقليد، وإذا أردنا أن نحكم لهم أو نحكم عليهم فينصحنا الناقد ما أنجزوه من أعمال في سبيل الجهاد وإعلاء كلمة الله على أرض الأندلس مع مقارنة ذلك بعمر دولته القصير بالأندلس، الذي بلغ زهاء السبعين عامًا تقريباً كلها حروب متواصلة مع النصارى حيفوا خلالها نصر الزيادة وأقيليش وأفراح وحافظوا على رقعة الوطن الأندلسي أن تقع في يد الإسبان إلى حين.

(1) رسالة ابن عبدون في القضاة والخمسة المشورة بعناية ليغي بروفاسوال، ص (28).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحات.
خامساً: خصائص العسكريات الإسلامية

للدولتين المرابطين والموحدتين

وإن كان لكل جيش خصائصه وسماته التي تميزه، فإن جيش المرابطين والموحدتين في المغرب الإسلامي ملحوظًا وسماتهم المستمرة من روح الإسلام وظروف البيئة واختلاف الأجناس، وتبائل العصور. ويمكن لنا، توضح تلك السمات في النقاط التالية:

أولاً: العقيدة العسكرية:

إن (الجهاد في سبيل الله) هو جوهر العقيدة والإستراتيجية العسكرية لدى المرابطين والموحدتين، وهذه العقيدة ميزة عن العقائد العسكرية الأخرى في عقيدة مبنية من القرآن الكريم والسنة النبوية مما جعلها تنبوأ مكانة عالية، وتميز بالاستقرار والأصالة والحياة، والتجديد والمحافظة على الهوية الإسلامية، فهي ربانية التلقى ونبوية التوحيد. بينما العقائد العسكرية الأخرى فتصوغها وتضع مبادئها القيادات السياسية والعسكرية العليا في ضوء غايتها القومية فهي من وضع البشر وشتان بين عقديتين وهذه العقيدة العسكرية تجمع بين هذا العنصر الرباني الثابت وبين عنصر الإنجهاد من جانب الفقهاء وال kapsرفيين أولى الأخطاء والأمر. فهي عقيدة متفحمة تستفيد من سائر العقائد الأخرى في ميادين العمل والتطبيق.

ثانياً: النظريات الاستراتيجية للحرب عند المرابطين والموحدتين تنسجم تمامًا مع غاية الحرب في الإسلام:

إذ تقوم على نظرية الجمع بين الهجوم والدفاع حسب مقتنيات المركز العسكري كما سنجد نظرية "الرد" الإسلامية التي تستهدف إلحاق العدو ملعنه من العدوان. وبذلك يتحقق حقن الدماء والاقتصاد النام في القوى المادية والمعنوية. ويوضح ذلك من خلال الصفات التي كان يقوم بها الأمراء المرابطين وال kapsرفيين الموحدين بأنفسهم في أرض العدو بصفة مستمرة إزفاءً للعدو حتى لا تخدع نفسه بالعدوان.
على أراضي الدولة علماً بقوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن دينك" [الأنفال: 10].

ثالثًا: القدرة على توفر الكفاءة النوعية والاستعداد للقتال:

حيث كانت الجيوش في تأهب دائم وحذر وبقطة حتى لا تؤخذ على غرة، وكما كانت القيادة العامة تعمل على أن يكون هناك جزء من القوات مستعدة للقتال فور الإنذار بالخطر، وهو ما يسمى في العصر الحديث "بدرجة الاستعداد القصوى" مع كفاءة عالية في أعمال المخابرات والأمن ومكافحة الجاسوسية وتوجيهات القيادة في القتال (1). وما يلفت النظر حقاً أن تلك التوجيهات كانت تمتاز بارتباطها العضوي بغية الإسلام ومقادمة من القتال التي هي من الشرف والسمو والمكانة بحيث يسهل على المقاتلين بذل الاله والأرواح في سبيلها.

رابعة: القدرة على توفر الكفاءة القتالية للجيوش المرابطة والموحدة:

ويتضح في النقاط التالية:

أ- بناء المقاتل: يقرر العلم العسكري أن كفاءة الجيوش تقوم على خمس دعامات رئيسية هي: المقاتل الكفء، والسلام القوى، والانضباط، والروحponde، وروح الفريق (2).

والمتاحل في هذه الدعائم يلاحظ أهمية الجوانب المعنوية بجانب الجوانب المادية، فالانصر الشرعي هو العنصر الحاسم في بناء الجيوش، فالإسلام هو الذي يفكر ويضع الخطط ويقتات ويستخدم السلاح ويقود الجيوش ويصرف في المواقف ويدفع القرارات، وهو الذي يحكم ويثبت ويتقدم ويعتبر المخاطر. فكيف كان منهج الدولة المرابطة والموحدة في بناء الإنسان المقاتل؟ لقد كان المنهج ساسيًا، فهو منهج الإسلام الذي اضطر حسب الآباء الأحياء الذين، وعقيدة الراشدة في ضمائرهم عقيدة التوحيد في العبادة وفي الأخلاق، وإعلانه للكرامة الإنسانية.

المراجع:
(1) أنظر باب النبئية وتنظيم القوات المرحلة الأولي وهي الترتيب الاستراتيجي، فقد سبق الحديث في هذه الموضوعات.
(2) أنظر اللواء محمد جمال الدين محمف، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، ص (181).
وتحريره للشخصية الإسلامية من كل أشكال الخوف ما عدا الخوف من الله عز وجل، ومقامه للعبودية لغير الله، وعنايته بالصحة النفسية والجسدية للثني تعتبران حجر الأساس لنظام المقاتل الكفء، وهذا واضح كما عرفناه في مرحلة الرباط إذ تولى الداعية «ابن ياسين» وضع هذه النظم لنظام المقاتل، ويمكنك الرجوع والاطلاع عليها.

وقد أثبت التناول العسكري لهيئات الدولتين أن المقاتل المسلم الذي تربى على منهج الإسلام، مقاتل من طراز فريد، لا ترقي إلى بلوغه أعظم الأساليب التي قررتها عقول القادة والمربين في كل زمن ومكان، فلم تكن في المعركة أمر لا يخفاه المسلم بل هو عندنا أمر يسعى إلى الظفر به، وهو الظفر باللهة وتبيل المغفرة والرضوان، ومن ثم فقد تجمع للمقاتل المرابل في الموحدة كل السجايا والفضلاء الحربية على إملاء وأعلى الوجوه، مثل الشجاعة وقوة التحمل، والخشونة والحزم والطاعة والصبرة والخبرة على الشرف والنجلة والنجوم والانضباط وتقدير الواجب والإيمان بالحق والقتال عن عقيدة. وقد قيل عن المقاتل المرابل:

«وكان لهم في قتالهم شدة وجدل، ليس لغبرهم، فهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف». ويقول المترى أيضًا: «مع ما ظهر لأبطال المسلمين ومشايخ صناعة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس، والطعنات التي تنظم الكلا فكان لهم بسبب ذلك ناموس ورعى في قلوب المتنامين لقتالهم(1).» وبذلك كان المقاتل المرابل مقاتلاً لا يظهر والسرب هو الإسلام وعقيدته العسكرية.

ب- التدريب على القتال: وهو من أهم عناصر كفاءة الجيوش في القتال، وقد عرفنا أن أعمال الفروسية شرط أساسي في أعمال الرباط، وأن الدولتين المرابط والموحدية كانتا حريصتين على تدريب قواتهما بصورة مستمرة، وعرفنا أيضًا أن "عبد المؤمن بن علي" أعد بركة لتدريب الطلاب على السباحة وأعمال الفروسية وكان يشرف عليها بنفسه، وبذلك فقد توافرت الكفاءات القتالية العالية لكل أفراد الجيش قادة وجنودًا. وجعلهم على درجة عالية من الاستعداد لقتال الفوري، وقد ترتبت على هذا التدريب تقليل خسائر الجيش في الأرواح والمعدات، ذلك لأن

(1) نفح الطببج، ج (2).
الجندى المدرب جيدًا أقل تعرضًا للإصابة من زميله ناقص التدريب، ومن الأقوال المألوفة في هذا الصدد أن العرق في التدريب يوفر الدم في المعركة. وكانت موضوعات التدريب تشمل: تقوية الأجسام بتعليم السباحة وركوب الخيل والسياق في الجري، والسباق بين الفرسان على الخيل أو الأمهات والصاعقة ورفع الأثقال إلى غير ذلك من ألوان التربة الدينية والرياضية التي تبني الجسم القوي السليم.

وشمل التدريب أيضًا، التدريب على السلاح والرماية بالقوس والنواص بالسهام والطرد بالرمي والحرية والضرب بالسيف، وهي أسلحة القتال المروعة في ذلك الوقت، وقد عرفنا سابقا أن الخليفة الموحد كان يحرص على مشاهدة هذا التدريب كل عام في حضرة أوكار الدولة وتمثل الحروب مثلاً حتي بين يديه.

- الانضباط ومراعاة التقاليد العسكرية: يعرف الانضباط في علم النفس العسكري بأنه حالة العقلية النفسية ومقدرة التدريب التي تجعل الطاعة والسلوك السليم أمورًا غريبة في جميع الظروف (1)، وهو ما يسمى أحياناً "الضبط والربط" وأن الانضباط شيء يمكن تنميته في العقل عن طريق التدريب ويتجلى في الطاعة والسلوك السليم بصورة غريبة أو تلقائية (2)، ويمكن أن توضع ذلك بصورة أوضح للانضباط، فنقول إن الطاعة ليست هي كل محتويات الانضباط، وما هي إلا جزء منه، وإن الانضباط الحق لا يكتمل إلا إذا فعل المرء ما يعرف أو يعتقد أنه صحيح في غياب الأوامر أو الرقابة وأن يحافظ على الطاعة والسلوك السليم في جميع الظروف، وفي ظل العوامل والمؤثرات والضغوط المختلفة وهذا ما يعبر عنه بأن تكون الطاعة والسلوك السليم أمورًا غريبة في جميع الظروف.

وقد أجمع القادة العسكريون وعلماء النفس على أن ذلك النوع من الانضباط الذي يقوم على الطاعة والسلوك السليم حتى في غياب الأوامر وبدون الحاجة إلى رقيب، وفي جميع الظروف هو الانضباط الذي يجب أن يتحلى رجال العسكرية في الحروب الحديثة (3). بين

(1) مدخل إلى العقلية والاستراتيجية. ص (234).
(2) المصدر السابق ونفس الصفحات.
(3)
وبنا على ما تقدم نستطيع أن نقول إذن: ما هي أسس بناء الانضباط في جيشه المرتبطين والموحدين؟

الواقع إن منهج الإسلام في التربية السلوكيّة الذي يلزم به المرتبطون والموحدون قد غرس في المجاهدين منهم صفة (الانضباط الذاتي) الذي يدفعه إلى الطاعة والسلوك السليم بصورة غريزية وبلا رقابة من أحد وفي كل الظروف. فإن كانت النظم الموضوعة في أرقى جيشه العالم تعتمد في غرس الانضباط في النفوس على دوافع سياسية أو مادية أو قهر السلطة أو التخويف من العقاب، فإن دوافع الإسلام أكثر عمقاً وأقوى أثرًا وأسمى هدفًا لأن جاذرها تثبت في التكوين النفسي والاجتماعي السليم، وترسخ في وجدان الإنسان عن اقتناع وإيمان، وقد قام الانضباط في منهج الإسلام الذي يدين به المرتبطون والموحدون على الأساس الذي درجوا عليها في مرحلة الرباط التي أسس لها "ابن ياسين" الفقه والمريبي، ومن هذه الأساليب:

1- اهتمام المرتبطين والموحدين بتوفير الحرية والكرامة الإنسانية للجندي باعتبارها من أهم المعايير التي تزيد من فاعلية الجند فهي قضايا نفس الفرد والمجتمع. فإن الذين يساقون لا يمكنهم يومًا من الأيام أن يكونوا قادة فكر، أو قواد جيشه أو أئمة ودعاة.

2- تنمية القناع الروائي الذي يدفع بالجندي إلى أداء واجبه على أكمل وجه معتقدًا على قوة ذاتية داخل نفسه لا على قوة أو سلطة خارجية، فتنتفى من حساب الجندي المسلم الحاجة إلى رقابة أحد عليه وتدفعه إلى أن يرعى الله في عمله.

3- بناء الجندي المرتبط والموحد على تقديير المسؤولية والإخلاص في العمل مما دفع به إلى إتقان عمله على أكمل وجه دون انتظار مكافأة من أحد أو ثناء عليه.

4- التدريب العملي على الانضباط كما علمنا في نظام الرباط قد أدى إلى ترجمة المنهج إلى سلوك عملي حتى أصبح الانضباط سمحًا ومملكة وعادة.

5- كما أن ربط هذه التقاليد العسكرية بتوجيهات الإسلام يؤدي بالجندي إلى الاقتناع بها وبأهدافها ويعمل قوة دافعة على الالتزام بها.
و- وكذلك ربطها بالأخلاق الفاضلة التي ينادي بها الإسلام والتي تتخلى بها جند المراقبين والمحذدين جعلهم أهلاً للمكانة العليا بين الناس وأهلاً للأستثمار المؤزر على أعدادهم، فشتان قوم يحاربون الله، وأخرون يحاربون من أجل مطامع الدنيا، ويقول ابن جنون عن المراقبين: (كانت لنونة أهل ديناه ونية صادقة خالصة، وصحة مذهبة، ملكوا الأندلس من بلال الأفنجر إلى البحر الغربي المعطط، ومن مدينة بجاية من بلاد العدو، إلى جبال الذهب من بلاد السودان لم يجر في عملهم طوال أيامهم رسم مكروه، ولا معونة ولا خراج في مادية ولا في حاضرة وخطب لهم على أزيد من ألفي م Nicar ...)(1).

د- الروح المعنوية: وتعرف الروح المعنوية في علم النفس بأنها هي: (الخالة العقلية للفرد في وقت معين، وتتح تأثير ظروف معينة، فأشباح يكون الفرد شجاعًا قويًا متماثلًا بالحماسة تحت تأثير ظروف معينة وفي وقت آخر وتتح ظروف أخرى تتجه متدرجًا متغيرًا فافقد النشاط، فحالة الفرد العقلية التي تتحرك - في هذا الوقت أو ذلك- إلى السلوك المتنم بالقوة أو الضعف، أو بالسعادة أو بالحزن تسمى "الروح المعنوية").(2)

وتعد الروح المعنوية العالية من أهم عوامل النصر في الحرب إذ هي الباعت الأساسي لإرادة القتال وهي مستودع القوة والقدرة على مواجهة العدو ومشاق المعركة وأهمها، والتصميم على إحراز النصر مما كانت التضحيات.

ويحتل العامل المعنوي مكانًا هامًا في التخطيط الاستراتيجي في كل الجيوش إذ هو العامل الذي يحكم إصدار القرار ببدء العمليات العسكرية أو تأجيلها، لذا نرى "تدمير الروح المعنوية للعدو" من أهم الأهداف الاستراتيجية التي تتسع الجيوش المتصارعة إلى تحقيقها، فتضع الخطة للضربات التي تستهدف تدمير المعنوية سواء بأعمال القتال أو الحرب النفسية. فما ترى كيف كانت الروح المعنوية لدى جيش المراقبين والمحذدين؟

ما لا شك فيه أن هائين الدولتين كلاهما تضطرم بروح معنوية عالية غرستها فيهم عقيدة الإسلام التي يدينون بها. إذ يعتقد الإسلام في بناء الروح المعنوية على

(1) روض الفراتي، ص (18)، والاستقصاء للسلادي، ج (1) ص (128).
(2) مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية ... ص (252).
أسس قوية منها: تنمية الاتجاهات النفسية الصحية للأفراد، وعروس عقيدة القتال
غرسًا يقوم على النهج العملي والسلوكي - كما عرفنا - في رباط "ابن ياسين" 
ورابطة "اليهودي ابن بومرداس"، فكل منهما كانت أكاديمية عسكرية تعني بقصور
روح الجهاد في نفس مريديها وتباعها.

وتعتمد الروح المعنية أيضًا على عدالة القضية التي يدافعون من أجلها، وتنمية
الإحساس بالخطر المحنك بالأمة من أعدائها، والاعتماد على الثقة بالنفس وبالفائدة
وبالإضافة إلى الشعورة المعنية قبل الحرب وخلالها، ومن ثم رفع المعونات بأعمال
القتال.

وقد ظهرت الروح المعنية واضحة جلية منذ أن اندفعت جيوش المرابطين من
رباط السنغال متوجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة (1) فرع "ابن ياسين" فرقة
العسكرية التي يبدو أنها كانت مركبة من المشاة فحسب عرضًا يقصد به إذκاء
الحماسة (2) في شعورهم ثم خططهم قائلًا: (قد أصلح الله وهداك إلى صراط
مسيئم، فوجب عليك أن تشركوا تعصمه وتأمروا بالمعروف وتنعوا على المنكر،
وتجاهدوا في الله حق جهاده). أخرجوا على بركة الله تعالى وآمنوا قومكم فإن
تابوا وأمروا ورجعوا إلى الحق فدخلوا سبيلهم وإن تمادوا في غيهم استعنا بالله
وجاهدناهم (3). وإذا كان "عبد الله بن ياسين" هو صاحب الفضل الأول في بعث
المرابطين وإذكاء روحه المعنية العالية فإن "يوسف بن تاشفين" صاحب الفضل
الأول أيضًا في تنظيم هذه الطاقة وتسييرها في معركة الجهاد.

ففي معركة الزلاقة وقبل الانتحام جمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم
ويدركهم بالصبر والثبات، فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد
واستهلال الشهادة ما سر يوسف، ثم استعمر جنده على حسن الرقة فرأى منهم
ما يسره فقال للمعتقد: "هلما جتنا له من الجهاد وقصد العدو (4)، وحرص
المرابطون على رفع معونات جندهم فخصصوا للعسكر قضاة يقضون بين الجندة

(1) قيم دولة المرابطين، ص (2). (2) الجامعة البوسنية، ص (3، 4، 5، 6).
(3) ابن أبي رع: روض الفاطم، ص (79). (4) نفح الطيب، ج (2) ص (291، 292، 293)
ويحضونهم على الجهاد، ويرمونهم في الصلاة(1)، وبهذة الروح العالية كان للموتون شدة وبأس ليس لغيرهم وبذلك ملكوا الأرض(2).
والمرابطون يؤمنون إيماناً شديداً بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها عن عقيدة واضحة تدفعهم إلى الاستماعات من أجلها. ومن أقوال "يوسف بن تاشفينyen في إصراره على حرب النصارى وحرصه على استعادة أرض الأندلس كلهما من أبدي الروم عندما لاحظ استكشاف الطرقات (ولان عشت لاعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طويل هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأمثالها عليهم - يعني الروم - خليلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، إنا هم أحدهم فرس يرهبه ويسفره، أو سلاح يستجده، أو صريح يلي دعوته(3).
وللذكر في التاريخ العسكري لدولتي المرابطين والموحدين يجد هذه الروح المعنوية عالية سواء عند الإعداد للقتال أو أثناء سير القتال كما عرفنا عند الحديث عن معركتي: الولادة المرابطية والأرك الموحدية، وما قام به القواد لإذاعة روح الجهاد في جنودهم.

خامساً: نمط القيادة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين:

يحدد علماء النفس للقيادة العسكرية مطثين: الأول القيادة الإرغامية وتسمى أيضاً (بالقيادة المطلقة أو القيادة المستبدة)، أما الثاني فهو: القيادة الإقناعية(4).
والقيادة الإرغامية هي القيادة التي يرغم بها القائد مروسيه على طاعته معتدلاً على سلطته ومركزه وقوته، أما القيادة الإقناعية فهي القيادة التي يحصل بها القائد على طاعة مروسيه وهم مقتنعون بأمره، ومن موارد القيادة الإرغامية أنها قد تؤدي إلى توليد شعور عدائي نحو القائد وإلى ضعف كفاءة المؤسسين في تحقيق الأهداف وإنجاز الأعمال التي أرغموا على تحقيقها، وقد تؤدى إلى تنشى روح السلبية عند المرؤوسين والاكتفى بالعمل الذي يجبنهم عقاب القائد، كما أنها

---
(1) الدخيلة- ابن بسام قسم (4) ص (125).
(2) البكري- المغرب، ص (166).
(3) المركشي- المعجم، ص (226).
(4) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص (289) وما بعدها.
تؤدي إلى محاولة الهرب من العمل في غيابه، وعلى العكس من ذلك فإن القيادة الإقتناعية تؤدي إلى توليد شعور بالار難しい والرضا عند المسؤولين وبالتالي تؤدي إلى ارتفاع روحهم المعنوية وتوليد روح الحفظ والإخلاص للقيادة، وتؤدي إلى توفير الكفاءة العالية لدى المسؤولين في تحقيق الأهداف التي يوجههم إليها، وإلى خلق روح الإيجابية فيهم. إذن كيف كان نمط القيادة في هاتين الدولتين؟

إن القيادة الإقتناعية كانت النمط السائد في دولتي المؤرخين والموفدين غالبًا، فقد كان "أبو يوسف بن تاسفين" غير مستبد برأيه، بل كان يلجأ دائمًا إلى الاستشارة والاهتداء برأوا قوادته ويركزهم معه في كل عمل يقوم به، واستطاع بقدره وليقته أن يحقق مؤسساته بقبول قرااراته ويدعوه ذلك من خلال مشاورته وتفاهمه معهم عند نجدة ملوك الطفائف كما عرفنا سابقًا، وكذلك عند الاستياء على الجزيرة الخضراء، فقد استمع إلى رأى كاتبه "عبد الرحمن بن أسامة" وإلى غيره ثم اتخذ قراره بعد ذلك، وظهرت تلك الروح في أبلغ صورة لها في إعداد جيوشه الأربعة للاستيلاء على الأندلس من أبدي ملوك الطفائف، فقد اتع قواته الأربعة بسلامة خطته وبحضرة قراره فانطلق مين غاباتها مصممة على تحقيقها والنظر بها. وسار خلفه على نهج نتخذ من نمط القيادة الإقتناعية سبلاً لهم، وما كان نصر المؤرخين في موقف أقليش الشهرة إلا نتيجة لهذه القيادة الإقتناعية، فلو كان الأمير "أبو يوسف" مستبدًا بقيادة لما استمع إلى نصيحة قاديه المقربين، ولهما ثبت أمام النصارى في الوقت الذي كان يريد الارتداد والإحجام عن لقائهم، ولكنه اقتنع برأى قواته وأصدر قراره بلقاء الأعداء. فكان ذلك النصر العظيم الذي أعاد أمجاد المسلمين بعد نصر الزلاقة.

وقد سار خلفاء الدولة الموحدة على هذا النمط من القيادة الإقتناعية فكان "عبد المؤمن بن علي" يتمتع بحب مؤسسائه وطاعته له، فحقق بهذه الروح العالية انتصاراته الباهية ضد خصومه بل كثيرًا ما شاهدنا بعض القدام Faction في أواخر دولة المؤرخين يهرون إلى تاركين أماكهم في جيش المؤرخين حسبا في أسلوب قواته الإستشارة، وقد استطاع بقواده هؤلاء وجده أن يقضي على دولة الممدين وهي في ربعان شبابها ويقيم ملكه الواسع على أنقاذها.
ولكن يبدو أن هذه الروح الاستكشافية قد اختفت في قيادة الموحدين في كثير من الأحيان، وأظهر مثال لذلك قيادة البني يعقوب يوسف الذي استمر برأيه والجاء إلى النمط الآخر من القيادة وهو القيادة الاستبدادية، فقد حب مرؤوسه له مما أدى إلى انخفاض روحهم المعنوية وتوليد شعور عدائي ضده من أغلب القادة، كما تفشى روح السلبية بينهم، وقد ظهرت آثار ذلك في فشله الذريع في غزو وبيزة وأصابته بكارثة عنيفة راح ضحيتها في موقع «شنترين»، أما إنه النصر الفي يوفق إلى نصره الباهز في موقع الأرك إلا بفضل حزمه ونصح قادته والتشام بروح القيادة الإقناعية.

ساطس: نظرية الأمة المحاربة («إعداد الدولة للحرب»)

لقد اتفق الاستراتيجيون على أن إعداد القوات المسلحة للحرب ما هو إلا جانب واحد من عمل ضخم يحتوي - بالإضافة إليه - على جوانب أخرى مثل إعادة اقتصاد الدولة للحرب، وإعداد الشعب معنويًا ومبادئ للحرب، وإعداد أراضي الدولة للحرب، وهذا العمل الضخم الذي يطلق عليه «إعداد الدولة للحرب» إذا هو عمل من أعمال الاستراتيجية العليا أو الشاملة(1)، وهذا العمل واسع المدى يشمل كل ما يمنح الدولة القدرة على ردع العدو فإن أي خطة، وتحقيق النصر في أقل وقت ممكن والصعود لحرب طويلة الأمد، والتقليل من الخسائر التي تسببت ضريات العدو، والمحافظة على مستوى عال من الروح المعنوية وعلى إرادة القتال والصمود لدى الشعب، أو أن عمل يتطلب حشد كل القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية والعسكرية في تخطيط متسق لتحقيق غاية قومية أو هدف استراتيجي واحد(2).

وإذا كانت نظرية إعداد الدولة للحرب من نظريات العصر الحديث، فإن دولتي المرابطين والموحدين قد حققتاها على أعلى مستوى من الكفاءة والقدرة بما جعلهما

(1) مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، ص (34).
(2) الاستراتيجية العليا أو الكبرى أو الشاملة: هي نسيج تتوجيه جميع إمكانات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، إذ نحو تحقيق الغاية السياسية للحرب، ومعنى ذلك أن القوات المسلحة ليست إلا أداة واحدة من أدوات الاستراتيجية العليا لتحقيق الأهداف العليا للدولة - مدخل إلى العقيدة، ص (434).
يُفوقان إعداد الدول الحديثة في هذا المجال، ولم لا؟ وهاتان الدولتان تدينان بالعقيدة الإسلامية التي جعلت الجهاد في سبيل الله أشرف غاية للأمة الإسلامية، وهذا الجهاد لا ينحصر في إطار قتال الأعداء بالنفس، بل يمتد ليشمل كل الجوانب الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والمعنوية، بل قد جاء الجهاد بالمال مقدماً على الجهاد بالنفس لاهتميته كما في قوله تعالى: «وَجَهَدْنَا بَأَمَا كَلَّمْنَا وَأَنْفَسَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [النور: 41]. وقوله تعالى: «إِنَّ الْدِّينَ أَنْ تَعَارَفَا وَجَاهَدَا بِأَمْوَاهُ وَأَنْفَسَهُ وَأَنْفَسُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» [البقرة: 72]. وقد عرفنا سابقاً دور الرابط في الدولتين في ترتبة النفس على الفضائل ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ضرب من ضروب الجهاد في سبيل الله بل هو الجهاد الأكبر كما سماه الرسول ﷺ، فإذا أضيفت هذه الجوانب إلى جانب مجاهادة الأعداء وإعداد القوة لردع عدوانهم ولفدائع عن الأمة والشرف والعرض والممال والذوذ عن القيادة ونشر الدعوة الإسلامية، كل هذا بجانب الرابطة والحرية والحنان واليقظة، يكون الإسلام قد وضع نظرية إعداد الدولة للحروب بصورة تفوق الأمم المعاصرة، والمنتصف لسجلات التاريخ العسكري لهاتين الدولتين، يجد حافلاً بالأشياء التي تبرهن على القيمة العظمى للكيان العسكري الذي تعلته به جيوش هاتين الدولتين فكثرًا ما خرجت جيوشهما لمحاربة جحافل النصارى التي توثبت عليها من كل صوب وحيد، ومع ذلك تعزز جحافل النصارى في التغلب عليها وقهرها لأن تلك الأمهات المسلحة في المغرب والأندلس تمثل كيانًا عسكريًا وهو ما لا تملكه دول النصارى مجتمعة، وقد تحدث كثير من القادة عن أهمية الكيان العسكري للأمة وفي ذلك يقول الجنرال الفينتامي «جاب»: (إن القاعدة العريضة لوجود الدولة هي الأمة المسلحة، ويغير هذه الأمة المسلحة لن يكون هناك أي كيان معهما بل حجم القوات وإمكاناتها) وقول الجنرال «ديجول» في هذا المضموم أيضًا: (كلما عدننا إلى دروس التاريخ الحربي البعيدة أو القريبة نجد أن الشعوب أو الدول التي تفقد كيانها العسكري تخسر الحرب قبل أن تدخل أيّة معركة، بل قبل أن تطلق رصاصتها واحدة).
هذا فهل يحق لنا بعد ذلك أن ننخر بياتين الدولتين اللتين أقامتا كيانًا عسكريًا صلبًا تحتت عليه دوق سبب الحملات التصزعية الزلزل، وبسبب بذلك كل المدارس العسكرية الحديثة؟

وإن كان ثمة فارق بين الكيان العسكري لدولة المرابطين ودولة الموحدين فلنضح من خلال أنظمة الحكم في كلا الدولتين، فقد كانت نظم الحكم المرابطية يغطي على الطبع العسكري الخالص في أغلب تاريخها، كما كان معظم حكام الولايات من قادة الجيش البارزين أمثال: «سير بن أبي بكر الم]()، و«محمد بن الحاج»، و«حيى بن غزية» وغيرهم كثيرون كانوا من أكابر القادة، وقد عقبت معهم كل إمكانيات الدولة وطاقاتهم نحو غاية واحدة وهي غاية الجهاد في سبيل الله، بل في سبيل هذه الغاية تنقلت الدولة في أطرافا الثلاثة: من الطور الصحراوي إلى الطور الغربي وآخرًا إلى الطور الأندلسي الذي باشرت فيه نشاطها الحربية في الأندلس، والذي انتشأ أثناءه إلى جنوب غرب أوروبا محافظة على كيانها العسكري، وقد شاهدنا فاعلية هذا الكيان في تحقيق عدة انتصارات في تلك الجبهة ساقيًا الذكر. ثم أضف إلى هذا الصراع صراع آخر استنفد طاقات تلك الدولة الفتية إلا وهو صراعهم مع الموحدين مما عجل بإضعافها وموتتها قبل أوانها.

أما الموحدون فعلى الرغم من أنهم كانت تحدوا مثل هذه الروح التي كانت تحدو المرابطين في محاربة الإسبان والذوين عن شبه الجزيرة الأندلسية فإنهم لم يحظروا مثلما أحزر المرابطون من التوافق في هذا الصدد وذلك راجع إلى نظم دولة الموحدين التي كانت أميل إلى الطابع المدني منها إلى الطابع العسكري، ولم يحدث هذا بطبيعته الحال إلا بعد رحيل الرجل الأول من خلفاء الموحدين إذ مال من أتي بعدهم إلى الشرف والنعم وهذا بلا شك هو أفقه الدولة على مدى العصور، لذا نراه لم يحكموا بناء الكيان العسكري للأمة كما أحكم بناء المرابطون، فلإ عجب أن يعبر الموحدون بجوهم الجرارة مرازا إلى الأندلس مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ومع ذلك لم يحرزوا توقفًا في حملاتهم، وقد عرفنا سابقًا كيف فشل الخليفة «أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن»
في حملاته ضد القشتاليين في معركتي "وبدة" و"شتيرين" ولم يذكر لهم من
الانتصارات الخالدة سوى انتصار واحد حققه الخليفة المنصور في معركة الأرك،
على أن هذا النصر العظيم لم يلبث أن محته آثار موقعة العقاب المشروعة والتي
أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على جيوش الموحدين التي كانت ضرية
قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب.

فقد كانت تعتبر الجيوش الموحدية على الرغم من ضخامتها عدة عيوب أثرت
في كيانها العسكري مما عرضها للهزائم أحيانًا ومن هذه العيوب:

أ- اضطراب القيادة وفوضويتها، فإن لم تكن لهم بعد "عبد المؤمن بن علي"
الخليفة الأول قيادة حاسمة، فقد كان اختيار القيادة يتوقف على الظروف الطارئة،
ويتم غالبًا قبل وقوع الغزو أو المعركة المرتقبة، هذا بالإضافة إلى نقص القيادة
الموحدة، فقد كانت قيادة استبادية وهذا ما عرف عن الخليفة "أبي يعقوب
يوسف" حيث استأثر بالقيادة ولم يسمح لنصح الخبراء من قادته مما انعكس أثره
على جنوده فاصبحوا سلبين وغير متعاونين معه، لذا فشل في معظم غزواته
وحوه، أما فوضوية القيادة وعدم دقتها فقد عرفناها في موقعة "وبدة" في
اللحظة الحربية التي أوسك فيها الأندلسيون أن ينهزموا وقد زحلوا عن مواقعهم
والمعركة على أشدتها نرى الخليفة يجلس داخل قيته الحمراء مع الطلبة ينشقهم في
بعض المسائل الثقافية(1) كما عرفنا سابقاً.

ب- وعلى الرغم من كثرة حصول الموحدين إلا أنها كانت مصابة بداء التفكك
وعدم التناسق بين مختلف العناصر المحاربة، وما يثبت ذلك وجود بعض الفصائل
العربية الذين حرصت الخلافة الموحدية على حشدهم في الجيش الموحدى حيث
ساهموا بقسم وافر في نتيجة هذا التفكك إذ رأيناهم يضنون بتعاونهم ويحممون
على القتال في الساعات الحربية، وقد تسبب هذا الإحجام في شلل حركة الجيش
 الموحدى ونال من قدرته وقواته المعنوية.

(1) عنان - عصر المرابطين والموحدين، ج (2) ص (85).
قد كان لاختلال مراكز التموين وإمدادها للجيوش الموحدة أثره السيء في عدم كفاية هذه الجيوش وعدم القدرة على الصمود والثبات كما عرفنا. يبدو أن هذا كان راجعًا إلى امتداد خطوط التموين إلى مسافات بعيدة من مصادرها في المغرب الأقصى إلى الأندلس عبر المضيق، وفما يأسف له أن هذا الخلل ظل موجودًا على الرغم من إقامة قواعد التموين الهائلة فيما بين "مسلا وسبته" ولا سيما في وادي "مسب" فإن الجيوش الموحدية كانت حينها تعبر إلى الأندلس وتتوغل في أراضي العدو تشعر بنقص في تموينها، وكان هذا بالتالي يؤدي إلى انشغال معظم الجند بالقت، وهذه المثالب وإن كانت قد تركت آثارًا على الكيان العسكري للموحدين إلا أنها لم تمح ترابط الجمعي والتوافق في كيانهم العسكري. فهو موجود وإن كان أقل من الكيان العسكري للمرابطين فاعلية وتأثيرًا.
خاتمة البحث
خاتمة البحث

أما عن نتائج البحث فهي دراسة عسكرية فنية للجيش المرابطين والموحدين بالغرب والأندلس مستنودة إلى الدراسة الاستراتيجية ودراسة التكتيكية في خطوط ونظريات حربية أُجادت بها قريحة قواد هذه الجيوش، وكذلك الوضع على طرائقهم وساليب قتالهم ونظمهم الحربية وكيفية إدارتهم للمعارك، وكيف تمثلت قيادة تلك الجيوش ببراعة فائقة في اختيار مبادئ المعارك وكذلك ابرعهم في إقامة التحصينات العسكرية وعمارتها الحربية من إقامة الحصون والقلاع والأسوار والأبواب ذات المرافق المتعددة. وقد خطا البحث نحو تحقيق غاياته وأهدافه خطوات واسعة ظهرت من خلالها الحقائق والنتائج منبثة في تناياه وسُوِف.

إلى ذلك، كشف البحث عن نشأة الجيوش وتنظيمها كما كشف عن أطوارها المختلفة التي سُرت بها الجيش المرابطى وكذلك جيش الموحدين، وقد تُميزت تلك الأطوار بلاءمتها مع طبيعة كل مرحلة من أبحاث كل من الجيشين إذ تناسب والهدف الاستراتيجي الذي وضع لها، فقد كان هدف "ابن بابسم" فشيهم المرابطين وداعيهم الروحي توحيد قبائل صناعة الكبرى في وحدة تستقر بها وميادينه، وقد حقق ذلك في ثلاث مراحل متتابعة بدأها توحيد أهل إسماعيل من قبائل صناعة الجنوب في الصحراء، ثم كان الهدف الاستراتيجي الثاني توحيد صناعة الكبرى بانضمام قبائل صناعة الشمال إلى صناعة الجنوب، ثم زحفت جميع صناعة الكبرى نحو الأندلس ل لتحقيق الهدف الثالث وهو تكوين جيش الدولة الإسلامية الكبرى، والذي تُدلى لحملات غزارة، وقد تُميز ذلك الجيش بصورة مميزات كان أبرزها تلك الروح الجديدة التي سرت في رجاله حيث عمل "ابن بابسم" على صهر العصبية القبلية في بوتقة واحدة هو بوتقة الإسلام وجمع قلوبهم جميعًا نحو هدف واحد هو الجهاد في سبيل الله.
2- أما عن تطور الجيوش الموحدة فقد تطورت هي أيضًا في ثلاث مراحل كما ذكرنا في البحث كان أبرزها وأهمها مرحلة حرب الاتفاق والذي أعطانا صورة واضحة للمرحلة من أهم مراحل حرب الدولتين فهم يمثل مرحلة نهاية لدولة المرابطين ومرحلة بداية لدولة الموحدين وهي مرحلة مليئة بالأحداث كما عرفنا من خلال البحث كما أنها تستحق أن يفرد لها بحث مستقل.

3- وتحدث البحث عن شروط التجنيد في هذه الجيوش وأظهر أن الطور الأول في كل من الجيشين لم يكن له شروط معينة في التجنيد بقدر ما كان يهدف إلى جذب المقاتلين والمرابطين للانضمام إلى كل منهما، وكان نظام التجنيد في تلك الفترة يقوم على الإلزام الخلق والتطوع الاختياري حيث يدفع الرجل للانضمام للجيش بدافع حبه لثقيبه وتأثيره تعليمه ويهديه، ثم ظهر التجنيد الإجباري في النظام العسكري بعد ذلك إذ تعرضت الجيوش وتطورت وتحولت الدعوة الدينية إلى دولة وملك على يدي كل من الزعيمين "يוסף بن تاشيف" المرابط و"عبدالله بن علي" الموحد، وقد وضعت الدعاوى وأخذت الدولتين بنظام الجندية وفق المذهب المالكي عند المرابطين و"ابن تومارت" وتعليمه عند الموحدين.

4- وكشف البحث عن صفوف الجيوش المرابطية والموحدية التي تكونت منها تلك الجيوش وكانت تتكون من: العبيد السود الذين كانوا يلبسون من السواد ويشكلون فرق الحرس الخاص. ثم فرق من الجنرال النصارى الإسبان الذين استعان بهم المرابطون في ضبط أمن بلاد المغرب وحراسة قلائله وحصنهم، وكان منهم أيضًا فرق للحرس الخاص بالمملوك والأمراء. ثم غرق من جند الأندلس الذين اعتمدوا عليهم القيادة المرابطة الموحدية أغلبهم استعان عليهم القيادة المرابطة الموحدية أغلبهم استعان في حروبهم يساهمون لجند الأندلس بقتل النصارى ومقتلههم وطرائفهم في القتال، ومن هنا حرصت القيادة المرابطة على حشد فرق الأندلس في مقدمة جيوشهم لهذا الهدف بالإضافة إلى فرق الجند الأصلية التي تتكون من قبائل المسلمين كجندية وولِتونة ومسافرة وملتقة ولهي القبائل التي لها السيادة والرتب العليا في جيوش المرابطين. أما سائر الطبقات من غير القبائل الحاكمة فيشملون منهم نظرية وضيعة ويطالع عليهم الحش والعيد.
وقد شكلت أغلب هذه الأصناف من الجند جيوش الموحدين فيما بعد وأثبت البحث أن هناك طبقتين من الجند قد دخلتا جيوش الموحدين فيما بعد هما: الجند العربي والجند الغز، وقد أبان البحث عن كيفية دخولهما في الجيوش وكيف استعانت الخلافة الموحدة بهما.

5- وتناول البحث الحديث عن تشكيكات جيوش المرابطين والموحدين وأثبت أن الجيش الموحد كان أكثر تأثراً بالمؤثرات الأندلسية من جيش المرابطين، وإن لم يكن مجرد ناقل فحسب بل عدل في تلك النظم بما يلائم طبيعة دولة الموحدين، فظهر للجيش تشكيكات خاصة به تميزها عن بقية تشكيكات الجيوش المعاصرة تجمع بين الطابع الديني الذي قامت عليه الدولة والطابع الحضري المتاثر بالحضارة الأندلسية وأبهة الملك.

6- وعالج البحث أيضاً موضوع الشؤون الإدارية في الجيوش المرابطية والموحدة التي تتناول قضية الإعجاب والإطعام والإسكان والدعاوى المشرفة على هذه الجيوش، وأثبت البحث أن عطاء الجند الموحد كان يفوق بكثير عطاء الجند المرابطي، وربما كان ذلك هدفاً مقصوداً من قبل الموحدين لاستقطاب جند المرابطين إليهم وخاصة في المرحلة الانتقالية، وظهر لنا أيضاً كثرة الأنظمة والدعاوى المشرفة على شؤون الجند الموحد كدوام التميز وصاحب العلامات وصاحب الإطعام وصاحب الرسائل، وكاتب الجيش، ومنصب وزير استقبال جند النصارى في أخريات هذه الدولة، كما تبين أيضاً من البحث اهتمام هذه الجيوش باستخدام الألوية والرابطة وشالات الملك والاعتداء بزى الجند وهيئةهم في السلم والحدب، واستعمال الطبول التي كانوا يصبحونها في معاركهم، ولاحظنا اهتمامهم باستعراض الجند وإقامة التمرينات والتدريبات الحربية المستمرة.

7- وأثبت البحث إجادة المرابطين والموحدين لاستخدام وسائل الدفاع الثابتة من إقامة الحصون والقلاع والأسوار، وما بث ذلك إحكامهم للاحصتيات والنظم الدفاعية في المدن الأندلسية التي تميزت بكثرة أبراجها وأسوارها، وقد يرجع إلى المرابطين والموحدين الفضل في ابتكار أنواع جديدة من الأبراج والأسوار والأبواب.
ذات المراقب المعقدة، كالبرج المرعب والمئذن والأبراج المؤلفة من اثني عشر ضلعًا، ويرجع إلى الموحدين الغالب في إبنك البرج البران الفذ يقام على الأسوار الخارجية ليدعمها ويقويها، وكذلك إنشاء الأبواب ذات المراقب، فقد ابتكر المراقبون أبوابًا ذات مرفقات ثم عقد الموحدون من نظام هذه الأبواب فانشأوا أبواب مزدوجة وأخرى ذات ثلاثة مرفقات، ويلاحظ في عمارة هذه التحصينات الدفاعية مدى تأثرها بالعمارة الحربية الأندلسية فجاءت فريدة في نوعها وطرازها لأنها جمعت بين فن العمارة المغربي والأندلسي.

ويدى أن هذا النظام من التحصينات الدفاعية قد لجأ إليه المراقبون الموحدون لنفادي خطر المسلمين على المدن الأندلسية وضعفهم عليها وفقًا لمخططاتهم القومي في حركة الاسترداد.

وقد تبين من البحث مدى تفوق الموحدين على المراقبين في فن الحصار فكانت أمنع الحصون والأسوار تستعمل تحت ضربات آلاتهم المدمرة وقد ظهر ذلك في حصارهم لهران والمهدية بأفريقية ومرأكز عاصمة المماليك.

8- وقد أثبتنا مدى تمكن القيادة المراقبة والموحدة بحاسة استراتيجية قوية في اختيار أصلح المواقع لإقامة الخصون والقلاع عليها، وأخذنا لذلك مثالًا هو حصن المهدى ابن نورتين المعروف بحصن "تبلن"، كما تحدث البحث عن نظام الثغور والرباطات وأوضحنا أن المراقبون الموحدون أخذوا لهم ثغورًا ترابط فيها الجنود لردع أي عدوان خارجي على حدود المسلمين وقد ساعدتهم على ذلك امتثال رقعة الوطن المغربي والأندلسي على مساحة شاسعة من البحر هذا من جهة، ومن جهة أخرى اضطراب روح الجهاد في سبيل الله في نفوس هؤلاء المراقبين من رجالات الدولتين.

9- وإذا كانت مهمة الثغور هي الحفاظ على رقعة البلاد وعدم انتقاصها فإنه من المؤسف أنه حدود بلاد المسلمين بالأندلس قد انقشت واتخذت رقعتها مرتين مرة في عهد المراقبين وأخرى في نهاية دولة الموحدين، وتناولنا سقوط سرقتة قاعدة الغزير الأعلى كحالة من هذه الحالات واعتبرناها نقطة سوداء في حبيب الحياة العسكرية لدولة المراقبين.
11- لم يعد البحث أهمية الأساطيل البحرية لدولتنا الرابطين والموحدين
فالاصل فيها فصولاً قصيرة تحدث فيه عن نشأة تلك الأساطيل وتطورها وعن المعارك البحرية وأسلحتها وطرق الوقاية منها. وإن كانت هذه الأساطيل وحروبيها البحرية في حاجة إلى أن يفرد لها بحث مستقل.

12- وبعد إجراء دراسة مقارنة لأوضاع الجيشين الرابطين والموحدين خلص الباحث إلى أن هناك أوجه تشابه وتبان بين نظم هذين الجيشين، وظهر ذلك واضحًا من خلال دراسة مقارنة لمعركتين هامتين من معارك الرابطين والموحدين هما معركة الولاءة الرابطة والآخر الأرك الموحدة. وكشف الباحث عن الميزات والعيوب التي تنسب إلى كل منهما.
13- وناقش الباحث بعض آراء الكتاب والباحثين الذين تحدثوا عن طبيعة دولة
المرابطين ما بين مادح لها وقادح فيها. ورد على بعض آراء المستشرقين الذين
اشتدوا في الحكم على جند المرابطين.

هذا وأرجو من الله أن يكون البحث قد حقق أغراضه وأهدافه وأبان عن طبيعة
الحياة العسكرية في جناح أمننا الغربي، تلك العسكرية المهذبة بروح الإسلام
والمستقلة بعقيدته الجهاد الغزاة، وقد كانت تلك العقيدة هي السبق الأصلية التي
تحددت عليها حملات الصليبيين وجماعاتهم في جنوب غرب أوروبا، والله أطال
أن يتقبل مني هذا العمل وهو نعم المولى ونعم التصير.
الملافقة والوثائق
ملحق رقم (1)
قائمة بأسماء أمراء دولة المرابطين
1- الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي (774 هـ - 315 مم (447 هـ - 489 مم).
2- يحيى بن عمر الملتوني (448 هـ - 489 مم (447 هـ - 489 مم).
3- أبو بكير بن عمر الملتوني (448 هـ - 489 مم (447 هـ - 489 مم).
4- يوسف بن تاشفين (453 هـ - 611 مم (487 هـ - 527 مم).
5- علي بن يوسف بن تاشفين (505 هـ - 671 مم (537 هـ - 607 مم).
6- تاشفين بن علي بن يوسف (543 هـ - 611 مم (575 هـ - 643 مم).
7- إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف (540 هـ - 611 مم (572 هـ - 643 مم).
8- إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (541 هـ - 612 مم (573 هـ - 644 مم).

ملحق رقم (2)
قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين
1- عبد المؤمن بن علي (505 هـ - 1113 مم (558 هـ - 611 مم).
2- يوسف بن عبد المؤمن بن علي (508 هـ - 1114 مم (560 هـ - 615 مم).
3- يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (505 هـ - 1114 مم (559 هـ - 615 مم).

(1) روض القدر، ص (82)، ابن خلدون، ج (2)، الاستقصاء، ج (1) ص (101). ومن المعروف أن أبا بكير السلموني عليه يصف بن تاشفين ابنه يصف النجيش وتركه بالغرب بينما اتجه هو نحو النجيش الآخر إلى الصحراء لنشر الإسلام وعلاج بعض المشكلات به.
4- محمد الناصر بن يعقوب بن يوسف (595هـ-619هـ) (1213-1237).
5- يوسف الثاني بن محمد الناصر (611هـ - 624هـ) (1215-1237).
6- عبدالواحد المخلوف بن يوسف بن عبدالمؤمن (624هـ - 627هـ) (1226-1234).
7- أبو محمد عبد الله العاص بن منصور بن يوسف الأول (621هـ - 624هـ) (1224-1277).
8- المأمون بن منصور بن يوسف الأول (624هـ - 627هـ) (1226-1277).
9- عبدالواحد الرشد بن المأمون بن المنصور (632هـ - 642هـ) (1234-1252).
10- أبو الحسن علي السعد المتقدر بالله المأمون (642هـ - 648هـ) (1244-1254).
11- أبو حفص عمر المرتضى بن إسحاق بن يوسف الأول (646هـ - 650هـ) (1248-1266).
12- أبو العلا الواثق بالله بن محمد بن حفص بن عبدالمؤمن (665هـ - 676هـ) (1269-1280).

(1) ينظر أسماء أمراء المرابطين والموحدين في تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ج (1) ص (55-56) للدكتور أحمد السيد سليمان
هذه الوثائق منقولة من كتاب "عصر المراطبين والمهددين في المغرب والأندلس" 
القسم الأول والثاني - لـ محمد عبد الله عمان - قسم الوثائق والملاحظ الطبعة الأولى 
سنة 1964 م.

وثيقة مرابطية رقم (1)

رسالة

وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قادته وجنده عقب هزيمتهم أمام ابن رذم، "ألفونسو المحارب" في أراضي بلنسية

(منقولة عن المخطوطة رقم 538 الغزيري المحفوظ بـمكتبة الإسكوريال لوحدة 12 - 13 ب).

من أمير المسلمين وناصر الدين، أما بعد.

يا فرقة خبت سرايتها، وانكتست مارابرها، وطائفة انتفخ سحرها، وغاص على
حين مرة بحراها، فقد أن لنعم أن تفارقكم، وللآداب أن تظفر فما فارقكم، حين
ريكموها جلوا عارية وأصبحتم في أرحام عارها أمثالا سواسية، واعتقل المرعي
منكم بالهمل فما يتبين الأنصاق من الأكم، فاططتم لها رؤوس عماركم،
وقضيتم بالفسحة على سايركم. لا جرم أن قد ضرتم سمر الندى، والأحاديث
اللمعة بالغدابة والعشى، بما خامركم من الجبن والخوف، واستهواكم من لقاء عدوك
بالباب الأزور، لا تواجهون طرفة عين، ولا تعاطيون حمة حين، بل
تطلوبونهم في أمر هندي مريبا، وتتوجهونهم وراءكم ظهريا، والرماح نحوكم لم تشرع،
واخل لم تسرع، والنفس في حياض النتيجة لم تكع، فإنكم ثلة ذبائح وفرصة
أنابه قد تعموا في بوسكم، وناهضوكم بلبوسكم، وحاربوكم عاماما على إثر
عام، حتى أنكم، وتروككم أسلح من جبار، وأشرد من نعام.
فالآن حين ملأتهم أيديهم ستاعا، وواديهم سلمحا وكرعا، قد غزوه في
عقركم، وأذاوقكم وبال أمركم، فلذتم بالجدار، وتؤتم بالندامة والخسران.

281
يا بقایا بنی الأسفیر، وسجایا ذوات الندل والخفیر، أكرهتم زحافهم - وكتتم علم الله أضعافهم؟ أمي لكم بالمعذرة، وأین؟ وقد فرض الله الواحد منكم بالاثنين، فقال: "إِنَّكُنَّ مِنَّا مَائَةٌ صَابِرَةٌ يُغْلُبُوا مَائَاتٌ"، هذا، وكلكم العلي، وحلوتيكم الحياة الدنيا، ما شتتم من صارم، وطرف وحص وركايب وسوام، ونضاد وخيام.

في أسف للحق يدمجه الباطل، والخالى يبهره العاطل. لا بالخنفية تعرزتم، ولا إلى الحنينية وإلبة تخننكم. ليت شعري بما تلقتموها هندية واعتقلتموها سميرية خطة، وركبتهم جردًا سوابق، ولمكتموها مغارب ومشارق! ثوين فى غير عدادكم منتزين على أصدادكم، يؤدون الانواء إليكم حين أشرقتهم بهلوان، وإنتم فيها غرباء الوجه واليد والسنا، وصبركم عديد الحصى، ولست بالآثرين منهم حصى، بل شردهم قليل نفعها كثير تجاهها. فيا عجب لذهولكم، شيانكم وكهولكم، تأكلون عمرهم، ولا تصلون حمرها، وتذهبون بحلواتها، ولا تصورون على لأبيتها؟ أي بنى اللعيبة، وأعيار الهزيمة، إلى من بيرهكم النافذ، وبيركم الفارس الواحد:

إلى من بيرهكم النافذ؟
بما فضحت قومها غامد
فدرك فارس واحد
ضناناً لها حابث قاعد

ومن لرعاة الإبل بالجد المقبل؟ لقدما ما أذهبتم التالم والطوارف، وعجبا عجبًا من جذامى المطراف، وأئتم قد قدتحتم في ملكنا، وأئتم بانتشار سلكنا، فقولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم إلينا فيكم لاحظنا عملاً بصحرايكم، وظهروا الجزيرة من رحضاكم، بعد أن نسعكم عقابًا، ونحن أن لا تلووا على وجه وجبًا. فلأولم تحت عماكم، والوهن والفشل طي غايكم، لكن ما جلبتنا عليه من الأناة، وتوختنا قدماً من إيقاظ ذرى الملكات، يفمنا عن استيصالمكم،

وبحملنا على شحذ نصالكم.
فاستنروا يا بعث الهيجا، واستنروا بعد الرجا، واحذروا حلمًا أغضبتموه، ووادًا من الصبر أقضتموه، وتوقوا صدرًا أحرجتموه، وليست من أجمته أحرجتموه، وأيمن الله نذارًا لكم، وإذارًا لكم، لنوردن الفشار منكم من الزحف، ما عافاه من موارد الخلف، وللتجاوزنا السوط إلى السيف، ولنبدلن المعدة فيكم بالحيف، فليعلم المقدم المحج منكم عن الإقدام، أنه سلم من الحمام إلى الحمام، وتخليص مصرف الأمد الباسل إلى جذع مائل، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار، كما أن من أصيب منكم في حرب، أو أبلى بطعن أو ضرب، خلفنا في الأهل والولد، وبعناه الأثرة والكرامة يداً بيد، فاختاروا لأنفسكم وأعثبكم، وإنضموا ثوب الخزي عن رقبكم، والسلام على من حمى الإسلام.

كمل ما كتب به الفقيه الأديب، الكاتب البلغي الأريب ذو الوزاراتين أبو عبد الله ابن أبي الخصال عن أمير المسلمين.
رسالة

كتبت بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليش أعداء الله بقدرته (متفق على المخطوطة رقم 488 الغزيري المحفوظ بكتبة الإسكوريالي لوحدة 54).

- أطيار الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين، عماد الأئمة وعتاد الإسلام، السيد الأيام، الحميد المقام، كبير بالقدر، وظهيرى على الدهر، الذي أجعله بحقه، وأقر له سبقه، وأدام خلوه مؤيد الإدارة، مؤيد السعادة، مجرد النمو والزيادة. والحمد لله الجبار القهار، الذي شد الأزر، وأمد النصر، وأعطى الفلق عن قسر، ف Fulq

عنة يد الماطل، وفرض بين الحق والباطل، والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين أيامهم، ونصر بسيقه الإسلام، وغاظ به الكفار، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدباء. والله تعالى ينشع سعوذه، ويضمن مزده، وينصر جنوده بمه.

ولما وضعني أمير المسلمين، أدم الله نصره، حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف، والحقنى من النعماء سريلها وأصحبى أنيالها، وصرف إلى من عده وبدل ما أولاني نعمه، ووايلي كرمه، حفظت تلك الحمرة، وشكت لاستدامة من تلك النعمه، وأخذت في الاجتهد في الجهاد عاليا بسبه، أخذتها بمذهب، وهيئات من ماهل عندي جيشه الموضوع بيدى وأجيت داعي الله بأعظم نية على أكرمة طية لعزمه بيمناه رأسها، وعلى تقوى آسساها وأصلها.

وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان الم معظم بجيش تضم صواحله، وتظم كواهله، راباهه خافته، وعزماته صادقة وتيتاه على السنة السعد ناطقة. ومرنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين، على جهات سمعت مندانا، وتبعت هادينا، وانقضت وراءنا أعدا وأمدا، وبرزوا من كمون، وتتحرك عن سكون، وانخنا بثغر بيسامة وقد تواجه الجميع، وملي البصر
والسمع، وأخذت في الرأي أخمره، والعزم أضرمه، والذيل أشمره، وجدت الاستخارية لله تعالى والاستجابة له، وابتذلت إليه داعيًا ضاربًا، ووالت في جميع أموره على حكمه خاضعًا متواضعًا، ولحقنا بتراب بلاد العدو أعداءه الله، فوطناها من هنالك، وقد كان عنوان الأغية، والتراويح بينان الرتبة، وسرنا بجيش ينفض فيهم، على أرض تغذى غبى، وسبيل الخيل إغراق، وربطة البواط إشراق، وقد نطق بفسحة السنة الأعمة بقدام قدام، وأشرق كوكسب الآخرة في غمام القماح، وسدت الهمات كل نهج وسبيل، واستثنيت الرياح عن قبائل فقيب، وأفضت بنا الخير إلى المدينة الحصينة «أقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر، ذات العدد العبد، والسرو المنتب، قدمر السابق وشف اللااحق، وغدو يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال، فردنا بها دور الحلقة بنقطها، واكتشفناها اكتشاف السحية بسيطتها، ودبت القم وتتبع البحر عن العوام، وحاروا وحاصوا، حين راموا، وجننا بكل ضرب من الحرب، تخف علائها ونفحها بها، ونذلها بالرماح، ونهزها هز الغنصن في أبدى الرياح حتى فض الخمام وعض منهم الإبهام، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقصر، ونفح في صورهم، ودارت دائرة السوء بدارهم، ومحققتهم السيف مفتح الربا، وأذرتهم ريح النصر فصاروا حيا، وحثوا بطح زرع الخصيد، وstütوا بسط كلب الوصيد، وأخذتهم فجأتنا أخذه، وندت بهم مبتورة نذبة، فخروا إلى الأذقان، وناقوا إلى الموت والإعدام، فما كدننا ننزل حتى كدننا ذلك المنزل، وما أنختنا حتى رضخنا، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه، فردنا ما أردنا.

ولما استحرف فيم القتيل، واجت منهم الأصل، ضاقت بهم المزدحم، وغص ذلك الملتحم، قصر الوقت المبغث، وشغل الأخير عن الفلت، وألهى الكثير عن من قل، ونام الجم الغفيرة من الفل، وعاد بقاياهم بقصبة المدينة فولوها كما يلخ العصفور، ويوقد العثور، قد غلقو الأبواب وأسدلوا الحجاب، ونحن نصل الجد وعنور لأخل غرب، ولا ملة حرب، تجسج الجرائم، وتحتز الغلاموم، ونحرب الديار وبنيانها، ونهدم البيع وصلبانها، ونتصفحوا بهدايا، ونتكشف عن بقايا
الخلايا ونصرحوا ببيانًا صدعته الخوف وغلبت السيوف، فالأطلاله هدم وعلي
رسومه ردم حتى علا على الشرك الإيمان، وبدل الناقوس بالاذان، وفرحه
باذنها عن موضوعها وطرحت النواقيس عن بعها، ولا أذكر من هنالك من
المسلمين عاثين لنا مستسلمين لنا، فناشدنا بالملة وحرمتها، وكشفنا لنا عن الجلة
وسدتها، وفرنا من الحملة إلى الحملة، فأويا شاردهم، وأويا قاعدهم، فانجبت
كرهتهم، وعادت بعد البواير ومجاوي الكفار بشر دار ملتهم، وآثار لهم الإسلام
على منازل الإيمان المجد، وامتحن فيهم التوحيد أشتهار الحسام المجرد، وكشف
الذين عن مضمره، وخطب الحق المبين على منبره، وأويا بقية يوما على ذلك
إلى أن خام النهار، وحان من الشمس الأصفر، فعند ذلك أرتحنا البواير،
وجعلنا تلك الدماء الهوامري، وغا الخمسين الخمسين، مبينًا على ذلك التأسيس،
يجير آذال الظفر في العدد الآثور، يشفع الأولوي بالتوالي، ويشرى العوايلى
العوالي، فأصبحنا في عز وانس، وأصبحوا لا يرى إلا ماساكم كانوا لم يعنوا
بالناس، وتشتهر تلك العصبة إلى تلك القصبة والقوم في السجن والحرس،
والحسن كالواحد في العالم والإصبع في الحوات، والمحصور مأمور، وصاحب
الحائط مقهور، ولم نزل نوسعهم قنال، ونوعسهم ضر، ونكالا مسافة اليوم إلى أن
جزر النهار مدة ويت الليل جنده، فبعدنا إلى محطة وق أمل الكال أيه، وغليت
الساهر عينه، وكنتم لم آل احتراسا للمحلة بطلائع عنز جهاته وتدل آفاقها،
وفي القاد ما يسبق القدر ويسكن اختذار لكن كماية الله خير من توقين وله
الطاغية زاده الله ذلًا، قد حشد أقطاره وحشد أنصاره، وابعد في الاستصراح
مضماره، وعيًا جدًا قد أسرى إلى ذمر، وانتهى على غمر فأقدم وصمم، ويش
ما تفتم، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أوقذوهم وشيهم ورعي
فرسانهم ورسالة رفيعًا، وصاحب شوكتهم البارسان، والقطم بقيادة وقواد
بلاد طلطلية، وصاحب قلعة النسور وقلعة عبد السلام، وكل قاسم قاس ودان
وعاوج ووان، أخذ الله جميعهم وطل نجيهم ولا أقام صريعهم.
وأهذا دعاء لو سكت كفيته! أتاني سالت الله ربي وقد فعل

286
وطردوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة، وظهروا صلباً تحت الغرة، وتقدموا فتندموا، ودخوا فيه، ودخلوا فصولوا، وأرسل الله تعالى من جنده فتى كان قد سوته صغيراً، قاتلوه أسرأ الله تعالى فيه خبأ أعداً من عنده وعلوه من جنده، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم من بني دال عليهم، وكشف بهم على النبا العظيم، وطمعاً منهم على المقد المقيم، وقعد ذلك ثارت ندارت ودارت على مرز التوفيق دائرتنا، وقام القاعد وأشار البنان والساعد، وتضامن القريب والمتباعد، والليل قد هدأ والصباح قد بدأ، والدياجير لمدودة السرادق مجموعة الفيالق ولا جار إلا الغائم ولا مار إلا السما والطارق، وكنت قد استتفرت القائدين الموردين ذوي النصيحة والآراء الصحيحة أبا عبدالله محمد ابن عائشة، وأبا محمد عبدالله ابن فاطمة ولي أعزمهم الله فجالا في مضمار وساع واضطلاع، بزع وذراع، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين وخشعنا إلى حكمه مستسلمين، فعند ذلك حل بده المجتبى، وقيل يا خليل الله اركي، فعادت الآراء بالرابيات وحكمت النهى في النهايات، والآسة تجرم في أمادها والتصول تصول في أعمادها، وثورة كما ثار الشهم بفرصته وطار السهم لفوضته، وأمرت رجاء بلزوم المحلة، فندوا فرج أبواها، ولاذوا بأرثادها وأسبابها، فدروا بها دور السوار وانظموا أنظار الأسور، قد شرعوا الأمسنة من أطرافها، وأجالوا البوار في أكشافها وأضاقتها الأفقية، وقاروا بين الأخبية عبانا الجيش يمناه ويسراه، وصدرو لهما وساقتة واولاه، وهضمنا بجملتنا من محلى والنصر يبلغ إلينا سلامه، وتوجهنا إلى الله نتفى سبيله ونبيغب دله فيما رفع الفجر من مجابه، ولا كشر الصبح عن ناهي حتى ارتفعت ألوية الذين سامية الأعلام، واتسعت أفقية المسلمين ماضية الأحجام، وقبيض الليل خمسه، وفضح الصبح نفسه ولسن السنامع ولشبان العراق رعيان، ولاعناق الأعلام ضراب أو طعان، وعند ذلك تجم العجم في سواح الليل، وأرباد السيل يهبطون إلى داعيهم، ويهرعون إلى ناعيهم، في دروع كالبوازى ورماح كالصوارى، كانوا شجروا باللديد وسجروا في الحدي، يحرون والحين يعمهم فيركبون، والحتف يرحلهم يتلمظون تلمظ الحيات، قد تحلموا مألاً يتخالفوا، وتابعوا أن يتشابعوا.

287
وصلوا إلى مقدمتنا، وكان هناك القائد أبو عبدالله محمد بن أبي زرئيغة مع جماعة؛ فصدموه العدو بصدور غرة وقلوب أشرة، فانحروا بكل كل ورموا بجندل، وشددوا فما ردوا، وصدروا فما صدروا، وتقهقر القائد أبو عبدالله غير مول، وتراجع غير مخل إلى أن اشتد منا بهود وزحم من جيشنا بعود، فتراءى الجماعة وتداني العسكر وأمسكنا ولا جين، ووقفنا والآثة يمن، فعند ذلك ثار التنصر فصد يمناه وانان الصبر فأشرقت محياء، ونزلت السكينة وأخلصت القلوب المستكينة، واحتزت الفيالق ماتحة، وهدلت الشقائق هائجة، وحجزت العيون غضبًا، وطلبت البواير سبيًا، وأذن الحديد بالبلاد، ويربت السيف من الأغماد، وتصاهلت الخيل، وتصالنت القبول، فعند ذلك توقف القول كوقعتة العبر، بين الورد والصدور، فبرز فارس من العرب، فطعن فارسًا منهم قاذرًا من مركب ورماه بين يدي موكبه، فانهجه ما ارتج وافتح المهم، وأفصص العجوم، فعند ذلك اختلطت الخيل بل سال السيل وأظلم الليل، واعتنت الفرسان وانزقت الخرصان، ودجى ليل الستة، ووضقت مجال الجيش اللهم، واختلط الخسان بال الأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تعر بكالها، وشارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بإبلاتها، فغثر الصدر أبو إبراح وجمع القلوب اتهادات، فما وضح النهار ولا سمح الغبار، حتى خصعت منهم الرقاب، وقبلت رؤوسهم التراب، وانصل الهلك بالشرك، وعادت الضالة إلى الملك وقلم ظاهر الكبر، وطالت إيمان الإيمان، وفر الصليب سلبيًا، وعجم عود الإسلام فكان طبيًا، وغمروا الحيض فهموا وأطافهم الخين فخمدوا، وراما جلهم بل كلهم، وما تجا إلا أقلهم، وحناها فبناها، وقيل كانوا وكشفت الهمبات، وانقلت تلك الهبات، عن رسومن جسوم قد قطفتها البواير ووطنتها الحواي، خاضعت الحديد، عائرة الجدود، وأخذت ساقتها في الطلب وضم السحب إلى السحب، وملت الأيدي بين واصل الكيل، خيلاً وبغالاً وسلاحاً ومالاً، ودروئًا، أكنهم حملها، وأثقلهم جملها، فساءت مليسا وصارت محببًا، فطرحوها كأنهم منحوها، وألقواها كانهم أضعوها، احتزناها نهًا، وأخذتناها كان لم تكن غصبًا، لفظة ولا نكر، وعظة وغيرةهم شكر، ثم أمرت بجمع الرؤوس، فاحتزت الدانية ورهد في جمع الثانية، فكان
مبلغاً نيفًا على ثلاثة آلاف منهم غيرسية أرذفونش، والقومط وقواد بلطية وآكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم، فكانت كالهضب الجسيم، بل البدو العظيم، وأذن عليهم الزوينون، يوحنون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله، ووهب لنا فتح الله شكرنا مسول النعم ومسديها ومعيد المنز ومهديها، وصدرت غائبة، وأثبت سالماً وبقي القائدان محاصرين لقصين أطيش آخرين مضخنهم، مستوليين على مقطمهم.

فخطبت أمير المسلمين أدام الله سروره، ووصل حبره، علمًا بال أمر، مهنياً بالنصر، لنسحم الله عز وجل على ما وهر ونشكره على ما سننا وسبي، والله يتكفل بالمزيد ويشفي القديم بالجديد، ويمن بالظفر والتأييد، فهو ولى الامتنان، والمليي الفضل والإحسان، لا رب غيره ولا معيد سواء.
رسالة
كتبت بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعداؤها الله

(منقول عن المخطوط 488 الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكنري بالوحة 105)

من متنزمي طاعة سلطانه، ومستنجديه على أعداء الله، ثابت بن عبد الله، وجماعة سرقسطة من الجمل فيها من عباد الله. أطالب الله بقاء الأمير الأجل، الرفع الرقاب والمحل، خمر الإسلام يمنعه، ومن كرب عظيم على المسلمين، يزيده عنه ويدفعه. كتبنا أبدك الله بتقواه، ووفقك لاشترا دار حسناء، بمجاهدة عهدا، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان عن حال قد عظم بلاوها وادهمت ضراوها فحنن في كرب عظيم وجهد أليم، قد حل العزاء والخطب، وأطلنا الهلاك والطيب، فيا غوثائه، ثم يا غوثائه إلى الله، دوعه من دعاء، وأمله لدفع الضرر ورجاء، سبحانه المرجو عند الشدائ، الجميل الكرم والمعاون، يا الله، وبالإسلام، لقد انتهكت حماه، وفضت عرائه، وبلغ المأمول من بينهه عهدا، ويا حسرة على حضرة قد أشتفت على شفا الهلاك، طالت عمرت بالإيمان وأزدهت بإقامة الصلاوات وتلاوة القرآن، ترجع مراعات للصلبان، ومشاهد ذكيمة لعبدة الأوثان، ويا ويلاه على مسجد جامعها الكرم، وقد كان مأوى بسلاوة القرآن معظم، تطوي الكفرة الفساق بذراع أقدامها ويلملون أن يفسحو بقيق آثامها، ويعمرو بعبادتها وأسمامها ويتخذون معتانا للنزيرها، ومواطن أиныها، ومواسيرها، ثم يا حسرته على نسمة مكونات عذارى يعدن في أوثاق الأsarى.
 وعلى رجال أضحوا حياءً بل هم سكارى، وما هم بسكارى ولكن الكرب الذي
دههم شديد والضر الذي وسعهم عظيم جهيد، من حذرهم على بنيات قد كنا من
الستر نشيا بوجه، أن يروا فيهن السوء والمروه، وقد كنا لا يبون للنظر،
فالآن حان أن يرسوا إلى الكفار، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشأوا في حجور
الأيمان، يصيرون في عبيد الأوثان، أهل الكفر وأصحاب الشيطان، فما ظنك أيها
الأمير من بلوذته بعد الله الجمهور، بامة هى وقابله هذه العظام الفادحة، والثنائب
الكالحة، هو المطالب بدماغها، إذا أسلمها في آخر زمانها، وتركتها أعراضًا
لأعدائها، حين أحصب عن نقابها، فإن الله بك المشتكي، ثم إلى رسله
المصطفى، ثم إلى ولي عهد أمير المسلمين المرضى، حين ابتعدت بالاجتاز، وأمدد
الباجم الغفرين من أعداءه، ناديًا للكى إلى مقاومة العدو المحاصر لها وجهاده، والذى
عن أولاته المعتصم بهدخل طاعته، والمحتلمن البيعة الأشهر الشبايد الهائلة في
جب موالاته ومشابيعه، من أمة قد نهكهم ألم الجوع، وبلغ المدى بهم من الضر
الوجييع، قد برح بهم الخصائر، وقعدت عن نصرتهم الأنصار، فترى الأطفال بل
الرجال جوعًا يجرون، يلزمون برحمته الله ويستغفرون ويتمنون ما يقدمهم بل
باضروا حتى كنتك قد أحزنتها فيها ولا تكلمهم، وما كان إلا أن وصلت
وصول الله يرك بتيقواء، على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمل منك بحول الله
أسباب النصرة بتلك العساكر التي أثر العيون بها وسر النفوذ زهاءها،
فسرعان ما انشيت وما انتهيت وارعوت وما ادته خايفًا عن اللقاء ناكصمًا على
عقبك من الأعداء، فما أوليتما غناء بل زدتنا بلاء، وعلى الداء داء، بل أدواء،
وتأثبتنا بنا الحق جهداً والتواء، بل أذلت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضحية
الدين والدين، في الله ويا للإسلام، لقد اهتمح حرمه وحماه أشد الاهتمام، إذ
أحجمت أنصاره عن إعزازه فقبض الإحجام، ونكست عن لقاء عدوه وهو في فئة
قليلة، وله زدية، وطابية كلية، يستنصر بالصبر، والأنسان، وتأتى تستنصر
بشعار الإسلام وكلمة الله هي العليا وبدعة الطولى، وكلمة الذين كفروا السقلي،
وإن من وهن الإمام، وأشد الضعف الفرار عن الضعف فكيف عن أقل من
النصف، فيا قبح من رضي بالصغير وسماء خطة الخسف، فما هذا الجبن والفزع
وما هذا الهلع والجزع بل ما هذا الغار والضيغ، أخسِرون يا معشر المرابطين وإخوائنا في ذات الله المؤمنين، إن سبق على سرقتهم القدر، بما يتوقع منه المكره والخذر، أنكم تبلعون بعداً يقيناً وتجدون في ساير بلاد الأندلس عصمها الله مسلكاً من النجاة أو طريقاً، كلاً والله ليس ومنكم الكفار عنها جلاء وفراً، وليخرجكم منها داراً فداراً، فسرعنوا حرسة الله هي السد الذي إن فتق فتق بعده أسدان، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيح له أقطار وبلاد، فالآن أيها الأمير الاعظم هذه أبواب الجنة قد فتحت، وأعلان الفتح قد طلعت، فالنبلاء ولا الدنيا، والفار ولا العار، فاين النفوس الأبية وأين الأنفة والجميلة، وأين الهمم المرابطية، لتتقدح عن زنادها باختفاء حدها وامتداد جدها واجتهدتها، وملاقاة أعداء الله وجهادها، فإن حرب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولن حامي عن دينه أن يؤدبه ويهزره، فما هذا أيها الأمير الاعظم، أنا ترغب في رضوانه، واشترى جانبه، بمقارعة حرب شيطانه، والدفاع عن أهل إيمانه، فاستعن بالله على عدوه وحربه، واعمد بصبرته في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحبيبه، فإنهما أغراض للمنايا والمحتوف، ونهر للمرح والمسوور، ولا ترض بخطة الغار، وسواء الذكر والصبر في جميع الأضرار، ولا تكون من قبل فيه:

يجمع الجيش ذا الألف ويزن في العدو فتيبلاً ولن يسعكن عند الله، ولا عند مؤمن، عذر في التأخر والإزعاء، عن منازحة الكفار والأعداء. وكتاباً هذا أيها الأمير الاعظم اعتذار تقوم لنا به الحاجة في جميع البلاد، وعند ساير العباد، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإخوان، وإنمن مؤمنون، بل موقفن إجانك إلى نصرتنا، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا، وأناك لا تتأخر عن تلبية نداً، ودعاه إلى استنفادنا من أيدى أعداننا، فدعناك عليها هو في ذات الله، وعن كلمته، ومحاماة عن الإسلام وحبيبه، فذلك الفطر الأبل لك في الأخرى وال الدنيا، ومورث لك عند الله المنزلة العليا، فكم تمنى من أمم، وتجلى من كروب وغمم، وإن تكون منك الأخرى وهي الأبعد عن مكانة دينك وصحة يبينك، فأقبل بهسرك على محمرة من سرقتهم عصمها الله ليخرج الجميع عنها، وبيراً إلى العدو وقلمه الله منها ولا تتأخر كنما كان طرفة عين، فاللزم أضيق

392
والحلف أهلك، فقد بنا عن المثل والتمويق قبل وقوف الكروه والمخوف وإلا فأتتم المطلوبون عند الله بدمائنا وأموالنا، والمستولون عن صبيتنا وأطفالنا، لإحجامكم عن أعدائنا وتباطركم عن إجابة نداًنا وهذه الحال تعيدك أيها الأمير عنها، فإنه تحمل من العار ما لم تحمل أحدًا، وثورتك وجميع المرابطين الخزى أبداً، والله اتقوه وأيدوا دينه ونصروه، فقد تعين عليكم جهد الكفار والذب عن الحرم والديار، قال الله: يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفر وليجدوا فيكم غلظة، الآية، ومنهما تأخرتم عن نصرتنا فالله ولي الثار لنا منكم، ورب الانتقام، وقد بر يتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام، وعند الله لنا لطف خفٍ، ومن رحمته ينزل الصنع الخطى، ورغبنا الله عنكم، وهو الحميد الغني. ومن متحمل كتبتنا هذا، وهم ثقاتنا تقف من كنه حاننا على ما لم يتضمنه الخطاب، ولا استوعبه الأطناب، بمنه وله أنم الطول في الإصغاء إليهم واختضاء ما لديهم، إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
رسالة
الخليفة أبي عكحب يوسف
إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس يبنينهم فيها باهتمامه بأمر
الأندلس والعمل على نصرتها ومجاهدة أعدائها ويطمئنهم على
تنفيذ هذا العزم بما بعثه من عسكر موحد تحت إمرة الشيخ أبي
حفص تمهيداً لأجر الموحدين إليها. من إنشاء «أبي الحسن بن
عياش» مؤرخة في ربيع الآخر سنة 514 هـ.

(منقلة عن كتاب المن بالإمام مخطوطة أُكسُفرد لوحات 140، 122)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم.
والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده
بعونته إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس أدر ألم الله توفيقهم وكرامتهم.
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فإننا نسأل إياكم الله الذي لا
إله إلا هو نشكره على آبائه ونعمته، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله،
ونسأل الرضا عن الإمام المصور، المهدي العلماء، القائم بأمر الله تعالى، والداعي
إلى سبيله، ونؤلي الدعوة لصاحبه وخليقته الإمام أمير المؤمنين مصلى أمره العزيز
إلى غابة جمعهم وتميمي. وإن كتبنا إليكم وصل الله توفيقكم وكرمكم بقواه
من حضرة مراكش حرسها الله، والذين نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل
بطاعته والاستعانة به والتوكيل عليه. وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر
وضمن له من التأييد وتكلفه من السمكاء، وزاد من تبسطه وامتيازه علواه
واتصال مصمته وخلوته إلى كافة الأرجاء وتعلغمه في كافة الأجزاء لإكمال دينه
واتمام نوره، وثبت دعوتكم وتصديقهم ووعده، لا تزال مواردهن الخالصة لصوره، المبقية
لآخريه الشواط لأركانه المكينة لقواعده، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة،
المعنى المعين على سريانه، المزعجة لتشريعه وجريانه، مما يؤذن له بإنجازه موعوداته، وتشعيم مضموناته، حتى يستوى على مداه الذي لا غاية بعده ويقف على منتهائه الذي لا مطلع وراءه يقبّل أطمانت بمقدرات الغلبة القلب، وقررت على ظهور براهينه الفواع، وعضدته الآيات البيضاء ونطقت به الأثر المفسحة وناقصد شد أحواله من ألقى السمع وهو شهيد.

وما زلت وفسقتم الله على أتم العبادة تبلك الجزيرة مهذها الله، والحرص على غوثها والاتنواز لنصرتها والعمل على قصد ذلك بحماية المشاهدة إشفاقًا على ما استسلم منها جهيرتها الأعداء وأبداؤها الأغفاء، جميعاً ورحا وكدوها به من التلف والتحنيف والتثبيض، وفقر الأفواه وكسر الربص والإرصاد ليغيب ما فض فيها من نور الوحيز وخفى ما نصب من أعلام هذا الأمر والناسبية للمتحاشين إليه المتعلقين بأسبابهم المستذمن بذمته، من صح ولاو، وسقت طاعته وخلص على السبك ونصح على السبر، وجعل لها من الفكر حظًا يستحق الصدق على ما سواء من الأفكار وتأخذ السبق على غيره من معانيات الأمور، ونراه من الأم بعد الأغني الأولي قيامًا بحق الله في جهاد أعدادها ومكتابها منواها، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره وتدارها على مشاهده وإدانتها به ولم يرع سماعًا دعوة الحق إلى ملاة الحاففين وقَرْع صوتها مسامع الثقفين، وتمتلك أساب التفرغ لذلك والتوسع فيه والنظر في أحكامه، ويعترض من أهل هذه الغارب شواعب يشيروها الجبال ويتغبها النعقة الضلال، فلا يسمع أعمالها ولا يسمع الإضراب عنها قيامًا بحق الدين وتوقياً من استنافها الشارب وتوقيد أساب الفتنة فيتصرف إليها من الإرتداء والقصد لحمملها وإبراء أدواتها ما يقنع غياباتها ويطهر أذانها ويفضي إلى المقصود الأول من التفرع للجزيرة مهذها الله والتوطيد لأمرها دوماً. الاشتعال بهذا الغربر يبلط بأرحابه، ويشتغل على جوانبه، ويتخلل زوايا ويُنتَجِر أواعره وسهوله حتى صف الله مشاربه، وخلاص من الشوائب، ووقف بأهل الانتزاء من أصناف مشغوليه على تأوي ذات بقليبه، وندم على ما فرط من ذنها، وعلى شقق تمادي في غلاله، ولج في مضره فولي كل ما استحق، وسهم خطة ما رضى، وجاء الاتباع مهد الأمثال، وسواء كنز الإحسان.
وحققت على العاصى كلمة العذاب، وأخذت النبأ والصبرورة إلى سوء المآل، وشر prune, وما يرك بظلم للعبيد، وما تولى هذه الجهات منه التمهد وписыва لها نعمة التنمية والتطور، انعطف النظر إلى محال مشاره وسحل سبيل الاعتقاد إلى قراره، وتوجه حلف الاشتغال إلى الجزيرة مهديها الله، وتفرعت دواعي الاستعداد لنصرتها ووجهاد عدوها، ورأينا في أثناء ما تحاوله من مروع هذه الغزوة المتممة المباشرة، أن نقم بين أيدينا عسكرا مباركا من المتحدين أعيانهم الله صحبة الشيخ الأجل أبي حفص الأشعث الله، يكون تقدمه لجواز جمهور المتحدين، مؤيدا بما عزمنا عليه، والله المستعان، من المتحرك لحمل أهل التوحيد، والقصد لهذا الغزو المهمة، الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر، فشتكناون مع إخوانكم الواربون على بركة الله إليهكم، على جهاد أعدائكم، إلى أن يوقيكم إن شاء الله هذا العزم، وقبل بك هذ الصقد، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها، المرامة أغراضها، التي اعتقدت بها النية، واحتدمت لها في ذات الله الحمحلة، واستعانت بتوأمية الله في تأصال أصولها الفكره الموجهة للروحية، وإذا أن تورج من المبلغ لأعمال القلب، المفضل بإدراك كل مطلوب، أن يهب فيها من العون ما يستم مبادأه، ويكلل منشأها، وتشى به صدور أولائه، بالنعمه في أعدائهم، وإن فضله تعالى ليسمح ببلاغ هذه الأمينة والإطلال منها على كل شرف ونثبة، فما ذلك على الله بعزيز، وإذا طالتم وفقكم الله هذه الأنباء، واستعملتم ما في ضمنها من البشائر، وعنوانات الفتوح، وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على السفقة بما وعد الله هذا الأمر، والتلفت إلى ما عودة رآيهمها نعمه تقولكم، ورحمة احتكتم وأنتمكم، وشرحت لصودركم، وعمدت بها أحماكم، وشغلتكم بها مشاهدكم، وسررت بها غاتكم وشاهدكم، وأذعموها إذاعة تتبغ بها صدور الأولياء، وتخبر منها صدور الأعداء، ويومن للمؤمنين منها مطلع أمل، وللكافر مطلع هول ووجل، عرفكم الله شكر النعمة بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلغكم الغاية الجميلة منها بهبه وئمة، وإذا وصلكم هذا الكتاب، فأشبعوا قراءة على من حضركم من أصناف الناس، وإرسالا نسخه إلى من نأتي عنه، حتى يجد أثر الاستبشر به، وترقب مبودع الغاي والشاهد، والماضي والناصئ إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مابية.
رسالة

الخليضة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصاش الرابع ينوه في بدءها في بدء نظرية التثليث، ويشير فيها إلى ما ورد من كتب البابا إلى الخلافة الموحدية. ويرجوع أن يكون اختيار الحبر المكلف بالنظر في شئون النصارى بالمغرب من ذوي العقل الراجح، والأخلاق الحميدة، والنزاهة الواضرة. مؤرخة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة 148هـ.

(وتشفظ الرسالة المذكورة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية برومة برقم 1.8 1802) - وثيقة الوحدة من نوعها وعصرها، التي تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله وحده من عبد الله عمر أمير المؤمنين ابن سيدها الأمير أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره، وأصدقهم معونته، إلى مطلع ملوك البابوية ومعظم عظماء الأمة الرومية، وقيم الملة المسيحية ووارث رياثتها الدينية، البابا إبن سانس أس، أثناء الله تعالى بضيرته بتوفيقه وإرشاده، وجعل الشقيق إلى أمر عز وجل بها عدتها لمحيصة ومعاده، وأتلاه من سباق الهداية ما يفضي لذي الغابة، فأتم انفساحه وامتداده، نهيه كريمة تراجع بها ما تقدم تحياتكم الباردة علينا، وترجع لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا.

أما بعد فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، حمد من علم أنه الرب الواحد، الذي دلت على وحدانيته البشريين القاطعة والشهود، ونهره العقول الراجحة عن أن يكون له وليد، أي يدعي أنه الوالد، تعالى الملك الرحمن مما يقول المثل والمشبه

397
والجاحد، ونصلح على سيدها محمد رسول الله المصطفى الكريم، الذي وضحته به للاجذاب والامام، ومعتزبة، وخُرقت له بظهور المعجزات الباهتة على يديه العوائد.

ونصر بالربع فافتقى له بل الاستسلام كل من كل ينادي ويعاند، وعلى الله وصحبة الكرام الذين ازدادت بهم المحاضرة والشاهد، ووصلت صوارفهم في مواقف الحروب السواعد، وأنتج تهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأراضي ومغاربها الموارد، ونسال الله عز وجل رضاء عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم، الذي جذبه لدن الله تعالى الشياطين المصاعد، وأهلته بهديته بعد أطرافها المعاهد، وباء بالحلفاء المخلوق للامام الرشيد فالردع، وعليهم لامرأة المراقي والصاعد، وعن سيدها الحليمة أبي إبراهيم بن سيدها الحليمة أمير المؤمنين بن سيدها الحليمة أمير المؤمنين الذي طالت منهعناصر والمحاتد، واشتقت من نسبه للخلافة من أورق نضارة وغضاوة فتائها المائدة، وزهد في الدنيا الفانية، ورغب في الأخرى الباقية، فنعم الراغب الراشد.

وبعد، كتبنا كتاب الله تعالى لنا حظوظًا من رضاه، تزكى وتوزف، واستعينا بإياكم بكل ما تهيأ به إحرار الفوز لدينه وتمييزه من حضرة مراكش حرسه الله تعالى، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده، والتوحيد حال بالزهر جيد، ومقلده، والمعنى معمل في إبتناء من الله تعالى موفقه ومسمده، والحمد الله رب العالمين حمدًا يتوالي على الأئمة تكره وترده، ونتدعى به من مزيد النعمة أفضل ما وعد به تعالى من يحمده ويشكره، وإلى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسعادكم وجعل في طاعته التي تعدده بها خلقه إصداركم وإيهادكم، فإنه سبقتنا إلا إلهم مراجعات من كتب المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجراح عنها ما تعمنا به برككم ووفيتنا، وعرفناكم أن نوجب منصبيكم الذي أبد في ملككم على المناصب وأقر لرتبكم فيه أهل دينكم، بالشوف على سائر مالهم من المراتب، فأنتمعنا لذلك بالكرمة الخفية ملحوظون، وبالعناية الجميلة متحفظون، نؤكد من أسباب الواصلة لكم ما حقه أن يؤكد، ونجد من عهود الحفاء بكما ما شأوه أن يجد، ونذكر لكم ما توارى علينا من حسن إيثاركم لنا، وتردد.
وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشب الذي كان قد وصل بكتابكم إليها، انصرفوا لم يعدوا منا فيه وبركغرام ولم يغيب فيه اعتناء به واهتمامهم، كأنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعدهم أتتاهما بالإحسان والإنعام، وتحمل كتابنا إليكم تعريفنا بما اختار من انصرفوا، وتوجيه فيما آثرهم من ذلك لإسعافهم، وما قصر له في حالى مقامه ورحيله، ولا عدل به عن حفي البر وحفظه، وثني الم وجزاه، ذهاباً لكنيم إخباركم السابقة في حقه، وسلوكهم به من البر على أوضح طرقه، والله تعالى يرشد في كل الأحوال لاذكي الأعمال لديه، وينجده من الأكراب والأعمال، على ما يقرب إليه بمهته، ومنى سمح لكم أسعدهم الله تعالى بتقواه أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين بلاد الموحدين أعظمهم الله من تزونه ببرسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتقد قوانينهم فتخبرهم من أهل العقل الراجح والسنت الحسن، ومن ينسل في النزاهة على واضح السنن، ومن ينتمي في الخدمة بالذهب المستمجر، والقصد المستحسن، وذلك الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعًا لصفات المذكورة، وتجليًا بالخلال المشكورة، حسن في كل ما يستخدم، وتسنيه له بذلك أجزله الخبر وأوفره، واتتم تقون بهذا المقصود في ما تعملون من اختياركم متي ظهر لكم التوجه بهذه الرسم لأحد، وتعتمدون فيه أجمل معتمد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمثيق الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضراب، ويتبادرون إلى بذله من المكارم المنتسا، لما لكم في نحلتهم من إشاعة المناصب، مما تكافئ به صدق مصادقكم، ونتوخي في ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لكم بأمثاله، واعتئان بما يقضي لولأنكم بدءوا واتصاله، بعول الله تعالى وقوته، وهو سبحانه يسيرنا لبني الحسن، والزيادة من فضلهم، ويأخذ ما في ديننا ودينا على أقوم سبله، ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيق، في أول روع من حزب الحق وأهله، بمهه وكرهم لا ريب سواء، وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة.
ثبت المصادر والمراجع
أولاً: مصادر مخطوطة ومصورة

الخساسي: لاجين بن عبدالله الذهبي الخساسي الطراحي، (738 هـ - 1397 هـ).

1- تحفة المجاهدين في العمل بالأيدين، مصور بالجامعة العربية في (902).{

الخساسي: الحسن بن عبدالله بن محمد - بدأ تأليف كتابه سنة 708 هـ.

2- آثار الأول في تدبير الدول. مخطوط بالمتحف العربي بالقلعة برقام (383).

3- نظم التعبئة. مصور بالجامعة العربية في (946).

4- مختصر في سياسة الحرب، مصور بالجامعة العربية في (844).

5- نظم التعبئة. مصور بالجامعة العربية في (946).

ثانياً: مصادر قديمة

ابن الأثير: على بن أحمد ت (1232 م - 1280 ه).

6- كتاب الكامل في التاريخ. القاهرة 1357 هـ - الأهلية 1303 هـ.

ابن الآبار: أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاوي، ت (1260).

7- الخـلة السيراء. تحقيق الدكتور حسن مؤنس - القاهرة 1963 م - وطبعة دوزي 1851 م.
الإجراءات: الشريف محمد بن عبد العزيز ت (548هـ - 1154م).

8- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. القاهرة ط 1911م.

9- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. وهو مأخوذ من "نزهة المشتاق". نشر هنري بريس. الرابط 1936م، طبعة دوبي.

البكر: أبو عبد عبادة بن عبد العزيز ت (874هـ - 901م).

10- المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب. نشر ديساس. وهو مأخوذ من كتاب المسالك والملالك 1857م.

البيدق: أبو بكر بن علي الصنهاجي. القرن السادس الهجري.

11- أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين: تحقيق ليفي بروفانسال- باريس 1948م.

ابن بلكين: عبد الله بن بلكين آخر ملوك بنى زيري بغناطة.

12- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيري بغناطة المسماة بكتاب التبيان. نشر ليفي بروفانسال النسخة الوحيدة المحفوظة بجامع القرويين بفاس. دار الكتب المصرية.

ابن سام: أبو الحسن على الشترني. ت (542هـ - 1441م).

13- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القاهرة 1358هـ - وطبعة بيروت 1978م. تحقيق الدكتور إحسان عباس.

البخاري: الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت 256هـ.

14- صحيح البخاري. شرح القطانلي طبعة بولاقي 1304هـ - 1986م.

النحاس: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد. القرن الثاني الهجري.

ابن جبير: أبو الحسن محمد ت (614 هـ - 1217 م).

16- رحلة ابن جبير تحقيق الدكتور حسن نصار القاهرة 1955 م.
الجراري: عبد الله بن العباس الجراري الرباطي.
17- الغاية من رفع الراية. طبعة أولى 1372 هـ - 1953 م.
الحسن: الحسن بن عبدالله بن محمد.
18- آثار الأول في تدبير الدول. مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي 1295 هـ.
الحميري: أبو عبدالله بن عبدالله بن عبدالله المنيم. ت أواخر القرن التاسع.
19- كتاب الروض الممطر. (صفة جزيرة الأندلس) تحقيق ليفي بروفيسال
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1937 م.
ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد على ت (456 هـ - 1061 م).
20- الفصل في المل والآهواء والنحل. القاهرة 1317 هـ - 1321 م.
ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي ت (852 هـ - 1448 م).
21- فتح الباري بشرح البخاري طبعة بولاوق 1315 هـ.
ابن حمديس: محمد بن عبدالله بن حمديس الأزردي الصقلي ت (447 هـ - 1050 م).
22- ديوان ابن حمديس.
ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المحيطي ت (606 هـ - 1406 م).
23- المقدمة - بولاوق طبعة المهدي (1348 هـ - 1930 م).
24- العصر وديوان المبتدأ والحصير - طبعة دار الكتب المصرية 1936 م - وبولاوق 1284 هـ.
ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٨٠٠-١٢٨٧).

٢٥- وفيات الأعيان وأنباء الزمان. تحقیق محمد محتی الدين عبدالخ建设用地. مطبعة السعاده - نشر مكتبة النهضة المصرية طبعة أولي ١٣٧٧م- ١٩٥٦م - وطبعة بولاق ١٣٨٩م.

ابن الخطيب: الوزير محمد لسان الدين ت (٧٧۶-١٣٥٤).

٢٦- الإحاطة في أخبار غرناطة تحقیق عنان، رقم (١٧) من سلسلة ذخائر العرب، وطبعة القاهرة ١٩٤٤م، ١٩٤٦م.

٢٧- تاریخ إسبانيا الإسلامية أو أعمال الإعلام في من يوبيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام تحقیق أليه بروفسال. بيروت ١٩٥٦م.

٢٨- تاریخ المغرب العربي في العصر الوسيط. وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام تحقیق الدكتور أحمد مختار العبادي، والسيد محمد إبراهيم الكاتب، نشر دار الكتاب بالدار البيضاء عام ١٩٦٤م.

الدیاب: عبد الرحمان بن (٧٦٦-١٢٩٦م) المعروف بأبي زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري.

٢٩- معالم الإمام في معرفة أهل الفيروان. أربعة أجزاء - تونس ١٣٢٠م - القاهرة ١٩٢٨م.

ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الفقيه الإمام ت (٧٠۰-١٢٥٨).

٣٠- كتاب المقدمات المهداة لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتصحیبات المحكمات الشرعیات لأهمیات مسائلها المشکلات، ومعروفة بـ "المقدمات ابن رشد" مطبعة السعاده.

٣١- بداية المجتهد ونهاية المقتصد - طبعة شركة المطبوعات العربية.

ابن أبي زرع الفخاري: الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله (٧٢٦-١٣٧٦م).
الزركشي

ابن عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي ت (القرن الحادي عشر الهجري).

32- الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

الرياط 1936 م أواسألة سنة 1863 م. تحقيق ونشر كارل تورنبرج، ط

1993.

33- تاريخ الدولتين الموحدة والخضيرة - تونس 1289 هـ.

ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي ت(845هـ - 1266م).

34- المقصود. ط المطبعة الأميرية 1316 هـ.

الشريف الرضي: محمد بن الحسن بن موسى ت (484هـ).

35- نهج البلاغة. شرح محمد عبده ط الحلي. 

ابن صاحب الصلاة: عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم

الباجي.

36- المثنى بإمامة علي المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين - نشر

دار الأندلس بروط ط أولى 1383 هـ - 1964 م تحقيق عبدالهادي التازر.

الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد ت (996 هـ - 1587م).

37- بغية المنتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (المكتبة الأندلسية) مجريط

1884.

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير المعروف بالطبري ت (310).

38- تاريخ الأمام والملوك ط الطبعة الحسينية 1326 هـ.

الطرطوش: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري ت (520هـ).

39- سراج الملوك القاهرة 1289 هـ.

ابن عذرى: أبو عبد الله محمد المراكشي (توفي في القرن السابع الهجري).

407
البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلسي والمغرب. النص الثالث تحقيق إمبروس ميسراينة، مع محمد بن تاونت، ومحمد إبراهيم الشناوي، طبعة تطوان 1960، والنشر بعناية معهد مولاي الحسن بتطوان.

أبو عبدون النحبي: أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون ت. 1126 هـ - 520 هـ.

تولى القضاء للمرابطين.

رسالة أبو عبدون في الحسبة المنشورة بعناية الاستاذ ليفي بروفانس على المعهد الفرنسي بالقاهرة.

الفيروز أبادي: الشيخ محمد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيبازى ت. 816 هـ - 1352 هـ.

قاموس المحيط في أجزاء أجزاء ت. 1352 هـ - 1353 هـ.

أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكير بن القاسم الجوهرية ت. 751 هـ.

الروسية - ط دار الكتب المصرية 1941.

الفلسفة: أبو القاسم أحمد بن علي بن أحمد بن الجمال ت. 211 هـ.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا - ط دار الكتب 1928، القاهرة 1922.

أبو الطه: علي بن محمد بن عبدالملك بن يحيى ت. 1368 - 1360 هـ.

نظم الجمان: تحقيق محمود على مكي. المطبعة المهدية بتطوان ونشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس. ط أولى.

الكندي: الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندى ت. 252 هـ.

السيف وأجناسها. رسالة أخرجها القائم مقام عبد الرحمن زكي - ط جامعة القاهرة 1952 م.

أبو الكرديوس: أبو مروان عبدالملك الوزري (من علماء القرن السادس الهجري).

428
47- الاكتفاء في أخبار الخلفاء (تاريخ الأندلس) تحقّق: أحمد مختار العبادي
مدريد (1971م).
المؤرخ: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت (٤٥٠ هـ).

48- الأحكام السلطانية ط مصر (1298 هـ).
المقرئ الفلكي: أحمد بن محمد التلموشي ت (٤١٠ هـ - ١٣٣٣ م)。
49- نفح الطب من غصن الأندلس الرطيب. القاهرة (١٣٠٢ هـ). وطبعة صادرة
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
المراجع: محيى الدين أبو محمد عبدالواحد بن علي ت (٦٦٩ هـ).
50- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقّق محمد سعيد العريان القاهرة -
طبعة أولى ١٣٦٨ - ١٩٤٩ هـ، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ. 
ابن تومرت: المهدي بن محمد بن عبد الله بن تومرت ت (٥٢٤ - ١٢٢٩ م).
51- أبو الحسن منصور بن محمد منصور بن عبد الله بن د Yankee (٥٠ - ١١٢ ن). 
52- موطأ الإمام المهدى ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م. مطبعة لوسبياني الجزائر.
المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله. ت (٣٨٧ - ٩٩٧ م).
53- أخبار التقاسيم في معرفة الأقاليم. القاهرة ١٩٠٠.
المالكي: ابن أبي عبد الله: أبو بكر عبد الله المالكي ت (٤٥٣ - ١٠٦١ م).
54- رياض النفس. نشره الدكتور / حسين مؤسس. القاهرة ١٩٥١.
النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري ت (٧٣٣ - ١٣٧٢ هـ).
55- نهاية الأدب في فنون الأدب. طبعة دار الكتاب ١٣٤٥ - ١٩٢٦ م.
الناصرى: أبو العباس أحمد بن خالد ت (١٣١٥ - ١٨٩ م)
56- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقّق جعفر الناصرى ومحمد
الناصرى. الدار البيضاء ١٩٥٤ م، القاهرة ١٣٠٦ هـ.

٤٠٩
ابن هزيل: علي بن عبدالرحمن بن هزيل الأندلسي

57- حلية الفرسان وشمار الشجعان. تحقيق محمد عبدالغنى حسن - الكتاب السادس من ذخائر العرب. دار المعارف.

أبو يوسف: الإمام المجتهد يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ت (182 هـ)

58- الخماد - ط مصر 1302 هـ.

مؤلف مجهول:

59- الخليل الموسي، في ذكر الأخبار المراجعية، نشر علوش. رياض الفتح سنة 1936، طبعة تونس 1943.

مؤلف مجهول:

60- الاستيصال في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الخميد، مطبعة جامعة الإسكندرية المطبوعة رقم 10 كلية الآداب.

ثالثا: المراجع الحديثة

أ- مراجع عربية:

أحمد شوقي (الضابط)

61- فن القيادة ط مصر 1948

جورج زياد: الأستاذ المؤرخ

62- تاريخ التمدن الإسلامي ط الهلال 1900-1906 م.

جمال الدين عياض (الضابط)

63- نظم الحرب في الإسلام - ط الحاضر 1370 هـ

حسن: إبراهيم حسن (الدكتور)

64- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - القاهرة (1957م)

65- النظم الإسلامية - القاهرة 1962 م.
حسن الباشا

- 26- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية - ط 1966م.
حسن أحمد محمود (الدكتور)

حبيلة: على حسن محمود (الدكتور)

- 28- مع المسلمين في الأندلس، ط مكتبة الشباب - القاهرة 1972م.
حسن علي حسن (الدكتور)

- 29- الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس الهجري، رسالة للدكتوراة - كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

الخضري: الشيخ محمد الخضري، أستاذ التاريخ الإسلامي.

- 30- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ج1 - 1370هـ.

- 31- تاريخ الدولة العباسية ط أولى 1334هـ - 1916م.
صالح: السيد عبدالعزيز سالم (الدكتور)

- 32- المغرب الكبير، العصر الإسلامي، القاهرة 1968م.
شكيب أرسلان

- 33- الخلل السندين في الأخبار والأثار السندينية - ط أولى 1936م.

- 34- تاريخ غزوات العرب بيروت 1966م.
عبدالوهف عون

- 35- الفني الخريفي في صدر الإسلام.
عبد الرحمن زكي (الدكتور القائم مقام "العقيد" مدير مكتبة الجيش سابقا)

- 36- السلاح في الإسلام - ط الجمعية التاريخية، دار المعارف، مصري.

- 37- الألوية وشارات الملك.
79 - الجيش والأناشيد - دار الكتب المصرية.

80 - شكل الحرب - دار الكتب المصرية

العدوى: إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور)

81 - القوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، نشر مكتبة مصر.

العبادي: أحمد مختار

82 - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس - ط أولى 1986 مطبعة المصري.

عنان: محمد عبد الله

83 - عصر المرابطين والموجودين في المغرب والأندلس القسم الأول والثاني.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ 1373 - 1954 م.

84 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المماليك. القاهرة 1960 م.

85 - الآثار الأندلسية الباقية - القاهرة 1961 م.

عبادة: عبدالفتاح

86 - سفن الأسطول الإسلامي 1913 م.

العبادي: الأستاذ/ عبد الحميد ت (1376 هـ - 1956 م).

87 - ابن عذاري (1290- 1350 م) أبو عبد الله محمد.

88 - البيان المغربي - بيروت (1950 م).

ابن عبد الله: الأستاذ عبدالعزيز

89 - مظاهر الحضارة المغربية. الدار البيضاء 1957 م.

علام: عبد الله علي

90 - الدعوة الموحدة بالمغرب. القاهرة 1964 م.
محمد جمال الدين محفوظ (اللواء)

91- المدخل إلى العقيدة والإستراتيجية العسكرية الإسلامية. الهيئة المصرية
للكتاب 1976م.

محمود شيت خطاب: اللواء ركن

محمد فرج (العقيد)

93- المدرسة العسكرية الإسلامية - دار الفكر العربي.

94- فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية - دار الفكر العربي

مصطفى زيد: الأستاذ المدرس بكلية دار العلوم
95- تفسير سورة الأنفال - ط 1953م.

محمود شلتوت: (شيخ الأزهر السابق)
96- القرآن والفتان - ج 1 دار الكتاب العربي 1951م.

مراجع عقيلة الغانى: الدكتور بكلية الآداب جامعة بنغازي.
97- سقوط دولة الموحدين. منشورات جامعة بنغازي - ط أولى 1395هـ - 1975م.

المراقب: محمد عثمان
98- الجامعة اليوسفية الرباط 1937م.

محمد عبدالله شعيرة: أستاذ التاريخ الإسلامي سابقا بجامعة عين شمس
99- المرابطون، تاريخهم السياسي - ط أولى - مكتبة القاهرة الحديثة.

 مؤسس: حسين (الدكتور)

100- نصوص سياسية عن الانسلاخ بين المرابطين والموحدين - مجلة المعهد
المصري للدراسات الإسلامية بمدريد مجلد 3 (1955) رقم: 359.
1- تطور العمارة الإسلامية في الأندلس، مقال، حوليات، كلية الآداب
جامعة إبراهيم باشا الكبير، المجلد الأول 1951م.
 نعمان شايب: (الضابط العراقي رئيس الركن)
2- السنديان في الدولة العباسية - ط بغداد 1358هـ - 1939م.
 وهبة السليمي
3- آثار الحرب في الفقه الإسلامي - دار الفكر بيروت - الطبعة الثانية.
 ب- مراجع معارفة:
 الجنرال أندريه دوفر
4- مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية - ترجمة أكرم ديري
5- الردع والاستراتيجية - ترجمة أكرم ديري
 بروفنسال: المستشرق ليفى
6- الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة الدكتور/ السيد عبدالعزيز سالم
 والأستاذ محمد صالح الدين حلمي، القاهرة 1958م.
7- الحضارة العربية في إسبانيا - ترجمة طاهر مكي - طبعة أولى 1979م
8- مجموعة رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنة ربط الفتح -
 المطبعة الاقتصادية 1941م.
9- رسالة ابن عدون في الحسبة - طبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة.
 جورج كستلاني
10- تاريخ الجيوش. تعريب كمال دسوقي. النهضة المصرية 1956م.
 جوستاف لوبون: الدكتور المؤرخ المستشرق
11- حضارة العرب - ط الخليل 1945م تعريب زعيم.
 دوزي: ريتشارت
112- تاريخ مسلمي إسبانيا دار الكتب المصرية.
113 - معجم مفصل في أسماء الألية عند العرب - دار الكتب المصرية.
114 - ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام - ط أولى 1933 - 1351
ترجمة كامل كيلاني،
فلب حتى
115 - تاريخ العرب. تعريب الأستاذ نافع ط ثانية 1949 م.
ميرندا: أبيرس ي أوشي
116 - التاريخ السياسي لدولة الموحدين. نشره الأستاذان محمد بن تابت
وإبراهيم الكباتي - تطور 1951 م.
ميجور جنرال دك باليت
117 - أصول المعيرة العسكرية. ترجمة الجمل.
118 - فورمان بينز. الإمبراطورية البيزنطية. تعريب مؤنس وزايد ط 1959 م
119 - اشباح تاريخ الأندلس في عهد الموحدين والموحدين - ترجمة عبد الله عنان
- القاهرة 1958 م.
ـ مجلات والأبحاث:
120 - مجلة المجمع العالمي العراقي. المجلد الخامس. موضوع القتال في الإسلام
- محمود شيت خطاب.
121 - المجلة المصرية للقانون الدولي العام. المجلد الخامس 1949 م. موضوع
(القانون الدولي العام والإسلامي) محمد عبد الله دراز.
122 - المجلة المصرية للقانون الدولي العام. المجلد الرابع عشر 1958 م. موضوع
(نظرية الحرب في الإسلام) محمد أبو زهرة.
123 - المجلة المصرية للقانون الدولي عام 1941 م. موضوع (تفسير الاتفاقيات
الدولية) للدكتور حامد سلطان
رابعا: المراجع الأوروبية

1- oman. Dr. Oman: A History Of Art of War In The Middle Ages.

2- F. Codera: Decadencia Y Disparacion De LOS Almoravides En Espana (Zaragoza 1899)


4- M. Lafuente: Historia GenaRal De Eapan


6- Goidziher: Le Iivre De Mahamed Ibn Toumert (Alger. 1903) Introduction

7- Terrasse (Henri):
   - Histoire Du Maroc (Casablanca 1994)
   - L'art Hispana. Mauresque, Paris 1932
محتويات الكتاب
ملكتلاحات خلعيه
محتويات الكتاب

الموضوع
المقدمة

أولاً: أهمية الموضوع ودواعي اختياره

ثانيًا: منهج البحث

ثالثًا: دراسة المصادر والمراجع

مدخل تاريخي (1-28)

أولاً: المرابطون ومنهجهم الإصلاحي وحركة التغيير - رباط ابن باسین محضن

الدعوة -

- إدارة الرباط

- عبد الله بن باسین داعية المرابطين

- طريقة القبول بالرباط

- أصول دعوة المرابطين

- حقيقة دعوة المرابطين

- أسلوب حياة الرباط

- تأملات في تعاليم ابن باسین

- أسباب التغيير عند المرابطين

- سمات حركة التغيير عند المرابطين

- وسائل حركة التغيير

ثانيًا: الموحدون ومنهجهم الإصلاحي وحركة التغيير

- من هم الموحدون؟

- نسب ابن تومرت

- التكوين العقدي والفكري لابن تومرت

- صفات المهدي ابن تومرت

- ابن تومرت والدعوة إلى الله في المغرب
رابطة تبنية محضن دعوة الموحدين - موقع الرابطة

- الدروس ونشر الدعوة
- فكرة الإمام المعصوم والمهدى المنتظر
- المبايعة وتكون الحكومة الموحدية
- سمات منهج دعوة الموحدين
- مصادر دعوة الموحدين
- تكفير ابن تومرت للمرابطين ومعاداته لهم
- رأي الإمام ابن تيمية في منهج الموحدين
- الموحدون يبطلون المهدية ويغلون عصمة الإمام ابن تومرت
- مآخذ على منهج ابن تومرت الإصلاحي

الباب الأول

نشأة الجيوش في دولتي المرابطين والموحدين (20 - 74)

الفصل الأول: نشأة الجيوش المرابطية وتطورها

- المرحلة الأولى: التأسيس والتكوين
- المرحلة الثانية: مرحلة التمكين لقيام دولة المرابطين
ولتاً: من حيث الأوضاع السياسية والدستورية
ثانيًا: من حيث الأوضاع العسكرية
- المرحلة الثالثة: دولة المرابطين الكبرى في (المغرب والأندلس)

الفصل الثاني: نشأة جيوش الموحدين وتطورها

- المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس والتكوين
- المرحلة الثانية: التمكين لدولة الموحدين
- المرحلة الثالثة: دولة الموحدين الكبرى في (المغرب والأندلس)
الفصل الثالث: شروط التجنيد ونظامه في الدولتين
أولاً: شروط التجنيد
الباب الثاني
تشكيكات الجيوش وتنظيماتها وشأنها الإدارية
(27-3)
الفصل الأول: صفوف الجيش وتشكيلاته
أولاً: صنوف الجيش المرابطين
1. فرقة السودان
2. فرقة جند الصقلب من النصارى
3. فرقة الأندلس
4. فرقة الإبلية
5. فرقة الفرسان
6. فرقة المشاة من الرماة وغيرهم
ثانيًا: صنوف الجيوش الموحدة
1. الحرس الخلفي
2. الجند الصقلب
3. الجند العربي
4. الجند الغز
5. الجند الأندلسي
6. الجند المرابطون
الفصل الثاني: النظام الدائم لكتائب الجيوش
أولاً: تشكيكات جيوش المرابطين
ثانيًا: تشكيكات جيوش الموحدين
الأشخاء الكبير
الأشخاء الصغير
421
الفصل الثالث: الألبسة والألوية والرايات
الأول: زي الجنود
الاهتمام بنظافة الجنود وصحتهم
الثاني: اللواء والراية وشارات السلطان
الثالث: الموسيقى
رابع: استعراض الجنود والتدريبات
خامس: الحرس الخاص
الفصل الرابع: الشؤون الإدارية في جيوش الدولتين
الأول: الاعتيات
الثاني: الإطعام
الثالث: الإسكان
النظام الإداري في الجيوش "الدواوين".
الأول: جيش المرابطين
الثاني: جيش الموحدين

الباب الثالث
أسلحة القتال في الجيشين (50-138)
<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>المحتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>166</td>
<td>السيف</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>الخنجر</td>
</tr>
<tr>
<td>166</td>
<td>الدبوس</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>الفأس أو (البلطة)</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>الأطاس</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>الأمداس</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>السياط</td>
</tr>
</tbody>
</table>

ثانيًا: أسلحة قتال ثقيلة

<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>المحتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>168</td>
<td>آلات الحصار</td>
</tr>
<tr>
<td>169</td>
<td>المنجنيق والمرارة</td>
</tr>
<tr>
<td>171</td>
<td>الرمي بالنار اليونانية (البارود)</td>
</tr>
<tr>
<td>172</td>
<td>الدبابات والضخور</td>
</tr>
<tr>
<td>173</td>
<td>رأس الكبش وسلم الحصار</td>
</tr>
</tbody>
</table>

الفصل الثاني: أسلحة القتال الدفاعية

<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>المحتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>174</td>
<td>أولًا: وسائل الدفاع الخفيفة</td>
</tr>
<tr>
<td>175</td>
<td>1. الدروع وملحقاتها</td>
</tr>
<tr>
<td>176</td>
<td>2. الترس</td>
</tr>
<tr>
<td>177</td>
<td>ثانيًا: وسائل الدفاع الثانية</td>
</tr>
<tr>
<td>178</td>
<td>كلمة عامة</td>
</tr>
<tr>
<td>179</td>
<td>1. حفر الخندق</td>
</tr>
<tr>
<td>180</td>
<td>2. الحسم الشائك</td>
</tr>
<tr>
<td>181</td>
<td>3. القلاع والخصوم والأسور</td>
</tr>
<tr>
<td>182</td>
<td>حصن المهدي بن نومرت بتينمل</td>
</tr>
<tr>
<td>183</td>
<td>التخصيصات والنظم الدفاعية في المدن الأندلسية</td>
</tr>
<tr>
<td>184</td>
<td>الأبراج والأسور الأمامية</td>
</tr>
</tbody>
</table>

423
<table>
<thead>
<tr>
<th>الباب/الرقم</th>
<th>الفصل/الشريان</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>191</td>
<td>الأبراج</td>
</tr>
<tr>
<td>191</td>
<td>البرج البراني</td>
</tr>
<tr>
<td>192</td>
<td>السور الأمامي</td>
</tr>
<tr>
<td>193</td>
<td>الأبواب ذات الراقب</td>
</tr>
<tr>
<td>195</td>
<td>4- نظام الثغور والرابطات</td>
</tr>
<tr>
<td>197</td>
<td>ظروف الجبهة بالأندلس</td>
</tr>
<tr>
<td>199</td>
<td>سقوط سرقسطة</td>
</tr>
<tr>
<td>202</td>
<td>حركات المرابطة في الثغور المغربية</td>
</tr>
<tr>
<td>204</td>
<td>رابط ابن ياسين (داعية المرابطين)</td>
</tr>
</tbody>
</table>

الباب الرابع

نظام التعبئة في جيوش الدولتين (1406-1431)

الفصل الأول: التدابير التحضيرية للقتال الهجومي

تمهيد

1. حشد القوى
2. المسير إلى القتال
3. مراكز القيادة العامة ونقاط التجمع
4. فن تحريك القوات وتجهيزها
5. صيانة الأسرار العسكرية
6. بث العيون وأعمال التجسس
7. الرسالة قبل الحرب

الفصل الثاني: المعركة الهجومية وسير القتال

1. مجلس الحرب
2. دور الطلائع
3. اختيار موقع المعركة
4. أنظمة التعبئة
الفصل الأول: نشأة البحرية في دولة المرابطين

الباب الخامس: الأساطيل البحرية لدوليتي المرابطين والموحدين (194 - 200)

الفصل الأول: نشأة البحرية في دولة المرابطين

الباب الخامس: الأساطيل البحرية لدوليتي المرابطين والموحدين (194 - 200)
الباب السادس
دراسة مقارنة لبعض المعارك (2007 - 2008)

أولاً: من معارك المرابطين "معركة الزلاقة"

الموقف العام

1. موقف المسلمين في الأندلس
2. موقف النصارى في إسبانيا
3. ظروف الجبهة الإسلامية في المغرب العربي
4. الأزمات السياسية في المعسكرين
5. أهداف الطرفين

أولاً: هدف المسلمين

ثانيًا: هدف النصارى

الإعداد للمعركة الكبرى "الفتح التعبوي"

1. القوات المتميزة
2. مقارنة القوات
3. حشد القوى
أولاً: حشد المسلمين
ثانيًا: حشد النصارى

- خطة المعركة

أولاً: خطة المسلمين
ثانيًا: خطة النصارى

تحليل خطة المعركة

- الرسالة قبل الحرب

سير القتال "الفن التكتيكي للمعركة"

مرحلة سير الاقتراب
 المرحلة الافتتاحية
 المرحلة القتال المتلاحمة
 المرحلة الحسم
 المرحلة المطاردة
 الدروس المستفادة

ثانيًا: من معارك المحايدين "معركة الأرك"

الموقف العام في الأندلس

- الموقف على الجهة الإسلامية
- الموقف على الجهة النصرانية
 الزعامات السياسية في المعسكرين
 في معسكر المسلمين
 في معسكر النصارى
 أهداف الطرفين

المسلمون
 النصارى

الاستعداد للمعركة "الفتح العبوي"
1- القوات المتصادمة
2- مقارنة القوات
3- حشد القوى
أولاً: حشد المسلمين
ثانيًا: حشد النصارى
4- خطة المعركة
أولاً: خطة المسلمين
ثانيًا: خطة النصارى
5- تحليل الخطتين
سیر القتال "الفن التكتيكي للمعركة"
6- مرحلة السير والاقتراح
ب- المرحلة الافتتاحية
7- مرحلة القتال المتلامح
د- مرحلة الحسم
ه- مرحلة المطاردة واستثمار النصر
8- النتائج والدروس المستفادة
أولاً: على الصعيد السياسي
ثانيًا: على الصعيد العسكري
ثالثًا: المقارنة بين المعركتين
9- رابعة: مناقشة آراء المستشرقين حول دولة المرابطين
خامسًا: خصائص العسكرية الإسلامية لدولتي المرابطين والموحدين
10- خاتمة البحث
الملاحق والوثائق
1- قائمة بأسماء أمراء دولة المرابطين ملحق رقم (1)
2- قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين ملحق رقم (2)
وثيقة مرابطية رقم (1)
وثيقة مرابطية رقم (2)
وثيقة مرابطية رقم (3)
وثيقة مرابطية رقم (4)
وثيقة مرابطية رقم (5)

ثبت/المصادرون/المراجع

(281 - 291)

أولاً: مصادر مخطوطة ومصورة
ثانياً: مصادر قديمة
ثالثاً: المراجع الحديثة

أ- مراجع عربية
ب- مراجع مغربية
ج- المجلات والأبحاث

رابعاً: المراجع الأوروبية
محتويات الكتاب
السيرة الذاتية
يرصد حقيقة تاريخية شاملة دولتي المرابطين والموحدين في المغرب (54 هـ - 1062 م) إلى (668 هـ - 1270 م).

قام فيها المؤلف الكريم بدراسة متأنية لأوضاع الجيش في الدولتين، وما يلزمها من دراسة للأوضاع العسكرية، والتطورات الحربية، وكذلك العقيدة العسكرية، والتعامل مع الشعوب غير المسلمة المغلوبة، بالرفق والتسامح.

وقد احتوى الكتاب على مقدمة، ومدخل تاريخي، وستة أبواب، وخاتمة كالتالي:

الباب الأول: نشأة الجيوش.
الباب الثاني: تشكيلات الجيش وتكتيكاتها وفروعها الإدارية.
الباب الثالث: أسلحة القتال.
الباب الرابع: نظام التعبئة في جيوش الدولتين.
الباب الخامس: الأساطير البحرية.
الباب السادس: دراسة مقارنة لبعض المعارك.

وقد وثق المؤلف كتابه بعده كبير من المراجع المتخصصة لمن أراد الاستفادة.

وсал الله أن ينفع به أبناء أمة الإسلام.
وجزه الهادي، والموفق إلى صراطه المستقيم.

دار التوزيع والنشر الإسلامية
٢٠١٤ بورسعيد ت ٢٠٠٠٥٥ فاكس: ٣٩٣١٤٩٨
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com